نفحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

الجزء الثاني

الحكومة الإسلامية

تحت إشراف آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

بمساعدة لجنة من الفضلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات القرآن:اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

كاتب:

ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

موسسه ابى صالح النشر و الثقافه

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفحات القرآن المجلد ۱۰ ----- ۱۵
اشارة ----- ۱۵
العلاقة بین الإمامة والحکومة ----- ۱۵
ضرورة إقامة الحکومة فی المجتمع البشری ----- ۱۷
اشارة ----- ۱۷
تمهید: ----- ۱۷
ضرورة الحکومة فی الرویات الإسلامیة: ----- ۱۹
ضرورة الحکومة فی التصور العقلی: ----- ۲۱
أهداف الحکومة الإسلامیّة ----- ۲۳
أنواع الحکومات ----- ۲۵
اشارة ----- ۲۵
۱- الحکومات الاستبدادیة ----- ۲۵
۲- الحکومة الدیمقراطیة ----- ۲۶
۳- الحکومة الإلهیّة ----- ۲۶
دراسة ونقد لأنواع الحکومات ----- ۲۸
اشارة ----- ۲۸
الحکومة تنصیب أم انتخاب: ----- ۳۰
حقیقة الحکومة الإسلامیة ----- ۳۱
اشارة ----- ۳۲
الولایة الخبریة والإنشائیة؟! ----- ۳۳
الحکومة والوکالة: ----- ۳۴
العلاقة بین الدین والحکومة من وجهة نظر القرآن الکریم ----- ۳۵

اشارة ----- ۳۵
فریقان لا یروق لهما تشکیل الحکومة الإسلامیة: ----- ۳۹
اشارة ----- ۳۹
الطّائفة الأولی ----- ۳۹
والطائفة الثانیة: ----- ۴۰
والطائفة الثّالثة: ----- ۴۰
نقد وتحلیل: ----- ۴۱
أرکان الحکومة الإسلامیة ----- ۴۵
اشارة ----- ۴۵
المقدّمة: ----- ۴۵
الرکن الأول: السلطة التشریعیة ----- ۴۶
تمهید: ----- ۴۶
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۴۷
هل یمتلک الرسول صلی الله علیه و آله والمعصومون حق التشریع؟ ----- ۵۱
مجلس الشوری وانتخاب النوّاب ----- ۵۶
اشارة ----- ۵۶
أهمیّة وضرورة المشورة: ----- ۵۶
أهمیّة الشوری فی الأحادیث الإسلامیة: ----- ۵۷
صفات المستشارین: ----- ۵۸
کیفیة انطباق مجالس الشوری مع موازین المشورة الإسلامیة ----- ۶۰
اشارة ----- ۶۰
المسؤولیة الرئیسیة لمجلس التشریع الإسلامی: ----- ۶۲
الرکن الثانی: السلطة التنفیذیة ----- ۶۳
اشارة ----- ۶۳

النظام التنفیذی للحکومة الإسلامیة فی عصر النبی الأکرم صلی الله علیه و آله: ۶۵
صفات وشروط المسؤولین التنفیذیین: ۶۵
شروط القائمین علی الحکومة فی الأحادیث الإسلامیة: ۶۶
اشارة ۶۶
۱- العلم والوعی فی أعلی مستویاتهما ۶۷
۲- سعة الصدر وانفتاح الفکر والاستعداد لتحمل الحوادث المختلفة ۶۷
۳- الوعی بمسائل الزمان ۶۷
۴- مراعاة العدالة وعدم التفریق بین الناس ۶۷
۵- الاهتمام بمکافأة المحسنین والعفو عن المذنبین الذین یؤمل بتوبتهم وعودتهم عن ذنوبهم ۶۷
۶- النظر لمصالح الناس ومصالحه بعین المساواة! ۶۸
۷- الارتباط العاطفی مع الناس ۶۸
۸- الابتعاد عن البخل، والجهل، والجفاء والظلم ۶۸
۹- عدم المصانعة والتعاطی مع أهل الباطل ۶۸
۱۰- النظر بعین الامانة لمقامه ومنصبه ۶۸
هیکلیة السلطة التنفیذیة ۷۰
اشارة ۷۰
النظام التنفیذی فی عالم الوجود: ۷۱
النظام التنفیذی فی عصر النبی صلی الله علیه و آله: ۷۲
کیفیة انتخاب رئیس السلطة التنفیذیة والمسؤولین الآخرین: ۷۳
الثقافة الحاکمة علی الحکومة الإسلامیة ۷۵
اشارة ۷۵
۱- رعایة الاصول الأخلاقیة فی حرب مع الأعداء ۷۷
۲- الآداب الإسلامیة فی جمع الضرائب ۷۸
۳- الإقتصاد فی کلّ شیء ۷۹

۴- المعیار الفضیلة ولیس العمر ---- ۷۹
۵- الرأفة الإسلامیة ---- ۸۰
۶- الإعتماد علی الشعب ---- ۸۰
۷- الإتصال المستمر بالعلماء ---- ۸۰
۸- الثقافة الحاکمة علی الجهاز القضائی ---- ۸۱
۹- الإرتباط المباشر مع الناس ---- ۸۱
۱۰- الإهتمام بالمحرومین ---- ۸۱
النّتیجة: ---- ۸۲
کیفیّة انتخاب رئیس الجهاز التنفیذی ---- ۸۲
الرکن الثالث: السلطة القضائیة ---- ۸۴
تمهید: ---- ۸۴
من یکون له حق الفصل والقضاء؟ ---- ۸۵
تمهید: ---- ۸۵
صفات القاضی ---- ۸۷
اشارة ---- ۸۷
الشرائط الکمالیة: ---- ۸۹
القرآن وصفات القاضی: ---- ۸۹
النتیجة: ---- ۹۰
آداب القضاء فی الإسلام: ---- ۹۱
فی وظائف القاضی وهی سبع: ---- ۹۲
تفاوت کیفیة القضاء فی الإسلام عن المدارس المادّیة: ---- ۹۲
الحدود والتعزیرات فی الإسلام ---- ۹۴
اشارة ---- ۹۴
۱- فلسفة الحدود والتعزیرات فی الإسلام ---- ۹۴

۲- معنی الحدِّ والتعزیر ----- ۹۵
۳- تعداد الحدود الإسلامیة ----- ۹۶
اشارة ----- ۹۶
۱- حدُّ الزنا ----- ۹۶
۲- حدُّ السرقة ----- ۹۶
۳- حدَّ القذف ----- ۹۶
۴- حدُّ المحارب ----- ۹۷
۵- حدُّ المرتد ----- ۹۷
اشارة ----- ۹۷
لماذا کلُّ هذه الصرامة فی المرتدّ؟ ----- ۹۸
۶- حدّ شرب الخمر ----- ۹۹
۷- حدُّ اللواط ----- ۱۰۰
۸- حدّ المساحقة ----- ۱۰۰
۹- حدّ القیادة ----- ۱۰۰
۱۰- حدّ الساحر ----- ۱۰۰
وتوضیح ذلک: ----- ۱۰۱
عدّة نکات مهمّة فی التعزیرات الإسلامیة: ----- ۱۰۲
۱- وحدة القرار ----- ۱۰۲
۲- عدم اقتصار التعزیر علی الجلد ----- ۱۰۲
۳- معنی تخییر الحاکم فی التعزیرات ----- ۱۰۳
۴- التعزیرات فی القرآن الکریم ----- ۱۰۴
اشارة ----- ۱۰۴
أ) قصة المتخلفین عن غزوة تبوک ----- ۱۰۴
ب) قصة ثعلبة ----- ۱۰۴

ج) آیة الایذاء ----- ۱۰۵
د) آیة النشوز ----- ۱۰۶
أحکام السجن فی الإسلام ----- ۱۰۷
تمهید: ----- ۱۰۷
اشارة ----- ۱۰۷
۱- تأریخ السجن ----- ۱۰۸
اشارة ----- ۱۰۸
أولُ سجن أُسّس زمن عمر بن الخطاب: ----- ۱۰۹
السجن فی زمن أمیر المؤمنین علی علیه السلام: ----- ۱۰۹
۲- فلسفة وأقسام السجون ----- ۱۱۰
اشارة ----- ۱۱۰
۱- السجن الایذائی ----- ۱۱۱
۲- السجن الإصلاحی ----- ۱۱۱
۳- السجن الاحتیاطی ----- ۱۱۱
۴- السجن التأدیبی ----- ۱۱۱
۵- السجن السیاسی ----- ۱۱۱
۶- السجن الاستحقاقی ----- ۱۱۱
۷- سجن الحفظ ----- ۱۱۲
اشارة ----- ۱۱۲
۱- السجن الانتقامی ----- ۱۱۲
۲- السجون المعدة لقمع التحرر ----- ۱۱۲
۳- السجن لعزل القیادة عن القاعدة ----- ۱۱۲
۴- السجن لرفع المضایقات ----- ۱۱۲
۵- السجن بسبب النزاهة ----- ۱۱۳

۳- السجن من وجهة نظر القرآن الکریم ۱۱۳
۴- موارد السجن فی الروایات الإسلامیة ۱۱۴
اشارة ۱۱۴
۱- فی مورد الإعانة علی القتل ۱۱۴
۲- الأمر بالقتل ۱۱۴
۳- فی مورد تکرر السرقة ۱۱۵
۴- فی مورد المرتدة الفطریة: ۱۱۵
۵- التعامل الإنسانی مع المساجین ۱۱۵
۶- الطرح التّاریخی لأبی یوسف لحمایة السّجناء ۱۱۸
الحسبة والأمر بالمعروف والنّهی عن المنکر ۱۱۹
تمهید: ۱۱۹
جمع الآیات و تفسیرها ۱۲۱
خطوة مهمة فی طریق إجراء الأحکام: ۱۲۱
الأمر بالمعروف والنّهی عن المنکر فی الروایات: ۱۲۴
وهنا ینبغی الإلتفات إلی عدّة نکات ضروریة: ۱۲۴
جهاز الحسبة والمحتسب فی الحکومة الإسلامیّة: ۱۲۷
توضیح ذلک: ۱۲۷
الرّکن الرّابع: التربیة والتعلیم ۱۳۰
تمهید: ۱۳۰
اشارة ۱۳۰
۱- التّربیة والتّعلیم فی الإسلام ۱۳۱
۲- أهمیّة العلم لا تنحصر بالعلوم الدینیّة ۱۳۵
۳- تعلّم العلوم المفیدة فی الرّوایات الإسلامیّة ۱۳۷
۴- مقام المُعَلِّم فی الإسلام ۱۴۰

۵- التّعليم المباشر وغير المباشر ----- ۱۴۲
۶- صلاة الجمعة وآثارها التّربويّة ----- ۱۴۳
۷- الآثار الثّقافيّة لمؤتمر الحجّ العظيم ----- ۱۴۴
۸- تأثير المساجد والأماكن المقدّسة ----- ۱۴۵
دور الصحف والمجلات فی الحکومة الإسلامیة ----- ۱۴۷
تمهید: ----- ۱۴۷
جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۴۷
توضیحات ----- ۱۴۹
۱- أهمیّة الکتاب والقلم فی الرّوایات ----- ۱۴۹
۲- وصایا مهمة للحکومات الإسلامیة ----- ۱۵۰
۳- تأسیس المکتبات ----- ۱۵۱
الرکن الخامس: الدفاع (القوات المسلحة) ----- ۱۵۳
تمهید: ----- ۱۵۳
جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۵۵
روح الجهاد، دفاعٌ لاغزو: ----- ۱۵۵
توضیحان ----- ۱۶۰
۱- الجیوش المنظمة والتعبئة الجماهیریّة ----- ۱۶۰
۲- السّبق والرّمایة ----- ۱۶۲
آداب الجهاد ----- ۱۶۳
اشارة ----- ۱۶۳
أقسام الجهاد: ----- ۱۶۴
اشارة ----- ۱۶۴
۱- الجهاد الإبتدائی ----- ۱۶۵
۲- الجهاد لإخماد نار الفتنة ----- ۱۶۵

۳- الجهاد لحمایّة المظلومین ----- ۱۶۶
الحکومة الإسلامیّة والسّلام ----- ۱۶۷
اشارة ----- ۱۶۷
جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۶۸
النَّتیجة: ----- ۱۷۱
أسری الحرب ----- ۱۷۲
تمهید: ----- ۱۷۲
جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۷۲
الأسری فی الرّوایات: ----- ۱۷۴
علاقة المسلمین بغیر المسلمین، الأقلیات الدّینیّة والحکومة الإسلامیّة ----- ۱۷۵
تمهید: ----- ۱۷۵
جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۷۶
قصّة «الجزیة»: ----- ۱۷۷
إختیار الأسلوب الأفضل فی النقاش: ----- ۱۷۹
الدّعوة إلی أصلٍ أساسی مشترک: ----- ۱۸۰
العیش المشترک مع أتباع الأدیان الاخری فی الرّوایات: ----- ۱۸۱
تعامل المسلمین مع غیر أهل الذمّة: ----- ۱۸۳
الحکومة الإسلامیة والأجهزة الأمنیة ----- ۱۸۴
تمهید: ----- ۱۸۴
توضیحات ----- ۱۸۵
۱- قصة تجسس حاطب وسارة ----- ۱۸۵
۲- قصة استخبار حُذیفة ----- ۱۸۶
۳- المنظمات الأمنیة فی الروایات الإسلامیّة ----- ۱۸۷
۴- إستراق السّمع ----- ۱۹۰

۵- التعذیب الجسدی لأخذ الإعترافات! ---------- ۱۹۱

اشارة ---------- ۱۹۱

سؤال: هل الغایة تبرر الوسیلة؟ ---------- ۱۹۲

و الجواب: ---------- ۱۹۳

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۱۹۳

نفحات القرآن المجلد ۱۰

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : نفحات القرآن اسلوب جدید فی التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم ناصر مکارم شیرازی بمساعده مجموعه من الفضلا

مشخصات نشر : موسسه ابی‌صالح النشر و الثقافه [۱۳۷۷؟].

مشخصات ظاهری : ج ۶

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : عربی مندرجات : ج ۱. العلم و المعرفه فی القران .-- ج ۲. معرفه الله فی القرآن .-- ج ۳. .-- ج ۴. معرفه صفات و جلال‌الله .-- ج ۵، ۶. المعاد فی القرآن موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ن۷ ۱۳۷۷

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م۷۷-۱۳۷۱۱

العلاقة بین الإمامة والحکومة

تحدثنا فی المجلد التاسع من نفحات القرآن عن مسألة الإمامة والولایة من وجهة نظر القرآن الکریم، وحیث إنّ مسألة (الإمامة) لا تنفصل عن مسألة (الحکومة) بل إنَّ روح الإمامة والولایة تعنی حکومة النفوس والأبدان، وهدایتها إلی الصراط المستقیم والتحرّک نحو الکمال والسعادة، لذا وجب علینا بحث مسألة (الحکومة الإسلامیة) بعد الانتهاء من بحث مسألة (الإمامة) والقیام بتحلیلها وتفصیلها، حیث لم یکتمل موضوع الإمامة والولایة بذلک القدر.

ألم نَعُدّ اقامة حکومة العدل الواحدة فی العالم احدی أهم الأهداف فی قیام المهدی (عج)؟ ونعنی به نفس الشیء الذی کان بصدده الرسول صلی الله علیه و آله وباقی الأئمّة علیهم السلام، ولم تسنح الفرصة لا من حیث الزمان ولا المکان للوصول إلی هذا الهدف بالرغم فی وجود الأسس اللازمة لإقامتها، نعم لقد بذل الجمیع جهوداً للوصول إلی تشکیل حکومة العدل الإلهی. فکیف یمکن اذن فصل موضوع (الحکومة) عن (الإمامة)؟ بل، ولقد بدأ الرسول صلی الله علیه و آله بعد الانتصار فی الغزوات الاولی بتشکیل الحکومة الإسلامیة واعتبرها رکناً مهماً من أرکان الإسلام، بل الضامن الوحید لإجراء القوانین بأکملها، وقد کان الهمّ الوحید لأولئک الذین خلفوا الرسول صلی الله علیه و آله سواء کانت خلافتهم حقّه أم لم تکن، هو تشکیل وإدامة الحکومة الإسلامیة.

ولقد دعی سکان الکوفة الإمام الحسین علیه السلام إلی تشکیل الحکومة الحقّة ومحاربة غاصبیها، ولو لا نقض العهد من قِبل أهل الکوفة وتخاذ لهم وعدم وفائهم، لرفع الإمام علیه السلام علم الحکومة الإسلامیة عالیاً، والروایات الواردة عن طریق الأئمّة المعصومین علیهم السلام

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶

ونهج البلاغة احتوت علی تعابیر کثیرة توضّح من خلالها أنّ أعداءهم قد غصبوا حقهم علیهم السلام، وهذا الحقّ لیس إلّا (حکومة العدل الإسلامیة).

کل هذه الأدلة وتلک الشواهد التی لا تُحصی برهانٌ آخر علی أنَّ مسألة (الإمامة) لا تنفصل عن (الخلافة) و (الحکومة).

ونری فی روایة (هارون الرشید) الذی أراد بزعمه أن یُرجعَ «فدکاً» إلی الإمام موسی بن جعفر علیه السلام ملاحظة جدیرة بالاهتمام

لتوضيح المقصود:

إنّ «فـدكاً»- وكما هو معلوم- ضـيعة قريبـة من (خيبر) وكانت خضـراء يانعـة، وقد وهبها الرسول صـلى الله عليه و آله إلى ابنته الزهراء عليها السـلام فى حياته، وقد اغتصـبت منها بعد وفاته مباشـرة، فكانت دائماً موضع اعتراض المحبين لأهل البيت عليهم السـلام فلذلك وبعد ضـغط الرأى العام، فكّر الرشـيد بارجاعها إلى أولاد فاطمة عليها السلام فقال للإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «حدَّ فدكاً حتّى أردَّها إليك» وألحَّ عليَ كثيراً، فقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «لا آخذها إلّابحدودها».

قال هارون: وما حدودها؟

قال الإمام عليه السلام: «إنْ حددتها لم تردّها».

قال هارون: بحقّ جدّك إلّافعلتَ.

قال الإمام عليه السلام: «أمّا حَدُها الأوّل فعدن»، فتغيّر وجه الرّشيد. وقال: أيهاً.

قال الإمام عليه السلام: «والحدُّ الثّانى سمرقند». فأربد وجهه.

قال الإمام عليه السلام: والحدُّ الثالث أفريقية»، فاسودّ وجهه.

وقال هارون: هيه.

قال الإمام عليه السلام: «والرابع ساحل بحر الخزر وأرمينية».

قال الرّشيد: فلم يبقَ لنا شيء، فتحوّل إلى مجلسى.

قال الإمام عليه السلام: «قد أعلمتك أنّنى إن حددتها لم تردّها فعند ذلك عزم على قتلى» «۱».

هذا الحديث يدلّ على أنّ بين مسألة (فدك) و (الخلافة) رابطة قوية وتعنى أن ما غُصِبَ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴۸، ص ۱۴۴ (نقلًا عن كتاب أخبار الخلفاء).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷

كان خلافـة رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله والتى تعتبر فـدك جزءاً منها، ولو أراد هارون ارجاع فدك لكان يجب عليه أن يتخلى عن الخلافة، ممّا أشعره أنّ الإمام إذا ما وصل إلى حالة من القوّة لفعل ذلك وسيتولى الخلافة حتماً، لذا عزم على قتله «۱».

الغرض، هو أنّ المسائل ذات العلاقة ببحث الإمامة لها رابطة مع المسائل ذات العلاقة بالحكومة وقيادة المسـلمين، وهذا أمر بديهى ولا يقبـل أى شك أو شـبهة، ونرى هـذا الارتباط واضـحاً فى كل مكان ويتجلى بوضوح فى الروايات الإسـلامية وفى تاريـخ سـيرة وحياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة الأطهار عليهم السلام وفى طبيعة الأحكام الإسلامية.

ولقد اجملت مباحث الفقه الإسلامى فى ثلاثة أقسام هى: قسم «العبادات» وقسم «المعاملات»، وقسم «السياسة».

و يعتبر قسم (السـياسة) والـذى هو من الأبـواب الفقهيـة المهمّـة ويشـتمل على مسائـل عـدّة مثـل (الجهاد، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، القضاء والشـهادات، والحـدود والـديّات والقصاص) جزءاً من المسائل المتعلقـة بالحكومـة، إذن لا يمكن إجراء أقسام الجهاد وبعضـاً من مسائل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكـذلك القضاء والشـهادات وتنفيـذ الحـدود والقصاص بـدون وجود الحكومة على الاطلاق.

وترسم كـذلك المسائـل المرتبطـة بالانفال والخمس والزكاة والأراضـى الخاصـة بالخراج، الخطوط العريضـة لجزء مهم من الحكومة باعتبارها الدعامة الأساسية لإقامة بيت المال الإسلامى.

وعلى هذا فقد امتزجت المسائل السياسـية والحكومية بالفقه الإسلامى بشكل كامل بحيث لا يمكن وضعها موضع التنفيذ دون تشكيل الحكومة.

كل ذلك شاهد جلى على أنّ الإسلام ليس بمعزل عن الحكومة والسياسة، وقد نفذت المسائل المتعلّقة بالحكومة والسياسة- والتى تعنى بإدارة نظام المجتمع- فى التعاليم الإسلامية بصورة لو أردنا أن نفصل بينها لا يكون للاسلام معنىً ومفهومٌ، والذين يحاولون

---

(۱) الزهراء سيدة نساء العالمين، ص ۱۳۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸

فصلهما عن بعضهما يقومون فى الواقع (بفصل الإسلام عن الإسلام)، والإسلام بدون الإسلام تناقض واضح.

ويتبيّن لنا من خلال ذلك، السبب الذى دفع بنا إلى بحث مسائل الحكومة وزعامة المسلمين بعد انتهائنا من بحث الإمامة فى الجزء السابق.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹

ضرورة إقامة الحكومة فى المجتمع البشرى

اشارة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱

تمهيد:

بعد أن لاحظنا الصلة الوثيقة بين الإمامة والحكومة نتحول إلى مسألة مهمّة اخرى ألا وهى ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية. وكما يُبيّن لنا التاريخ، أن هناك أنواعاً معينه من الحكومات فى المجتمعات البشرية، كحكومة القبيلة، وحكومة الملوك والسلاطين، والحكومات التى هى من النوع الذى نشهده فى الوقت الحاضر، ويعنى ذلك أنّ البشر وعبر مراحله العلمية والثقافية يُدرك تماماً ضرورة وجود الحكومة، ويعلم كذلك أنَّ الحياة الاجتماعية من دون تحكيم النظام والقانون لا يمكن إيجادها ولو ليوم واحد.

ولهذا السبب يمكن ملاحظة الهرج والمرج والشغب الذى يحدث بُعَيْدَ سقوط حكومة ما، وحتى قيام حكومة اخرى حيث يبسط النظام الجديد ظلّه على الحياة، فيحترق كل شىء ويتحول إلى رُكام.

لذا فلا يمكن لأىعاقل ان يشك فى ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية، وقد وردت الكثير من الآيات والروايات الإسلامية التى تصرّح وتلمّح إلى هذا المعنى نذكر بعضها باختصار:

۱- فى قصة بنى اسرائيل نلاحظ أنّه وعلى أثر الفوضى الداخلية وغياب الحكم القوى قد أصابهم الضعف والانحطاط والهزيمة وتسلّط الأعداء عليهم، فجاءوا إلى نبىّ لهم طالبين تعيين حاكم لهم حتى يتسنى لهم السير فى طريق اللَّه تحت إمرته، يقول القرآن الكريم: «أَلَمْ تَرَ إلى المَلَإِ مِن بَنِى إِسرَائِيلَ مِن بَعدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبىٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲

نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيتُم ان كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتَالُ أَلَّاتُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَد اخرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبنَائِنَا». (البقرة/ ۲۴۶)

مع أنّ هذه الآية تشير إلى أبعاد وآثار وجود الحاكم على قوم أو شعب فى مسألة الجهاد ضد العدو الخارجى وتطهير الأرض من دنس الأجنبى وتحرير الأسرى إلّاأنّها تتعدى إلى أبعاد معانٍ اخرى حيث تصدق فيها كذلك.

والقرآن يوضح بهذا التعبير أنَّ الوصول إلى الحرية والاستقرار الاجتماعى مستحيل بدون وجود الحكومة والحكم القوى، وقد يُتصور

هنا أنّ بنى اسرائيل أرادوا قائداً للجيش فقط لا- حاكماً عليهم، إلّاأنّه يجب ملاحظة كلمة (ملك) والتى تعنى الحاكم على جميع الشؤون وإن كان المعنى العام للقصة يشير إلى وجود ساحة قتال مع عدوّ خارجى.

والحقيقة أنّ النبى (أشموئيل) فى ذلك الوقت كان يمتلك صلاحية قيادة المجتمع كذلك، بينما كان لطالوت الذى انتخبه لبنى اسرائيل دور القائد للجيش.

۲- وقد ورد فى القرآن الكريم فى ذيل هذه الآيات المذكورة، خبر اندحار جيش جالوت فى مقابل بنى اسرائيل، حيث يقول: «فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلكَ وَالحِكمَةَ وعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَلَولَا دَفعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعضَ هُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدتِ الأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ». (البقرة/ ۲۵۱)

وتشير الجملة الأخيرة إلى أنّه لولا وجود حكومة قوية ومهيبة تقف بوجه الطغاة والخارجين على القانون، لامتلأت الأرض بالفساد، وعلى هذا فإنّ الحكومة العادلة هى هبة من اللّه للحدّ من الفساد الدينى والاجتماعى.

۳- وقد ورد معنىً مشابه لهذا فى سورة الحج حيث تقول بعد اعطاء الضوء الأخضر للمسلمين للجهاد ضد الاعداء: «الَّذِينَ اخرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ إِلَّا انْ يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَولَا دَفعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَ هُم بِبَعضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذكَرُ فِيهَا اسمُ اللَّهِ كَثِيراً». (الحج/ ۴۰)

و هنا أيضاً كان الحديث عن دور الحكومة فى البعد الجهادى، ولكن من الطبيعى أنّ الجهاد من دون التشكلات المنظمّة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة لا يمكن تحقيقه،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳

وذلك لأنّ المجاهدين يتألفون من قسمين: «القوّات العسكرية» و «القوّات الشعبية» وتعتبر الأخيرة الظهير والسند لما وراء ميدان القتل والتى تضمّ فى الواقع كل المجتمع.

۴- ونقرأ فى الآية التى تليها عبارة تشير إلى المؤمنين الحقيقيين: «الَّذِينَ انْ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ». (الحج/ ۴۱)

وتُشير هذه الآية ضمناً إلى أنّ إقامة الصلاة وايتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (فى معناها الواسع والعام) لا يتيسّر إلّاعن طريق تشكيل الحكومة، ولذا فالآية تصف المؤمنين الحقيقيين بأنّهم عندما يمتلكون القدرة ويصلون إلى تشكيل الحكومة فإنّهم سيقيمون هذه الفرائض الإلهيّة الكبيرة، وهنا يتبيّن لنا دور الحكومة فى إصلاح المجتمع من وجهة نظر الإسلام.

۵- تشير الآيات (۴۳- ۵۶ من سورة يوسف) بوضوح إلى حدثٍ يتبيّن من خلاله ضرورة الحكومة، وذلك أنّ ملك مصر يرى مناماً ويطلب من يوسف الذى كان وقتها فى السجن أن يفسّر له تلك الرؤيا بدقّة بعد أن ذاع صيته فى تفسير الأحلام، فيكشف يوسف عليه السلام شيئاً من مستقبل مصر من خلال تلك الرؤيا حيث ينتظر الناس سبع سنوات من القحط والجوع، وإذا مرّوا من تلك السنين بسلام فإنّهم سيُلاقون سنين الخير والرفاه، ثم يُبيّن كيفية إجراء الأعمال الضرورية لمواجهة تلك السنين الصعبة وطرق تحضير وخزن المواد الغذائية وطريقة الاستهلاك، فيطلق الملك سراحه ويخرج من السجن ثم يعيّنه مسؤولًا عن خزانة مصر، وهكذا يتمّ انقاذ شعب كبير بأكمله وذلك بمديرية النبى يوسف عليه السلام الصحيحة جنباً إلى جنب مع ملك مصر.

وتبيّن هذه القصة بشكل لا لبس فيه ضرورة وجود الحكومة ذات الاطلاع والتدبير لتقوم بمهامها لإدارة المجتمعات الإنسانية وخصوصاً فى الوقائع الصعبة، وأنّه إذا ما حُرمت هذه المجتمعات من الحكومات من ذلك النوع فإنّها لا محالة ستقع فى مشاكل عويصة ممّا ستُسبّب لها اضراراً جسيمة لا يمكن تعويضها.

۶- نلاحظ الكثير من الآيات القرآنية تشير إلى أنّ الحكومة الإلهيّة إنّما هى نعمة من نِعَمِ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴

اللّه، وذلك بملاحظة الحكومة ودورها الفعّال فى تنظيم المجتمع الإنسانى والحيلولة دون بروز الظلم والعدوان، وتوفير الجو الملائم للوصول إلى الكمال الإنسانى.

ومن ذلك ما ورد عن النبى داود عليه السلام وابنه سليمان عليه السلام: «وَكُلًّا آتَيْنَا حُكماً وَعِلْماً».

(الانبياء/ ۷۹)

عندما تُعدّ نعم اللّه الكثيرة على بنى اسرائيل تقول: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذكُرُوا نِعمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُم أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وآتَاكُمْ مَّا لَم يُؤتِ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ».

(المائدة/ ۲۰)

وطبعاً لم يكن جميع بنى اسرائيل حكاما وملوكاً، لكن عندما ينتخبوا من بينهم حاكماً وملكاً عليهم فإنّ الخطاب يتوجه إليهم باعتبارهم قوم حباهم اللّه سبحانه هذه النعمة فانتخب منهم ملوكاً وحكاماً.

ويتحدث القرآن الكريم عن لسان النبى سليمان عليه السلام: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلكاً لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهّابُ». (ص/ ۳۵)

وتُشير الآيات التى تليها إلى أنّ اللّه سبحانه استجاب دعاءه ووهب له حكومة عظيمة ومواهب كثيرة لا نظير لها، وجاء فى قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتاهُمُ اللَّهُ مِن فَضلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبرَاهِيمَ الكِتابَ وَالحِكمَةَ وَءَآتَيْنَاهُمْ مُّلكاً عَظِيماً». (النساء/ ۵۴)

وتكمن أهميّة هذه المسألة فى أنّ اللّه سبحانه يُعِدُّ موهبة الحكم مرادفة للعزّة ويَعتبر فقدانها قرينة للذلّة.

يقول سبحانه وتعالى «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلكِ تُؤتِى المُلْكَ مَن تَشَاءُ وتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ».

(آل عمران/ ۲۶)

تشير كل الآيات التى ذكرناها إلى أهميّة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية من وجهة نظر القرآن الكريم، وفى الواقع إنّ هذا الآيات نافذة على العالَم الواسع للحكومة فى المجتمعات البشرية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵

ضرورة الحكومة فى الروايات الإسلامية:

تُعَدُّ مسألة ضرورة الحكومة ذات أهميّة وصدى واسع فى الروايات الإسلامية، وقد بيّنت تلك الروايات أنّه لا يمكن للناس العيش دون وجود الحكومة، وأنَّ وجود حكومة وإن كانت ظالمة خير من الفوضى فى غياب الحكومة.

وهنا لنرى نموذجاً من تلك الروايات ذات المعنى المذكور:

۱- عن أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة جواباً على ادّعاء الخوارج حين قالوا: «لا حُكم إلّااللّه ، فقال عليه السلام: «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ثم استطرد قائلًا: «نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلكِنَّ هؤُلَاءِ يَقُولُونَ لَاإِمرَةَ إِلَّا لِلَّهِ، وإِنَّهُ لَابُدّ لِلنَّاسِ مِن أَمِيرٍ بَرٍّ أو فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِى امْرَتِهِ المُؤمِنُ وَيَسْتَمتِعُ فِيهَا الكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللَّهُ فِيهَا الأَجَلَ وَيَجْمَعُ بِهِ الفَىءَ وَ يُقَاتَلُ بِهِ العَدُوَّ، وَتَأمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ القَوِىِّ حَتَّى يَستَرِيحَ بَرٌّ وَيُستَرَاحَ مِن فَاجِرٍ» «۱».

و بديهيٌّ أنَّ الإمام علياً عليه السلام لم يَقصد من عبارة «أمير بَرّ أو فاجر» أنّ هذين متساويين، بل قصد به أنّه لابدّ من وجود حاكم عادل وصالح، وإلّا فوجود حاكم وإن كان ظالماً خيرٌ من الفوضى والشغب، وعلى كل حال فلا تنفى هذه الحالة الأخيرة الحكم الإلهى الصالح على العالم كلّه، ذلك أنَّ الحكم يشبه النبوة والقضاء النّابعين من ذات الخالق المقدسة، ولقد بيّنت هذه العبارة ضمناً الأبعاد المختلفة لفلسفة الحكومة والأدلة الواردة فى إثبات ضرورتها، وسنبحث ذلك بالتفصيل فى صفحات قادمة.

۲- اشير فى الروايات المعروفة والتى نقلها (الفضل بن شاذان) عن الإمام الرضا عليه السلام إلى ثلاث نقاط مهمّة حيث بيّن فيها دلائل وأسباب تعيين (اولى الأمر) والحكم فى المجتمع.

قال الفضل بن شاذان إنّه سمع من الرّضا عليه السلام مرّة بعد مرّة، أنّه قال: فإنْ قال: فلم جعل أولى الأمر وأمر بطاعتهم؟

قيل: لعلل كثيرة منها أنّ الخلق كما وقفوا على حد محدود وأمروا ألّا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم لم يكن يثبت ذلك، ولا يقوم إلّابأن يجعل عليهم فيه أميناً يمنعهم من

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۴۰.

التّعدى والدّخول فيما حظر عليهم لأنّه لو لم يكن ذلك كذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم فيما يمنعهم من الفساد ويقيم فيهم الحدود والأحكام.

ومنها: أنا لا نجد فرقة من الفرق ولا ملة من الملل بقوا وعاشوا إلّابقيّم ورئيس كما لابدّ لهم منه فى أمر الدّين، فلم يجز فى حكم الحكيم أن يترك الخلق ممّا يعلم أنّه لابدّ لهم منه ولا قوام إلّابه، فيقاتلون فيه عدوهم ويقسمون به فيئهم، ويقيم لهم جمعتهم وجماعتهم، ويمنع ظالمهم من مظلومهم.

ومنها: إنّه لو لم يجعل لهم إماماً قيماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملّة وذهب الدين وغيرت السُّنة والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون ونقّص منه الملحدون، وشبّهوا على المسلمين لأنا قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين، مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتت أنحائهم، فلو لم يجعل لهم قيماً حافظاً لما جاء به الرّسول لفسدوا على نحو ما بيّنا وغيّرت الشرايع والسنن والأحكام والإيمان وكان فى ذلك فساد الخلق أجمعين «۱».

۳- فى تفسير النعمانى عن أمير المؤمنين عليه السلام وعند ذكر آيات من القرآن الكريم، مثل:

«يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِما يُحيِيكُم». (الانفال/ ۲۴)

وآية «وَلَكُم فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا اولِى الأَلبَابِ». (البقرة/ ۱۷۹)

إنّه كان يقول: «وفى هذا أوضح دليل على أنّه لابدّ للُامة من إمام يقوم بأمرهم فيأمرهم وينهاهم ويُقيم فيهم الحدود ويجاهد العدو، ويقسّم الغنائم ويفرض الفرائض ويعرّفهم أبواب ما فيه صلاحهم ويحذرهم ما فيه مضارهم، إذ كان الأمر والنهى أحد أسباب بقاء الخلق، وإلّا سقطت الرغبة والرّهبة، ولم يُرتدع، ولفسد التدبير وكان ذلك سبباً لهلاك العباد» «۲».

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى حديث آخر أنّه قال: «لا يستغنى أهل كلّ بلد عن ثلاثة يُفزع إليهم فى أمر دنياهم وآخرتهم، فإن عُدموا ذلك كانوا همجاً: فقيه عالم ورع،

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۶۰، الرّواية طويلة لكننا انتخبنا قسماً منها.

(۲) بحار الأنوار، ج ۹۰، ص ۴۱.

وأمير خيّر مُطاع، وطبيب بصير ثقة» «۱».

و قلنا مراراً إن ما ورد فى الروايات الإسلامية يدلّ على ضرورة وجود حكومة وإن كانت ظالمة خير من الفوضى، حيث نقرأ لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «وال ظلوم غشوم خيرٌ من فتنة تدوم» «۲».

ويعنى ذلك أنَّه حتى فى حالة عدم القدرة على تحقيق حكومة عادلة فلا أقل من إقامة حكومة وإن كانت ظالمة وجائرة وذلك فى

سبيل الاستقرار والأمن للبلد وحدوده ومنع العدوان عليه، وفى غير هذه الحالة تسود حالة من اللّا أمن والتدهور حيث ستُراق دماء الكثير من الأبرياء دون أىّ وازع مِمّا سيسهّل على الأعداء النفوذ إلى داخل البلد والسيطرة عليه.

ضرورة الحكومة فى التصور العقلى:

كان ما ذكرناه حول ضرورة الحكومة فى التصور القرآنى والروائى والتى أشارت جميعها وبالأدلة القاطعة على ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات الإنسانية، وهنا نُشير إلى ضرورة الحكومة من خلال الأدلة العقلية حتى تتّضح المسألة لنا أكثر.

وتنطلق هذه الأدلة أحياناً فى تصور شخص يؤمن بالتوحيد، وأحياناً اخرى نراها من وجهة نظر الشخص المادى، حيث نلاحظ عاملًا مشتركاً بينهما وهو اعتقادهما بضرورة وجود الحكومة للمجتمع البشرى وإن كانت آراؤهما تتفاوت وتتباين فى أحايين اخرى

ويمكن الإشارة إلى الأدلة المشتركة فى التصور العام فيما يخصّ هذا الموضوع وهى:

أولًا: إنّ حياة الإنسان تنطبع بطابع اجتماعى بحيث لو خَلَتْ حياته من هذه الصفة فإنّها ستكون فى أدنى مستوى لها من الجاهلية والوحشية والانحطاط، لأنّ كل المنافع والآثار

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۲۳۵.

(۲) غرر الحكم، ج ۲، ص ۷۸۴، ج ۵۰، باب الواو.

الإيجابية والبنّاءة فى حياة البشر بما فيها الحضارة والتقدّم والكمال والعلوم والفنون والصناعات المختلفة، كلها نابعة من بركة الحياة الاجتماعية والعمل المشترك والتعاون فيما بين البشر فى المجالات المتعددة.

فما لَمْ تَنضَّم الطاقات الفكرية والبدنية البسيطة بعضها إلى البعض الآخر، فلا مجال لوجود الحركات والانبعاثات العظيمة فى المجتمع بأى حال من الأحوال، وببساطة: لو إنفصل الإنسان عن المجتمع فسيكون كالحيوان، فمن جهة نجد الرّغبات والآمال الداخلية والحياة الاجتماعية التى تهبه كل تلك القدرة والإمكان للتقدم والتطوّر نحو الأفضل، ومن جهة اخرى بما أنّ الحياة الإنسانية فى داخل المجتمع على الرغم من أنّ كل تلك الآلاء والنَّعم لا تخلو من النزاع والمنافسة ليس بسبب غلبه الأنانية وحب الذّات فقط، بل لاشتباه الكثير من أفراد المجتمع فى تشخيص الحدود والحقوق فيما بينهم، لذا فإنّ دور القوانين هنا يكون ضرورياً لتحديد حقوق الأفراد وسَدّ الطريق أمام التعدّيات والتجاوزات اللامشروعة.

كذلك فإنّ هذه القوانين لا يمكن أن تؤثر لوحدها فى ردع الاعتداءات والنزاعات إلّاإذا انبرى إلى تنفيذها أفرادٌ يُعتمد عليهم فى المجتمع، وبعبارة اخرى فالحكومة وحدها تستطيع أن تعزّز القوانين وتنفذها فى المجتمع وتحول دون انتشار الفساد وسفك الدماء والاعتداء على حقوق الآخرين- ولو بصورة نسبية.

ولذلك نرى الأقوام البشرية ومنذ القِدمَ سعتْ إلى إيجاد حكومة لها.

ثانياً: لو افترضنا أنّه يمكن للناس العيش بسلام بدون حكومة (وهو مُحال بالطبّع)، فلا يمكن على أية حال الوصول إلى التقدّم والكمال فى العلوم والمعارف والصناعات ومختلف الشؤون الاجتماعية دون وجود برنامج دقيق ومديرية عالمة، وهذه هى أشكال اخرى للحكومة.

ومن هذا المنطلق فإنّ جميع العُقلاء فى العالم يؤكدون على ضرورة تشكيل الحكومة للمجتمعات البشرية إلّاما يُرى نادراً فى كلمات بعض المؤيدين للشيوعية من أنّه لو قُضىَ

على النظام الطبقى للمجتمع فلا تعود هناك ضرورة لأى‌حكومة، إذ يعتقدون أنَّ الدولة والحكومة إنّما تُساعد على الحفاظ على منافع الطبقة الرأسمالية وحسب، وعندما يتمّ القضاء على هذه الطبقية فلا يبقى سبب لوجود الحكومة.

ولكن من الواضح أنّ كل ذلك إنّما هو محض خيال وأوهام لا وزن لها فى ميزان العقل والمنطق، ذلك أنَّ الوصول إلى حالة عدم وجود الطبقية فى العالَم، أو أن يكون كل البشر فى مستوى معاشى واحد، إنّما هو حُلُمٌ وخيال لا أكثر وخاصة فى الوضع الحالى الذى تمرّ به المجتمعات البشرية.

ولو فرضنا أننا يمكننا الوصول إلى مجتمع كهذا والقضاء على النظام الطبقى والحكومى الحافظ لهذا النظام، تبقى الحاجة إلى برنامج دقيق ومديرية ضرورية للوصول إلى التقدّم العلمى والصناعى والحفاظ على السلامة الاجتماعية والنظام والحرية وتأمين الغذاء والسكن وسائر الاحتياجات. فهل يمكن مثلًا الاستغناء عن وزارة التربية والتعليم فى سبيل وضع برنامج صحيح لغرض تعليم وتربية الشباب؟ وهل يمكن بدون وجود وزارة الصناعة الحفاظ على العوامل الصناعية؟ وهل بالإمكان ردّ العدوان والهجوم الأجنبى دون وجود وزارة الدفاع؟ ولو افترضنا عدم حدوث حرب فى العالم، فهل يمكن إيجاد النّظم فى المجتمع الإنسانى مع غياب قوى الأمن فى ذلك المجتمع؟

على أيّة حال فإنّ هذه المسألة تعتبر من البديهيات وهى أنَّ المجتمع الإنسانى لا يمكنه العيش بسلام دون وجود الحكومة ولو ليوم واحد، وحتى الذين لا يؤيدون هذه القاعدة لم يصلوا إلى أيّة نتيجة ورجعوا خائبين.

صحيح أنَّ الحكومات المستبدّة والظالمة هى التى تكون بؤرة للفساد ومنبع البؤس على طول التاريخ للبشرية ولا تزال، ولكن لوحدث وتهدّم النظام القائم لهذه الحكومات وتأخر تشكيل حكومة اخرى تخلف تلك الحكومة ليوم أو أكثر، وفى حالة غياب الحكومة، فستكون النتيجة لذلك، الهرج والمرج وحالة من اللاأمن والتدهور وإزدياد الشَغَب فى جميع البلاد، وسنرى أنَّ وجود الحكومة الظالمة أفضل بكثير من غيابها.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠

وأمّا الذين يؤمنون بإرسال الرّسُل وانزال الكتب السماوية من قِبَل اللَّه تعالى فهم يفهمون مسألة ضرورة الحكومة بشكل أوضح وأكثر بياناً، لأنّهم يؤيدون من جهة، الأهداف التى من أجلها بُعِثَ الأنبياء والتى ذُكِرَتْ فى المصادر اللاهوتية، إضافة إلى الأدلة العقلية التى تسندها، ومن جهة أُخرى فإنّ الوضع بدون تشكيل الحكومة لا يمكن أن يُطاق أبداً، فمثلًا إنَّ مسألة التربية الصحيحة والتعليم وتزكية النفوس وتطهيرها لا يمكن أجراؤها دون وجود الحكومة.

والآن تصوّروا أنَّ جميع المدارس والجامعات فى عصرنا الحاضر هى تحت سلطة حكومة علمانية أو أنّها لاتعير أهميّة للقيم الدينية، وأنَّ وسائل الاعلام كالراديو والتلفزيون والصُّحف تُدار أيضاً من قِبَل نفس النظام، ثم سعينا عن طريق النصائح والإرشادات أو على الأكثر الاستفادة من المساجد والمنابر لتعليم الناس أهداف ومبادىء الأنبياء والتعليم والتربية الدينية، فإننا حتماً لن نصل إلى أىّ مردود، بل ستبقى أنواره ضعيفة فى قلوب بعض الاتقياء وهم أقلية، ولكن متى ما تشكّلت حكومة تبنى أساسها على الإيمان والتوحيد والاعتقاد باللَّه وتؤمن بالمقدّسات وتأخذ أمر هذه المراكز الحساسة على عاتقها، فإنّ الأمر حينئذٍ سيختلف تماماً.

وبالنسبة إلى موضوع (العدالة الاجتماعية) و (قيام الناس بالقسط) وهما الهدف الآخر فإنّ الأمر يبقى هو هو، إذ كيف يمكن إقامة القسط والعدل مع وجود حكومة ظالمة تفتقدُ إلى الإيمان والدين أو عميلة ومرتبطة بالاستكبار والاستعمار؟

وباختصار، فإنّ أيّاً من الأهداف التى جاء من أجلها الأنبياء لا يمكن تحقيق الجزء الأعظم منها إلّابوجود الحكومة، ولذا نرى أنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لم يكن ليتمكّن من الوصول إلى الأهداف الإسلامية السامية إلّابعد أن قام بتشكيل الحكومة، وكذلك الحال مع الأنبياء الآخرين الذين استطاعوا التوصل إلى التوفيق المنقطع النظير بعد أن قاموا بتكوين الحكومة، بينما ظَلَّ أولئك الأنبياء الذين لم يحققّوا نجاحاً فى تشكيل الحكومة مضطهدين من قِبَلِ الطبقات الفاسدة فى مجتمعهم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱

ونفس الحالة ستتواجد فى آخر الزمان على ما ذُكِرَ، إذ لا يمكن نشر التوحيد والعدل إلّا بتشكيل الحكومة، حكومة المهدى (عج) العالمية، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ الأحكام الإسلامية لا تنحصر فى إطار (العبادات) وحسب، بل إنّ لدينا احكاماً جمّة تهتم بالشؤون السياسية والاجتماعية للمسلمين، كأحكام الحدود والديّات والخُمس والزكاة والانفال وما شاكل.

فهل يمكن جمع حقوق مستحقى الزكاة وأخذها من الأغنياء دون وجود حكومة؟ أو هل يمكن تنفيذ كافة الامور القضائية فى الإسلام؟ كيف يمكننا ضمان إجراء الحدود والحدّ من أعمال المفسدين؟ وإذا تعرّض البلد المسلم إلى الهجوم والعدوان، كيف يمكن بدون وجود الحكومة تعبئة الجيوش المجرّبة وتهيئة الأسلحة المختلفة للدفاع عن حياض الإسلام ودرء الخطر الخارجى؟

وخلاصة الكلام: إنّه من غير تشكيل حكومة عادلة وشعبية على أساس العقائد الدينية، فإنّ القسم الأعظم من الأحكام الإسلامية ستظلّ معطّلة، لأنّه لا يمكن بدون مساندة ووجود الحكومة إجراء الأقسام الثلاثة الرئيسية فى الدين الإسلامى، (السياسيّات) وهو برنامج الحكومة وعمودها الفقرى، و (المعاملات) التى لا تستقرّ إلّابوجود الحكومة، وحتى (العبادات) كالحج وصلوة الجمعة والجماعة، كل ذلك لا يمكن أن يتبلور ويتألق إلّافى ظل حكومة اللَّه العادلة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳

أهداف الحكومة الإسلاميّة

بناءً على ماورد فى البحث المتقدّم حول ضرورة وجود الحكومة اتضحت أيضاً أهداف الحكومة الإسلامية بشكل اجمالى، ولمزيد من التوضيح نشير ادناه إلى بعض الآيات الشريفة:

۱- نقرأ فى قوله تعالى: «الَّذِينَ انْ مَّكَّنَّاهُم فِى الأَرضِ اقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأمَرُوا بِالمَعرُوفِ وَنَهَوا عَنِ المُنكَرِ». (الحجّ/ ۴۱)

انَّ تعبير (مَكَّنَّاهُم فِى الأَرضِ) يُشير إلى القدرة المعطاة للمؤمنين فى الأرض، لكن هذا التعبير نفسه قد استُخْدِمَ مراراً فى القرآن الكريم معبّراً عن قدرة الحكم، كما نطالع فى آيتين من سورة يوسف: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرضِ». (يوسف/ ۵۶)

وفيما يخصّ ذا القرنين تقول الآية: «انَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرضِ وَآتَينَاهُ مِن كُلِّ شَىءٍ سَبَباً».

(الكهف/ ۸۴)

وطبقاً لما تعنيه الآية الشريفة الاولى فإنّ المعنى يكون هكذا: إنَّ أولياء اللَّه إن اعطُوا زمام الامور والحكم فإنّهم سيقيمون الصلوة، وهى من جهة، مظهر فى مظاهر التقرّب والوصول إلى اللَّه تعالى، ومن جهة اخرى فإنّهم سيعبّدون الطريق المؤدى إلى العدالة الاجتماعية، وأبرز مظاهر هذا الطريق أداء الزكاة، بالاضافة إلى ذلك فإنّهم سيعملون على اشاعة الفضائل الإنسانية والقضاء على المنكرات بواسطة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى المجتمع بأبعادهِ المختلفة.

على هذا، فلو افترضنا أنّ كلمة (مكّنّا) تعنى أىَّ نوع من القدرة سيتمّ معنى الآية ضمن

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴

التعبير الذى قلناه سابقاً، ذلك أنّ الحكومة هى أبرز انموذجٍ للقدرة.

وقد ذكر العلّامة الطباطبائى فى ذيل هذه الآية

فهل يمكن الوصول إلى هذه القدرة من دون استلام الحكم «۱»؟

وقد ورد هذا المعنى فى تفسير القرطبى بشكل أوضح حيث يفسّر جملة «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ» بالامراء وأصحاب الحكومة «۲».

وطبيعى أنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر المذكور فى هذه الآية وكما ورد ذلك فى مختلف البحوث الفقهية، يلزم لتنفيذه

مراحل عِدّة، واحدى هذه المراحل يختصّ بالحكومة وتشكيلها.

۲- ورد فى القرآن الكريم ما يتعلّق بحكومة الصالحين حيث تقول الآية: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرضِ كَمَا استَخلَفَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم وَلَيُمَكِنَنَّ لَهُم دِينَهُمُ الَّذِى ارتَضَى لَهُم وَلَيُبدِّلَنَّهُم مِّن بَعدِ خَوفِهِم أمناً يَعبُدُونَنِى لَا يُشرِكُونَ بِى شَيئاً». (النور/ ۵۵)

وفى هذه الآية وبعد أن وعد اللَّه المؤمنين الصالحين باستخلافهم وتسليمهم مقاليد الحكم، عقَّب قوله ببعض العبارات وهى فى الواقع أهداف هذه الحكومة، أوّلها: التمكين والقدرة للدين الإلهى وتحكّمه على المجتمع، والاخرى إزالة حالة اللاأمن وتبديله إلى الأمن والاستقرار الاجتماعى الكامل والعبادات الخالية من كل أنواع الشّرك، وعلى هذا فإنَّ أهداف الحكومة طبقاً لذلك هى كما يلى:

۱- سيادة الدّين والقوانين الإلهيّة على كلّ المجتمع.

۲- نشر الأمن والاستقرار الكاملين فى كلّ مكان.

۳- إخلاص العبادة للَّه‌وحده وإزالة كلّ آثار الشرك والوثنية.

والواقع أنّ الهدف الأصلى لكلّ ذلك هو كمال الإنسان والسير نحو اللَّه سبحانه، وأنّ الأمن والاستقرار وتحكيم القوانين الإلهيّة إنّما هى مقدمة للوصول إلى ذلك.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۴، ص ۳۸۶.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۷، ص ۴۴۶۵.

۳- ونقرأ خطاب اللَّه لنبيّه داود عليه السلام: «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُم بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ». (ص/ ۲۶)

وتبيّن هذه الآية بوضوح النتيجة المرجوّة للخلافة والحكومة فى الارض وهى احقاق الحقوق أو ما يُعَرفُ بالحدّ من الاعتداء والتعدّى على حقوق الآخرين وأخذ حق الضعفاء والمحرومين من الأقوياء والمترفين.

وبديهىٌ أنّ هدف حكومة النبى داود عليه السلام وأنبياء بنى اسرائيل الآخرين لم يكن هذا فحسب، بل إنّه أحد الأهداف لايّة حكومة فى ايّ مكان وزمان.

و صحيحٌ أنّ عبارة (الحكم) الواردة فى القرآن الكريم تعنى أغلبها (القضاء) ولكن وبعد ملاحظة أنّ الشطر الأول من الآية يتحدّث عن الخلافة فى الأرض، يتّضح أنّ أىّ نوع من الحكم بالعدل مشمول فى مضمون الآية ككل، مضافاً إلى ذلك فانَّ القضاء هو شأن آخر من شؤون الحكومة، وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى سورة النساء حيث يقول تعالى: «انَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُم ان تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمتُم بَينَ النَّاسِ انْ تَحكُمُوا بِالعَدلِ».

(النساء/ ۵۸)

ولقد ورد فى روايات كثيرة فى تفسير هذه الآية صراحة أنّ المقصود من هذه الامانة هو مقام الولاية والتى يُؤدّيها كلُّ إمام إلى الإمام الذى يليه، وإن كان المعنى العام لها يشمل باقى أنواع الأمانات كذلك، «۱» وبالأخص ما ورد فى بعض الروايات من أنّ المخاطب فى الآية هم الحكّام والامراء، «۲» ويدلّ ذلك على أنّ المراد بالحكومة العادلة فى الآية المذكورة ليس القضاء فحسب، بل يشمل كلّ نوع من أنواع الحكم العادل.

۴- إنّ جميع الآيات والرّوايات التى تذكر هدف بعثة الأنبياء على أنّه تعليم وتربية وتزكية النفوس واقامة القسط بين الناس ورفع الأغلال وتحطيم القيود، فإنّها فى الواقع تبيّن أهداف تشكيل الحكومات الإلهيّة، لأنَّ هذه الحكومات هى مقدمة ووسيلة لضمان أهداف

(۱) تفسير نورالثقلين، ج ۱، ص ۴۹۵ و ۴۹۶؛ تفسير العيّاشى، ج ۱، ص ۲۴۹؛ بحار الأنوار، ج ۲۳، ص ۲۷۴ فمافوق.

(۲) تفسير البرهان، ج ۱، ص ۳۸۰ (أنّه خاطب بها الحكام).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶

بعثة الأنبياء، وعلى هذا يمكن تلخيص أهداف الحكومات الإلهيّة بالنقاط التالية:

۱- تعليم وتربية أفراد المجتمع فى المجالات العلمية والأخلاقية.

۲- ضمان الحرّيات الإنسانية، ورفض كل أنواع العبودية واستعمار الإنسان لأخيه الإنسان سواءً فى المجالات الفكرية أو السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية.

۳- إقامة العدل والحقّ وضمان العدالة الاجتماعية فى كلّ الطبقات الاجتماعية.

۴- استتباب الأمن الاجتماعى بوصفه مقدمة للوصول إلى الأهداف الأخرى

۵- تركيز المبادىء الخاصة بالعبودية للّه‌والسّير إليه تعالى والكمال الإنسانى والوصول إلى منزلة القُرب من اللّه والتى هى غاية الغايات ومنتهى الرّغبات.

ونختم هذا البحث بكلام لأمير المؤمنين على عليه السلام والذى ورد فى أوّل عهده إلى مالك الأشتر، حيث يرسم له بوضوح أهداف الحكومة الإسلامية اذ يقول: (هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ المُؤمِنِينَ، مَالِكَ بنَ الحَارِثِ الاشْتَرَ فِى عَهدِهِ إِلَيهِ حِينَ وَلَاه مِصْرَ، جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَ جِهَادَ عَدُوِّهَا وَ استِصلَاحَ اهلِهَا وَ عِمَارَةَ بِلَادِهَا) «۱».

وهكذا فإنّ عمارة البلاد واستصلاح أهلها وجهاد عدّوها وتعزيز بيت المال كلّ ذلك يعنى دعامة لانجاز تلك الامور، وهى أهداف هذه الحكومة، ولكن كما أشرنا سابقاً فإنّ هذه الأهداف هى بمثابة اسس المرحلة الاولى أمّا الأهداف النهائية والاصلية فهى التعليم والتربية وتهذيب النفوس والسير إلى اللّه سبحانه.

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷

أنواع الحكومات

اشارة

لقد كانت للحكومات على مدى التاريخ أشكال متباينة، وربّما كانت تلك الأشكال بعدد أنواع حكومات العالم، ولكن يمكن تقسيم اصولها إلى ثلاثة أنواع:

۱- الحكومات الاستبدادية

وهى الحكومات المتشكلة على أساس الحكم الفردى أو حكم جماعة معينة حيث تدور حول محور المصلحة الفردية أو مصلحة تلك الجماعة، وطبيعى أن تخدم تلك الحكومة منافع ومصالح تلك الفئة فقط، ونتيجتها ستكون استعباد المجتمع وانتشار البؤس والحرمان فيه، هذا وقد قام حكّام وسلاطين من هذا القبيل على طول التاريخ بارتكاب أفضع الجنايات وذلك لحفظ مصالحهم الشخصية، وقد تعدّوا كلّ الحدود المعروفة، بل لقد سفكوا دماء إخوتهم وبنيهم عند احساسهم بالخطر منهم على مناصبهم.

وفى هـذا النوع من الحكومات لا تؤخذ آراء الشـعب بنظر الاعتبار بل ولا يُقام لها أى وزن على الاطلاق وكلّ شـىء يدور حول محور الظلّم والجبروت، وتنقسم هذه الحكومات إلى أنواع اخرى منها الحكومة الفردية الاسـتبدادية (المسـتبدة)، والحكومة الحزبية المستبدة حيث يسـيطر فيها الحزب ذو الأقلية على الأكثرية المطلقة وذلك باستخدام اسلوب القوة، ثم تفرض على تلك الأكثرية آراؤها وايديو لوجيتها وهو ما كان يشـيعه الماركسيّون حيث كانوا يسمّونها بالدكتاتورية البروليتارية (المقصود بالبروليتارية (الطبقة المُنتجة) والبعض منهم الذى ثبت ولاؤه وإخلاصه للماركسيين، فتُسَجَّلُ أسماؤهم فى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸

الحزب الشـيوعى حيث كانوا يشـكّلون مجموعة صـغيرة فى مقابل الجموع الغفيرة للشعب ويتحكمون بمصير الشعب بأكمله، ولم يكن الحزب الشـيوعى حزباً ممثلًا لمختلف قطاعـات الشـعب، ولا يهتم بالانتخابات الحرة، ولم يكن بمقـدور أىّ كان الانتماء إليه، بل ولم تكن فى أفكاره أىُّ نوع من الديمقراطية.

۲- الحكومة الديمقراطية

وهى أفضل وأكمل حكومة معروفة فى عالمنا الحاضر.

والأساس فى حكومة من هذا القبيل هو أنَّ جميع الناس فى أيّة فئة كانوا أو طبقة يمكنهم- وبحريّة تامة- الذهاب إلى صناديق الاقتراع والادلاء بآرائهم حول من يريـدون انتخابه من الممثلين وتسـليمهم زمام أمور الشـعب لفترة معينـة تحت ضوابط خاصة وشـروط معينة، فيضع الممثلون للشـعب بعـد ذلك وبحرية واسـتقلالية كاملتين على الأرجح كل القوانين الضـرورية، ثم يشـكّلون هيئة بواسـطة هؤلاء الممثلين تارةً أو بصورة مباشـرة من قبل الشـعب تارةً اخرى باسم مجلس الوزراء أو رئيس الجمهوريـة، ويطلق- كما أشـرنا- على هـذا النوع من الحكومة بالحكومة الديمقراطية (أى حكومة الشعب أو حكومة الشعب على الشعب).

وتنقسم هذه الحكومة بدورها إلى قسـمين: النوع الأول وهو الحكومة التى لها صـفة شـعبية واقعاً، وهى نادرة الوجود سواءً فى الماضى أو حتى فى الحاضر وربّما لم تظهر ملامحها فى الخارج بعد.

والنوع الآخر هى حكومة شعبية الظاهر والمظهر لكنها ليست كذلك فى الواقع، فحقيقتها (استبدادية) وظاهرها (ديمقراطية)!

وهـذا التفـاوت الموجود بين الظـاهر والواقع ينقسم كـذلك إلى صـنفين، فإمّـا ان يتـدّخل فرد أو أفراد مصَـلحيون فى نمط الانتخابات وبصورة علنية مرسلين أفراد الشعب إلى صناديق الاقتراع عنوةً، أو أنّهم يعملون على ملء صناديق الاقتراع بأوراق انتخابية مزيّفة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹

حتى يتمّ لهم انتخاب الأفراد الـذين يرغبون فى فوزهم فى هذه الانتخابات والخروج بأصوات انتخابية أكثر، وقد تأخذ هذه العملية، أى عمليـة تـدخّل أولئك الأفراد طابعاً آخر هو طابع التـدخّل الخفىّ وقد يكون غير محسوس، فيبدو للبعض من أصـحاب العقول الساذجة وذوى النيّة الحسـنة أنّ هذه الانتخابات إنّما جرت بحرية كاملة تماماً، بينما يختلف الواقع عمّا يَرَوْنَهُ، إذ يسـيطر ذوو الإمكانات والنفوذ على وسائـل الاعلام ويروّجون عن طريقها، لمن يريـدون مسـتفيدين من أساليب علم النّفس بحيث يتصوّر النّاس أنَّ هؤلاء المرشـحين عبـارة عن علمـاء مـدبّرين وكـأنّهم ملائكـة منزلين، لكنهم فى الواقع عملاء يخـدمون تلك الطبقـة الثريّة وذات السـلطة القويّة وكل المصلحيين والوصوليين.

والحقّ أنّ الحكومـة فى مثـل هـذه المجتمعـات والتى نجـدها بكثرة فى اروبـا وعلى الأخص فى أمريكا، هى حكومـة مسـتبدة وظالمة إلّاأنّها ترتدى زىّ الحكومة الديمقراطية والشعبية.

۳- الحكومة الإلهيّة

وهى الحكومة التى لا تعتمد لا على الإرادة الفردية ولا على الأكثرية الساحقة من الشعب، بل تنبثق طبقاً لإرادة اللّه، ولا شك أنّ إرادة البارىء عزّ وجلّ لا تقتضى سوى ضمان المصالح الواقعية لعباده ليس إلّا، ويمكن مشاهدة مثل تلك الحكومة من خلال حكومة الأنبياء وأوصيائهم الحقيقيين وأولئك الذين يسيرون على خطاهم وينتهجون منهجهم، ومثل هذه الحكومة يندر وجودها فى العالم.

لقد ذكر القرآن الكريم نماذج للانواع الثلاثة لهذه الحكومات:

١- أشار القرآن الكريم إلى حكومة فرعون باعتبارها حكومة مستبدة وفردية حيث يقول: «انَّ فِرعَونَ عَلَا فِى الأَرضِ وجَعَلَ أَهلَهَا شِيعاً يَستَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبنَاءَهُم وَيَستَحِيى نِسَاءَهُم انَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ». (القصص/ ۴)

كان فرعون يعتبر كل أرض مصر ملكاً شخصياً له وكل ما فيها من أنهار ومياه هى له

أيضاً. وكان يقول: «يَا قَومِ الَيْسَ لِى مُلكُ مِصرَ وَ هَذِهِ الأَنهَارُ تَجرِى مِن تَحتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ». (الزخرف/ ۵١)

إنّه لم يقنع بحكومته المستبدة على الشعب فحسب، بل كان يتوقع أن يعبده الجميع ولا يعبدون غيره! ولذا قال لموسى عليه السلام: «لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ». (الشعراء/ ٢٩)

و حتّى أنّه كان يتصوّر ان من يُريد الاعتقاد والإيمان بشخص يدّعى النبوّة بعد ما رأى معجزاته لا يمكن أن يفعل ذلك إلّابعد موافقته وإذنه! ولذلك نرى أنّه وبّخ السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام بعد مشاهدة أدلّته ومعجزاته حيث قال: «قَالَ فِرعَونُ آمَنتُم بِهِ قَبلَ ان آذَنَ لَكُم». (الاعراف/ ١٢٣)

ونرى انموذجاً آخر لحكومة مستبدة اخرى ألا- وهى حكومة «نمرود» والذى صَرَّحَ مخاطباً إبراهيم عليه السلام: «أنا أحيى وأميت» ولكنه واجه بعد ذلك استدلال إبراهيم عليه السلام الدامغ عندما قال له: «فَإِنَّ اللَّه يَأْتِى بِالشَّمسِ مِنَ المَشرِقِ فَأتِ بِهَا مِنَ المَغرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَر».

(البقرة/ ٢۵٨)

والحقيقة أنّ الناس جميعاً وحتى السلاطين المستبدين أنفسهم كانوا يعلمون بهذه الحقيقة وهى أنّ الملوك مفسدون فى الأرض ومخلّون بأنظمة المجتمع الإنسانى، ولذا نقرأ فى القرآن الكريم أنّه عندما وصلت رسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس ملكة سبأ، وبدأت تحقيقاتها حول سليمان لتبيّن فيما إذا كان ملكاً مستبداً أو نبيّاً مُرسلًا، فأرسلت إليه الهدايا، وقالت معبّرةً عن قلقها: «انَّ المُلُوكَ اذَا دَخَلُوا قَريَةً أَفسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهلِهَآ اذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ». (النّمل/ ٣۴)

فقد كان الملوك يضطهدون ويعذّبون مخالفيهم بأبشع الصور بل حتى يدفنوهم أحياءً، وقد ورد ذلك فى سورة البروج التى تتحدّث بعض آياتها عن أصحاب الاخدود (إذ يذكر التاريخ أنّ الملك «ذو نواس» أصْدر أمراً بحفر خندق ووضع كمية كبيرة من الحطب فيه وأشعل ناراً عظيمة ثم قذف ببعض المسلمين الذين فضّلوا البقاء على دينهم وسط تلك

النيران ولم يرحم منهم لا شيخاً ولا طفلًا رضيعاً)، وما كان ذنبهم إلّاأن آمنوا باللّه العزيز القهار: «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُم الّا انْ يُؤمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ». (البروج/ ٨)

ويضمّ التاريخ بين صفحاته الكثير من هذه الوقائع التى مارستها الحكومات المستبدة والتى كانت تُعامل شعوبها كالعبيد، بل أدنى من ذلك أيضاً، وقد أشار القرآن فى عدّة مواطن إلى مثل تلك الحكومات، ولذلك كان أحد أهم الأهداف لثورات الأنبياء عليهم السلام محاربة الاستبداد وإنقاذ الشعوب من براثن المستبدّين.

٢- ونرى كذلك بعض الآيات القرآنية الشريفة التى تشير إلى حكومة الشورى أو كما هو المصطلح عليه بحكومة الشعب للشعب، وإن لم يكن هذا المصطلح واضحاً كما عليه اليوم.

نطالع فی قوله تعالی وفیما یخصّ قصة (سلیمان علیه السلام) مع (بلقیس- ملکة سبأ): لما وصلت رسالة سلیمان إلی بلقیس جمعت الأخیرة مستشاریها وبدأت معهم بالتحدث عن مضمون تلک الرسالة قائلة: «یَا أَیّها الْمَلَوُاْ أفتُونِی فِی أَمْرِی مَا کُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّی تَشْهَدُونِ». (النحل/ ۳۲)

ومن المتیقّن أنّه لم تکن فی ذلک الزمان انتخابات ولا آراء شعبیة، لکن مع وجود مثل هذه الحالة عند الملکة وهی الالتزام بالشوری فی سیر الأمور والبتّ فیها فذلک یدّل علی وجود حکومة الشوری نوعاً ما.

إضافة إلی ذلک فإنّ مسألة الشوری هی احدی المسائل التی تتضمنها البرامج الإسلامیة و تؤکد علیها فی الامور الاجتماعیة والحکومیة عامة، وکما یذکر القرآن الکریم واصفاً المؤمنین الحقیقیین بقوله: «وَأَمْرُهُم شُورَی بَیْنَهُم». (الشوری ۳۸)

بل حتی أنّه أمر النبیّ صلی الله علیه و آله بالمشورة مع المؤمنین حیث یقول القرآن مخاطباً الرسول صلی الله علیه و آله: «وَشَاوِرهُم فِی الأَمرِ». (آل عمران/ ۱۵۹)

ومع أنّ حکومة الرسول صلی الله علیه و آله کانت من نوع الحکومات الإلهیّة، إلّاأنّه صلی الله علیه و آله کان یُؤمر بمشاورة الناس لتبقی حکومته ذات صبغة شعبیة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲

۳- وأمّا ما یتعلّق بالحکومات الإلهیّة فقد وردت آیات قرآنیة کثیرة تبحث ذلک، یقول القرآن الکریم عن لسان داود: «قَالَ رَبِّ اغفِرْ لِی وَهَبْ لِی مُلْکاً لَّایَنبَغِی لِأَحَدٍ مِّن بَعدِی إِنّکَ أَنْتَ الوَهّابُ». (ص/ ۳۵)

ونتبیّن من الآیات التی تلت هذه الآیة أنّ دُعاء سلیمان علیه السلام کان قد استُجیبَ ووهبه اللَّه حکومة لم یسبق لها مثیل، فقد کانت الرِیح تجری بأمره، وسخَّرَ اللَّه له الشیاطین والعفاریت، وکان یستفید حتی من الطیور فی إنجاز بعض أعماله.

ویقول القرآن الکریم متحدثاً عن آل إبراهیم: «فَقَد آتَینَا آلَ إِبْرَاهِیمَ الکِتَابَ وَالحِکْمَةَ وَآتَینَاهُم مُّلکاً عَظِیماً». (النساء/ ۵۴)

وتشمل کلمة (آل إبراهیم): بنی اسرائیل ویوسف وداود وسلیمان وغیرهم).

ویذکر القرآن الکریم (طالوت)، أحد ملوک بنی اسرائیل المعروفین وعلی لسان نبیّ ذلک الزمان (شموئیل) قائلًا: «وَقَالَ لَهُم نَبِیُّهُم إِنَّ اللَّهَ قَد بَعَثَ لَکُم طَالُوتَ مَلِکاً». (البقرة/ ۲۴۷)

ویُقصَدُ بذلک أنّ هذه الهبة قد وهبها اللَّه سبحانه لطالوت.

ولکن بنی اسرائیل الذین لم یکونوا علی علم واطّلاع کاملین بأمور الحکومة الإلهیّة، عارضوا هذا الانتخاب واعتبروا أنفسهم أفضل منه لاستلام ذلک المنصب لأنّ طالوت کان رجلًا قروِیاً، فلم یکن صاحب مال ولا عشیرة معروفة، لکن نبیّهم رفع تلک الشبهة بقوله: «إِنَّ اللَّهَ اصطَفَاهُ عَلَیْکُم وَزَادَهُ بَسْطَةً فِی العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللَّهُ یُؤتِی مُلکَهُ مَنْ یَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِیمٌ». (البقرة/ ۲۴۷)

وقد اشیر فی سورة النساء إشارة واضحة إلی حکومة النبی صلی الله علیه و آله وآله بقوله: «أَم یَحسُدُونَ النَّاسَ عَلَی مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضلِهِ فَقَد آتَینَا آلَ إِبرَاهِیمَ الکِتَابَ وَالحِکمَةَ وَآتَینَاهُم مُّلکاً عَظِیماً». (النساء/ ۵۴)

کانت تلک لمحة حول بعض أنواع الحکومات المذکورة فی القرآن الکریم، والآن نبدأ بنقد ودراسة کل نوع من تلک الحکومات الثلاث:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳

دراسة ونقد لأنواع الحکومات

اشارة

لا يخفى على أى شخص ما تستبطنه الحكومات المستبدة والدكتاتورية فى ثناياها من مفاسد، وما أصاب المجتمعات من ويلات ومصائب مدمرة على مر التّاريخ، من قتل الأبرياء وتعذيبهم، والحروب المدمّرة والاستيلاء على الأموال، واستعباد المحرومين والضعفاء، وانتشار التعصّب والتمييز العنصرى والظلّم، وصرف أموال المجتمع على التّرف والبذخ، كلّ ذلك من آثار تسلط الحكومات المستبدة، وقد ذكر القرآن الكريم وصفاً حقّاً لذلك حيث قال: «انَّ المُلُوكَ اذَا دَخَلُوا قَرِيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا اعِزَّةَ أَهلِها اذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفعَلُونَ». (النمل/ ۳۴)

ولا فرق بين أن يكون الاستبداد فردياً أو جماعياً، بل إنّ آثار الاستبداد الجماعى أكثر سوءاً من الاستبداد الفردى، وأوضح مثال على هذا النوع من الاستبداد هو الحزب الشيوعى فى روسية والذى كان السبب فى جرّ أنواع المصائب والفجائع التى لا يمثل لها فى التاريخ.

إنَّ الحكومات المستبدة والتى تتظاهر بزىّ الحكومات الشعبية والديمقراطية لا تقلّ سوءاً عن الحكومات المستبدة المطلقة، بل إنّها أسوء بكثير من جهات شتى ذلك لأنّ الشعب حسّاسٌ دائماً تجاه استبداد الدكتاتوريين ويتحين الفرص للانتفاض ضدهم والتخلّص منهم، أمّا فى حالة الحكومة المستبدة المتلبسة بلباس الديمقراطية- كما هو الحال فى كثير من الحكومات الغربية التى تستلم السلطة بصرف مبالغ طائلة على الاعلام والصحف بالإستعانه بالرأسماليين- فلا تبيّن شيئاً يمكّن الناس من معارضتهم والثورة ضدهم فى الفرصة المناسبة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۴

وأمّا الحكومة الديمقراطية الواقعية والّتى تمثل أكثرية الشعب (إذا وجدت حكومة كهذة فى العالم) فهى كذلك، حيث تنطوى على مساوىء كثيرة، بل وحتى تمارس الظلم والاعتداء، وذلك لأمور منها:

أولًا: إنّ الكثير من النّاس فى أغلب الدول التى تكون حكوماتها واقعاً أو ظاهراً من هذا النوع، لا يشاركون بصورة عملية فى الانتخابات فيها، إذ ربّما شارك ستون أو سبعون فى المئة بل وأقل من ذلك أيضاً؛ ومع ذلك فاننا نرى ان نتائجها تشير إلى أنّ المرشّح الفلانى قد حاز على أكثرية الأصوات، إنّها لم تكن أكثرية فى المجتمع. (مثلًا نسبة ۳۱ خ مقابل ۲۹ خ من مجموع ۶۰ خ من الأفراد المشتركين فى تلك الانتخابات).

وفى هذه الحالة، توجد مصاديق عديدة فإنّ الأقلية من الناس تتسلّم مقاليد الامور، بينما ترضخ الأكثرية تحت حكمهم وسيطرتهم، وبديهىّ أن ينظّموا كل القوانين حسب أهوائهم ومصالحهم، وهذا هو الظلم الفاحش بعينه.

ثانياً: لو فرضنا أن جميع أفراد الشعب الذين لهم حقّ المشاركة فى الانتخابات قد اشتركوا فيها (طبعاً إنّ مثل هذه الفرضية لم تحدث أبداً) فيمكن أيضاً فوز البعض بأكثرية قليلة وضئيلة (كأن يكون ۵۱ خ فى مقابل ۴۹ خ أو أكثر أو أقل).

وهذا أيضاً أحد أنواع (استبداد الأكثرية) ضد الأقلية، ففى دولة يبلغ عدد سكانها ۱۰۰ مليون نسمة مثلًا تخضع فيه ۴۹ ميلون نسمة لسلطة ۵۱ مليون شخص، فكلّ شىء فىالمجتمع يسير وِفقاً لمصلحة الأكثريّة وقد يكون بضرر الأقليّة، ولهذا فقد أذعن كثير من المفكرين إلى أنّ حكومة الأكثرية هى نوع من الحكومة الظالمة الّتى لابدّ منها، لأنّه لا حيلة لهم ولا بديل سواها.

ثالثاً: وبعيداً عن ذلك وعلى فرض أنّ الحكومة الديمقراطية لا تنطوى على أىّ من الإشكالين المذكورين فإنّها حكومة تتبعُ رغبات الأكثرية من الشعب، ونحن نعلم أنّه يحدث أحياناً أن ينحرف أكثرية الشعب نتيجة للمستوى العلمى والثقافى المتدنّى، أو فى هذه الحالة يتحتَّم على العلماء والمتفقين النهوض ومحاربة هذه الآفة الخطيرة، بينما لا نرى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۵

فى هذه الموارد معارضة ولا محاربة فى الأنظمة الديمقراطية، بل نرى العكس، حيث أخذت هذه الانحرافات شكلًا قانونياً واجيزت من قبل المشرّعين هناك، فمثلًا أصبح الزواج من الجنس المماثل فى انجلترا وأمريكا مجازاً من قِبلِ القانون، وكذلك الحال مع مسألة

سقط الجنين أو الإجهاض، ذلك أنّ الممثلين فى هذه الدوّل يعبّرون عن رغبات الشعب لا رعاية مصالحه.

ومن هنا نجد أنّنا بحاجة إلى البحث عن النوع الثالث من الحكومة، ألا وهى حكومة الصالحين، الحكومة التى اقترحها الأنبياء عليهم السلام، وحتّى لو كانت هناك انتخابات فإنّها تجرى على أساس انتخاب الأصلح وقت رعاية الإمام العادل.

ففى هذا النوع من الحكومة لا نجد الآفات الثلاث التى وجدناها فى الحكومات الديمقراطية، فلا مجال للرأسمالية ولا للاستبداد حيث يسيطر بواسطتها نصف المجتمع على النصف الآخر، ولا مكان للرغبات المنحرفة فى المجتمع.

وعلى هذا، فإنّ الحكومة الوحيدة التى يمكن قبولها تماماً هى حكومة اللَّه، وحكومة الرسول صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، وأولئك الذين يمتلكون الشروط الخاصّة لخلافتهم، وطبيعى أن لا نرى الدنيا فى حالة من العدالة والصلاح والسعادة التامة إلّافى ظل الحكومة الإلهيّة.

الحكومة تنصيب أم انتخاب:

الجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف وجهات النظر فالذين لاينتمون إلى دين معين، أو ينتمون إلى دين، لكن انتمائهم محدود بالامور والمسائل الشخصية وليس له أى نفوذ فى الامور الاجتماعية، مثل «الكثير من المسيحيين» فإنّ جوابهم عن هذا السؤال واضح.

فهم يقولون: إنَّ أفضل أشكال الحكومات هى التى تكون منبثقة عن الشعب، ولأنّ اتفاق الآراء غير ممكن غالباً، فلذلك يجب انتخاب الحكّام عن طريق الأكثرية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۶

ولكن ما هو جدير بالذكر أنّ الموالين لهذه الفكرة يؤيدون الحكومات التى تصل إلى دفّة الحكم عن طريق الانقلابات واستخدام القوة من قِبلَ العسكريين ويقيمون معها نفس العلاقات التى يقيمونها مع الحكومات الشعبية، ولا يهمّهم كيف وصلت هذه الحكومة إلى سدة الحكم! المهم هى على كرسى الحكم وتستطيع تثبيت حكمها وسيادتها.

ولهذا السبب نراهم يتريثون قليلًا حينما يقع انقلاب عسكرى فى أى بقعة من بقاع العالم ليروا هل ينتصر ويستلم مقاليد الحكم؟ فاذا انتصر وثبّت دعائم حكمه ووطّد أركانه فعندئذ تتبارى الحكومات المادية للإعتراف به.

والاعجب من ذلك أنّ جميع فقهاء المذاهب الأربعة من السنّة، حسب قول مؤلف كتاب (الفقه الإسلامى وادلّته) يتفقون على أنّ الإمامة والحكومة يمكن حيازتهما بالقوّة والغلبة، وكلّ من يصل إلى الحكم بالقوّة! دون الحاجة إلى بيعة الناس أو خلافة امام ومجىء خليفة من بعده «۱». وقد ورد هذا المعنى بصراحة أكثر على لسان الفقيه السنّى المعروف «أحمد بن حنبل»، حيث لا يعتبر الإمامة مشروطة بالعدل ولا بالعلم ولا الفضيلة، وينقل حديثاً يتضمن معناه أنّ كلّ من تغلّب على الحكم بالسيف فهو خليفة وأمير للمؤمنين ولا يجوز لأحد انكار إمامة ذلك الغالب سواء كان بارّاً أم فاجراً «۲».

وورد نظير هذا المعنى فى كتاب (منهاج السنن) «۳».

وربّما خطر على بال البعض ان القول بهذا المعنى لا يصدر إلّامن أولئك الذين لا يؤمنون بأى اله أو دين، ولكن لماذايصدر هذا القول وتلك الفتوى ممّن يدّعى الإيمان والإسلام ويتمسّك بالقيم الخاصة للحكومة كالإيمان والعدالة؟

ولكننا وبعد فهمنا لهذه الحقيقة وهى أنّهم كانوا غالباً بصدد تبرير موقف الخلفاء من بنى امية وبنى‌العباس ومسايرتهم، حينئذٍ لا يعترينا العَجَب من اعترافهم بالحكومات الظالمة والفاجرة التى وصلت إلى سدّة الحكم بالقوة والبطش.

---

(۱) الفقه الإسلامى وأدلّته، ج ۶، ص ۶۸۲.

(۲) الأحكام السلطانية، ص ۲۰.

(۳) كتاب المنهاج السنّة كتاب البغاة، ص ۵۱۸.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۷

على أيّة حال، فإننا وكلّما نظرنا بمنظار القرآن الكريم إلى هذه المسألة يتّضح لنا بجلاء أنّ الحكومة هى من حقّ الذات المقدّسة للخالق ثم لمن يراه عزّ وجلّ صالحاً لذلك.

فقد ذكر القرآن الكريم هذه الآية فى أكثر من مكان: «إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للَّهِ».

(الانعام/ ۵۷) (يوسف/ ۴۰- ۶۷)

ونرى نفس هذا المضمون فى آيات اخرى

إنَّ كلمة «حُكم» تتضمّن معنىً واسعاً حيث تشمل (الحكومة) و (القضاء) كذلك.

والواقع أن توحيد الخلقة ملازمٌ لتوحيد الحكم، بمعنى أننا عندما نُسَلِّم أنّ العالَم بأجمعه مخلوق من مخلوقات اللَّه سبحانه، علينا أن نقبل أنَّه ملكٌ تامٌ له أيضاً، وطبيعى أن يكون الحكم المطلق لهذا العالم بيد اللَّه كذلك، لذا وجب أن نسير حسب أوامره، واعتبار من يجلس على كرسى الحكم دون اذنه وأمره متعدياً وغاصباً.

هذه الفكرة النابعة من (التوحيد الافعالى للخالق) (توحيد المالكية والحكم)، معروفة كاملًا للموحدين كما أنّ عقائد المذاهب الالحادية معروفة للجميع، (تأمل جيداً).

ولهذا السبب فإننا نعتبر الأنبياء حكّاماً حقيقيين من قبل اللَّه، ولهذا السبب أيضاً بدأ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بتشكيل الحكومة فى أول فرصة سنحت له، أى عند هجرته إلى المدينة حيث كان الوقت مناسباً لذلك.

وبعد ذلك فالحكومة من حقّ الذين عُيّنوا من قِبَلِهِ بواسطة أو بدونها.

وهناك روايات كثيرة تحدد الأمراء والأئمّة بعد الرسول صلى الله عليه و آله بإثنى عشر إماماً وقد أوردنا المصادر لذلك فى المجلد التاسع من نفحات القرآن بأن هذا الحقّ من نصيب الأئمّة الاثنى عشر من آل البيت عليهم السلام، (إذ لم يظهر أىّ تفسير مقبول لتلك الرّوايات غيره).

وعلى هذا الأساس، فإنّ الأشخاص الذين لهم حق الخلافة والحكومة فى زمن غيبة الإمام المهدى (عج) هم الذين ينصّ بهم الإمام بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ويتبيّن لنا ممّا قيل أعلاه أنّ الحكومة من وجهة نظر المسلم الموحِّد يجب تعيينها من قبل اللَّه تعالى بل وحتى تلك الحقوق التى نقر بها للشعب فهى أيضاً تتعين من قبله تعالى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۸

ولا يتمكن الموحِّد ابداً ان يجعل إرادة الخلق اساساً للحكومة دون أن تنتهى إلى إرادة الخالق. (تأمل جيداً).

وما كتبه بعض المغفلين من أنّ: «هناك حقيقة يدركها الجميع وهى أنّ كل من حاز على أكثرية الأصوات وأيده الشعب فهو الحاكم لأنّ القوّة الحقيقية للمجتمع هو الشعب ... الشعب هو الذى يمنح الولاية لشخص ويجسّد حاكميته على الآخرين» لا يتلاءم مع النظرة التوحيدية.

نحن نقول: إنّ النظرة التوحيدية هى عكس هذا الأمر، أى: إنّه اللَّه تعالى هو الذى يمنح الولاية لشخص ما ويجسِّد حاكميته على الآخرين، ولو كان للشعب حق فى هذا المجال فهو أيضاً من اللَّه تعالى

زبدة الكلام هى أنّ الحكومة وحسب النظرة التوحيدية تكون من السماء، بينما حسب الأفكار الالحادية فهى من الأرض!.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۹

حقيقة الحكومة الإسلامية

اشارة

البحث حول حقيقة الحكومة الإسلامية مع الاخذ بنظر الاعتبار ما تقدم من كلام فى البحث السابق ليس بتلك الصعوبة، لان حق الحكومة هو اولًا وبالذات من شأنه سبحانه، وذلك بعد قبول التوحيد فى الحاكمية الذى يعد من فروع التوحيد الافعالى، وفى المرتبة الثّانية من شأن كل من يعيِّنُه لذلك. وعلى هذا، فالحكومة الإسلامية ليست حكومة دكتاتورية استبدادية، ولا حكومة ديمقراطية، بل نمط من الحكومة الأفضل، اى الحكومة الإلهيّة.

لكن هذا لا يعنى أنّ أصل (الشورى ، والاهتمام بآراء الشعب ليس له دور فى الحكومة الإسلامية، وأنّه لا يعتد به لا من قريب ولا من بعيد.

لأنّ «مالك الملوك» و «أحكم الحاكمين» حينما يأمر بالشورى والاصغاء إلى آراء الشعب، تكتسب هذه الامور شرعيتها، ونعلم بوجود الأمر الصريح بالشورى فى آيتين من القرآن الكريم.

ففى الآية ۳۸ من سورة الشورى التى سميت بهذا الاسم لأجل نفس هذه الآية، ذكرت سبع خصال جلية للمؤمنين المتوكلين على اللّه تعالى أحداهما، المشورة فى الامور المهمّة، يقول تعالى «وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُم»!.

وذهبت الآية ۱۵۹ من سورة آل عمران ابعد من ذلك إذ أوصت النبى صلى الله عليه و آله ثلاث توصيات فيما يتعلق بالمؤمنين، احداهما مشاورتهم فى الامور الحساسة، يقول تعالى

«وَشَاوِرْهُم فِى الأَمْر».

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۰

وبناءً على هذا، فاحترام آراء الناس يكتسب مشروعيته من أمره تعالى هذا من جهة ومن جهة اخرى فالنبى صلى الله عليه و آله وخلفاؤه المعصومون، وكذلك العلماء الذين يكتسبون مشروعيتهم بالواسطة من قبله سبحانه باعتبارهم من مصاديق «الولى الفقيه» ملزمون برعاية مصالح الناس فى كل مكان وزمان، أى الاهتمام بغبطة العامّة كما يصطلح عليه، ومن البديهى أنّ مصلحة الناس تستلزم اسهامهم فى أمر الحكومة نوعاً ما والاصغاء لآرائهم، وبهذا يكتسب الاهتمام بآرائهم صبغة إلهيّة.

وبعبارة اخرى فالحكومة الإلهيّة إنّما تبدو منسجمة حينما تتمتع بقدرة تنفيذية عالية، ولا سبيل إلى هذه القدرة إلّابمشاركة الشعب فى أمر الحكومة، وبما أنّ تنفيذ الأحكام الإلهيّة واجب، فيكون اسهام الشعب فى أمر الحكومة مقدّمة لذلك الواجب، ومقدّمة الواجب واجبة.

وخلاصة الكلام:، إنّ جوهر الحكومة الإسلامية هو الحكومة الإلهيّة، لكن هذه الحكومة تنبع فى خاتمة المطاف من الحكومة الشعبية، فتعيين الأنبياء والأئمّة وخلفائهم يشكل جوهر الحكومة الإلهيّة، والتزام هؤلاء بمسألة الشورى واحترام آراء الشعب الذى يكون بأمر اللّه تعالى أيضاً، يشكل الصبغة الشعبية لها.

فالذين يتصورون أنّ الحكومة الإسلامية متكئة على آراء الشعب مائة بالمائة، ويهملون عنصرها الإلهى، يذهبون شططاً، كما أنّ الذين يولون اهتمامهم للجانب الإلهى ويغضون الطرف عن جانب الشورى وآراء الشعب مخطئون أيضاً.

وسنتناول فى الأبحاث القادمة (فى بحث البيعة والشورى) هذا الأمر بتفصيل أكثر.

وعلى أيّة حال، فكيف يمكن تجاهل هذه الحقيقة، وهى أنّ مشاركة الشعب فى أمر الحكومة تضيف قدرة ومنعة للحكام، كما أنّهم أعجز ما يكونون عند غياب مشاركة الشعب، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام فى الخطبة الشقشقية:

«أَمَا وَالَّذِى فَلَقَ الحَبَّةَ وَ بَرءَ النَّسَمَةَ لَولَا حُضُورُ الحَاضِرِ وَ قِيَامُ الحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى العُلَمَاءِ إلَّايُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظلُومٍ، لَأَلقَيتُ حَبلَهَا عَلَى غَارِبِهَا» «۱».

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۱

هذا التعبير يحكى بكل وضوح عن أنّ تأييد الشعب يؤدّى أيضاً إلى إقامة الحجّة على الولى المنصوب من قبل اللَّه تعالى

ولا شك أنّ ولايته عليه السلام كانت ثابتة من قبل اللَّه تعالى وعن طريق الرسول صلى الله عليه و آله، وأنّ هذه الولاية فعلية، فهى- وعلى خلاف ما قاله بعض المغفلين- لم يكن لها جنبة الشأنية والقوة، أمّا من الناحية التنفيذية والعملية فلا تستغنى عن دعم الشعب، ولا يتحرك لها ساكن بدون ذلك الدعم.

أمّا بالنسبة لفقهاء الإسلام- وكما سيأتى- فالولاية الفعلية ثابتة للجميع، لكن تجسيد هذه الولاية إنّما يكون ممكناً حينما تتمتع بدعم وتأييد الشعب فقط، ولهذا السبب فالولى الفقيه الذى يحظى بآراء الشعب تكون له الأولوية قياساً بالفقهاء الآخرين، لتمكنه من تطبيق ولايته التى يتمتع بها دون غيره، (وسيأتى تفصيل هذا الكلام فى محله إن شاء اللَّه تعالى .

وعلى هذا، فلو تمّ التعبير فى مثل هذه الموارد ب «الانتخاب»، فذلك لا يعنى أنّ هذا المنصب يُمنح لهم من قبل الشعب، لأنّ حقّ الولاية من وجهة النظر التوحيدية إنّما هو للَّه‌لا غير، وهذا المنصب إنّما يكون للذين عيّنهم اللَّه تعالى مباشرة أو عن طريق أوليائه، أمّا اعتبار الشعب هو الأساس ونفى الجانب الإلهى للحكومة فنابع من عقائد الشرك غير التوحيدية.

والمقصود أنّ الشعب إنّما يعلن دعمه لفقيه ما حينما يراه أفضل وأليق من كل الفقهاء، ولو كان الانتخاب بيد الشعب، ولما كانت هنالك ضرورة لانتخابه من بين الفقهاء، بل لأمكنهم انتخاب من شاؤوا لهذا الأمر، سواء كان فقيهاً أم لم يكن.

وخلاصة القول: إنّ الشعب لا يضع أحداً على سدة الحكم، لأنّ هذا الحق خاص باللَّه تعالى ودور الناس إنّما يقتصر على انتخاب شخص من بين الذين منحهم اللَّه تعالى حق الولاية، ولو تمّ التعبير ب «الانتخاب» فهذا لا يعنى ما يروج له العالم المادى، والقرائن الحالية والمقالية شاهد صدق على هذه الحقيقة، وهى أنّ حقيقة هذين الانتخابين متفاوتة تماماً.

(تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۲

وعلى هذا، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان ولياً من قِبل اللَّه تعالى حتى قبل بيعة الناس له، ومن الجدير بالذكر أنّ اللَّه تعالى قد منح هذه الولاية له عليه السلام طبقاً لصريح آية الولاية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم رَاكِعُونَ». (المائدة/ ۵۵)

وطبقاً لحديث الغدير المتواتر وجملة: «مَنْ كُنْتُ مَولَاه فَهذا عَلِيٌّ مَولَاه»، حيث إنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قد عيّنه رسمياً لهذا المنصب من قبل اللَّه تعالى لكن بيعة الناس للآخرين حالت بينه وبين تطبيق ولايته مدّة من الزمن، ولم يمكن تجسيد هذه الولاية إلّابعد بيعة الناس له عليه السلام. أجل، فالشعب قد هيأ الأرضية للتنفيذ، لا أنّه أوصله إلى مقام الولاية الفعلى.

وكذا الأمر بالنسبة للفقهاء، حيث إنّهم- وطبقاً لما سيأتى من الأدلة- كلما تمتعوا بحسن التدبير والإدارة والإحاطة بأمور الزمن وشروطه فضلًا عن الاجتهاد والعدالة، فلهم الولاية الفعلية من قبل اللَّه تعالى لكن تطبيق هذه الولاية يحتاج إلى مقدمات وعلى رأس هذه المقدّمات دعم الشعب وتأييده.

وهكذا الحال فى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، إذ إنّه لم يتمكن من تشكيل الحكومة فترة وجوده فى «مكة»، بل قام بتشكيلها حينما دخل المدينة وكان دعم الشعب كافياً لذلك والعقبات قد ازيلت، لكن هذا لا يعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم تكن له الولاية فى مكة، وأنّها منحت له من قبل الناس فى المدينة، (تأمل جيداً).

الولاية الخبرية والإنشائية؟!

يعتقد البعض أنّ العلماء الذين تحدثوا عن «ولاية الفقيه» لهم رأيان متفاوتان، فالبعض قال بولاية الفقيه بالمعنى «الخبرى»، والبعض الآخر بالمفهوم «الإنشائى»، وهذان المفهومان يختلفان فى الماهيّة عن بعضهما.

فالأوّل يقول: إنّ الفقهاء العدول منصوبون من قبل اللّه تعالى للولاية.

ويقول الثانى: يجب على الناس انتخاب الفقيه الجامع للشرائط للولاية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۳

لكننا نعتقد أنّ هذا التقسيم لا أساس له أصلًا، لأنّ الولاية كيفما تكون فهى إنشائية، سواء أنشأها اللّه تعالى أو النبى صلى الله عليه و آله أو الأئمّة، كأن يقول الإمام عليه السلام: «إنّى قَدْ جَعَلْتُهُ حَاكِماً»، أو أن ينتخبه الناس «على سبيل الفرض»، فينشئون له الولاية والحكومة.

فكلاهما إنشائى، والتفاوت يكمن فى أنّ إنشاء الحكومة يكون تارة من قبل اللّه تعالى واخرى من قبل الناس، والتعبير ب «الإخبارى» هنا يحكى عن عدم احاطة القائل بهذا القول، أو أنّه يدرك الفرق، إلّاأنّه استعمل هذه العبارات من باب المسامحة.

والتعبير الصحيح هو أنّ الولاية إنشائية فى كل الأحوال، وهى من ضمن المناصب التى لا تتحقق بدون الإنشاء، والتفاوت هنا هو أنّ إنشاء هذا المنصب والموهبة قد يكون من قبل اللّه تعالى أو من قبل الناس، فالمدارس التوحيدية تراه من قبل اللّه تعالى (وحتى لو كان من قبل الناس فلابدّ أن يكون بإذنه تعالى أيضاً)، وتتوهمه المدارس الإلحادية بأنّه من قبل الناس.

وعلى هذا، فالخلاف ليس حول «الإخبار» و «الإنشاء»، بل حول الذى ينشىء ذلك، هل هو اللّه تعالى، أم الخلق؟ أو بعبارة اخرى هل أنّ أساس مشروعية الحكومة الإسلامية يكون بإذن اللّه تعالى وإجازته فى كل مراحل ومراتب الحكومة، أم بإذن الناس واجازتهم؟

لا شك أنّ الذى يوافق النظرة الإلهيّة هو الأول دون الثانى.

الحكومة والوكالة:

يقال أحياناً إنّ الحكومة الشعبية نمط من الوكالة، لا منح منصب، لأنّ مالك الملوك هو اللّه تعالى فيجب أن يهبه هو تعالى لمن يشاء، وبعبارة اخرى فكما أنّ كل واحد يتمكن أن يوكل غيره فى الامور الشخصية، ولا شك أنّ لهذا الأمر مشروعيته، فكذا الأمر فى القضايا الاجتماعية، إذ بإمكان الشعب اعتبار شخص ما وكيلًا له لإدارة الشؤون الاجتماعية، والشعب ملزم بتحمل نتائج تلك الوكالة ما بقيت.

لكن هذا الكلام سقيم لوجوه:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۴

أولًا: بأى حق يتدخل وكيل الأكثرية فى شؤون الأقلية؟ لنفرض أنّ ۵۱ مليون نفر قد انتخبوا أحد الأشخاص وكيلًا عنهم، و ۴۹ مليون قد وكّلوا شخصاً آخر، فبأى دليل يمتلك وكيل ال (۵۱ مليون) حق التدخل فى شؤون ال (۴۹ مليون نفر).

ثانياً: هنالك شريحة يعتد بها من الشعب لا تشترك فى الانتخابات فى أكثر الأحيان ولأسباب شتى ولا يمنحون أصواتهم لأحد باعتباره وكيلًا لهم، فأيّة ضرورة تقضى بوجوب اتباعهم لمن يتمتع بوكالة الآخرين؟!

ثالثاً: الوكالة عقد جائز، وبإمكان الموكّل عزل وكيله متى شاء، فى حين أنّ الشعب لا يمكنه أبداً فى ظل الأنظمة السياسية فى العالم عزل مرشحيه- والمرشحين لرئاسة الجمهورية وأمثالها.

الحقيقة هى أنّ الديمقراطية لا يمكن تحجيمها بهذه العناوين، إذ إنّ للديمقراطية هويتها الخاصة بها، وهى فى الواقع نوعٌ من العقد الاجتماعى تفرضه الضرورة، لأنّ الشعب بحاجة إلى حكومة ما على كل الأحوال، ومن جهة اخرى فاتفاق آراء الشعب على هذا الأمر

غير ممكن، إذن، فلابدّ من الذهاب- شئنا أم أبينا- وراء رأى الأكثرية، كما يجب على الأقلية الرضوخ أمام الأكثرية، إذ لا سبيل لإدارة المجتمع ولا توجد رؤية اخرى سوى ذلك، وهى أنّه نتوافق مع رأيهم، حتّى لو لم يكن هذا الأمر متصفاً بالعدالة المحضة.

أمّا الذين ينظرون إلى الحكومة بأنّها من قبل اللّه تعالى فلهم رؤية اخرى وهى أنّه لنرى من ذلك الشخص الذى وضع اللّه تعالى الحكومة تحت اختياره؟ وبهذه الحالة تكون آراء الشعب- عند تعدد الأفراد اللائقين من وجهة نظر الإسلام- قادرة على صنع القرار عند تعيين الشخص المتفق عليه، فيتغلب ذلك الشخص الذى يحظى بدعم جماهيرى أكبر لتنفيذ أهداف الحكومة.

وبإمكان المسائل المتعلقة بالبيعة توضيح هذا الأمر بشكل أكبر، وسنتكلم إن شاء اللّه بالتفصيل فى الأبحاث القادمة عن دور البيعة فى الحكومة، وحقيقة البيعة وشروطها.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۵

العلاقة بين الدين والحكومة من وجهة نظر القرآن الكريم

اشارة

إنَّ شعار فصل الدين عن السياسة هو الأكثر رواجاً فى الدول الغربية، وقد يعد من بديهياتهم المتفق عليها، ومن هنا يأخذهم الرعب والخوف من تشكيل الحكومة الإسلامية التى تجمع بين «الدين» و «السياسة» بشكل تام! وذلك لسببين:

۱- الدين الموجود فى المجتمعات الغربية هو دين المسيحية الحالى، ونحن نعلم أنّ هذا الدين ونتيجة للتحريفات الكثيرة التى طرأت عليه على مرّ الزمن قد تجسّد فى سلسلة من التوصيات الأخلاقية، ولا علاقة له بالقضايا الاجتماعية خصوصاً السياسية منها.

والفرق بين الشخص المتديّن وغير المتديّن فى هذه المجتمعات، هو أنّ الأول ملتزم بسلسلة من الاصول الأخلاقية، ويذهب فى الاسبوع مرّة واحدة إلى الكنيسة ليتضرع ويناجى ربّه ساعة من الزمن، أمّا غير المتدين فلا يبالى بمثل هذه الأخلاقيات (وإن احترموها أحياناً باعتبارها من المثل الإنسانية لا الدينية)، ولا يذهبون إلى الكنيسة أبداً.

۲- الذكرى المؤلمة جدّاً التى يحملونها معهم من حكومة أرباب الكنيسة فى القرون الوسطى وعهد «انكيزيسيون» (تفتيش العقائد)، سَببت فى أن يفصلوا الدين عن السياسة وإلى الأبد.

توضيح ذلك: لقد هيمن رجال الكنيسة فى القرون الوسطى على كافة الشؤون السياسية والاجتماعية لشعوب اوربا، وحَكم البابوات دول هذه القارة بكل قوة، بحيث انتهت حكومتهم إلى الاستبداد والطغيان، حتى أنّهم وقفوا أمام كل تقدم علمى، وسحقوا كل تطور

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۶

علمى وفكرى باعتباره منافياً للدين، فأسسوا محاكم سميت فيما بعد ب «انكيزيسيون» «محاكم تفتيش العقائد»، وحكموا على أعداد كبيرة فى هذه المحاكم بالموت، فقطعوا رؤوس بعضهم، وأحرقوا البعض الآخر بالنّار وهم أحياء، أو أنّهم حكموا عليهم بالسجن، ومن بينهم عدد من العلماء الطبيعيين المعروفين. وكلُّ الملوك كانوا يحسبون لرجال الدّين هؤلاء حساباً ويطيعون أوامرهم.

بالإضافة إلى الأموال الطائلة التى أخذوها وعاشوا فى نعيم لا يوصف.

وقد أثارت كل هذه الامور الشعب ضدهم، خصوصاً علماء العلوم الطبيعية، حيث إنّهم وقفوا فى وجوههم بقوة، وعمّ شعار «فصل الدين عن السياسة» من جهة، والتنافى بين العلم والدين، من جهة اخرى كلَّ مكان، ثم وبانتصار هذا الجناح، انسحبت الكنيسة ورجالها من المجتمع والحكومة، والدولة الوحيدة التى بقيت بيد رجال الكنيسة من تلك الامبراطورية الواسعة هى دولة الفاتيكان الصغيرة التى لا تتجاوز الكيلومتر المربع الواحد أى بمساحة قرية صغيرة «۱».

كانت هذه كلها، تطورات قد حدثت فى اوربا وخلال تلك الظروف الخاصة.

ثم إنّ فريقاً من الدول الإسلامية حينما ذهب إلى الغرب للدراسة أو التجارة أو السياحة جاء بمثل هذه الأفكار معه كهدية من الغرب للشرق الإسلامى وهى لزوم فصل الدين عن السياسة، دون الوقوف على البون الشاسع بين «الإسلام» وبين «المسيحية» المحرّفة، وبدون التأمل فى التفاوت بين الثقافة الإسلامية الحاكمة على هذه الدول وثقافة الكنيسة.

ومع الأسف فقد رضخت بعض الدول الإسلامية لهذه المؤامرة الاعلامية واعتبرتها أصلًا لا يمكن التنازل عنه (لا يخفى أنّ الدول الغربية التى كانت ولا تزال تخاف قوّة

---

(۱) ذكرت مساحة الفاتيكان فى قاموس دهخدا وقاموس معين بأنّها ۴۴ هكتاراً (أقل من نصف كم)، وبلغ عدد نفوسها حسب بعض المصادر ۵۲۵ نفراً! وفى البعض الآخر ۷۰۰ نفر، وفى البعض الآخر ألف نفر! وفى الحقيقة فإنّ هذه الدولة عبارة عن مجموعة من الكنائس والأبنية المتعلقة بها، وفيها محطة قطار، دائرة البريد، محطة الاذاعة، ولها قانون خاص بها وحكومة مستقلة، وهناك حوالى خمسين دولة لها ممثلين لدى البابا. والملفت للنظر أنّ هذا البلد يقع فى قلب روما عاصمة ايطاليا (قاموس دهخدا، قاموس معين، والمنجد فى الاعلام).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۷

الحكومة الإسلامية، قد تابعت هذه القضية بجدية، وأن الدول المستغربة مثل تركيا، قد اتبعت هذا الأصل ووضعته على رأس قائمة أعمالها وقامت بتشكيل الحكومة العلمانية).

هذا فى الوقت الذى وقفت الكثير من الدول الإسلامية وشعوبها اليقظة فى وجه هذه المؤامرة، التى أرادت فصل «المسلمين» عن «الإسلام»، وجعل الإسلام كمسيحية اليوم مجرد طقوس ظاهرية خاصة بالخلق والخالق بعيدة عن المجتمع والسياسة.

ولهذا السبب، فحينما نجحت الثورة الإسلامية الايرانية وآتت اكلها وقامت بتشكيل أول حكومة إسلامية ثورية، أخذت الحيرة والدهشة كل من فى الغرب من كيفية إمكان إمساك الدين بزمام الحكم؟ وهل بإمكان الدين تلبية كل متطلبات عصرنا؟ ولكن بعد أن فوجئوا بثبات وصلابة هذه الحكومة، ولغرض حصرها ضمن حدودها الجغرافية ولئلا تكون نموذجاً لبقية الدول الإسلامية، فقد توسّلوا بعمليات تخريبية كثيرة، بالإمكان الوقوف عليها فى الكتب التى تتناول هذا الموضوع.

ولحسن الحظ بقيت هذه المؤامرات عقيمة، وتجذّرت نظرية تأسيس الحكومة الإسلامية فى الكثير من الدول الإسلامية، فى قارة آسيا وأفريقيا وأصبح تياراً حياً ومنقذاً، مع ما يحاول الغرب بكل ما اوتى من قوّة، ولم يترك أى شىء فى هذا الطريق إلّاوتوسل به من كيل الاتهامات المغرضة الكاذبة والإعلام المغرض والمدسوس.

أمّا كيف أنّ الإسلام اقترن بمسألة الحكومة من حيث الاصول والفروع والتاريخ، فهذه المسألة ليست بتلك الصعوبة، وكل من يتأمل فى القرآن الكريم وسنة النبى صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام وكذلك تاريخ الإسلام، يدرك هذه المسألة بكل وضوح، وهى استحالة فصل الحكومة والسياسة فى الإسلام، ولأنّ ذلك بمنزلة فصل الإسلام عن نفسه!.

والشاهد على هذا الأمر وقبل كل شىء هو تاريخ الإسلام، فكما تمّت الإشارة سابقاً فإنّ أول عمل قام به النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعد الهجرة إلى المدينة كان تشكيل الحكومة الإسلامية،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۸

فقد كان صلى الله عليه و آله يدرك جيداً أنّ أهداف النبوة وبعثة الأنبياء وهى التربية والتعليم، وإقامة القسط والعدل وسعادة الإنسان ورفعته، غير ممكنة بدون تشكيل الحكومة، ولهذا السبب فقد بدأ فى أول فرصة ممكنة بإرساء اسس الحكومة وذلك بأمر من اللّه تعالى

فشكل جيشاً من المهاجرين والأنصار، وأوجب على الجميع فى أى سن كانوا وتحت أى ظروف (باستثناء النساء والأطفال والمرضى

والمقعدين) المشاركة فيه، وكان قسمٌ من تأمين السلاح والمؤونة والدواب لهذا الجيش المتواضع والبسيط على عاتق الشعب، والقسم الآخر على عاتق الحكومة الإسلامية، وكلما ازادادت الغزوات والمطاحنات مع الأعداء الشرسين واتّسعت رقعة الحروب أكثر، ازداد جيش الإسلام رسوخاً وتنظيماً.

ونزل حكم الزكاة، وتمّ ولأول مرّة تأسيس بيت المال الإسلامى لضمان تكاليف الجهاد، واحتياجات المحرومين.

ثم نزلت أحكام القضاء والعقوبات المترتبة على الجرائم والتخلفات الواحدة تلو الأخرى ودخلت الحكومة الإسلامية مراحل جديدة.

ولو لم يكن للإسلام حكومة، فما هى ضرورة تشكيل الجيش وبيت المال وكيف يمكن معاقبة المجرمين والجناة إذا لم تكن هناك محاكم.

وقد امتد هذا الوضع على هذا المنوال إلى ما بعد النبى صلى الله عليه و آله فى فترة الخلفاء، بل وحتى فى عهد خلفاء بنى امية وبنى العباس، حيث إنّهم كانوا يحكمون باسم خلفاء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ومع أنّ حكومتهم كانت تتسم بالظلم والخروج عن اطار الشرعية والقوانين الإسلامية، لكن مهما يكن فهى تعكس هذه الحقيقة وهى أن تشكيل الحكومة الإسلامية يعدّ من المسائل الأولية والأساسية فى الإسلام.

والضغوط الموجهة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام، وثورة الإمام الحسين عليه السلام، وولاية عهد الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، وحبس الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ونفى الإمام الهادى عليه السلام والإمام الحسن العسكرى عليه السلام إلى سامراء ووضعهم تحت الرقابة خوفاً من الثورة على الحكومة، كلها تبيّن بوضوح أنّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام كانوا يعتبرون تشكيل حكومة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۹

العدل الإلهى من مسؤولياتهم الأكيدة، وقد استغلوا كل فرصة من أجل إثبات حقهم، كما أنّ عدوهم كان يدرك هذا الأمر جيداً.

ولو كان الإسلام كمسيحية اليوم محدوداً بسلسلة من الأحكام الأخلاقية، لما كان لهذه الظواهر فى تاريخ الإسلام أى مفهوم، إذ لا أحد يعارض معلماً بسيطاً للأخلاق أو زاهداً منعزلًا فى زاوية مكتفياً بإقامة صلاة الجماعة.

إنّما تبدأ المعارضة حينما يتعلق الأمر بالحكومة، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فهنالك الكثير من الأحكام الإسلامية فى القرآن المجيد والتى تصرخ عالياً بضرورة تشكيل الحكومة وإرساء اسسها، وبعبارة اخرى فهذه الأحكام أحكام سياسية، وهى الّتى ترسم الخط السياسى للمجتمع الإسلامى.

هناك آيات قرآنية كثيرة حول الجهاد، وتكليف المجاهدين، وغنائم دار الحرب، والشهداء، والاسرى فهل يا ترى بالإمكان توجيه مثل هذه الأحكام خارج نطاق الحكومة؟

الكثير من الآيات القرآنية سلطت الأضواء على مسؤوليات القاضى، وأحكام القضاء، وتطبيق الحدود والقصاص وأمثالها، والكثير منها ناظر إلى أموال بيت المال.

وأمّا فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى من واجبات كل فرد مادام فى حدود التذكير والأوامر والنواهى الكلامية، لكن بعض مراحل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى تحتاج إلى الصلابة والقوة، بل وحتى المواجهة العسكرية المسلحة غير ممكنة إلّا عن طريق الحكومة.

وتطبيق العدالة الاجتماعية وإقامة القسط والعدل، وفتح الطريق للتبليغ بحرية فى أقصى نقاط العالم، لا يكون بالنصيحة والموعظة والممارسات الأخلاقية أبداً، الحكومة هى التى ينبغى أن تنزل إلى الميدان لتفك قيد الظالم عن عنق المظلوم، وتعيد حقوق المستضعفين، وتوصل نداء التوحيد إلى اسماع كل سكان المعمورة عن طريق وسائل الإعلام المتوفرة فى كل زمان.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۰

نفحات القرآن ج ۱۰ ۹۹

وقد وردت نفس هذه المضامين وبشكل أوسع فى أحاديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وروايات المعصومين عليهم السلام، والّتى تشكّل قسماً كبيراً من فقه الإسلام والكتب الفقهية، ولو أردنا فصل هذه المسائل عن الروايات والكتب الفقهية لما بقى هنا لك ما يعتد به.

وكما تقدم فالكتب الفقهية تقسم إلى ثلاثة أقسام، وهى «العبادات»، و «المعاملات»، و «السياسة».

فالعبادات هى علاقة الخلق بالخالق.

والمعاملات هى علاقة الناس بعضهم ببعض.

كما وأنّ السياسة هى علاقة الناس بالحكومة.

لكن لو دققنا النظر، لوجدنا أنّ قسم السياسة ليس الوحيد الذى لا- يطبق بغياب الحكومة، بل إنّ المعاملات أيضاً لو لم تكن تحت اشراف الحكومة لحدثت الآلاف من المصاعب والعراقيل، ولضاعت حقوق المستضعفين، وانقسم المجتمع إلى قطبين أغنياء وفقراء، ولعانى الشعب من مئات المشاكل المصطنعة.

بل وحتى العبادات لا تُقام إلّافى ظل حكومة قوية عادلة، ومن العبادات الحج وهو فريضة ذات صبغة سياسية قوية جدّاً.

وصلاة الجمعة عبادة مهمّة اخرى حيث إنّه وفضلًا عن الحضور الواسع لكل شرائح المجتمع فيها، فإنّ أهم القضايا الإسلامية والسياسية والاجتماعية والثقافية المعاصرة تطرح فى خطبتيها.

كما أنّ صلاة الجماعة اليومية لا تخلو من هذا المحتوى أيضاً، وإن كانت صبغتها السياسية أقل درجة.

وفى سورة الحج إشارة لطيفة إلى هذه الامور، يقول تعالى «الَّذِينَ انْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكاةَ وأَمَرُوا بِالمَعرُوفِ ونَهَوا عَنِ المُنكَرِ». (الحج/ ۴۱)

وممّا تقدّم، لا يبقى هناك أدنى شك فى أنّ فصل التعاليم الإسلامية عن المسائل السياسية أمر غير ممكن، وأنّ الشعارات التى تُطلق فى الغرب لفصل الدين عن السياسة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۱

فارغة من المحتوى تماماً فى الشرق الإسلامى.

ونختتم هذا الكلام بحديث جامع ولطيف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

حينما جاء «أبو الدرداء» و «أبو هريرة» برسالة معاوية إلى على عليه السلام وكان قد طلب فيها تسليم قتلة عثمان إليه ليحاكمهم، قال الإمام على عليه السلام: «لقد أبلغتمانى ما قاله معاوية، والآن اسمعا كلامى وأبلغاه عنّى، إنّ عثمان بن عفان لا يعدو أن يكون أحد رجلين: إمّا إمام هدىً حرام الدّم وواجب النّصرة لا تحلّ معصيته ولا يسع الامّة خذلانه، أو إمام ضلالة حلال الدّم، لا تحلّ ولايته ولا نصرته، فلا يخلوا من احدى الخصلتين.

والواجب فى حكم اللّه وحكم الإسلام على المسلمين بعد ما يموت إمامهم أو يقتلُ، ضالّاً كان أو مهتدياً، ومظلوماً كان أو ظالماً، حلال الدّم أو حرام الدّم، أن لا يعملوا عملًا ولا يحدثوا حدثاً ولا يقدّموا يداً ولا رجلًا ولا يبدأوا بشيٍ قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً بالقضاء والسنّة، يجمع أمرهم ويحكم بينهم ويأخذ للمظلوم من الظّالم حقّه ويحفظ أطرافهم ويجبى فيئهم ويقيم حجتهم ويجبى صدقاتهم، ثم يحتكمون إليه فى إمامهم المقتول ظلماً ليحكم بينهم بالحقّ، فإن كان إمامهم قتل مظلوماً حكم لأوليائه بدمه، وإن كان قتل ظالماً نظر كيف الحكم فى ذلك» «۱».

وعلى هذا الأساس وجب عليك يا معاوية وقبل التطرق لقضية قتل عثمان الرضوخ للحكومة الإسلامية وتبايع من بايعه كل الناس ولا تتأخر ولو لحظة بالتوسل بهذه الحجج والذرائع.

فريقان لا يروق لهما تشكيل الحكومة الإسلامية:

اشارة

مع كل ما تقدم- وطبقاً للأدلة اليقينية أنّ- «الإسلام بدون حكومة» إسلام ممسوخ وفارغ من المحتوى وفى الواقع «فهو إسلام بدون الإسلام»، فمع كل ذلك لا زال هناك فريق يصرّ ويخالف مسألة تشكيل الحكومة الإسلامية، وعلّة هذه المخالفة- فى الواقع- أمران

---

(۱) كتاب سليم بن قيس، ص ۱۸۲.

أحدهما له صبغة نفسية، والآخر له صبغة روائية.

أمّا العامل النفسى فهو إنّهم يعيشون ذكرى مُرة مع الحكومات، واعتقادهم بعجز أى أحد فى الظروف الراهنة من تشكيل الحكومة الإسلامية وبسط العدل الإلهى، نظراً للضغوط المستمرة الموجهة للحكومة من الداخل من قبل المتطرفين الذين يحاولون انتهاك حدود القوانين الإسلامية وضرب العدالة الاجتماعية، وتقديم الشعارات الفارغة على تعاليم الكتاب والسنة المعروفة.

ومن جهة اخرى فهناك الضغوط الواردة من الخارج، والمؤامرات التى تحاك من قبل الأجانب التى يقوم بها عملاؤهم من العناصر «السرية» و «العلنية» كل ذلك يحول دون نجاح الحكومة الإسلامية فى مواصلة طريقها، ويتسبب فى حرفها حتماً عن مسيرها الحقيقى لتضعها فى خدمة أهدافهم، ولهذا السبب، يرون أنّ الحكومة الإسلامية الحقيقية غير قابلة للتطبيق عملياً.

وهم يستدلون على ادّعائهم هذا بقضيّة الحكومة الدستورية فى ايران حيث إنّ علماء الدين قد توغلوا فيها بكل ما اوتوا من قوّة، ليعكسوا للعالم تشكيلة الحكومة الإسلامية (أو ما يماثلها ولو من بعض الجهات)، لكن رغم كل تلك الجهود، فقد وقف مؤيدو الخط المنحرف من الداخل والأجانب وقفة رجل واحد وفى خاتمة المطاف استبدلوها بحكومة مستبدة ظالمة.

أمّا من الناحية الروائية فهم يتمسكون بالرّوايات القائلة: «كل راية ترفع قبل قيام القائم فهى راية ضلال»! وهذه الروايات تنقسم إلى عدّة أقسام:

الطّائفة الأولى

وفيها إشارة إلى أنّه ما لم يحن الوقت للثورة فى وجه سلاطين الجور والحكومات الظالمة، فلا تحركوا ساكناً، مثل:

۱- الرواية التى ينقلها «ابو المرهف» عن «الإمام الباقر» عليه السلام حيث يقول: «الغبرة على

من أثارها، هلك المحاصير، قلت جُعلت فداك: وما المحاصير؟ قال: المستعجلون ...» «۱».

۲- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه الكرام فى وصية النبى صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام أنّه قال: «يا عَلى، إنَّ إزالَةَ الجِبالِ الرَّواسى أهوَنُ مِن إزالةِ مُلكٍ لَم تَنقَضِ أيّامُهُ» «۲».

۳- وجاء فى حديث عن «عيسى بن القاسم» أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «اتّقوا اللَّهَ وانظروا لأنفُسكم، فإنّ أحقّ من نَظَر لها أنتم ... ثم أضاف عليه السلام قائلًا: إنْ أتاكُم مِنّا آتٍ لِيدعُوكُم إلى الرضا مِنّا فَنَحن نُشهدكُم إنا لا نرضى إنّه لا يُطيعُنا اليوم وهو وحده، فكيف يُطيعُنا إذا ارْتَفَعَتْ الراياتُ والاعلام؟» «۳».

۴- ونقرأ فى نهج البلاغة عن امير المؤمنين عليه السلام: «الْزَموا الأَرضَ وَاصبِرُوا عَلَى البَلَاءِ وَلَا تُحَرِّكُوا بأَيدِيكُم وَسُيُوفِكُم فِى هَوَى أَلْسِنَتِكُم وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِما لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّه لَكُم، فَإنّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُم عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وحقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيتِهِ مَاتَ

شَهيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاستَوجَبَ ثَوابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصلَاتِهِ لِسَيفِهِ فَانَّ لِكَلِّ شَيءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا» «۴».

ولا شك أنّ هـذه الطائفة من الأخبار لا دلالة لها لا من قريب ولا من بعيد على النهى عن إقامة الحكومة الإسـلامية قبل ظهور المهدى (عج)، بل الشيء الوحيد الذى تتضمنه هو تحيُّن الفرص، وعدم البدء بهذه الامور قبل توفر الفرصة المناسبة، لأنّكم ستدفعون ثمناً غالياً وخسائر فادحة دون أية نتيجة تذكر.

بل ربّما يكون مفهوم هذا الكلام عكس ما يتوقعه هؤلاء، وهو أنّه متى ما تهيأت الظروف لتشكيل الحكومة الإسلامية، فعليكم بها.

وهذه الرويات- فى الواقع- هى نفس ما جاء فى الخطبة الخامسة من نهج البلاغة، حيث

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۳۶ (ذكر صاحب الوسائل هـذه الروايات فى الوسائل ج ۱۱، كتاب الجهاد، الباب ۱۳ من أبواب جهاد العدو).

(۲) وسائل الشيعة، ج ۱۱ ص ۳۸.

(۳) المصدر السابق.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۰ (القسم الأخير منها).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۴

يقول عليه السلام: «وَمُجتَنى الثَمرَةَ لِغيرِ وَقتِ ايناعِها كالزارع بِغيرِ أرضِهِ». (إذ لن يحصّل أىٌّ منهماعلى النّتيجة المتوقعة).

والطائفة الثانية:

هنـاك بعض‌الروايـات تقول: يجب أن تكون أهـداف الثورة هو توجيه‌النـاس لطلب الرضـامن آل محمـد صـلى الله عليه و آله، أى أنّ الدعوة للأئمّة المعصومين عليهم السلام وأهدافهم، وعدم جواز الثورة بدونهم.

ومن جملتها ما نقرأه عن الإمام الصادق عليه السـلام حيث يقول: «إن أتاكم آت منّا فانظُروا عَلى أىّ شَـىء تخرجون؟ ولا تقولوا خرج زيـد، فانَّ زيـداً كان عالماً وكان صـدوقاً ولم يَـدْعُكُم إلى نَفسِهِ وَانّما دَعاكُم الى الرِّضا من آلِ مُحَمَّد، وَلَو ظَهَر لوفى بما دَعاكُم اليه، انّما خَرَجَ إلى سُلطانٍ مُجتَمعٍ لِيَنْقُضَهُ، فالخارجُ مِنّا اليَومَ الى أىّ شَىءٍ يَدْعُوكُم؟ الى الرّضا مِن آل محمّد؟

فنحن نُشْهَدُكُم انّا لَسْنا نَرضى بِهِ وَهُوَ يَعْصينا اليومَ وَلَيسَ مَعَه أَحَدٌ، وَهو إذا كانت الرّاياتُ وَالالويّةُ أجدَر أن لا يَسْمَعَ مِنّا ...» «۱».

ومن البـديهى أنّ هذا الحديث وأمثاله لا يدلّ أيضاً على النّهى عن تشـكيل الحكومة الإسـلامية، بل يقول: يجب أن يكون الهدف من تشـكيل الحكومة هو إدخال السـرور على الأئمّة عليهم السلام وكسب رضاهم، باعتبارهم الخلفاء الحقيقيين للنبى صلى الله عليه و آله، ولا يجب البدء بهذا العمل عشوائياً بدون موافقتهم!

وعلى هذا، فمتى ما توفرت الظروف المناسـبة فى عصـر «الغيبة» لتشـكيل الحكومة الإسلامية، وتيقنا بأنّ الإمام (عج) راضٍ عنها، وكان الهـدف من تشـكيلها هو احيـاء الإسـلام والقرآن وارضـاء آل محمـد صـلى الله عليه و آله، فلا مانع منها، بل يجب السـعى إليها أيضاً، (تأمل جيداً).

والطائفة الثّالثة:

بعض الروايات، تقول: كلّ ثورة تقوم قبل قيام القائم عليه السلام فإنّ مصيرها الفشل، كالروايات أدناه:

۱- نقرأ فى حديث عن أبى بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كُلُّ رَايَةٍ تُرفَعُ قَبلَ قيامِ القائمِ فَصاحِبُها طاغوتٌ يُعبدُ مِنْ دونِ اللَّهِ عَزَّوَجَل» «۲».

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۳۶، ح ۱.

(۲) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۳۷، ح ۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۵

۲- ونقرأ فى حديث آخر عن «الحسين بن خالد» أنّه قال: قلت لأبى الحسن الرضا عليه السلام:

إنّ عبد اللَّه بن بكير كان يروى حديثاً وأنا أحسب أنّه عرضه عليك، فقال: ما ذلك الحديث؟

قلت: قال ابن بكير: حدثنى عبيد بن زرارة قال: كنت عند أبى عبداللَّه عليه السلام أيّام خروج محمد بن عبداللَّه بن الحسن «۱» إذ دخل عليه رجل من أصحابنا فقال له: جعلت فداك إنّ محمد بن عبداللَّه قد خرج فما تقول فى الخروج معه؟ فقال: «اسكنوا ما سكنت السماء والأرض»، فقال عبد اللَّه بن بكير: فإن كان الأمر هكذا ولم يكن خروج ما سكنت السماء والأرض فما من قائم وما من خروج، فقال أبوالحسن عليه السلام «صدق أبوعبداللَّه عليه السلام وليس الأمر على ما تأوله ابن بكير، إنّما عنى أبوعبداللَّه عليه السلام اسكنوا ما سكنت السماء من النداء» (النداء الخاص الذى يأتى من السماء قبل قيام القائم عليه السلام)، والأرض من الخسف بالجيش (أى السفيانى الّذى يحكم قبيل ظهور المهدى عليه السلام) «۲».

ويستفاد من هذا الحديث أيضاً أنّه لا ينبغى الثّورة قبل قيام المهدى عليه السلام.

۳- وفى حديث آخر عن سُدَيْر من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، أنّ الإمام عليه السلام قال له:

«الزَمْ بَيتَكَ وَكُنْ حَلَساً مِن أحْلاسِهِ، وَاسْكُنْ ما سَكَنَ الليلُ والنَّهار، فاذا بَلغك أنْ السُفيانى قَد خَرَجَ فارحَل إلينا وَلوَ عَلى رِجلِك» «۳».

«السفيانى»: أحد الجلادين والحكام الظالمين ويظهر قبل قيام المهدى عليه السلام، ويرسل الجيوش إلى مناطق مختلفة، من جملتها الجيش الذى يبعثه إلى المدينة المنوّرة فيصل إلى الصحراء القريبة من المدينة، فتحدّث زلزلة هناك وتنشق الأرض لتبتلعه وجيشه!.

وهناك روايات كثيرة اخرى بنفس هذا المضمون، وهو عدم جواز القيام ما لم تظهر علامات ظهور المهدى عليه السلام، كرواية «عمرو بن حنظلة» عن الإمام الصادق عليه السلام، ورواية المعلى بن خنيس عنه عليه السلام، ورواية جابر عن الإمام الباقر عليه السلام «۴»، و ....

(۱) محمد بن عبدالله بن الحسن، حفيد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ثار أيام المنصور العباسى، وبايعه جمع غفير، استولى على مكة والمدينة واليمن، لكن المنصور أرسل إليه جيشاً جراراً تغلب عليه ونال بدوره الشهادة، وهو معروف بالنفس الزكية، كانت شهادته فى رمضان سنة ۱۴۵ للهجرة (تتمة المنتهى، ص ۱۳۵ فما بعدها).

(۲) وسائل الشيعة، ص ۳۶، ح ۳.

(۳) المصدر السابق، ص ۳۶، ح ۳.

(۴) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۳۵ و ۴۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۶

نقد وتحليل:

حول هذه الروايات نلفت نظركم إلى عدّة نقاط لابدّ منها:

۱- توجد لدينا فى الشريعة الإسلامية مجموعة اصول بديهية لا يجوز تخطيها، من جملتها «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» الذى لا سبيل للشك بوجوبه أبداً ومن حيث بداهته وكونه من الاصول المسلَّم بها، وما أكثر الآيات والروايات التى أكدت عليه.

لنفرض أننا نعيش فى محيط قد ضاعت فيه الأحكام الإلهيّة، وعمّ التجاهر بالمنكرات، واودع المعروف فى زاوية النسيان، وأحاط الظلم والفساد فى كل مكان، وكان باستطاعتنا تغيير الوضع الفاسد بثورة قوية ضد النظام الحاكم ونشر المعروف بدل كل تلك المنكرات على نطاق واسع، فهل يدّعى أحد حُرمة هذا العمل فى مثل هذه الظروف، وأنّه ينبغى التفرج على هذه الأوضاع الفاسدة التى تصادر فيها الأحكام الإلهيّة، ويخرج بواسطتها الشباب المسلم عن الدين؟!

قد يدّعى المتذرعون عدم حدوث مثل هذا الأمر، لنفترض أنّه يمكن حدوثه، إذ ليس هذا الفرض محالًا عقلياً، فهل يقولون ثانية بضرورة الامتناع عن كل تحرك والتسليم أمام الإنتشار السريع للفساد والظلم ومصادرة الأحكام الإسلامية؟!

لا أظن أنّ عالماً ومحققاً يتفوه بمثل هذا الكلام!

من الشواهد على هذا الكلام محمد بن عبداللّه من أحفاد الإمام المجتبى عليه السلام المعروف ب «النفس الزكية»، حيث نقرأ عنه: «حينما بايعه عدد من الوجهاء باعتباره المهدى عليه السلام، وبلغ الإمام الصادق عليه السلام ذلك الخبر بل وحتى طلبوا منه عليه السلام أن يبايعه! قال عليه السلام: دعوا هذا الأمر، فإنّه لم يحن الوقت بعد (وسيكون ظهور المهدى فى المستقبل)، فلو أنّك (عبداللّه أبو محمد) تعتبر ابنك هو المهدى الموعود، وأنّه ليس بالمهدى، ولم يحن وقت ذلك بعد، ولو أردت اجباره على الخروج فى سبيل اللّه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فواللّه لن ندعه لوحده، وسنبايعه!».

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۷

فغضب عبداللّه وأجاب بجواب غير مناسب «۱».

خلاصة القول: هى أنّه لو فرضنا أنّ هذه الروايات تصرح بأنّ كل ثورة قبل قيام المهدى عليه السلام على ضلال، لكننا لا نتمكن أبداً لاجل خبر واحد أو عدّة أخبار هى فى حكم خبر الواحد، من تجاهل الاصول المسلّمة للإسلام والتى جاءت فى القرآن الكريم وأحاديث الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وعلى هذا، فمتى ما توفرت مقدمات تشكيل الحكومة الإسلامية وأمكن محو الظلم والفساد والاعتداء و ... فلا ينبغى التشكيك فى ضرورة القيام بذلك. إذ لا يمكن تناسى أدلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتطبيق الحدود وإقامة القسط والعدل بحجة ورود النهى عن هذا العمل فى عدّة أخبار مشكوكة!

۲- لدينا فى قبال هذه الروايات روايات اخرى عن أهل البيت عليهم السلام تحكى عن أنّ الأئمّة عليهم السلام قد أثنوا على بعض الثورات التى حدثت فى زمانهم، مع أنّ هذه الثورات لم تبلغ غايتها، فكيف يعقل منع هذه الثورات مع ثنائهم عليهم السلام عليها؟!

ومن جملة ذلك ما جاء فى الروايات حول قيام «زيد بن على» باعتبارها ثورة مقدّسة:

يقول المرحوم الشهيد فى القواعد فى بحث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: «كان خروجه بإذن الإمام عليه السلام» ويقول الشيخ المفيد فى الإرشاد: «كان زيد أفضل أبناء الإمام السجاد عليه السلام بعد الإمام الباقر عليه السلام، وكان عالماً عابداً تقياً سخياً شجاعاً، قام بالسيف ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ بثأر شهداء كربلاء» «۲».

يذكر المرحوم العلّامة المامقانى روايات كثيرة فى فضل ومدح زيد بن على، وقسماً من هذه الروايات وردت فى ذمه، حيث يقوم بمناقشتها ولا يراها تستحق الذكر أمام روايات المدح تلك «۳».

يقول المرحوم العلّامة المجلسى بعد ذكره لاختلاف الروايات حول «زيد» وثورته:

«الأخبار التى تدل على مكانته الرفيعة ومدحه والثناء عليه وأنّه لم يدع لغير الحق هى

---

(۱) إرشاد المفيد، ج ۲، ص ۱۸۵ (الباب ۱۳ فى حالات الإمام الصادق عليه السلام).

(۲) تنقيح المقال (رجال المامقانى)، حالات زيد.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۸

الأكثر، وقد أقر جُل الأصحاب بعظمة مكانة زيد» «۱».

فحينما تكون كل ثورة قبل المهدى عليه السلام ثورة ضلال وشرك، فكيف يمكن الثناء على ثورة زيد بن على عليه السلام، وتمجيدها؟!

والنموذج الآخر هو الروايات التى جاءت فى مدح الحسين بن على شهيد فخ.

وكان الحسين بن على هذا من أحفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، ثار فى أيّام الخليفة العباسى (موسى الهادى) سنة ۱۶۹ ه، توجه من المدينة إلى مكة للحج فى ذلك العام، وحينما وصل مع أنصاره أرض «فخ» قريباً من مكة، حدثت معركة ضارية بينه وبين أنصاره من جهة، وبين عمال وجنود الخليفة العباسى من جهة اخرى فاستشهد الحسين بن على مع جماعة من أنصاره فى هذه المعركة، وهو الذى عدّه دعبل الخزاعى فى أبياته المعروفة «مدارس آيات» باعتباره شهيداً من شهداء أهل البيت عليه السلام، ولم يعترض الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام على قوله:

قُبورٌ بكوفان وأُخرى بِطيبةٍواخرى بِفَخٍّ نالها صَلَواتى

ونقرأ فى حديث عن الإمام التاسع، (الإمام الجواد عليه السلام): بينما كان النبى صلى الله عليه و آله يجتاز أرض فخ إذ نزل وصلى وبينما هو فى الركعة الثانية أخذته العبرة، فبكى بكاءً أبكى من معه، وحينما انتهت الصلاة، سألوه صلى الله عليه و آله عن سبب بكائه، فقال صلى الله عليه و آله: لقد جاءنى جبرائيل وقال لى:

«أى محمد! إنّ رَجلًا مِن ولِدك يُقتل فى هذا المكان، أجر الشهيد معه، أجر شهيدين» «۲».

بل جاء فى حديث عن الإمام الجواد عليه السلام أنّه قال: «لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ» «۳».

كما جاء فى رواية عن الحسين بن على (شهيد فخ) نفسه أنّه قال: «ما خرجنا حتى

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴ ص ۲۰۵.

(۲) تنقيح المقال، ج ۱ ص ۳۳۷ (حالات الحسين بن على شهيد فخ)؛ بحار الأنوار، ج ۴۸، ص ۱۷.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۹

شاورنا موسى بن جعفر فأمرنا بالخروج» «۱».

يقول المرحوم العلّامة المامقانى فى خاتمة ما يتعلق بشرح أحواله: «يتضح ممّا قلنا أنّه كان من الثقات، لأنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد أمضى ذلك فى أحد الأخبار، وجاء فى الحديث: «أجر الشهيد معه، أجر شهيدين»، وقد بكى عليه النبى صلى الله عليه و آله فى زمانه، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ستدخل روحه الجنّة قبل جسده».

ولمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع راجع كتاب تنقيح المقال الذى تقدم (ج ۱ ص ۳۳۷ وبحار الأنوار، ج ۴۸، ص ۱۶۰ فما بعدها).

مضافاً إلى ما تقدم، فقد جاء فى الروايات أنّ أقواماً سيثورون قبل قيام المهدى عليه السلام، ويمهدون لظهوره عليه السلام، وقد ورد مدحهم فى الأحاديث الشريفة، فلو كانت ثورتهم باطلة داعية إلى الطاغوت، لما كان لهذه الروايات مفهومٌ صحيحٌ.

ونكتفى هنا بروايتين عن طريقى الشيعة والسنّة، مع أنّ الروايات أكثر من هذا بكثير.

نقرأ فى حديث عن الإمام أبى الحسن الأول (الإمام الكاظم عليه السلام) أنّه قال: «رَجلٌ مِن قُم يدعو النّاسَ إلى الحقّ يجتمع معه قَومٌ كزبُرِ الحَديدِ لا تَزِلُّهُم الرياحُ العواصِفُ ولا يَملّونَ مِن الحَربِ وَلا يجبنون وعلى اللَّهِ يتَوكّلُون والعاقبة للمتقين» «۲».

وقد تمّ التصريح فی قسم من الروايات التی تشير إلی مثل هذه الثورات بأنّها ممهدة لظهور المهدی عليه السلام. وعلی أيّة حال، فهی حاكية عن أنّ ثورات مشروعة ستحدث قبل قيام المهدی عليه السلام، ثورات دامية داعية إلی الحق مع ضمان النصر.

ونقرأ فی حديث فی سنن ابن ماجة وهو من المصادر السنية المعروفة:

حضر جمع من شباب بنی هاشم بين يدی الرسول صلی الله عليه و آله، وحينما وقع نظره المبارك عليهم أخذته العبرة وتغير لونه، فسئل عن ذلك، فقال صلی الله عليه و آله:

---

(۱) المصدر السابق.

(۲) سفينة البحار، لفظة (قم).

«إنّا أهلُ بَيتٍ اختارَ اللّهُ لَنا الآخرةَ عَلی الدّنيا، إنّ أَهل بيتی سَيَلقونَ بَعدِی بلاءً وتَشْريداً وَتَطْريداً حتی يأتی قَومٌ مِن قِبلِ المَشرقِ معهم رايات سود فَيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيُعطون ما سألوا فلا يَقبلونَهُ حتّی يَدفَعوها إلی رَجُل مِن أهلِ بيتی فَيملأها قِسطاً كما ملأوها جَوْراً، فمن أدركَ ذلكَ مِنْكُم فليأتهم وَلَو حَبواً علی الثَلْج» «۱».

يستفاد من ذيل هذه الرواية بكل وضوح أنّ هذه الثورة ستحدث قبيل ثورة المهدی عليه السلام، وأنّها الممهدة له عليه السلام فضلًا عن مشروعيتها.

ويظهر بجلاء من كل ما قيل فی هذا الفصل أنّ ثورات ستحدث قبل ظهور المهدی (عج) فيها صبغة إلهيّة، بعضها يؤتی أُكله وبعضها ينتهی بالفشل، وليس أن كل راية ترفع قبل المهدی (عج) راية ضلال وطاغوت حتّی لو كانت بإذن أهل البيت عليه السلام وعلی خطاهم، (تأمل جيداً).

۳- والحاصل أنّ الروايات التی تقول: «كل راية ترفع قبل قيام المهدی عليه السلام راية ضلال وصاحبها طاغوت ...»، يجب تفسيرها بشكل بحيث تتلاءم مع المسلّمات الفقهية وأحكام الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر «محاربة الفساد»، وكذلك مع الثورات العديدة التی حدثت فی زمان المعصومين عليهم السلام وأمضوها بدورهم عليهم السلام. ولدينا لتفسير هذه الروايات عدّة سبل:

۱- المراد بها، تلك الثورات المنحرفة، الثورات التی تقع بدون إذن واجازة المعصومين عليهم السلام، أو الحكّام الشرعيين أو نواب الإمام المهدی (عج) فی عصر الغيبة.

۲- المراد منها، الثورات التی تحدث بقصد الدعوة لأنفسهم لا لأهداف آل محمد صلی الله عليه و آله، حيث تمّت الإشارة إلی ذلك فی الروايات أكثر من مرّة.

۳- المراد بها، الثورات التی تظهر فی فترات معينة بدون استعداد لها، وأنّ الأئمّة عليه السلام إنّما تلفظوا بتلك الجمل ونهوا عن ذلك للحد من الثورات التی لم تنضج بعد.

---

(۱) سنن ابن ماجة، ج ۲ ص ۱۳۶۶، ح ۴۸۲.

ونعود هنا ثانية إلی القرآن الكريم لنتأمل فی النداء العام للقرآن بدعوة الامّة الإسلامية للثورة فی وجه الظالمين والدفاع عن المظلومين وبسط القسط والعدل.

نقرأ فی قوله تعالی: «وَمَا لَكُم لَاتُقَاتِلونَ فِی سَبيلِ اللّهِ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِجَالِ وَالنّسَاءِ وَالولِدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجنَا مِنْ هَذِهِ القَريَةِ الظَّالِمِ أهلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَّدُنكَ وَلِيّاً واجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً». (النساء/ ۷۵)

لا يخفى أنّ هـذه الآيـة ونظائرها التى تتحـدث حول إقامـة القسط والعدل أو الدفاع عن المظلومين ومقارعة الظالمين لا تنحصـر بزمان ومكان معينين، وأنّها من الاصول المهمّـة للإسـلام، وأنّه كلما توفرت الفرص والمقـدّمات لهذا الهدف المقدس فلابدّ من الإقدام على ذلك فوراً.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶۳

أركان الحكومة الإسلامية

اشارة

۱- السلطة التشريعية

۲- السلطة التنفيذية

۳- السلطة القضائية

۴- التربية والتعليم

۵- الدفاع (القوات المسلحة) نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶۵

أركان الحكومة الإسلامية

المقدّمة:

نحن نعلم أنّ أية حكومة بحاجة إلى ثلاثة أركان أساسية، ليس بمقدورها مواصلة السير والبقاء بدونها:

۱- ركن التقنين (وضع القوانين).

۲- ركن التنفيذ.

۳- ركن القضاء.

فلابـدّ أولًا من توفّر القوانين القادرة على معالجة مشاكل المجتمع ولتنظيم علاقات النّاس بعضـهم بالبعض الآخر، والعمل على تحريك عجلات المجتمع على طريق الرقى والتكامـل، سواءً كـان مصـدر سنّ القوانين الوحى الإلـهى، تـارة، وتارة، بأمر أحـد الأفراد على من تسلط عليهم، وأحياناً بمجالس سنّ القوانين، الّذى سنتحدث عنه لاحقاً.

وحتى المجتمعات الّتى تُـدار وفق القوانين الإلهيـة، والّتى تسـتمد قوانينها من مصـدر الوحى، تحتاج هى الاخرى أيضاً إلى سـلطةٍ مقننة كى تعمل على تطبيق القوانين الإلهيّـة العامة لإدارة حياتهم اليومية، وتعمل أيضاً على تطبيق المسائل الجزئية واحتياجات كل زمان الّتى يعرض عليها التغيير والتبـديل بمرور الزمان على المسائل الّتى هى محل ابتلاء، أو كما يصـطلح على ذلك «ردّ الفروع إلى الأصول» أو بتعبير آخر، تقوم بعملية «التقنين الموضوعى». نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶۶

وبعـد أن تُكتب نصوص القوانين وتجعل موضع التنفيـذ والعمل، يجب أن يوكل أمر تنفيـذها بيد مجموعة من الأفراد يقومون بتطبيقها على المجتمع، فلو كانت هذه القوانين بحاجة إلى مقررات تنفيذية، يقوم هؤلاء بتدوين هذه المقررات، وإن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك، ينتقلون مباشرة إلى مرحلة التطبيق، وهذا ما يُعمل به فى عالم اليوم والمسمى ب «السلطة التنفيذية» أو «الحكومة».

وللـدول أيضاً رئيس يُعبّر عنه أحياناً برئيس الجمهورية، وأحياناً رئيس الوزراء، وأخرى بالصدر الأعظم، وهؤلاء أيضاً يقومون بدورهم بتعيين الوزراء والمـديرين العـامّين، والمـديرين من الدرجـة الأولى، ورؤساء الأقسام والشـعب، إذ يقسّـمون بينهم الواجبات التنفيذيـة، ويطبّقون من خلالها برامجهم الحكومية.

وفى هـذا الخضم يحتمـل حـدوث مشاكـل واختلافـات بين النّـاس، أو بين دوائر الدّولـة، أو بين الدولـة والنّـاس فى المسائل الحقوقية المختلفـة، والسـلطة الّتى تأخـذ على عاتقهـا تشـخيص الظـالم من المظلوم وصـاحب الحق من المـدّعى الفاقـد له، تسـمى ب «السـلطة القضائيـة»، ولا شك فى أنّ الحكم الصادر من قبل هـذه السـلطة، يحتاج بعـد صدوره أيضاً إلى السـلطة التنفيذية لغرض تنفيذه، والّتى يجب أن تنفذ هذه الأحكام بشكل دقيق.

وفى هذا المجال توجد أقسام أخرى فى النّظام، قد نتصور أحياناً بأنّها تشـكل أركاناً مسـتقلة بحد ذاتها، ومن الممكن أن ينظر لها على أنّهـا تمثل الركن الرابع والخامس و ...، كالشـرطة والإسـتخبارات، وكـذلك التربيـة والتعليم والمؤسـسات الخبريـة والقوات العسـكرية وقوى الأمن الداخلى وما شاكل ذلك.

إلّا أنّه من الواضح أنّ هذه الأمور تُعد جزءً من السـلطة التنفيذية وبمنزلة الأداة بيدها إذ تسـتخدمها لغرض تنفيذ القوانين بأفضل الطرق وأكثرها تأثيراً.

وتقوم الإسـتخبارات بكشف النقـاب عن المؤامرات السـرّية، وتضع المعلومـات الوافيـة عن الحوادث الّتى تقع هنـا وهنـاك بين يـدى المسؤولين التنفيـذيين، ليتسـنى لهم أحباط تلك المؤامرات، والوقوف على ما يضـر المجتمع وما ينفعه لاتخاذ الموقف المناسب، وفى الوقت

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶۷

المناسب أزاءَها، وكـذلك تقوم المراكز التعليميـة والمؤسـسات الخبريـة بمساعـدتهم للوصول إلى أهـدافهم من خلال الطرق الثقافية، سيّما وأنّ أفضل الطرق لتطبيق القانون هو الطريق الثقافى، الّذى يدفع المجتمع إلى تطبيق القوانين بشكل ذاتى وآلى، ويصبح المجتمع بالتالى مصداقاً لقوله تعالى: «لِيَقومَ النَّاسُ بِالْقِسْط»، وكذا الحال بالنسبة للمراكز الّتىذكرت آنفاً.

وبعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى القرآن المجيد ونبحث عن كلٍ من هذه الأركان الثلاثة فى آيات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶۹

الركن الأول: السلطة التشريعية

تمهيد:

طبقـاً للرؤيـة القرآنيـة وأحاديث المعصومين عليهم السـلام وعلماء الإسـلام، فإنّ مسألـة تشـريع القوانين تختص باللّه تعالى، والواقع أنّ مسألـة التقنين (سنّ القوانين) تعـد شأناً من شؤون التوحيـد فى الأفعال، فكما أنّ اللّه تبارك وتعالى هو الحاكم المطلق على جميع عالم الوجود وعالم البشرية، فإنّه كذلك حاكمٌ على نظام التشريع أيضاً.

وهـذه المسألـة فضـلًا عن كونها وردت بشـكل صـريح فى الآيات المباركـة والروايات الإسـلامية، فهى مؤيـدّة أيضاً بـدليل العقل، لأنّ المقنّن الواقعى هو الّذى يجب أن يمتلك الصفات التالية:

۱- يجب أن يكون مطلعاً على حقيقـة الإنسـان وملمّـاً بجميع خصـائصه من حيث الجسم والروح، بحيث يكون خبيراً كاملًا بالإنسـان، وعارفاً بجميع أسـراره، وعواطفه، وميوله، وغرائزه وشـهواته، ومسائله الفطرية، ومطلعاً أيضاً على جميع القابليات والكفاءات الكامنة فى الفرد والمجتمع، والكمالات المتيسرة له بالقوة، وبعبارة أخرى: يجب أن لا يخفى عليه أى شىء فى تركيبة الإنسان وكيانه.

۲- يجب أن يكون عالمـاً بآثار وخواص جميع الأشـياء فى الوجود من حيث انسـجامها وتناغمها مع وجود الإنسان أو عـدم انسـجامها، وبشكل أدق يجب أن يعلم فوائد ومفاسد جميع الأعمال الفردية والاجتماعية وآثارها ونتائجها.

۳- أن يكون خبيراً بجميع الحوادث الّتى يمكن وقوعها فى المستقبل البعيد أو القريب،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۰

والتى تلعب دوراً مؤثراً بنحوٍ أو آخر فى مصير الإنسان.

۴- المقنن أو المشّرع الحقيقى هو الـذى يكون مصوناً من كل خللٍ أو ذنبٍ أو خطأ، وأن يكون قوى الإرادة شـجاعاً فى الوقت الـذى يكون فيه رؤوفاً رحيماً، وأن لا يداخله الخوف من أى قوةٍ فى المجتمع.

۵- يجب أن لاـ تكون له أيـة مصـلحةٍ أو منفعـةٍ فى المجتمع البشـرى، لئلا يتّجه محور أفكاره أثناء سـنِّة للقوانين- من حيث يعلم أو لا يعلم- نحو الجهة الّتى تحافظ على مصالحه الشخصية، ويضحى بمصلحة المجتمع لحساب مصالحه الشخصية.

فهـل تتوفر هـذه الصـفات فى غير ذات اللَّه تعالى؟ وهل بإمكانكم العثور على من يقول: أنا عالمٌ بالإنسان وبجميع خصائصه؟ فى حين أنّ أعاظم العلماء، يبـدون عجزهم عن الإجابـة عن هـذا السؤال، بل إنّهم يقولون علناً إنّ الإنسان يُعـدّ كائناً مجهولًا، حتى أنّهم اختاروا هذا العنوان لكتبهم ومؤلفاتهم؟

وهل هناك من هو خبيرٌ بالماضى والمستقبل والروابط الدقيقة فيما بينها وبين زماننا الحاضر؟

وهل هناك من يكون عارفاً بآثار وأسرار جميع الموجودات، ومصاناً من كل نوع من أنواع الإنحراف والذنب والخطأ؟

من المسلَّم أنّ هذه الصفات والخصائص لا تتحقق إلّافىاللَّه تعالى وأنبيائه الكرام.

ونخلص من هذه الإشارة القصـيرة إلى نتيجة طيبة، وهى أن المشـرّع الحقيقى هو اللَّه تعالى الذى خلق الإنسان وأطّلع على جميع أسرار خلقته، ويعلم أسرار جميع الموجودات، وخبيرٌ بحوادث المستقبل والماضى وعلاقتها بأحداث الحاضر على أحسن ما يرام.

ولا طريق لأىخطأ أو زلل إلى ذاته الطاهرة المقدّسة ولا يخشى أحداً، ولا حاجة له أو مصلحة شخصيّة لكى يشبعها عن طريق القوانين الموضوعة، بل إنّه تعالى يلاحظ منفعة الإنسان فقط فى تشريعاته المقدّسة.

وفضلًا عن ذلك كله فإنّ الوجود بأسره ضمن دائرة حكومته وسلطته، ولا معنى لأن يقوم

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۱

غيره بإصـدار أحكامه فى هـذه الـدائرة، بل إنّ الخضوع لأحكام الآخرين والإعتراف بقانونٍ غير قانونه جلّ وعلا يعدّ نوعاً من الشـرك والضَّلال.

وبهـذه الإشارة نعود مرة أخرى إلى القرآن الكريم، ونسـتعرض الآيات الّتى نؤكّـد على أنّ مسألـة التشـريع وسنّ القوانين مختصـة باللَّه تعالى.

۱- «مَالَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشرِكُ فى حُكمِهِ أَحَداً». (الكهف/ ۲۶)

۲- «وَمَا اختَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَىءٍ فَحُكمُهُ إِلَى اللَّهِ». (الشورى/ ۱۰)

۳- «وَمَن لَّمْ يَحكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ». (المائدة/ ۴۴)

۴- «وَمَن لَّم يَحكُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (المائدة/ ۴۵)

۵- «وَمَن لَّمْ يَحكُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ». (المائدة/ ۴۷)

۶- «وَأَنِ احكُمْ بَينَهُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهوَاءَهُم وَاحذَرْهُمْ أن يَفتِنُوكَ عَن بَعضِ ما أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيكَ». (المائدة/ ۴۹)

۷- «افَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ومَنْ أَحسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكماً لِّقُوم يُوقِنُونَ». (المائدة/ ۵۰)

۸- «إِنَّما كَانَ قَولَ المُؤمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحكُمَ بينَهُم أن يَقولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعنَا وَأُولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ». (النور/ ۵۱)

۹- «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتفَّرقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ». (الأنعام/ ۱۵۳)

۱۰- «اليَومَ أَكْملتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلَامَ دِيناً». (المائدة/ ۳)

جمع الآيات وتفسيرها

فى الآيات السبع الأولى من هذه الطائفة يدور الحديث على أنّ الحكم هو حكم اللّه فقط وعلى الجميع إطاعة أحكامه تعالى.

صحيح أن «الحكم» يأتى بمعنى «المنع» «۱» أساساً، ولكن بما أنّ الأمر والنّهى يصبح سبباً

---

(۱) يرجى الرجوع إلى كتاب مصابيح اللغة، ومصباح اللغة، ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۲

لمنع وقوع المخالفات والأعمال الخاطئة، سُمّى ب «الحكم»، وسميت العلوم والمعارف لهذا السبب ب «الحكمة» إذ إنّها تمنع وقوع الأعمال الجاهلة وغير العقلائية.

والملاحظة الاخرى الجديرة بالإهتمام أيضاً، هى أن مصطلح «الحكم» فى القرآن الكريم، يأتى أحياناً بمعنى التحكيم والفصل، وأخرى بمعنى الأمر والنّهى، وعندما يأتى بمعنى التحكيم، يُعدُّ أيضاً نوعاً من الأمر والنّهى الّذى يصدر عن القاضى.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار ما تقدم ذكره، نعود مرّة اخرى إلى الآيات المباركة، إذ إنّ الآية الأولى، تصرح بأنّ الحاكمية والحكومة، والأمر والنّهى وكذلك الولاية، مختصة بأجمعها باللّه تعالى إذ تقول: «مَالَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشرِكُ فِى حُكمِهِ أَحَداً».

والواقع أنّ صدر الآية وذيلها هما بمنزلة العلّة والمعلول، لأنّه عندما تختصّ الولاية باللّه تعالى، فمن الطبيعى حينئذٍ أن يقتصر الحكم والقانون أيضاً به تعالى، ومن الواضح، أنّ «الحكم» يشمل هنا الأمر والنّهى وكذلك القضاء والحكومة أيضاً، لأنّ كل هذه الأمور تعدّ بمثابة فروع الولاية، وبما أنّ الولاية منحصرة به تعالى، إذن فالحكم من شأنه أيضاً، بل يعتقد البعض أنّ ولاية اللّه تعالى تشتمل حاكميته التكوينية على عالم الخليقة أيضاً، لإنّ ولايته فى عالمى التشريع والتكوين ثابتة، إذن فحاكميته تمتاز بالشمول والعمومية.

ويدور الحديث فى الآية الثانية عن حكم اللّه وقضائه: «وَمَا اخْتَلَفتُم فِيهِ مِن شَىءٍ فحُكمُهُ إِلى اللّه».

ويقول تعالى فى نهاية الآية: «ذَلِكُمُ اللّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وإِليهِ انيبُ».

وبما أنّ كل شىء (وخاصة الحكم والقضاء) بيده تعالى، إذن يجب أن يكون التوكّل عليه والإنابة إليه فقط.

وطالما أنّ التحكيم والقضاء غير منفصلين عن الحكم والقانون (بمعنى أنّ الكثير من موارد النزاع هى من قبيل الشبهة الحكمية، وليس الشبهة الموضوعية)، نصل إلى أنّ الحكم والأمور والقانون أيضاً بيده تعالى فقط.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۳

أمّا الآيات الثالثة والرابعة والخامسة، فقد تحدثت عن الذين لا يحكمون بما أنزل اللّه تعالى، ولا يعيرون لذلك أهميّة تذكر، أو بعبارة أخرى، يحكمون بغير حكم اللّه، فقيل عنهم فى إحداها أنّهم «كافرون» وفى الآية الاخرى «ظالمون» وفى الثالثة أنّهم «فاسقون» وهو قوله تعالى: «وَمَن لَم يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون ... فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ».

فهم كافرون بسبب إعراضهم عن أحد فروع التوحيد الافعالى، أى التوحيد فى حاكمية اللّه حيث يؤكّد هذا الفرع من التوحيد أنّه: ليس لغيره سبحانه الحق فى الحكم وإصدار الأوامر ولا فى الحكومة، ولا فى القضاء والتحكيم، لذا من المسلَّم به أن من ينحرف عن هذه النظرية، فقد ابتُلىَ بنوع من الشرك.

«وهم ظالمون»: بسبب ممارستهم الظلم بحق أنفسهم والآخرين، وتركهم جانباً الأحكام الّتى تمثل أساس سعادتهم وسبب رقى مجتمعهم، وأخذهم بأحكام قليلة الأهميّة أو فاقدة لها تماماً، والتى لا تأخذ بنظر الاعتبار سوى مصالح محدودة وقليلة.

«وهم فاسقون»: لكونهم تجاوزوا حدود العبودية وخرجوا عنها، لعلمنا بأنّ معنى الفسق هو الخروج عن الواجب والأمر.

هذه التعابير الثلاثة المختلفة (الكافرون والظالمون والفاسقون) فى الآيات الثلاث الآنفة دقيقة جدّاً، ومن الممكن أن تكون إشارة إلى الأبعاد الثلاثة للقانون الإلهى، لأنّ «القانون» ينتهى فى أحد جوانبه ب «المقنن» «اللّه تعالى»، إذ تعتبر مخالفته «كفراً»، ومن ناحية أخرى

ينتهى بعباد اللَّه تعالى، إذ تعد مخالفته «ظُلماً»، والثالثة، ينتهى بشخص الحاكم والقاضى من البشر، إذ يعد حكمه- «عندما يكون مخالفاً لحكم اللَّه»- «فسقاً».

والآيـة السادسـة تأمر النّبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله بأن يحكم بينهم بما أنزل اللَّه ولا يتبع فى ذلك أهواءهم ويحـذرهم لئلا يفتنوه عن بعض الأحكام الّتى أنزلها اللَّه عليه، وهو قوله تعالى:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۴

«وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ».

إن المقارنـة بين «الحكم بمـا أنزل اللَّه» و «إتباع الهوى» يبين لنا أن الـذى‌يعرض بوجهه عن حكم اللَّه تعالى، سيسـقط فى وادى الهوى المرعب، وقـول الآيـة: «واحْـذرهم أَنْ يَفْتِنُوكَ» تأكيـد آخر ومكرر على اتبـاع أحكـام اللَّه تعـالى، والوقـوف بـوجه الوسـاوس وعـدم الإعـتراف بغيره، وممّـا لا شك فيه أنّ النّبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله لم يكن ليفتتن بهم إطلاقاً بسـبب تمتعه بمقام العصـمة الرفيع، إلّـاأن التعبير أعلاه يُعـدّ درسـاً لسـائر النّـاس، لكى يحـذروا مكائـد الأعـداء وألاعيبهم من أجل حرف المؤمنين وإبعادهم عن الإمتثال للاحكام الإلهيّة ومع الأخذ بنظر الاعتبار سـبب نزول هذه الآية والّذى ذكره المفسـرون، فإنّ الآية الآنفة تتعلق بمسألة القضاء والفصـل فى الإختلافات والمنازعات، وكلمة «بينهم» أيضاً تعبّر عن هذا المعنى، ولكن من المسـلّم به هو أنّ الفصل يجب أن يكون مسـتنداً إلى حكم وقانون، ومفهوم هذه الآية يشير إلى أن مستند القضاء والفصل يجب أن يكون ما أنزل اللَّه فقط.

والآيـة الّتى تأتى بعد الآية السابقة مباشرة فى القرآن الكريم، تقول: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوم يُوقِنُونَ».

وهنا تصرح هذه الآية الكريمة بأنّ الأحكام غير الإلهيّة إنّما هى أحكام جاهلية، تلك الأحكام النّابعة من الجهل وعدم المعرفة، وأحياناً عن الهوى والوساوس الناجمـة عن الجهل، ولو تأملنا فى هـذه الآيـة جيـداً، لوجـدنا أنّ هـذا المعنى لا يختص فقط بعصـر النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ونهضـته فى العصـر الجاهلى للعرب، بل إنّ كل حكم غير إلهى- وكما أشـرنا إلى ذلك آنفاً- لا يمكن أن يكون منزّهاً من الجهل، لأنّ علم الإنسان محـدود يقيناً، إذ إنّه لا يملك معرفةً كاملة بجميع خصائص وزوايا وجوده، ولا يملك اطلاعاً كاملًا على أسرار الموجودات والحوادث الماضية والحالية والمستقبلية، التى تلعب دوراً مؤثراً فى نوعية

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۵

الأحكام سلباً وإيجاباً، مضافاً إلى أنّ لكل فرد فى المجتمع ميولًا ومصالح معينة، ولا يمكنه أن يُبعد نفسه تماماً عن تلك المصالح أثناء سنّ القوانين، واللَّه تبارك وتعالى وحده العالم بكل شىء والغنى عن عباده.

يقول «البرسوئى» فى تفسيره روح البيان، فى تبيين معنى «الجاهلية»: «وهو كل ما لا يستند إلى الوحى والكتاب السماوى» «۱».

ونقرأ فى تفسير «فى ظلال القرآن» «۲».

ونقل فى تفسير «مجمع البيان» عن بعض المفسرين المتقدمين قولهم:

«إنّ هـذا النوع من التمييز والإزدواجيـة المطبّقة أيضاً فى عصـرنا هذا، والقوانين الّتى تطبق على الضـعفاء فقط سواء داخل الدول أو فى العلاقات الدولية أيضاً، والتى غالباً ما يستثنى منها الأقوياء، دليل بارز على وجود المجتمعات الجاهلية!».

والملفت للنظر أن الكثير من الآيات الآنفة الذكر والتى صرّحت باختصاص حق التقنين والتشريع باللَّه تعالى موجودة فى سورة المائدة، والمعلوم لـدينا أن سورة المائدة وكما هو معروف هى آخر سورة، أو من أواخر السور التى نزلت على الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله، إذ إنّ الكثير من المسائل الإسـلامية الهامـة ومنها المسائل المتعلقـة بالحكومة التى تعدّ من أركان الإسـلام المهمّة وردت فى هذه السورة، وتمّ التأكيـد فى آيات عدّة من هذه السورة المباركة، على أن «الحكم» و «الأمر» و «تشـريع القوانين» مختصٌ باللَّه تعالى، وهذه التأكيدات المتكررة فى هذه السورة ذات مغزى عميق.

وتتحدث الآية الثامنة عن الإيمان والتسليم المطلق أمام حكم اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله إذ تقول:

«إِنَّما كَانَ قَولَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفلِحُونَ».

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۲، ص ۴۱۰.

(۲) فى ظلال القرآن، ج ۲، ص ۷۵۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۶

ويتضح لنا من سبب النزول الوارد فى بعض التفاسير للآيات التى تأتى بعدها- وهو أنّ جماعة من المنافقين لما شعروا بضعف موقفهم جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه و آله وأقسموا على تسليمهم لأوامر النّبى صلى الله عليه و آله- ومن الواضح أنّ الآية أعلاه تتحدث عن المجموعة المقابلة لهذه المجموعة، أى المؤمنين، وتقول: إنّ التسليم المطلق لابدّ أن يكون أمام قوانين اللَّه تعالى، ولا عبرة بأى قانون غيره، وإنْ كان المراد بالآية مسألة القضاء والفصل بين المنازعات فكذلك أنّها تدلل على ما قصدناه، لإنّه وكما سبق وأن قلنا: إنّ مسألة التحكيم تقوم على أساس القانون أيضاً، وبناءً على ذلك فإنّ التسليم لقضاء اللَّه تعالى ورسوله صلى الله عليه و آله يعنى التسليم، التسليم أمام القانون الإلهى، ولهذا نجد أنّ القضاة دائماً عندما يصدرون أحكامهم، يستندون فى ذلك إلى مادة واحدة أو أكثر من المواد القانونية، يعنى التسليم، فعلى المؤمنين الإستناد إلى مواد القانون الإلهى فقط.

وقد وردت الآية التاسعة بعد أوامر إلهيّة عشرة جاءت قبلها (بخصوص الشرك، والإحسان إلى الوالدين، والكف عن قتل الاولاد- وبشكل عام- إهراق الدماء البريئة، والأعمال القبيحة الاخرى) إذ يقول تعالى فى نهاية هذه الطائفة من الأحكام: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لَاتَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

ومن هذا التعبير يتضح لنا جيداً أنّ «الصراط المستقيم» يعنى حكم اللَّه تعالى وقانونه وأوامره، وكل ما هو دونه يعدّ من الطرق المعوجّة والمنحرفة والتى تبعد الناس عن صراط اللَّه المستقيم، ويستفاد من هذا التعبير أيضاً، أن اتباع الطرق الاخرى تؤدى إلى بث التفرقة والتشتت والاختلاف، والدليل على ذلك واضح أيضاً، لأنّ رأى النّاس وحتى العلماء الكبار فى تشخيص منافع ومفاسد الأعمال يختلف اختلافاً كبيراً عن بعضهم البعض، ومتى ما احيلت مسألة تشريع القوانين إلى النّاس، فإنّ الاختلاف والتشتت سوف يحكمان

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۷

المجتمعات الإنسانية على الدوام.

ينقل «ابن مسعود» فى حديثٍ عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّ النّبى صلى الله عليه و آله خطَّ خطاً مستقيماً، ثم قال «۱»: «هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه؟ ثم تلا هذه الآية «وأنّ هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه».

وفى الآية العاشرة والأخيرة، وبالرغم من عدم تصريحها بإختصاص سنّ القوانين باللَّه تعالى، إلّاأنّها تنطوى على تعبير معين يستفاد منه بشكل جيد عدم وجود أى مصدر للتشريع غير اللَّه تعالى، إذ تقول الآية المباركة: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً».

ونعلم أن «الدين» بمعناه الحقيقى يشمل جميع شؤون الحياة البشرية، وبالنظر إلى أنّ الإسلام هو خاتم الأديان السماوية، وسيبقى قائماً حتى قيام الساعة، فإنّ مفهوم هذه الآية يعنى أنّ جميع ما يحتاجه الإنسان من حيث القوانين قد أخذه الإسلام بنظر الاعتبار حتى قيام الساعة، وبناءً على ذلك لا يبقى أىّ مجال لقوانين أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه القوانين خاصّة وجزئية، والبعض الآخر عامّة وكليّة، وواجب علماء الدين والمشرّعين الإسلاميين، القيام بتطبيق تلك الكليات على مصاديقها، واستنباط القوانين والضوابط اللازمة منها.

وقد تمّ التأكيد مراراً على هذا المعنى فى الروايات الإسلامية أيضاً، وللإمام على عليه السلام خطبة مؤثرة ومفصلة فى ذمّ الذين

یسمحون لأنفسهم بتشریع القوانین فی المحیط الإسلامی معتبرین ذلک اجتهاداً، إذ یقول علیه السلام فی جانب من هذه الخطبة: «أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبحَانَهُ دِیناً

---

(۱) تفسیر الکبیر، ج ۱۴، ص ۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۸

نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِم عَلَی إِتمَامِهِ، أَمْ کَانُوا شُرَکَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ یَقُولُوا وَعَلَیهِ أَنْ یَرْضَی «۱».

وهناک روایات متعددة تصرّح بأنّ کل ما تحتاجه الامّة الإسلامیة إلی یوم القیامة مأخوذ بنظر الاعتبار فی القوانین الإسلامیة، حتی دیة خدش بسیط فی بدن الغیر، علی أنّه یجب أخذ هذه الأحکام من أهلها، وهذه تبیّن وبشکل واضح أنّ التشریع فی الإسلام مختصّ باللّه تعالی، ولا مجال لتشریع الآخرین، وبناءً علی ذلک فإنّ ما یحصل فی المجالس التشریعیة الإسلامیة، هی عملیة تطبیق القواعد العامة لقوانین الإسلام علی مصادیقها ومواردها.

ونقرأ فی حدیث ورد عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «إِنّ اللَّهَ تَبارَکَ وَتَعالی لَمْ یَدَعْ شَیْئاً تحتاج إلیه الامَّةُ إِلّاأَنْزَلَهُ فی کِتابِهِ وبَیَّنَهُ لِرَسُولِهِ» «۲».

ونقرأ فی حدیث آخر ورد عن الإمام الصّادق علیه السلام أنّه قال: «ما مِنْ شَیء إِلّا وَفیهِ کتابٌ وَسُنَّة» «۳».

وورد فی روایات أخری أنّ جمیع الأحکام والقوانین اللازمة، شُرّعت لِلُامّة الإسلامیة، ومنها ماورد فی حدیثٍ عن الإمام الصّادق علیه السلام أنّه قال: «ما تَرَکَ عَلِیّ شَیْئاً إِلّاکَتَبَهُ حتی أَرشِ الْخَدْشِ» «۴». ولمزید الإطّلاع علی کثرة وسعه الأحادیث الواردة فی هذا المجال یراجع المجلّد الأوّل الباب ۴ من کتاب جامع أحادیث الشیعة.

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸.

(۲) أصول الکافی، ج ۱، ص ۵۹، ح ۲.

(۳) المصدر السابق، ح ۴.

(۴) جامع أحادیث الشیعة، ج ۱، باب ۴ من أبواب المقدمات، ح ۲۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۹

هل یمتلک الرسول صلی اللّه علیه و آله والمعصومون حق التشریع؟

إنّ مسألة الولایة علی التشریع، أو بتعبیر أبسط، حق التشریع بالنسبة للرسول صلی اللّه علیه و آله والأئمّة المعصومین علیهم السلام من المسائل المعقدة جدّاً، إذ تناولت الأحادیث الإسلامیة هذه المسألة مراراً وتکراراً.

فهل یمتلک الرسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله الحق فی أن یضع مایراه من المصلحة علی شکل قانون للمسلمین حتی مع عدم نزول الوحی الإلهی بشأن تلک المسألة؟

لا شک فی أنّ هذا الأمر لیس محالًا، بشرط أن یمنحه اللّه تعالی مثل هذا الحق (أی حق التشریع)، ومفاد الکلام هنا هل وقع مثل هذا الأمر، وهل تشهد الأدلّة النقلیة علی ذلک أم لا؟

لدینا الکثیر من الروایات (بعضها صحیحة السند والبعض الآخر ضعیفة) إذ تقول: إنّ اللّه تبارک وتعالی قد «فوض الأمر» إلی الرسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله والأوصیاء من بعده (والمراد من مسألة «تفویض الأمر» هنا حق التشریع).

وقد جمع المرحوم الکلینی الروایات المتعلقة بموضوع «التفویض» فی الجزء الأول من أصول الکافی، وصنّفها فی باب واحد، إذ ینقل

فی هـذا البـاب عشـرة أحـاديث فی هـذا المجـال، ومن جملـة هـذه الأحاديث نقرأ فی حـديثٍ عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السـلام حيث قالا: «إنّ اللَّه تَبارَكَ وَتَعالى فَوَّضَ إلى نَبيّهِ أَمرَ خَلْقِهِ لِيَنظُر كَيفَ طاعَتُهم، ثمَّ تَلى هـذِهِ الآيـة: وما آتاكُمُ الرَّسولُ فَخُذُوهُ وَما نهاكُمْ عنه فانتهوا» «۱».

---

(۱) أصول الكافی، ج ۱، ص ۲۶۷، ح ۵.

ونقرأ فی‌حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام:

(إنّ اللَّهَ عَزَّوَجَلّ أدَّبَ نَبيَّه عَلى مَحَبتهِ فقال: وإنَّك لَعَلى خُلُقٍ عَظيم، ثمَّ فَوّضَ إليه فقالَ عَزَّوَجَل: وَما آتاكُم الرَّسولُ فَخـذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنهُ فانْتهوا، وَقَالَ عَزَّوَجَلْ: مَنْ يُطعِ الرَّسولَ فَقَدْ أطاعَ اللَّهَ ...» «۱». فإذن، القرائن الموجودة فی العبارات الواردة فی هذا الحديث توضّح بشكل جلی ما المراد من التفويض.

وقـد جاء فی بعض هذه الروايات أنّه بعد هذا التفويض الإلهی، مارس الرسول صـلى الله عليه و آله أمر التشـريع وشـرع بعض القوانين، منهـا: أن اللَّه تبـارك وتعـالى جعـل الصـلاة ركعتين وأضاف الرسول صـلى الله عليه و آله ركعتين أخريين عليهما (فی صـلوات الظهر والعصـر والعشاء)، وركعة واحدة فی المغرب، وتشـريع الرسول صـلى الله عليه و آله هذا ملازم للفريضة الإلهيّة والعمل به واجب، كما أضـاف صـلى الله عليه و آله على ذلك (۳۴ ركعة أخرى (أی ضـعف الفرائض) بعنوان صـلاة النوافل، وأوجب اللَّه تعالى صـيام شهر رمضان المبارك، وقال الرسول صلى الله عليه و آله باستحباب صيام شهر شعبان وثلاثة أيام من كل شهر ... «۲».

ويلاحظ فی أحاديث أخرى واردة فی أمر تفويض التشـريع إلى الرّسول صلى الله عليه و آله، نماذج أخرى من تشريعات الرسول صلى الله عليه و آله «۳».

وفيما يتعلق بالمراد من «تفويض الأمر» هناك عدة احتمالات بخصوص هذه المسألة، منها:

۱- تفويض أمر التشريع للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله كلياً.

۲- تشـريع جزئی فی الموارد المحـدودة، وفيهـا أنّ الرسول الأـكرم صـلى الله عليه و آله قـام بتشـريع بعض الأحكام قبل نزول الأحكام الإلهيّة أو بعدها، وأمضاها اللَّه تعالى.

۳- تفويض أمر الحكومة والتدبير والسياسة وتربية النفوس والمحافظة على النظام.

۴- تفويض أمر العطاء والمنع (فيعطى من بيت المال لمن يرى فيه الصلاح، ويمنع من لا

---

(۱) أصول الكافی، ج ۱، ص ۲۶۵، ح ۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۶۶، ح ۴.

(۳) للمزيد من التوضيح ودراسة جميع روايات التفويض عليكم بمراجعة كتاب أنوار الفقاهة، ج ۱، ص ۵۵۲.

يرى فيه الصلاح).

۵- التفويض فی بيان حقائق أسرار الأحكام، أی يبيّن للناس كل ما يرى فيه المصلحة من الأسرار والأحكام، ولا يفصح عمّا لا يرى فيه المصلحة.

والمعنى الثانی هو المسـتفاد من مجموع الروايات الواردة فی باب التفويض، وهو أنّ الرسول الأعظم صـلى الله عليه و آله قام بالتشـريع فی موارد محدودة بإذن اللَّه تعالى (ولعلها لم تتجاوز حدود العشرة موارد)، وأنّ اللَّه تعالى قد أمضى هذا الأمر، وبعبارة أخرى، أنّ اللَّه

تعالى قد أعطاه هذه الصلاحية فى قيامه بالتشريع فى بعض الموارد، ومن ثم أمضاها اللَّه تعالى.

ويستفاد أيضاً من هذه الروايات وبشكل جيد، أنّ اللَّه تبارك وتعالى، قد أعطاه هذا المقام لعدّة أسباب:

أولًا: لكى يبيّن عظمة مقامه ومنزلته وبأن تشريعاته من سنخ تشريعات اللَّه تعالى.

والثانى: لكى يمتحن الناس ويرى مدى تسليمهم لأوامر النّبىّ صلى الله عليه و آله.

والثالث: إنّ اللَّه تعالى قد أيّده بروح القدس، وأطلعه من خلال ذلك على أسرار الأحكام الإلهيّة.

ومن خلال ماذكرنا، تتضح لنا عدّة أمور:

۱- يُستفاد من مجموع روايات التفويض، أنّ اللَّه تبارك وتعالى أعطى رسول الإسلام صلى الله عليه و آله الولاية على التشريع إجمالًا، لكى يمتحن طاعة الخلق من جهة، ولتعظيم المقام الرفيع للرسول صلى الله عليه و آله وبيان منزلته عند اللَّه‌تعالى من جهة أخرى.

۲- إنّ هذا التفويض لا يتمتع بصفة الكلية والشمول، بل يتحقق فى موارد محدودة ومعدودة، ولهذا السبب كان الرسول صلى الله عليه و آله ينتظر نزول الوحى فى الأمور المهمّة الّتى كان المسلمون يسألونه عنها غالباً، وهذا دليل على عدم شمول التفويض، وإلّا لما دعت الضرورة إلى أن ينتظر الرسول صلى الله عليه و آله نزول الوحى، بل كان بمقدوره أن يشرّع أى قانون يراه، (فتأمل).

۳- هذا المقام الرفيع أُعطىَ له صلى الله عليه و آله بإذن اللَّه تعالى، وإضافة لذلك فإنّ بعض القوانين الّتى شرعها الرسول صلى الله عليه و آله، أمضاها اللَّه سبحانه وأقرها، وبناءً على ذلك فلا دليل على تعدد الشارع

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۲

والمشرّع إطلاقاً، بل إنّ تشريع النّبى صلى الله عليه و آله يُعدّ أيضاً فرعاً من تشريع اللَّه تعالى.

۴- هذا المقام الرفيع والسامى تحقق للنّبىّ صلى الله عليه و آله بعد النّبوّة وبعد أن صار مؤيّداً بروح القدس، وكان معصوماً، ولم يطرأ على فعله أى خطأ أو زلل، وبناءً على ذلك فالذين لا يتمتعون بهذه الشروط لن تتحقق لهم مثل هذه المنزلة الرفيعة.

۵- بالرغم من أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا مؤيدين بروح القدس، ولم يصدر عنهم أى خطأ أو انحراف إطلاقاً، إلّاأنّهم لم يصدروا تشريعاً جديداً، لإنّه بعد إكمال الدين وإتمام النعمة الإلهية، فإنّ جميع الأحكام الّتى تحتاجها الأمة إلى يوم القيامة وطبقاً للروايات الكثيرة الّتى قد تصل إلى حد التواتر، قد تمَّ تشريعها ولم يبق مجال لأى‌تشريع جديد، وبناءً على ذلك فإنّ واجب الأئمّة المعصومين عليهم السلام إقتصر على توضيح وتبيين الأحكام الّتى وصلت إليهم عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله سواء بدون واسطة أو بالواسطة.

سؤال:

هل من الممكن أن يُقال أنّه يُستفاد من بعض الروايات، أنّ أمير المومنين عليه السلام فرض الزكاة على الخيل فكان ذلك تشريعاً جديداً حيث وردت رواية بأنّ الإمامين الباقر والصّادق عليهما السلام قالا: «وَضَعَ أميرُ المؤمِنين عَلى الخَيل العِتاقِ الرّاعية فى كُلِّ فَرسٍ فى كلِّ عام دِينارَيْن وَعَلى البَراذِين دِيناراً» «۱».

وجاء أيضاً فى رواية على بن مهزيار أنّ الإمام الجواد عليه السلام عندما جاء إلى بغداد فى عام ۲۲۰ ه، فرض خُمساً آخر غير الخُمس الواجب المتعارف عليه فى قسم عظيم من الأموال، ولمرّة واحدة فقط «۲».

وكلا الحديثين معتبران من حيث السند، وبناءً على ذلك لابدّ من القول: إنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا يمتلكون حق التشريع أيضاً.

---

(۱) الخلاف، ج ۲، ص ۵۵.

(۲) وسائل الشيعة، ج ۶، أبواب ما يجب فيه الخمس، الباب ۸، ح ۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۳

الجواب:

إنّ الأحكام الكليّة فى التشريع تختلف عن الأحكام التنفيذية للحاكم، فالأحكام الكليّة هى نفس القوانين الثابتة والمستمرة التى تبقى قائمة فى كل عصر ومكان إلى يوم القيامة، إلّا أنّ الأحكام الصادرة عن الحاكم الشرعى هى الّتى تصدر بسبب الأمور الضرورية وأمثالها وبشكل مؤقت (مثل حكم تحريم التنباكو الذى صدر فى فترة محدّدة لغرض محاربة الاستعمار الاقتصادى الإنجليزى من قبل مرجع كبير ثم رفع بعد انتهاء الخطر).

ويستفاد من القرائن الواردة فى رواية الإمام الجواد عليه السلام وبشكل واضح، أنّه عليه السلام لما جاء إلى بغداد كان الشيعة يعانون الفاقة والضنك، وقد أقرّ الإمام تعدد الخمس فى تلك السنة لغرض حل هذه المشكلة بشكل خاص، والواقع أنّه عليه السلام طبّق أحكام العناوين الثانوية والضرورية على إحدى مصاديقها، بدون أن يمثل ذلك تشريعاً جديداً.

ويمكن أن يكون حكم الزكاة الوارد فى رواية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من هذا النوع أيضاً، ولذا فإنّ هذا الحكم محدود بذلك الزمان فقط، ولم ينظر إليه الفقهاء كتشريع عام ولم يصدروا فتاواهم طبقاً لتلك الفتوى، (فتأمل).

۶- ممّا ورد فى البند الخامس يتضح لنا أنّ غير الأئمّة المعصومين عليهم السلام لا أحد يملك حق تشريع القوانين الكلية الإلهيّة بطريق أولى لأنّه باختتام النبوة وارتحال النّبىّ صلى الله عليه و آله وإكمال الدين وإتمام النعمة، لم يبق مجال لتشريع الآخرين من جهة، وأنّ جميع الأحكام الإلهيّة الكلية الّتى يحتاجها الإنسان إلى يوم القيامة تمّ تبيينها طبقاً للكثير من الآيات القرآنية والروايات الواردة بذلك الشأن، ومن جهة أخرى فإنّ غيرهم من الناس ليسوا معصومين وغير مؤيدين بروح القدس لكى يثبت لهم مثل هذا الحق، خاصة وقد اعتبرت الروايات السابقة هذا المعنى شرطاً للحاكمية على التشريع.

۷- لابدّ من الإلتفات إلى أن البعض من روايات التفويض، لم تنظر إلى مسألة تشريع الأحكام، بل تناولت تسليمهم أمر الحكومة والولاية، أو تسليمهم بيت المال.

۸- تعتقد طائفة من علماء السنة بتفويض تشريع الأحكام إلى الفقهاء فى ما لا نصّ فيه،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۴

وتوضيح ذلك: يقسّم علماء السنّة المسائل إلى قسمين: مافيه نص (فى القرآن والسنة) وما لا نصّ فيه.

وفيما يتعلق بالقسم الأول يعتقدون جميعاً بوجوب العمل بالأوامر والنصوص، وفى القسم الثانى يعتقد الكثير منهم بوجوب الذهاب إلى القياس أولًا، بمعنى قياس تلك المسألة التى لم يرد فيها نص مع المسائل التى ورد فيها حكم معين، والإفتاء بحكم شبيه بذلك الحكم لتلك المسألة، وبغير ذلك فإنّ علماء الدين مكلفون بدراسة مصلحة ومفسدة ذلك الأمر، ثم وضع حكم مناسب حسب ما هو أفضل وأقوى برأيهم، ويجب على أتباعهم القبول بذلك الحكم، والعمل به كحكم إلهى.

وهذا ما يصطلحون عليه أحياناً ب «الإجتهاد» (طبعاً الإجتهاد بمعناه الخاص، وليس الإجتهاد بمعنى استنباط الأحكام من الأدلة الشرعيّة)، وأحياناً يصطلحون عليه بكلمة «التصويب»، ويقولون إنّ ما يضعه الفقيه فى هذه الموارد على شكل قانون يحظى بتصويب اللّه تعالى! ولو وضع فقهاء مختلفون أحكاماً متعددة ومختلفة، فإنّها جميعاً تحظى بالقبول بعنوان حكم إلهى!

وبهذا الشكل فإنّهم يعطون للفقهاء حقّ فى التشريع فى الموارد التى لم يرد بشأنها نصّ أو دليل خاص.

إلّا أنّ فقهاء الشيعة السائرون على مذهب أهل البيت عليهم السلام يخالفون هذا الكلام جملةً وتفصيلًا، ويقولون: إنّ جميع الأحكام التى يحتاجها الإنسان إلى يوم القيامة وردت فى الشريعة الإسلامية ولم يبق شىء لم يُذكر له حكم لكى يقوم أحدٌ بتشريع قانونٍ ما، ولكن البعض من هذه الأحكام وردت بشكل صريح فى القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، أو سنّة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، والبعض منها ورد بشكل القواعد الكلية والأصول العامّة، أو بعبارة أخرى إنّ فى «العمومات» و «الإطلاقات» أدلة أولية وثانوية،

بحيث إنّ لكل موضوع من المواضيع، هناك حكم ثابت له، سواء كان هذا الحكم حكماً واقعياً تارةً أو حكماً ظاهرياً تارةً أخرى.

وبناءً على ذلك لا وجود لشيء بإسم الإجتهاد (بالمعنى الخاص) أو القياس أو ما لا نص

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۵

فيه فمسؤولية الفقهاء تقتصر على تطبيق الأحكام الكليّة على مصاديقها فقط.

ويتضح لنا ممّا تقدم ذكره أن «التشريع» فى المجالس التشريعية لا يعنى فى عُرف مذهب أهل البيت عليهم السلام وضع أحكام جديدة بشأن المسائل التى يواجهها الإنسان، بل المراد به تطبيق الأصول على الفروع أو تشخيص الموضوعات المختلفة بمعنى التشريع الموضوعى.

وخلاصة القول: إنّ مجالس التشريع فى مذهب الشيعة، ليست بمعنى وضع الأحكام الكليّة ازاء أحكام الإسلام، أو بدل ما لا نصّ فيه، والمسألة هى من قبيل تطبيق الأحكام، أو التشريع الموضوعى، ولهذا السبب وُضع «مجلس صيانة الدستور» إلى جانب المجلس التشريعى، لكى يُشرف عليه جمعٌ من الفقهاء ويتأكدوا من أنّ القوانين الموضوعة غير مخالفة لأحكام الإسلام.

وحتى مجلس «تشخيص المصلحة» الذى أُقرّ مؤخراً فى الدستور، هو الآخر مسؤول عن تشخيص الموضوع أيضاً، وليس جعل القانون.

وبعبارة أوضح: إنّ أحد العناوين الثانوية هو عنوان الأهم والمهم، يعنى متى ما تعارضت مسألتان شرعيتان مع بعضهما، كما هو الحال مثلًا فى المحافظة على أموال الناس وعدم التصرّف بها إلّابإذن صاحبها مع مسألة الحاجة الملحّة لفتح شارع فى المدينة أو طريق فى الصحراء، فمن جهة تعتبر مسألة المحافظة على النظام فى المجتمع الإسلامى واجبة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلّابشق الطرق الضروريّة، ومن جهة أخرى فإنّ المحافظة على أموال النّاس أمرٌ واجب، ففى هذه الحالات يجب تقديم الأهم على المهم، وأن تُمنح الإجازة بفتح هذه الطرق، مع دفع الأضرار والخسائر الناجمة عن ذلك إلى مالكى تلك الأراضى.

وكذلك الحال فيما يتعلق بمسألة وضع الأسعار على المواد المختلفة، فالقانون الإسلامى أساساً، يقول بحرية الأسعار والتسعيرة، ولكن فى الحالات التى تصبح فيها هذه الحرية سبباً لاستغلال الانتهازيين والجشعين الذين يجعلون المجتمع فى وضع حرج بحيث تتوقف معها مسألة المحافظة على النظام الاقتصادى فى المجتمع على تحديد

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۶

الأسعار، فممّا لا شك فيه أنّ مسألة المحافظة على النظام مرجّحة، ومن الممكن هنا القيام بإصدار قانون لتحديد الأسعار، وتكليف الحكومة الإسلامية بتنفيذه.

وعلى مجلس تشخيص المصلحة فى هذه الموارد، اختيار الأهم من خلال دراسته الدقيقة للأمر، لكى تقوم الحكومة الإسلامية بتنفيذ القانون، بالضبط كما هو معروف أنّ المحافظة على النّفس واجبة وأكل اللحم الحرام ممنوع، ولكن فى موارد خاصّة عندما ينحصر فيها حفظ النفس على الاستفادة من اللحم الحرام فقط، نسمح بذلك ونعتبره أمراً مجازاً، وذلك لأنّ أهميّة حفظ النسل أكبر وأهم من ذلك.

وبناءً على هذا المفهوم فإنّ (مجلس تشخيص المصلحة) يختلف كثيراً عن الإجتهاد والإستحسان والمصالح المرسلة الشائعة بين علماء السنّة، إذ يدور الأمر هنا بين تعارض وتضاد حكمين، فتصبح مسألة تشخيص المصلحة هى الأهم، فى حين أنّ الذى يحصل هناك عبارة عن وضع حكم معين لموضوع يعتقد بعدم وجود حكم معيّن له، (فتأمل).

ومن مجموع ما ذكرنا نستنتج أنّ المجلس التشريعى يعد أحد أركان الحكومة الإسلامية، ذلك أنّه فى كل زمان ومكان وفى كل مرحلة معينة تبرز مجموعة من المتطلبات والمسائل المستحدثة التى تستوجب تحديد القانون الخاص بها بشكل دقيق، ولكن التشريع هنا يعنى التخطيط وتطبيق الأصول على الفروع، واستخراج الفروع من القوانين الكلية وتشخيص المواضيع بشكل دقيق.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۷

مجلس الشورى وانتخاب النوّاب

اشارة

يجب علينا هنا أن نبحث أولًا مسألة أهميّة الشورى فى الإسلام، ومواردها، وصفات الذين ينبغى أن نستشيرهم.

أهميّة وضرورة المشورة:

تُعدّ مسألة المشاورة وخاصة فىالأمور الاجتماعية وما يتعلق بمستقبل المجتمع من أهمّ المسائل التى عرضها الإسلام بدقّة وأهميّة خاصة، ولها مكانة متميزة فى آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية وتاريخ أئمّة الإسلام العظام.

وقد جاء الأمر بالمشورة فى عدّة آيات من القرآن الكريم.

ففى سورة آل عمران أمر اللَّه تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه و آله، بأن يشاور المسلمين فى الأمور المهمّة وهو قوله تعالى: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ». (آل عمران/ ۱۰۹)

وفى سورة الشورى، وعند بيان الأوصاف المتميزة للمؤمنين حقاً يقول تعالى: «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». (الشورى/ ۳۸)

وكما تلاحظون فى هذه الآية، أنّ مسألة الشورى هى بمستوى الإيمان باللَّه تعالى والصلاة، إذ يبيّن ذلك أهميّتها الاستثنائية.

ويُقال أحياناً إنّ السبب فى صدور الأمر إلى الرسول صلى الله عليه و آله بمشاورة النّاس كان لغرض احترام المسلمين وإشراكهم فى المسائل الاجتماعية فقط، ذلك أنّ الذىيعزم على الأمور فى نهاية المطاف هو شخص الرسول صلى الله عليه و آله وليس الشورى، وهذا هو قوله تعالى فى نهاية الآية الكريمة: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ». (آل عمران/ ۱۵۹)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۸

ولكن من المسلّم به أنّ المراد من الآية الكريمة لاسيما نهايتها ليس المقصود به أن يقوم الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بمشاورة النّاس ومن ثم لا يأخذ بوجهات نظرهم وآرائهم، ويختار طريقاً آخر، فمثل هذا الأسلوب لا ينسجم، من جهة، مع الهدف الذى تقصده الآية (لأنّه سيصبح سبباً لعدم احترام الرأى العام، ويؤدّى بالتالى إلى انزعاج المسلمين وترتُّب نتائج عكسية)، ولا ينسجم من جهة أخرى مع تاريخ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً، لإنّه صلى الله عليه و آله عندما كان يشاور النّاس فى الحوادث والملمات المهمّة، فإنّه كان يحترم آراء النّاس، حتى أنّه كان يتجاهل أحياناً وجهة نظره الكريمة، بهدف تقوية ودعم مبدأ المشاورة بينهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ آية المشاورة ونظراً للآيات الورادة قبلها وبعدها، يُراد بها غزوة «احُد»، ونعلم أنّه فى غزوة أحُد، لم يكن الرسول صلى الله عليه و آله موافقاً على الخروج بالجيش من المدينة، ولكن بما أنّ أكثرية آراء المسلمين استقرت على هذا الأمر، فقد وافق صلى الله عليه و آله على الخروج «۱».

وعلى فرض أنّ هذه الآية تعطى هذه المزية للرسول صلى الله عليه و آله بأن تكون مشاورته للناس ذات جنبة تشريفية، إلّاأنّ الآية الواردة فى «سورة الشورى» والتى توضح القانون العام للمسلمين بشكل واضح وجلى، تؤكد على أنّ الأمور المهمّة يجب أن تُنجز من خلال الشورى بين المسلمين، وأنّ الشورى تلعب دوراً مصيرياً.

ومن البديهى أنّ العمل بالشورى يكون فى المسائل التى لم ينزل بها حكم خاص من قبل اللَّه تعالى، وعندما نقول: إنّ الشورى فى مسألة خلافة الرسول صلى الله عليه و آله لا اعتبار لها، بسبب وجود أمر خاص من قبل اللَّه تعالى فى هذا المجال، ومع تعيين الوصى وخليفة الرسول صلى الله عليه و آله عن طريق الوحىومن خلال شخص رسول الإسلام صلى الله عليه و آله، لم يبق مجالٌ للشورى بعد

ذلك.

وبعبارة أخرى، إنّ الشورى يُعمل بها دائماً فى المواضيع، وليس فى الأحكام التى صدر حكمها من قبل اللَّه تعالى.

وعلى أيّة حال فإنّ مسألة الشورى التى ذكرت فى الإطار المبين أعلاه، تُعدّ ركناً ومبدأً

---

(۱) كتاب سيد المرسلين، ج ۲، ص ۱۴۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۹

أساسياً فى الإسلام، إذ إنّ التعبير بكلمة «أمر» إشارة إلى الأمور المهمّة، وخاصة المسائل التى يحتاجها المجتمع، ويحمل هذا المصطلح مفهوماً واسعاً لدرجةٍ يشمل معها جميع الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية المهمّة.

وقد صدر الأمر بالشورى فى القرآن الكريم كذلك فى الأمور المهمّة المتعلقة بنظام الأسرة (المجتمع المصغر، ومن ذلك فطام الطفل قبل بلوغ الحولين الكاملين إذ يشير إلى مبدأ الشورى، وهو قوله تعالى: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلَا جُناحَ عَلَيهِمَا». (البقرة/ ۲۳۳)

وهذا دليل على الأهميّة البالغة للشورى فى الأمور.

أهميّة الشورى فى الأحاديث الإسلامية:

لقد ذكرت أهميّة استثنائية للشورى فى الأحاديث الإسلامية، سواءً تلك التى نقلت عن شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أو عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام، لدرجةٍ اعتُبرت معها مسألة الشورى فى الحديث النبوى الشريف إحدى أسباب إحياء المجتمع، وتركها يُشكل إحدى أسباب موت المجتمع إذ قال صلى الله عليه و آله:

«إذا كانَ امَراؤُكُمْ خِيارَكُمْ وَاغْنِياؤُكُمْ سُمَحاؤَكُمْ وَأمْرُكُمْ شُورى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأرْضِ خَيرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِها، وَإذا كانَ امَراؤُكُمْ شِرارَكُمْ وَأغْنياؤُكُمْ بُخَلاؤُكُمْ وَلَمْ يَكُنْ أمْرُكُمْ شُورى بَيْنَكُمْ فَبَطْنُ الأرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِها» «۱».

وبلغت أهميّة الشورى إلى درجة أن قال عنها الإمام على عليه السلام:

«الإسْتِشارَةُ عَيْنُ الْهِدايَةِ، وَقَدْ خاطَرَ مَنْ اسْتَغنى بِرَأيِهِ» «۲».

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أيضاً أنّه قال:

---

(۱) تحف العقول، باب الأحاديث القصيرة للنّبى صلى الله عليه و آله، ح ۱۳.

(۲) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۴۲، ح ۱۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۰

«لا يَسْتغنِى الْعاقِلُ عَنِ الْمُشاوَرَةِ» «۱».

والسببُ فى ذلك واضحٌ أيضاً، وجاء ذلك فى تعبير جميل ورد فى بعض الروايات عن الإمام على عليه السلام فى هذا المجال إذ قال:

«حَقّ عَلى العاقِلِ أنْ يُضيفَ إلى رَأيِهِ رَأىَ الْعُقَلاءِ وَيَضُمَّ إلى عِلْمِهِ عُلُومَ الَحُكَماءِ» «۲».

وجاءَ فى حديث آخر أيضاً عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«من شاورَ ذوى العقول استضاءَ بأنوار العقولِ» «۳».

وبناءً على ذلك، فالمشاورة هى السبب فى إضافة عقول الآخرين وعلومهم وتجاربهم إلى عقل المرء وعلمه وتجربته، إذ إنّ الإنسان فى هذه الحالة قليلًا ما يقع فى الخطأ والانحراف. والاحاديث الواردة فى هذا المجال كثيرة جدّاً، ونختتم هذا البحث المختصر بحديث

آخر عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وحديث عن الإمام على عليه السلام.

قال النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله:

«لا مظاهرةَ أوثقُ من المشاورةِ» «۴».

وقال الإمام على عليه السلام:

«شاور ذوى العقولِ تأمنْ من الزَّللِ والنَّدم» «۵».

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالإشارة إليها، إذ ليس من الضرورى أن يكون مستوى الذين نشاورهم أرفع درجةً من المشاورين أنفسهم، والدليل على ذلك مشاورة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لأصحابه، ولربما نجد أفراداً بسطاء يمتلكون من العقل والفطنة الفطرية ما يجعل مشاورتهم تحل الكثير من المعضلات، كما ورد ذلك فى حديث عن الإمام على بن موسى الرّضا عليه السلام، إنّه دار الحديث ذات مرّةٍ فى مجلسه عليه السلام عن أبيه المعصوم عليه السلام فقال: «إنَّ اللَّه

---

(۱) غرر الحكم.

(۲) المصدر السابق.

(۳) المصدر السابق.

(۴) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۰۰.

(۵) غرر الحكم.

تبارك وتعالى ربَّما فتح على لسانِهِ» «۱».

ونختتم الحديث حول أهميّة المشاورة بأبيات من الشعر الحسن لأحد الشعراء العرب إذ يقول:

أَقرِنْ برأيكَ رَأى غيركَ واسْتَشِرفالحقُّ لا يخفى على الإثنينِ

للمرءِ مِرآة تريهِ وجههُويرى قفاهُ بجمعِ مرآتيْنِ

أى أنّ المرآة الواحدة تريه جانباً منه، فإذا أراد أن يرى جوانب متعددة فعليه بمرآتين.

صفات المستشارين:

ممّا لا شك فيه أنّ الطرف الذى يشاوره الإنسان، وخاصة فى الأمور المهمّة والمسائل الاجتماعية الحساسة، لا يمكن أن يكون أى شخصٍ كان، بل يجب أن يمتلك صفات خاصة تجعله فرداً صالحاً للمشورة، ولهذا السبب نجد الروايات الإسلامية وصفت مجموعة من النّاس بأنّهم «أفراد جديرون بالمشاورة» ومجموعة أخرى بأنّهم «غير جديرين».

ويقول الإمام الصّادق عليه السلام فى حديث مروى عنه:

«إن المشورة لا تكونُ إلّابحدودها الأربعةِ ... فأولها أن يكون الذى تشاوِرُهُ عاقلًا، والثانى أن يكونَ حُرّاً متديناً، والثالثُ أن يكونَ صديقاً مؤاخياً، والرابع أنْ تطلعه على سرِّك فيكون علمُهُ به كعلمك ...» «۲».

ونطالع فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«خيرُ ما شاورتَ ذووا النُّهى والعِلمِ واولوا التجاربِ والحزمِ» «۳».

وورد فى النقطة المقابلة لهذا المعنى، نهى شديد عن المشورة مع الأفراد «البخلاء» و «الجبناء» و «الحريصين» و «الحمقى»، إذ قال النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله للإمام على عليه السلام:

«يا على لا تشاور جباناً فإنّه يضيّقُ عليك المخرجَ، ولا تشاور البخيل فإنّه يقصِّرُ بك عن

---

(۱) ميزان الحكمة، ج ۵، ص ۲۱۱.

(۲) ميزان الحكمة، ج ۵، ص ۳۱۸.

(۳) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۲

غايتك، ولا تشاور حريصاً فإنّه يزيّن لك شَرَهاً» «۱».

كما ورد النّهى فى الروايات أيضاً عن مشاورة الأفراد الحمقى والجهلاء والكذّابين.

ويُستفاد ممّا تقدم أنّ المستشارين- وخاصة فى الأمور المهمّة- يجب أن يكونوا من الأذكياء، والعقلاء، والمحسنين، وذوى التجربة، والصادقين، والأمناء، والشجعان والأسخياء، وإن فقدان أو زوال كل واحدة من هذه الصفات يوجب وهن وتخلخل أركان واسس المشاورة.

وعلى سبيل المثال، عندما يكون المستشار فرداً أحمقاً وجاهلًا، فإنّه سيقلب الحقائق للإنسان، وبالشكل الذى ورد ذكره فى الأحاديث، فإذا أراد أن يُحسن إليك فسوف ينقلب عليك شراً! ولو كان جباناً فإنّه سيحول دون الإقدام المناسب والحزم فى الأمور، فتذهب تلك الفرصة السانحة، ولو كان كذّاباً- وكما تعبّر الروايات عنه- يقرّب إليك البعيد، ويبعّد عنك القريب ويشبه فى ذلك السراب الذى يخدع العطاشى فى الصحراء، ولو كان بخيلًا يحول دون أعمال الخير ويخوّفك دائماً من الفقر وعسر الحال، ولو كان قليل التجارب أو عديمها، فإنّه سيؤدّى إلى العبث وإفشال البرامج والمناهج البنّاءة، ولو كان حريصاً فإنّه سيدعوك إلى ممارسة الظلم والعدوان لكى يطفىء بذلك نار الحرص «۲».

ومن خلال ما تقدم ذكره من الملاحظات يجب أن نتوخى الحذر الشديد فى اختيار من نستشيرهم، وخاصة فى المسائل الاجتماعية المهمّة التى تأخذ بنظر الاعتبار حقوق الآخرين، وأن تؤخذ المعايير الآنفة الذكر بنظر الاعتبار بشكل دقيق.

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر أيضاً، إذ إنّ المشاورة فى الإسلام تؤدّى إلى إيجاد الحق بمعنى أنّ الشخص المستشار إمّا أن لا يقبل المشاورة، أو يقبلها ولكن بشرط أن يراعى حق أداء الأمانة فى ذلك، وأن يجعل بين يدى من استشاره ما يرى فيه الخير والصلاح، وبغير ذلك فإنّه يعد «خائناً»!، والخيانة فى المشاورة تعدّ من كبائر الذنوب.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۳۴.

(۲) إن جميع ما ذكر أعلاه تقريباً ورد فى الروايات المختلفة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۳

ونقرأ فى حديث ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«إنّ استشاره أخوه المؤمن فلم يمحِّضه النصيحةَ سَلبَ اللَّهُ لُبَّهُ» «۱».

وورد فى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «خيانة المستسلِم والمستشير من أفظع الأمور وأعظم الشرور وموجبُ عذابِ السعير!» «۲».

إنّ الحديث عن المشاورة وفروعها وما يتعلق بها واسعٌ جدّاً، وما ذكرناه يعدّ غيضاً من فيض وعصارة من هذه الأبحاث التى تساعد على فتح الطريق أمام الأبحاث اللاحقة.

ونختتم بحثنا هذا بمقطع جميل آخر من الشعر الذى يتناول صفات المستشارين:

لا تستشر غير ندبٍ حازمٍ فطنٍقد استوى منهُ اسرار واعلان

فللتدابير فرسان إذا ركظوافيها أبرّوا كما للحربِ فرسانُ «۳»

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۱۰۴.

(۲) غرر الحكم.

(۳) حياة الحيوان، الدميرى، ج ۱، ص ۱۷۳. نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۵

كيفية انطباق مجالس الشورى مع موازين المشورة الإسلامية

اشارة

هنـاك سؤال مهم يطرح نفسه وهو: إنّنـا موافقون على أنّ مسألـة الشورى والمشاورة تعـدّ من أهمّ القوانين الإسـلامية الأساسـية، ولكن الطريقـة المتبعـة حالياً فى انتخاب مجموعـة من الأفراد، الذين يجتمعون فى مجلسٍ معين مثل «مجلس الشورى الإسـلامى»، وتتمّ إدارة جلسـاته طبقـاً لقانون خاص بهـذا المجلس، ويتناولون فيه القضايا المختلفـة بالبحث والدراسـة والمشاورة، ومن ثم يصوّتون على تلك الأمور بأكثرية الآراء، وتصبح تلك القرارات لازمة التنفيذ، فما هو الدليل الشرعى على صحة هذا الأسلوب فى الشورى؟!

وبعبارة أخرى: إنّ مثل هـذه المراسـيم والإجراءات المعمول بها فى المجالس التشـريعية الفعليـة، لم ترد فى أيّـة آيـة أو روايـة أو سـند تأريخى، فكيف نثبت شـرعيتها ولزوم الالتزام بلوازمها؟ فى الوقت الذى يشـكّل فيه مجلس الشورى فى عصـرنا هذا واحداً من الأركان الأساسية الثلاثة للحكومة الإسلامية، بلوائحه الداخلية وآدابه وتقاليده الخاصة به.

ويلاحظ هذا المعنى أيضاً فى إقرار اللوائح فى المسـتويات الأدنى، وعلى مسـتوى مجالس الوزراء والمسؤولين عن المسائل الاقتصادية والثقافية والسياسية والعسكرية.

وفى معرض الإجابة عن هذا السؤال المهم لابدّ أن نقول وباختصار: إنّ مجلس الشورى الحالى يمثل فى الواقع نفس «الصورة المتبلورة للمشورة» والتى وردت فى تعاليم الدين الإسلامى.

وتوضيح ذلك: إنّه من الأفضل فى المسائل الاجتماعية المتعلقة بالبلاد، التشاور مع

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۶

جميع النّـاس وفى جميع أنحاء البلاد، ولكن بما أنّ مثل هـذا الأسـلوب غير ممكن عملياً، وفضـلًا عن أنّ جميع النّاس لايملكون الخبرة اللازمـة فى جميع المسائـل، فلـذلك لاـ يوجـد أىّ حـلّ آخر لهـذه المسائـل سوى أن يُصـار إلى انتخـاب النواب من قبـل النّاس لكى يتشـاوروا فيمـا بينهم، ومـا يختـاره هؤلاء النواب- حيث يمثل حضورهم فى ذلك المجلس حضور جميع النّاس- ويصادقون عليه، يعدّ مصداقاً كاملًا وجامعاً للشورى الإسلامية الحقيقية.

وبمـا أنّ اتفـاق جميع الآـراء فى أغلب المسائـل لاـ يتحقق عـادةً، فلاـ يوجـد حلّ لـذلك إلّا من خلال رأى الأكثريـة كمعيار ومقياس لذلك، والذى غالباً ما يكون أقرب إلى الواقع.

والأكثريـة هنـا طبعـاً هى الأكثريـة المتشـكلة من الأـفراد المؤمنين والواعين، سيّما وأنّ افتراضـنا مبنىّ على أنّ النّـاس وبحكم تكليفهم الدينى ينتخبون ممثليهم من الأفراد الذين يمتلكون الصفات اللازمة لهذا الأمر.

وبناءً على ذلك فإنّ ما يُقال إنّ القرآن الكريم يـذم الأكثريـة فى كثير من الموارد، لا يشـمل الموضوع الـذى نتحدث عنه قطعاً، إذ إنّ الأكثرية المقصودة فى قوله تعالى: «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ». (المائدة/ ۱۰۳)

وقوله تعالى «أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ». (الأنعام/ ۳۷)

وقوله تعالى: «أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ». (التوبة/ ۸)

وقوله تعالى: «أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ». (المؤمنون/ ۷۰)

وأمثالها ناظرة إلى الأكثرية فى المجتمعات المنحرفة والضالّة لا الأكثرية المؤمنة والعالمة والملتزمة.

إنّ هذه الضمائر وبقرينة ما جاء قبلها، تعود جميعاً إلى المشركين والجهلاء والمتعصبين وغير الملتزمين، إذ لم يصرح القرآن أبداً بأن: «أكثر المؤمنين أو أكثر المتقين لا يعلمون ولا يفقهون»، ولهذا السبب فإنّنا نقرأ فى علم الاصول فى باب «التعادل والتراجيح» عندما يدور الحديث حول الروايات المتعارضة: إنّ الشهرة بين الفقهاء هى إحدى المرجّحات، والمشهور هو نفس الاستناد إلى قول أكثرية الفقهاء، وقد ورد فى الحديث: «خُذْ بِما اشتَهَرَ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۷

بَينَ أصْحابِكَ وَدَعِ الشّاذَّ النادِرَ، فإنّ المُجْمع عَلَيه لا رَيبَ فِيه» «۱».

بل ويستفاد من تاريخ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه كان يحترم رأى الأكثرية من المسلمين فى موارد المشاورة، بالرغم من كونه صلى الله عليه و آله يمثل العقل الكلى.

ويتضح ذلك فى معركة أُحُد عندما شاور المسلمين بخصوص مسألة البقاء داخل المدينة أو الخروج منها وخوض الحرب خارجها، فلما رأى إجماع أكثرية المسلمين على تأييد النظرية الثانية، قبلها وعمل بها، حتى إنّه صلى الله عليه و آله لم يعتن برأيه الشخصى المؤيد للأقلية.

فأعطى بذلك أكبر درسٍ فى تاريخ الإسلام بشأن مسألة الشورى «۲». وكما هو معلوم لدينا أنّ نتيجة هذا الأمر لم تكن إيجابية تماماً، ولكن بالرغم من ذلك فإنّ فوائد احترام الشورى كانت أكثر بكثير من الخسائر الفادحة لمعركة أُحُد! (فتأمل).

وحصل ما يشبه هذا الأمر أيضاً فى معركة «الخندق»، فقد جاء فى (مغازى الواقدى) أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يشاور أصحابه كثيراً فى المسائل والامور العسكرية والحربية، ومن ذلك أنّه قال صلى الله عليه و آله لأصحابه قبل وقوع معركة الخندق: هل نغادر المدينة ونقاتل جيش المشركين، أم نبقى فى المدينة ونحفر خندقاً حول المدينة، أم نكون على مقربةٍ من المدينة ونجعل الجبل خلفنا؟! وعندها اختلف أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حول هذه المسألة ...

فرأى جمعٌ من أصحابه أن يخرج النبى صلى الله عليه و آله خارج المدينة، ولكن سلمان قال: كنّا إذا داهمنا فرسان العدو وخشيناهم، نحفر الخندق حول المدينة، فهل تجيزنا يا رسول اللّه أن نحفر خندقاً حول المدينة؟ فنالت وجهة نظر سلمان قبول (أكثر) المسلمين (ورجّحوا حفر الخندق وقبل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بهذا الرأى) «۳».

ونكرر القول مرّة أخرى أنّه فى عملية الشورى عندما تتعرض مجموعة ما للقيام بمسألة الشورى وخاصة فى المسائل الاجتماعية المهمّة- فقلّما يحصل الإجماع على رأى واحد، ولو أهملت الأكثرية ولم يؤخذ بها، لن ينجز أىّ عمل على الاطلاق.

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۷۵، الباب ۹ من أبواب صفات القاضى، ح ۱،

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۳، ص ۶۶.

(۳) مغازى الواقدى، ج ۱، ص ۴۴۴ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۸

ومن اللازم أن نذكر الملاحظة التالية أيضاً، وهى أنّ مسألة الشورى والمشاورة، قبل أن يقرّها الدين الإسلامى كانت متداولة بين سائر العقلاء فى العالم أيضاً، وقد أقرها الدين الإسلامى- مع إضافة بعض الشروط المهمّة إليها- حيث إنّ الأمر بين سائر العقلاء فى العالم

يستند إلى أنّ المعيار هو رأى الأكثرية، هذا فيما يتعلق برأى الأكثرية.

وأمّا اللوائح المعمول بها فى المجالس التشريعية لُاسلوب إدارة تلك المجالس وكيفية أخذ الآراء، فهى موضوعة أيضاً على أساس تصويت ذلك المجلس وعن طريق تلك الشورى.

وبناءً على ذلك فإنّ مجالس التشريع الإسلامية، بجميع التشريفات المتّبعة فى أمر الانتخابات، والمنتخبين، وإدارة الجلسات، وكيفية مناقشة المسائل، وتقسيمها إلى مسائل فوريةوغير فورية، وأمثال ذلك، فإنّها تمثل نفس «الشكل المنظّم لقاعدة الشورى التى ينظر إليها الإسلام باعتبارها إحدى الثوابت الأساسية، إذ يمكن مطابقة جميع تلك الممارسات مع هذه القاعدة.

ومن البديهى أنّه متى ما انحرف أحد المجالس عن نظرية الشورى الإسلامية من حيث مواصفات المشاورين أو الامور الاخرى ويُصار إلى انتخاب أفرادٍ غير واعين أو غير ملتزمين، أو يتحول المحيط الحر لابداء الرأى إلى جوّ من الضغوط، أو يتمّ اقرار شىء ما خلافاً للقوانين الإسلامية والضوابط الدينية المسلّم بها، فإنّ هذا المجلس سوف لن يكون مجلساً اسلامياً للشورى ولن ندافع عنه اطلاقاً.

المسؤولية الرئيسية لمجلس التشريع الإسلامى:

إنّ تعبير «السلطة المقننة» أو «المجلس التشريعى»- المقتبس من الأجانب- يؤدّى أحياناً إلى أن يتداعى إلى الذهن بأنّ المراد به قيام ممثّلى الشعب فى هذا المجلس بوضع القوانين، أى قيامهم بتشريع الحلال والحرام، فى حين أنّ الأمر ليس كذلك، إذ كما أشرنا إلى ذلك فى بحوثنا السابقة أنّ العمل الرئيسى للممثلين فى هكذا مجلس هو تطبيق الأحكام

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۹

الكلية على المصاديق، والفهم الموضوعى لُلامور، أى ينبغى عليهم الجلوس والتشاور لتحديد المواضيع المعقدة التى يحتاجها المجتمع، بهدف تطبيق الأحكام الإسلامية عليها.

وعلى سبيل المثال، يعدّ الدفاع عن دولة الإسلام ضد الغزو الاجنبى وقتالهم أمراً واجباً، كما أن عقد الصلح معهم فى ظروف خاصة يؤدّى إلى تعزيز وتقوية دعائم الإسلام وردّ كيدهم وشرّهم، إلّاأنّ تشخيص هذا المعنى وتحديده، وهو هل أنّ الحرب مثلًا فى الظروف الحالية، تؤدّى إلى دفع شرّهم، أم الصلح؟ هذا الأمر بحاجة إلى الفهم والخبرة الموضوعية، ويعقد المجلس فى هذه الحالة جلسة خاصة، ومن خلال دراسته للموضوع من كافة جوانبه، يختار مافيه الصلاح لُلامّة.

وكذلك فيما يتعلق بكيفية إنفاق أموال بيت المال، وكيفية تنظيم الخزينة وتوزيعها بشكل عادل، لتصبح مصداقاً للعدل والمساواة، فإنّ المجلس يعقد اجتماعه الخاص لمناقشة هذا الموضوع، ويختار ما يراه المصداق الحقيقى للأصلح.

ومن الممكن طبعاً فى بعض الاحيان أن يُخطِىء المجلس فى محاولته لتطبيق الأحكام الإسلامية على مصاديقها، لأنّ أغلب النواب عادةً ليسوا من الفقهاء والمجتهدين، ولهذا السبب بالذات ولغرض الحد من الوقوع فى هذه الأخطاء، فقد تم تشكيل (مجلس صيانة الدستور) فى نظام الجمهورية الإسلامية، ويضم نخبة من الفقهاء والحقوقيين، إذ يقوم هذا المجلس بالاطمئنان على إسلامية القوانين، والدراسة الموضوعية لها.

ومن خلال هذا الكلام يمكن الوصول إلى هذه النتيجة، وهى وجود اختلافين رئيسيين بين المجالس التشريعية الإسلامية، والمجالس التشريعية للأنظمة العلمانية والغربية:

۱- تقوم المجالس التشريعية غير الدينية بتشريع الأحكام فعلًا ويضعون الحلال والحرام والمجاز والممنوع، دون أن يستندوا فى ذلك إلى حكم إلهى، ولكن فى المجالس التشريعية الإسلامية، يتمثل العمل الرئيسى فيها بتطبيق الأحكام الإلهية الكليّة على مصاديقها أو الدراسة والدراية الموضوعية لها.

۲- إنّ الهدف المطلوب فى المجالس التشريعية الغربية والعلمانية هو السعى لتحقيق

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۰

نفحات القرآن ج ۱۰ ۱۴۹

متطلبات الناس، سواء كانت هذه المتطلبات منحرفة وتؤدّى إلى انحطاط المجتمع، أو إيجابية وبنّاءة ومفيدة، ولهذا السبب فإننا نشاهد ونلاحظ أنّه يتمّ فى هذه المجالس التصويت على قوانين مخزية وحمقاء من قبيل السماح بالاختلاط الجنسى، والاعتراف الرسمى بعقد الزواج بين الذكور، ونظائرها من القوانين المخزية!

بينما نجد أنّ الهدف الأساسى فى المجالس التشريعية الإسلامية يتمثل بتحقيق إرادة اللَّه سبحانه وتعالى والاصول المعروفة فى الدين الإسلامى، والاهتمام بتلبية المتطلبات السليمة للناس.

وحل المشاكلهم وتطوير المجتمع الإسلامى فى جميع المجالات الإيجابية ضمن إطار التعاليم الإسلامية، مع رفض تلبية الحاجات والرغبات المنحرفة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۱

الركن الثانى: السلطة التنفيذية

اشارة

القوانين بشكل مجرد، عبارة عن كلمات مدونة على الورق، ولا تظهر قيمتها الحقيقية إلّا بعد أن تصل إلى مرحلة التطبيق العملى، وهى بالضبط تشبه وصفة الطبيب، التى مهما كانت دقيقة وصحيحة فى تشخيصها للداء والدواء، لن يكون لها أدنى تأثير يذكر على حالة المريض إلّابعد أن يُعمل بها، إذ إنّ تشخيص المرض، والقيام بجميع التحليلات وبدقة، والمعرفة الصحيحة بكمية ونوعية الأدوية كلها على حدة، والتطبيق العملى لها، على حدة، بل إنّ الركن الأساسى يتمثل بالجوانب العملية.

إنّ أى قانون مهما كان مثالياً وقيّماً، لن يكون له أدنى تأثير مالم نتحرك نحو تطبيقه، ف «السلطة التنفيذية» هى التى تحفظ ماء وجه السلطة التشريعية.

وبالرغم من أنّ هذه المسألة تعدّ من الواضحات، إلّاأنّ القرآن الكريم لديه إشارات غنيّة المعنى بشأنها، ومن ذلك:

۱- عندما بُلّغ النبى موسى عليه السلام بالرسالة فى جانب الطور فى الوادى الأيمن، وأخذ الأمر بالتصدى لفرعون وانقاذ بنى اسرائيل والدعوة إلى التوحيد والحق والعدالة، طلب من اللَّه تعالى أن يعينه على تنفيذ ذلك وقال: «وَاجْعَلْ لِّى وَزِيْرَاً «۱» مِنْ أَهْلِى هَارُونَ اخى اشْدُدْ بِهِ ازْرِى* وَاشْرِكْهُ فى امْرِى». (طه/ ۲۹- ۳۱)

۲- ونطالع فى قصة «بنى اسرائيل» و «طالوت»: عندما انتفض بنو اسرائيل من ظلم

---

(۱) يقول «الماوردى» فى الأحكام السلطانية: من الممكن أن يكون وزير من مادة «وزر» اى مشتق من الثقل، ذلكانه يتحمل المسؤولية، أو من مادة وزر بمعنى الملجأ والملاذ (لانه ملجأ الناس)، «أومن» مادة «أزر» بمعنى السند (لأنّ السند الرئيسى هو اللَّه تعالى (الأحكام السلطانية، ص ۲۴).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۲

«جالوت»:، ذلك الرجل الذى أخرجهم من ديارهم وأسّر أبناءَهم، فخططوا لقتاله وخوض الحرب ضده، ولتطبيق هذه الخطة، لابدّ من قائد خبير وجدير، ومدبّر من جميع الجوانب، ومن أجل اختيار مثل هذا الرجل، قصدوا نبى زمانهم «اشموئيل» وقالوا له: «ابْعَث لَنا مَلِكَاً نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ». (البقرة/ ۲۴۶)

فأوحى إليه اللَّه تعالى بأن يختار طالوت، ذلك الشاب المؤمن الواعى والشجاع، وقال:

«إِنَّ اللَّهَ قَد بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكاً». (البقرة/ ۲۴۷)

۳- ونقرأ فى قصة النبى يوسف عليه السلام كذلك: عندما تنّبأ بسنين عجاف من الناحية الاقتصادية لأهل مصر، ووضع لهم برنامجاً حكيماً لتجاوز هذه السنين الصعبة، اختار سلطان مصر النبى يوسف عليه السلام لتنفيذ ذلك البرنامج والاشراف عليه، وتمّ ذلك الاختيار باقتراح من النبى يوسف عليه السلام، إذ يقول القرآن الكريم بهذا الشأن: «قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف/ ۵۵)

وتمكن النبى يوسف عليه السلام بما يمتلكه من القدرة الجيدة والإدارة الرشيدة، أن يعبر ببلاد مصر من تلك السنين العجاف ويحافظ عليها.

۴- ممّا لا شك فيه أنّ الأرض شهدت قيام حكومة النبى سليمان عليه السلام والتى تعدّ من أكبر الحكومات التى قامت على وجه البسيطة، ولغرض دفع عجلة تطور المجتمع البشرى إلى الأمام، ونشر العدالة فيه، لجأ النبى سليمان عليه السلام إلى الاستفادة القصوى من جميع الوسائل والسبل الممكنة، وبدرجة عالية من الحنكة الإدارية والضبط العالى، وبعبارة أُخرى فقد سخّر اللَّه تعالى له كل الامكانيات اللازمة لتحقيق تلك الأهداف، وتمكن هو أيضاً ومن خلال الاستفادة من هذه الوسائل، أن يحقق اهدافاً هامّة وسامية.

ويشير القرآن الكريم فى سورة النمل المباركة فى شرح قصة حكومة داود وابنه سليمان عليهما السلام، إلى العلم الواسع والجم الذى يتمتعان به عليهما السلام إذ يقول تعالى

«وَلَقَدْ آتَينَا دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً ...» ثم يضيف قائلًا: «وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيءٍ». (النمل/ ۱۵- ۱۶)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۳

ويتحدث القرآن الكريم فى سورة سبأ المباركة عن الأب وابنه عليهما السلام إذ يقول تعالى

«وَلَقَدْ آتَينَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالَنَّا لَهُ الحَديدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَلِسُلَيْمانَ الرِّيْحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَواحُهَا شَهْرٌ وَاسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِاذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ* يَعْمَلُون لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ».

(سبأ/ ۱۰- ۱۳)

إنّ القوّة الإدارية التى كان يتمتع بها سليمان عليه السلام وشدة انضباطه فى الأمور التنفيذية وإدارة البلاد، كانت إلى درجة أنّه عندما قضى فيها نحبه وهو متكىء على عصاه (ولهذا السبب مات واقفاً)، كان عماله من الجن يؤدّون واجباتهم بمنتهى الدقة، حتى أكلت دابة الأرض منسأته وسقط على الأرض، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم:

«فَلَمَّا قَضَينَا عَلَيهِ المَوتَ مَادَلَّهُم عَلَى مَوتِهِ إِلَّا دابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ». (سبأ/ ۱۴)

وكل هذه الامور تحكى عن مدى الإدارة المحكمة والقوية لسليمان عليه السلام وشدّة التزامه وانضباطه فى العمل.

وكما يلاحظ فى عالم الخلقة من أنّ المكلّفين من قبل اللَّه تعالى بتنظيم وإدارة العالم فى مختلف المجالات والمشار إليهم فى القرآن الكريم: «وَالْمُدَبِّراتِ أَمْرَاً». (النازعات/ ۵)

ووردت الكثير من الإشارات الاخرى أيضاً بشأن أعمال الملائكة فى هذا المجال، ففى عالم البشرية أيضاً لا يمكن اشاعة النظام وتنفيذ القوانين بدون جهازٍ تنفيذى قوى ومنظّم ومعتبر يتمّ فيه تقسيم الأعمال وتوزيع المسؤوليات.

ويتضح هذا الأمر بشكل جلى فى كتاب الإمام على عليه السلام لمالك الاشتر رضى الله عنه الذى يضم النموذج الكامل للنظام التنفيذى من حيث كيفية ادارة الدولة.

فبعد أن يشير الإمام على عليه السلام فى هذا الكتاب إلى مسألة المستشارين ينتقل للإشارة إلى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۴

واجبات مالك الاشتر رضى الله عنه باعتباره حاكم بلاد مصر، إذ يأمره عليه السلام ويقول: «اختر وزراءك من الأفراد ذوى السيرة الحسنة والأذكياء».

ومن ثم ينتقل إلى ذكر الامور والجوانب الإدارية والتنفيذية المختلفة للدولة، فيشير فى البداية إلى مسألة القوّة الدفاعية والجيش الإسلامى المقتدر، ومن ثم يشير إلى الموظفين والعمال الحكوميين، وبعد ذلك يشير إلى القضاة، ثم ينتقل إلى التجّار والامور التجارية والصناعية والاقتصادية، وأخيراً يتناول المسائل المتعلقة بالمحتاجين، والمعوزين فى المجتمع، ويتطرق إلى شرح وواجبات ومسؤولية كل منهم فى هذا المجال من خلال شرح مستفيض ودقيق، ويذكر فى ذلك أدق الامور وأظرفها.

إنّ هذا العهد الذى يعدّ فى الواقع مستخلصاً من آيات القرآن الكريم والروايات النبوية الشريفة، تمّ تنظيمه بالشكل الذى لم تتمكن فيه القرون الأربعة عشر أن تغطيه بغبارها وتجعل منه عهداً تقادمت عليه السنون فعادَ قديماً فحسب، بل إنّ عظمته واشعاعه أصبح أكثر بهاءً بمرور الزمان عليه، حيث بعدُ نموذجاً بارزاً من التخطيط الإسلامى فى مجال الاصول التى ينبغى أن تسيّر الإدارة الإسلامية، والنظام التنفيذى فى الحكومة الإسلامية عليها.

النظام التنفيذى للحكومة الإسلامية فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

بالرغم من أنّ الحكومة الإسلامية على عهد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانت بسيطة جدّاً فى تكوينها، إلّاأنّ كل ما تحتاجه الحكومة القوية والمقتدرة، كان منظوراً فى تركيبة تلك الحكومة، إذ كان مسجد الرسول صلى الله عليه و آله بما يعنيه من بساطة عجيبة، يمثل القاعدة الأساسية للحكومة ونظامها التنفيذى.

فهو من جانب يمثل الجامعة الإسلامية، ذلك لأنّه يمثل مهداً لتعلم الدين والقراءة والكتابة والتربية فى الليل والنهار.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۵

ويمثل من جانب آخر مقر الجيش الإسلامى، ومركز القائد العام لهذا الجيش.

ومن جهة ثالثة يمثل محكمة القضاء أو كما يقال بيت العدالة.

ومن جهة رابعة يمثل مركز بيت المال وجمع الزكوات والغنائم الحربية، وبالرغم من صغر حجمه وبساطته التى كان عليها فإنّه كان يسع لاستيعاب جميع هذه الامور!

وقد اختار النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لكل أمرٍ من هذه الأمور، مسؤولًا أو عدداً من المسؤولين، واستمر هذا الأمر بعده صلى الله عليه و آله على هذا المنوال، وخاصةً فى عصر الإمام على عليه السلام، إذ اتخذ طابعاً جديداً وتنظيمات أوسع بموازاة توسّع رقعة الدولة الإسلامية وتطورها فى العالم، إذ تمّ توضيح قواعده فى عهده عليه السلام لمالك الاشتر رضى الله عنه.

وكل ذلك يدل على أنّه لابدّ من النظر إلى مسألة النظام التنفيذى بعد مسألة الشورى إذ بدون ذلك يفقد أى قانون قيمته واعتباره.

صفات وشروط المسؤولين التنفيذيين:

تناول القرآن الكريم وبشكل صريح فى ثلاثٍ من آياته المباركة- وعلى نحو الإشارة فىالعديد من الآيات الاخرى صفات وخصائص العمال اللائقين فى الحكومة.

نقرأ أولًا فى قصة طالوت وبنى اسرائيل: «عندما اعترض بنو اسرائيل على انتخاب طالوت من قبل نبيهم (اشموئيل) لقيادة الحكومة، وقالوا بعدم جدارته بسبب عدم امتلاكه المال والثروة (وعدم انتسابه إلى احدىالاسر المعروفة فى بنى اسرائيل)، خاطبهم نبيهم قائلًا: لقد أوتى اثنتين من الصفات: سعة العلم، وقدرة فى الجسم، وبسبب هاتين الصفتين (العلم والقوة) اختاره اللّه تعالى ، «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بسَطَةً فِى العِلْمِ وَالجِسْمِ»

(البقرة/ ۲۴۷)

وبناءً على ذلك فقد عدَّ القرآن الكريم صفتى العلم والقوة على أنّهما يمثلان الشرطين الأساسيين لرئيس الحكومة الإسلامية أولًا، ومن ثم يشمل ذلك جميع العاملين فى تلك الحكومة أيضاً.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۶

ويشير القرآن الكريم فى قصة يوسف عليه السلام إلى شرطين آخرين أيضاً فيما يتعلق بالمدراء والموظفين فى المستويات العليا للحكومة كالعاملين على حفظ بيت المال (وزير المالية) إذ يقول تعالى «قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ انّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف/ ۵۵)

وفى قصة موسى وشعيب عليهما السلام أيضاً أشارَ القرآن الكريم على لسان بنات شعيب إلى شرطين آخرين أيضاً بخصوص العمال اللائقين: «قالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأجَرْتَ الْقَوِىُّ الامِينُ». (القصص/ ۲۶)

وبناءً على ذلك فإنّ القرآن الكريم يشترط العلم والوعى والعقل، والقوة والقدرة، والامانة والاستقامة فى جميع المستويات، بدءاً برئيس الحكومة ومروراً بالوزراء وحتى العاملين الصغار- مع تفاوت المناصب.

وقد تمّت الإشارة أيضاً فى العديد من الآيات المباركة فى القرآن الكريم، إلى هذا المطلب، وذُكر فيها بعض الشروط التى ينبغى توفرها فى العاملين فى الحكومة، ومنها:

۱- اجتناب التعاطى مع المسرفين: «وَلَا تُطِيعُوا امْرَ المُسْرِفِينَ». (الشعراء/ ۱۵۱)

۲- اجتناب التعاطى مع السفهاء: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ امْوالَكُمُ التَّى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا». (النساء/ ۵)

۳- اجتناب اتخاذ المضلِّين: «وَمَاكُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً». (الكهف/ ۵۱)

۴- اجتناب المكذبين: «فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ». (القلم/ ۸)

۵- اجتناب الهمّازين والنمامين والمنّاعين للخير والمعتدين الآثمين والحاقدين والسيئين: «وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ* مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ* عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ». (القلم/ ۱۰- ۱۳)

۶- عدم اتباع هوى النفس: «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا». (النساء/ ۱۳۵)

۷- وأخيراً ضرورة اتباع المؤمنين والتعاون معهم وعدم الاستفادة من غير المسلمين فى المناصب الحساسة والذى يؤدّى إلى تسلطهم على المسلمين: «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤمِنِينَ سَبِيلًا». (النساء/ ۱۴۱)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۷

وتمثل هذه بعض الشروط والصفات التى منالضرورى مراعاتها لدى القائمين على أعمال الحكومة الإسلامية.

شروط القائمين على الحكومة فى الأحاديث الإسلامية:

اشارة

وردت فى الاحاديث الإسلامية أيضاً شروط ثقيلة جدّاً وكثيرة للقائمين على الحكومة، والتى لا يمكن بدونها تحقيق إقامة الحكومة

الإسلامية بشكل كامل مطلقاً.

۱- العلم والوعى فى أعلى مستوياتهما

نقرأ فى حديثٍ عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَنْ أَمَّ قوماً وفيهم من هو أعلَمُ مِنه لم يَزَلْ أمرُهُم إلى السِّفال إلى يوم القيامة!» «۱».

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ دعى الناسَ إلى نفسه وفيهم من هو أعلم منه فهو مبدع ضالّ!» «۲».

۲- سعة الصدر وانفتاح الفكر والاستعداد لتحمل الحوادث المختلفة

نقرأ فى أحدى الكلمات القصار المعروفة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«آلةُ الرياسة سعة الصدر» «۳».

۳- الوعى بمسائل الزمان

نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«العالمُ بزمانِهِ لا تهجُمُ عليهِ اللوابسُ!» «۴».

---

(۱) الوسائل، ج ۵، ص ۴۱۵ (الباب ۲۶ من ابواب صلوة الجماعة).

(۲) سفينة البحار، ج ۲ مادة (العلم).

(۳) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۷۶.

(۴) اصول الكافى، ج ۱، ص ۳۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۸

۴- مراعاة العدالة وعدم التفريق بين الناس

ونقرأ فى حديثٍ أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال لعمر بن الخطاب:

«ثلاث إن حفظتهن وعملت بهنّ كفتك ما سواهنَّ، وإن تركتهنَّ لم ينفعك شىء سواهنَّ».

قال: «وما هُنَّ يا أبا الحسن»؟

قال: «إقامة الحدود على القريب والبعيد، والحكم بكتاب اللَّه فى الرضا والسخط، والقِسْمُ بالعدلِ بين الأحمر والأسود».

«فقال عمر: لقد أوجزْتَ وأبلغت»! «۱».

۵- الاهتمام بمكافأة المحسنين والعفو عن المذنبين الذين يؤمل بتوبتهم وعودتهم عن ذنوبهم

نقرأ فى حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ثلاثة تجبُ على السلطان للخاصة والعامة: مكافأةُ المحسن بالاحسانِ ليزدادوا رغبةً فيه، وتغمُّدُ ذنوب المسىء ليتوبَ ويرجع عن غيّه،

وتألفهم جميعاً بالاحسانِ والانصاف» «۲».

۶- النظر لمصالح الناس ومصالحه بعين المساواة!

ومن بين الأوامر التى أصدرها الإمام على عليه السلام لمحمد بن أبى بكر عندما اختاره لولايۀ بلاد مصر مايلى:
«أحِبَّ لعامۀ رعيتك ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، فإنّ ذلك أوجبُ للحجۀ وأصلح للرعيۀ» «۳».

۷- الارتباط العاطفى مع الناس

لقد اعتبرت بعض الروايات الإسلاميۀ السلطان العادل بمنزلۀ الوالد، وأوصت الناس أن

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۳۴۹، ح ۵۳.
(۲) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۲۳۳.
(۳) بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۲۷.

يحترموه احترام الأب، والمراد بهذا الحديث أنّه ينبغى للسلطان أيضاً أن ينظر للناس بعين الابوۀ ويعتبرهم بمنزلۀ ابنائه، وبناءً على ذلك لابدّ من إقامۀ روابط عاطفيۀ قويۀ بينه وبين الناس كما هو الحال بين الأب وابنائه، ويقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فى حديثٍ ورد عنه:
«إنَّ السُّلْطانَ الْعادِلَ بِمَنْزِلَۀِ الْوالِدِ الرَّحيمِ فَأحِبُّوا لَهُ ما تُحِبُّونَ لأنْفُسِكُمْ وَاكْرهُوا لَهُ ما تَكْرَهُونَ لأنْفُسِكُمْ» «۱».

۸- الابتعاد عن البخل، والجهل، والجفاء والظلم

يقول الإمام أمير المؤمنين علىّ عليه السلام فى هذا المجال:
«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أنَّهُ لا يَنْبَغِى أنْ يَكُونَ الْوالى عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّماءِ وَالْمَغانِمِ وَالاحْكامِ وَامامَۀِ الْمُسْلِمِينَ؛ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِى امْوالِهِمْ نَهْمَتُه، وَلا الْجاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلا الْجافى فَيَقْطَعهُمْ بِجفائِهِ، وَلا الخائِفُ لِلدُّوَلِ، فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُوْنَ قَوْمٍ، وَلا الْمُرتشِى فِى الْحُكْمِ فَيَذْهَبُ بِالْحُقوقِ وَيَقِفُ بِها دُوْنَ الْمَقاطِعِ، وَلا الْمُعَطِّلِ لِلْسُنَّۀِ فَيُهْلِكَ الامَّۀَ» «۲».

۹- عدم المصانعۀ والتعاطى مع أهل الباطل

يقول إمامنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى كلماته القصار فى نهج البلاغۀ:
«لا يقيم أمر اللَّهِ سبحانَهُ إلّامن لا يصانعُ ولا يضارعُ ولا يتبَّع المطامع» «۳».

۱۰- النظر بعين الامانۀ لمقامه ومنصبه

وهذه الملاحظۀ أيضاً جديرۀ هى الاخرى بالاهتمام، وهى أنّ المناصب والمسؤوليات فى الحكومۀ الإسلاميۀ، تمّ اعتبارها فى العديد

من الروايات أمانة إلهيّة، دون اعتبارها

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۴۷۲، ح ۱.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۳۱.

(۳) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۲۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۰

وسيلة للتعالى والاستفادة منها للاغراض الشخصية، حتى أنّه أُشير لهذا الأمر فى بعض الآيات المباركة فى القرآن الكريم، قبل الروايات الإسلامية، إذ نقرأ فى قوله تعالى

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الامَانَاتِ الى أَهْلِهَا وَاذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ». (النساء/ ۵۸)

وقد ورد فى نهاية هذه الآية فى كتب التفسير والحديث روايات متعددة على أن المراد بالامانة، هو الولاية والحكومة، وعلى رأس ذلك ولاية الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ومن ذلك ما نقرأه فى إحدى الروايات الواردة فى تفسير الآية الآنفة:

«يعنى الإمامة، والإمامة الامانةُ»! «۱»

وينقل فى كتاب دعائم الإسلام أيضاً فى حديثٍ عن الإمام علىّ عليه السلام أنّه كتب إلى «رفاعة» قاضى الأهواز مايلى:

«إعلم يا رفاعة، أنَّ هذه الامارة أمانة، فمن جعلها خيانةً فعليه لعنةُ اللَّه إلى يومِ القيامةِ، ومن استعملَ خائناً فإنّ محمداً صلى الله عليه و آله برىءٌ منه فى الدنيا والآخرة» «۲».

وينقل فى تفسير الدر المنثور عن الإمام علىّ عليه السلام أيضاً أنّه قال:

«حقّ على الإمام أن يحكمَ بما انزلَ اللَّهُ وأن يؤدّىَ الأمانةَ، فاذا فَعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له وان يطيعوا وأن يجيبوا إذا دُعوا» «۳».

ونطالع فى نهج البلاغة أيضاً، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال فى كتابه إلى والى آذربايجان:

«وإنّ عملك ليس لك بطعمةٍ ولكنه فى عنقك امانة» «۴».

ومن البديهى أنّ هذه الروايات لا تحجّم المفهوم الواسع للآية التى توصى بالمحافظة على جميع الامانات، بل وكما هو واضح لدينا فإنّها تمثل المصداق الواضح للامانة الإلهيّة.

وممّا لا شك فيه أيضاً أنّ الذى ينظر إلى هذه المناصب بعين الأمانة الإلهيّة، فإنّ اسلوبه

---

(۱) نُقل فى تفسير البرهان سبع روايات على الأقل فى هذا المجال، وتلاحظ فى كتاب بحار الأنوار أيضاً فى الجزء ۲۳ و ۶۷، و ۱۰۲ (فى الصفحات ۳۸۰، و ۲۸۰، و ۲۵۳ على التوالى)، روايات متعددة بهذا الشأن.

(۲) دعائم الإسلام، ج ۲، ص ۵۳۱.

(۳) تفسير الدر المنثور، ج ۳، ص ۱۷۵.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة ۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۱

فى التعاطى مع هذا الأمر يختلف كثيراً عن ذلك الذى ينظر إليها على أنّها ملك مطلق له، وكذا الحال بشأن الأموال والثروات، فإنّ القرآن الكريم يعبّر عنها أيضاً بأنّها عبارة عن أمانة إلهيّة بين يدى الناس، موضحاً بأنّ المالك الأصلى لها هو اللَّه تبارك وتعالى وهو الذى أودعها بأيدى الناس أيّاماً معدودات، كما ورد فى قوله تعالى «آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ». (الحديد/

(۷)

ومن المسلَّم به أن صرف الأموال المودعة بعنوان أمانة لدى الإنسان فى الموارد الخاصة التى يجيزها صاحب تلك الأموال لا توجد فيه أية صعوبة، فى حين أنّ الإنسان لو كان هو المالك الأصلى لها، فإن صرف تلك الأموال ليس سهلًا عليه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۳

هيكلية السلطة التنفيذية

اشارة

يتألف النظام التنفيذى عادةً من شبكة واسعة، يقف على رأسها رئيس الحكومة، ويليه الوزراء فى المرتبة التالية، ويأتى فى المرتبة الثالثة منهم المديرون العامون والمحافظون، ورؤساء الاقسام والنواحى التابعة، وكل دولة سواء كانت كبيرة أم صغيرة، فإنّها بحاجة إلى هذه التقسيمات، سواء كانت بهذه المسميات أو بغيرها.

والواقع أنّ هذه الشبكة الواسعة تمتلك فلسفة واضحة، تستمد قوتها من مسألة ضرورة تقسيم الأعمال.

وتمثل هذه المسألة فى عالم التشريع والانظمة البشرية، صورة واضحة عن تركيبة النظام التكوينى، فعندما ننظر إلى بدن الإنسان من حيث تشكيلاته الداخلية والخارجية، نرى أنّ هذا «العالم الصغير» الذى انطوى فيه «العالم الكبير»، يمتلك نظاماً تنفيذياً غايةً فى الانسجام، مع شبكةٍ واسعة لتقسيم الأعمال.

وعندما يقرر العقل أداء عملٍ ما، ويصدر الأمر النهائى بذلك، يبدأ كل جزء من أجزاء جسم الإنسان بأداء نشاطه الخاص به، ويواصل تنفيذ ذلك العمل إلى مراحله النهائية بانسجام كامل.

وكمثال بسيط على ذلك، عندما يشعر الإنسان بالخطر، كأن يُدرك بواسطة العين أو الاذن، وجود حيوان مفترس بالقرب منه (كأن يرى هيكله أو يسمع صوته)، ولا يملك سلاحاً يدافع به عن نفسه، وبالقرب منه ملجأ يمكن أن يلوذ به، فإن أمر الفرار نحو ذلك الملجأ سيصدر له من العقل، وسرعان ما تبدأ شبكات الاعصاب والعضلات بالعمل، وتزداد

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۴

ضربات القلب بشدّة عالية لإيصال المزيد من الدم إلى العضلات، وتزداد سرعة عمل الرئتين لتنقية الدم وتصفيته، وايصال المزيد من الاوكسجين اللازم لحركة العضلات، وتزول جميع آثار التعب والكسل والنوم من الإنسان بشكل مؤقت، ويراقب أوضاعه وحركاته بمنتهى الذكاء واليقظة، وبعبارة اخرى يطير الكرى عن مقلتيه.

وينسى الإنسان فجأةً وبشكل لا إرادى جميع الامور التى من الممكن أن تشغل فكره وتعيقه عن أداء هذا العمل من قبيل الجوع، والعطش، والألم!

ويستنفر الجسم جميع طاقاته الكامنة فيه، ويصبح مستعداً لأداء أصعب الاعمال وأكثرها مشقة، ويبدى أحياناً عشرة أضعاف ممّا يبديه من الطاقة فى الحالات الاعتيادية، وجميع هذه الامور تتم بشكل تلقائى واتوماتيكى تماماً وبمستوى عالٍ من الدقة والظرافة، بحيث أن مجرّد مطالعة هذا الموضوع لوحده يكفى للوقوف على علم اللَّه تعالى وعجيب قدرته، والاطلاع على حقيقة التوحيد.

وكلّ مجتمع بشرى ينطبق عليه نفس الحكم الذى ينطبق على الجسم، ولهذا السبب لا بد من تقسيم الأعمال فيه بشكل دقيق، ومواصلة تأمين متطلباته الثقافية، والاقتصادية، والعسكرية، والمادية والمعنوية، من خلال التخطيط الدقيق لذلك، وبالرغم من الاختلاف الموجود بين كل منها، فإنّ التناغم والتنسيق وإكمال كل منها للآخر يعدّ أمراً فى غاية الضرورة.

ولهذا السبب أيضاً فإنّ جميع المجتمعات البشرية- سواء المتدينة أو البعيدة عن الدين، شرقيّها أو غربيّها، قديمها أو جديدها- رضخت

لهذه القاعدة فی حياتها الاجتماعية، بالرغم من التفاوت الموجود فيما بينها فی كيفية تقسيم الاعمال والمناصب والمسؤوليات، إذ إنّ البعض منها بدائی جدّاً فی ذلك والبعض الآخر تعمل بشكل دقيق للغاية.

النظام التنفيذی فی عالم الوجود:

بالرغم من اللّه تبارك وتعالى قادر على كل شیء، وكل مايريده يتحقق بارادته تعالى فوراً:

«إِنَّما امْرُهُ اذَا ارَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». (يس/ ۸۲)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۵

وبالرغم من ذلك كله فإنّ الآيات المباركة فی القرآن الكريم توضح وبشكل جلی، أنّ اللّه تبارك وتعالى قسّم الأعمال فی هذا العالم، إذ خلق طوائف من الملائكة ليقوم كل منها بانجاز إحدى الأعمال المهمّة فی هذا العالم.

فيشير القرآن الكريم أحياناً بشكل عام إلى هذه المسألة وهو قوله تعالى

«جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا اولِی اجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ». (فاطر/ ۱)

ويقول فی موضع آخر: «فَالْمُدَبِّراتِ امْراً». (النازعات/ ۵)

وينقل فی موضع آخر قول الملائكة: «و مَا مِنَّا الَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ* وَانَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ* وَانَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ». (الصافات/ ۱۶۴- ۱۶۶)

وأحياناً اخرى يشير إلى طوائف خاصة منها لها وظائفها الخاصة، إذ يمكن أن نشير فيما يلی إلى المجاميع التالية كنموذج على ذلك:

۱- الملائكة المبلغين للوحی والمنزلين للكتب السماوية:

«يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوْحِ مِنْ امْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ». (النحل/ ۲)

۲- مجموعة حَمَلَةِ العرش:

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ». (غافر/ ۷)

۳- مجموعة المراقبين لأعمال الناس:

«وَانَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ* كِرَاماً كَاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ». (الانفطار/ ۱۰- ۱۲)

۴- مجموعة جند اللّه الذين يعززون المؤمنين فی الحروب وحوادث الحياة القاسية:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً». (الاحزاب/ ۹)

۵- مجموعة حفظة الناس ازاء الكثير من الاخطار والحوادث:

«وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً». (الانعام/ ۶۱)

۶- مجموعة المكلفين بقبض الأرواح:

«قُلْ يَتَوفَّاكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِی وُكِّلَ بِكُمْ». (السجدة/ ۱۱)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۶

وكذلك: «الَّذِينَ تَتَوفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ». (النحل/ ۳۲)

۷- الملائكة المكلفون بتقسيم الأرزاق:

«فَالْمُقسِّماتِ امْراً». (الذاريات/ ۴)

إذ يقول البعض فی تفسير هذه الآية الكريمة، وجرياً مع تناسب الآيات الواردة قبلها:

إنّها تشير إلى الملائكة الذين يقسمون الأرزاق بين العباد، بينما يقول البعض الآخر: إنّها تشير إلى الملائكة المكلفين بتقسيم جميع

الأعمال فی عالم الوجود.

۸- الملائکة المکلفون بنشر السحاب ونزول الأمطار والمکلفون بتشتیتها بعد هطول الأمطار:

«وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً* فَالْفارِقَاتِ فَرْقاً». (المرسلات/ ۳- ۴)

۹- الملائکة المکلفون بدفع وساوس الشیاطین عن قلوب المؤمنین، والذین یصدون هجوم الشیاطین عن افکار المؤمنین، فیقضون علی وساوسهم:

«فَالزَّاجِرَاتِ زَجراً» «۱». (الصافات/ ۲)

۱۰- الملائکة الذین ینزلون فی لیلة القدر، والمکلفون بإبلاغ تقدیرات اللّه تعالی علی مدی سنة کاملة، تلک المقدرات التی تحُدد وفقاً لاستحقاق الأفراد وحسن أعمالهم، ولیس بدون حساب وبشکل اجباری:

«تَنَزَّلُ الْمَلائِکَةُ وَالرُّوحُ فِیهَا بِاذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْر». (القدر/ ۴)

وکما تلاحظون فإنّ اللّه تبارک وتعالی وبالرغم من قدرته التامة علی جمیع الأعمال، فإنّه یقسم تدبیر أمور هذا العالم بین الملائکة، وجعل لکل مجموعة منهم واجباً وتکلیفاً محدداً.

ونلاحظ فی الروایات الإسلامیة أیضاً تعبیرات متعددة وبلیغة بشأن أصناف الملائکة، من حیث تقسیم المسؤولیات، ومن جملة ذلک ماورد فی نهج البلاغة فی خطبة الأشباح:

---

(۱) قیل الکثیر من الأوجه فی تفسیر هذه الآیة، وأحد تلک المعانی ماجاء أعلاه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۷

«ومنهم من هو فی خلق الغمام الدُّیح، وفی عظم الجبال الشمَّخ ... وفی فترةِ الظلام الأیهم، خَرَقت اقدامُهمُ تخومَ الارضِ السّفلی فهی کراياتٍ بیضٍ قد نفذت فی مخارقِ الهواءِ، وتحتها ریحٌ هفافة، تحبسُها علی حیثُ انتهت من الحدود المتناهیةِ، قد استفرغتهم اشغالُ عبادتِهِ، ووصلت حقائق الایمانِ بینهم وبین معرفته ... قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالکأس الرویَّة من محبتِهِ!» «۱».

ولدینا المزید من الروایات الاخری بشأن تقسیم المسؤولیات فیما بین الملائکة، لو ذکرناها جمیعاً لطال بنا المقال «۲».

ویمکننا أن نستخلص ممّا تقدم ذکره آنفاً المفهوم القرآنی التالی: لو أرادت البشریة أن تساير نظام ربوبیة الباریء جلّ وعلا فی الوجود وتطبق نظام ادارته فی عالم التکوین، لابدّ لها أن تهتم وبکل دقة بمسألة تقسیم الأعمال والمسؤولیات فی المجتمع الإنسانی، لکی تقترن حیاة أفراد المجتمع بالموفقیة والنجاح.

وبعبارة أخری نحن نعلم أنّ نظامی التکوین والتشریع یجب أن یعملا بشکل متناغم، ولابدّ لحیاة البشریة أن تستلهم فلسفتها من خلقة الباری جلّ وعلا وتصطنع بصبغة اللّه تعالی وأنّ کل ما هو حاکم هناک یجب أن یکون هو الحاکم هنا.

إنّ الاهتمام والالتفات إلی هذه الحقیقة یدعونا إلی مسألة تنظیم الامور التنفیذیة.

النظام التنفیذی فی عصر النبی صلی الله علیه و آله:

بالرغم من أن الحکومة الإسلامیة علی عهد الرسول صلی الله علیه و آله کانت بسیطة جدّاً، إلّاأنّه فی‌نفس الوقت کانت مسألة تقسیم المسؤولیات فی النظام التنفیذی لهذه الحکومة، واضحة جدّاً ومدروسة بشکل دقیق.

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۹۱ (خطبة الاشباح).

(۲) وللمزید من الایضاح بشأن أصناف الملائکة علیکم بمراجعة بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۱۷۴ ومایلیه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۸

ومن ذلك أن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يختار للمعارك- التى لا يشارك فيها بشخصه- قائداً أو عدداً من القادة، وحتى أنّه صلى الله عليه و آله أحياناً كان يعيّن خليفة للقائد الأول لتلافى الحوادث المحتملة الوقوع للقائد الأول، وعلى سبيل المثال فى معركة مؤته كان القائد الأصلى للجيش جعفر بن أبى طالب ثم أضاف قائلًا: لو حصل أمرٌ لجعفر فبعده «زيد بن حارثة» على الجيش، ولو حصل له أمرٌ أيضاً «فعبد اللَّه بن رواحة» على الجيش، ولو حصل له أمرٌ ما أيضاً، على المسلمين أن يختاروا شخصاً من بينهم عن طريق الشورى لقيادة الجيش «۱».

وجاء فى التواريخ أيضاً أنّه كان للرسول صلى الله عليه و آله كتّاباً للوحى وللُامور الاخرى إذ يمكن أن نذكر من بينهم الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وكذلك «زيد بن ثابت»، و «علاء بن الخصرى» و «أبى بن كعب» «۲».

واختار صلى الله عليه و آله بعض الأفراد لجمع أموال الزكاة والامناء على بيت المال، إذ يمكن أن نذكر من بينهم «مهاجر بن أبى اميّة» المكلّف بجمع أموال بيت المال فى صنعاء، و «زياد بن لبيد» فى «حضرموت» و «عدى بن حاتم» فى قبيلة «طى» و «مالك بن نويره» فى «بنى حنظلة»، و «زبرقان بن بدر» فى قبيلة «بنى سعد» و «العلاء بن الحضرمى» فى «البحرين» «۳».

وعين الرسول صلى الله عليه و آله أيضاً بعض الخبراء لتحسين محصول بساتين النخيل لغرض دفع الزكاة، ومنهم «عبداللَّه بن رواحة».

كما أنّه صلى الله عليه و آله كان يعين الأمراء للمناطق المختلفة، ويمكن أن نذكر من بينهم عليّاً عليه السلام، و «معاذ بن جبل» على اليمن، و «عتاب بن اسيد» على «مكة» و «عثمان بن أبى العاص» على منطقة «بنى ثقيف».

لقد كان للرسول صلى الله عليه و آله، العديد من الرسل الذين أرسلهم للملوك ورؤساء البلدان المجاورة، ومنهم «عبداللَّه بن حذافة» الذى بعثه إلى «كسرى ملك الساسانيين، و «دحية

---

(۱) سيد المرسلين، ج ۲، ص ۴۴، ونقل بعض المؤرخين الأمراء الثلاثة بشكل آخر، ولا يوجد بينهم وبين مرادنا اختلاف.

(۲) الكامل لابن الأثير، ج ۲، ص ۳۱۳.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۲۴۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۹

الكلبى» إلى «قيصر» ملك الروم، و «حاطب بن أبى بلتعة» إلى «المقوقس» ملك مصر، و «عمرو بن اميّة» إلى «النجاشى» ملك الحبشة «۱».

وبهذا الشكل نشاهد أنّه فى تلك الحكومة الخالية من أى نوع من أنواع التشريفات، نجد نظاماً تنفيذياً منسجماً بشكل كامل ويتألف من اقسام مختلفة، وقد اختار صلى الله عليه و آله لكل قسم منها مسؤولًا أو عدّة مسؤولين، يحكمون فيها.

وهذا كله يوضّح لنا بشكل جلى، أن مسألة تقسيم المسؤوليات والإدارات فى الأقسام المختلفة للنظام التنفيذى للحكومة الإسلامية، يعد أمراً مسلّماً به ولا يمكن اجتنابه.

كيفية انتخاب رئيس السلطة التنفيذية والمسؤولين الآخرين:

فى النظرة الكونية الإسلامية التى تقول: إنّ الحكم للَّه، وإنّ مصدر شرعيتها فى المجتمعات البشرية تستند إلى الاجازة والتفويض الإلهى، ومن الطبيعى أن يتمّ فى الأنظمة التنفيذية تعيين المسؤولين فى جميع المستويات من قبل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومن ثم الأئمّة المعصومين عليهم السلام وبعدهم خلفائهم ونوّابهم أى الفقهاء العظام.

ولهذا السبب نجد أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عندما شرع ببناء الدولة الإسلامية فى بداية الهجرة إلى المدينة، وعمل على

توسيعها فيما بقى من عمره الشريف، كان يقوم صلى الله عليه و آله بتعيين الولاة وامراء الجيش والقضاة والسفراء بنفسه، ومن المحتمل أنّه كان صلى الله عليه و آله يقوم باستشارة أصحابه فى الحالات المهمّة بشأن انتخاب أولئك الأشخاص.

ومن المؤكّد عندما يتحول الأمر إلى الفقيه الجامع للشرائط، وخاصةً فى عصرنا وزماننا- إذ تعتبر المشاركة الجماهيرية فى أمر الحكومة من البديهيات، ذلك أنّه بدون مشاركتهم لن تتوفر دواعى المساهمة والتعاون مع الحكومة مطلقاً- يجب أن تكون مسألة الشورى والمشاورة مع الناس على رأس البرنامج الخاص باختيار المستويات الرفيعة للسلطة التنفيذية.

وبعبارة أخرى لابدّ أن يكون للناس المعرفة الكافية برئيس السلطة التنفيذية، الشخص

---

(۱) بيت النبوّة (خاندان وحى)، ص ۲۶ بالفارسية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۰

الأول فى هذه السلطة، والتعاون فى هذا المجال- ومتى ما كان الفقيه الجامع للشرائط غير معنىً بهذا الأمر، فإنّه يعرض مصالح المسلمين للخطر ويتسبب فى زعزعة النظام الإسلامى، وبناءً على ذلك فإنّه يفقد شرعية ولايته أيضاً.

وليس بوسع الولى الفقيه أن يقول: أنا خليفة المعصوم، وأنا الذى أعين جميع المديرين التنفيذيين ورئيس الوزراء والوزراء ورئيس الجمهورية فى الحكومة الإسلامية مطلقاً، ذلك لأن هذا الأمر لا ينسجم مع مصالح الناس وغبطة المسلمين وشروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويؤدّى إلى زعزعة دعائم الحكومة، وتضعيف اسسها وقدرتها، بل إنّ أساس مثل هذه الحكومة سرعان ما ينهار وتمحى من صفحة التاريخ والمجتمع.

إذن، يجب عليه أن يحترم قاعدة الشورى القرآنية فى هذا الأمر، ويعطى الاهميّة لاختيار الناس، ويدعوهم للمساهمة فى هذا الأمر المهم، وإحدى أفضل الطرق لذلك هو ما نص عليه دستور الجمهورية الإسلامية، من أنّ انتخاب رئيس الجمهورية يتمّ فى البداية من قبل الشعب، ويكتسب دعمه الشعبى من خلال آرائهم، ثم يصار فى المرحلة النهائية إلى صدور الأمر بتنصيبه من قبل الفقيه الجامع للشرائط، لكى يصار إلى تثبيت جنبته الشعبية من جهة، ويضمن من جهة أخرى الجنبة الإلهيّة التى تشكل أساس هذا الانتخاب. (فتأمل).

وهذه الملاحظة هى الاخرى جديرة بالاهتمام، وهى أنّ التجربة أثبتت أنّ انتخاب الناس فى مجتمع مؤمن وملتزم متى ما تّم من خلال الإعداد الصحيح والمسبق والتدريب والمعرفة الكافيين، غالباً مايكون صحيحاً.

بينما لو حصل فى بعض الموارد خطأ معين فى تشخيص الشعب وضمير الامة- وهذا قليل ونادر- فيجب على الفقيه الجامع للشرائط أن يستفيد من صلاحياته، ويُعرض عن تنفيذ تنصيب مثل هذا الشخص، ولكن بما أنّ الولى الفقيه منتخب هو الآخر من قبل الشعب، (كما سنشير لذلك لاحقاً)، فيجب أن يقوم بتنوير الأذهان من خلال التدبير والدراية الصحيحة وإرائة الوثائق والأدلة، ويعمل على توعية الضمير الشعبى تجاه هذا الأمر، ولو حصل خطأٌ معين فعليه أن يقف بوجهه ويتصدى له.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۱

ولكن كما قلنا إنّ هذا الأمر يحصل فى موارد نادرة جدّاً، خاصة وأنّ صلاحية المرشحين لهذا الأمر يجب أن تؤيد من قبل مجموعة من أهل الخبرة والدراية، لذا من المستبعد أن تحصل مشكلة مهمّة فى هذا المجال.

طبعاً من الممكن أن يتحقق اختيار الشعب بشكل غير مباشر، بمعنى أن يختار الناس نوابهم لمجلس الشورى الإسلامى، ومن ثم يقوم النواب بترشيح إحدى الشخصيات لمنصب رئاسة الوزراء، وبعد المداولة اللازمة واحرازه الصلاحية يمنحونه رأى الاعتماد والثقة، ولغرض تنفيذ هذا الحكم يراجعون الولى الفقيه بعد ذلك، ومن ثم يقوم الولى الفقيه أيضاً- إما بشكل مباشر أحياناً، أو بشكل غير مباشر (كما نشاهد ذلك بخصوص فقهاء مجلس صيانة الدستور)- بتأييد هذا الرأى والموافقة عليه وتنفيذه.

وبالرغم من أن رئيس السلطة التنفيذية، أى رئيس الجمهورية فى نظام حكم الجمهورية الإسلامية يتمّ انتخابه فى الوقت الحاضر من قبل الشعب، إلّاأن مسؤولى الدرجة الاولى أى الوزراء، يتمّ تعيينهم بواسطة اقتراحه وانتخاب نواب الشعب فى مجلس الشورى ، وبهذا الشكل فإنّ الشعب يشاركك ويساهم عن طريقين فىانتخاب الوزراء: أولًا: عن طريق نواب المجلس، وثانياً: بواسطة رئيس السلطة التنفيذية، والاثنان منتخبان عن طريق الشعب.

كما أنّ الفقيه الجامع للشرائط، يشرف على هذا الأمر أيضاً عن طريق مجلس صيانة الدستور، من خلال المصادقة على تنفيذ تنصيب رئيس الجمهورية أيضاً.

إنّ هذا الاسلوب غير المعقّد نسبياً يضمن من جهة، تدخل الفقيه الجامع للشرائط فى هذا الانتخاب طبقاً للموازين الشرعية، ومن جهة أخرى مشاركة الشعب أيضاً، وبهذا الشكل تتمّ مراعاة الجنبتين الشرعية والشعبية بشكل دقيق، (فتأمل).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۳

الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية

اشارة

هذا الجزء من المسائل المتعلقة بالحكومة الإسلامية يعد من أهم الأجزاء وأكثرها حيوية، لأنّ من الممكن أن نفهم ممّا تقدم عن النظام التنفيذى فى الحكومة الإسلامية، أنّها تسير بنفس الاسلوب الذى يسير عليه الحكام غير الإسلاميين.

أى أن تقسيم المسؤوليات، وتشكيل الوزارات وانتخاب الوزراء، والمديرين الكبار والأدنى منهم، ورئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء مطلوب هنا أيضاً، وكذا الحال بالنسبة لمسألة الانتخابات الشعبية، والاستناد إلى آراء وإرادة الشعب، والانتخاب المباشر أو غير المباشر من قبل نواب الشعب فى مجلس الشورى وامثال ذلك، موجودة هى الاخرى أيضاً.

وبناء على ذلك فإنّ الفرق الوحيد لهذه الحكومة مع سائر الحكومات، يكمن فى الاسم والعنوان فقط!

إلّا أنّ ذلك يعد خطأً فاحشاً، لأنّ الشىء الاهم الذى يفرّق بين الشعوب والحكومات والجمعيات يكمن فى الثقافة الحاكمة عليهم، خاصة وأن الحكومة أو المؤسسات والجمعيات هى بمنزلة الجسم فقط، وروحها يكمن فى الثقافة الحاكمة عليها.

ولغرض الوقوف على الثقافة الإسلامية الحاكمة على هذه التنظيمات، يلزمنا المزيد من البحوث، وهى بحاجة إلى كتاب أو مجموعة من الكتب المستقلة، وما تطالعونه هنا يمثل فى الواقع فهرساً من تلك البحوث، هذا الفهرس الذى بإمكانه أن يوضح للقراء الكرام الكيفية الاجمالية لهذه المسألة وأهدافها وأهميتها.

وبشكل عام فإنّ ثلاثة أصول أساسية تتحكم بنظام الحكومة الإسلامية. والتى تميّزها عن سائر الحكومات الشعبية:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۴

۱- معرفة المسؤولين التنفيذيين بأنّهم المؤتمنون على أمر اللّه تعالى ويجب عليهم المحافظة على ما أودع بأيديهم من أمر الحكومة والمناصب الحكومية كوديعة وامانة إلهيّة، وبأنهم بمثابة حلقة الوصل بين اللّه سبحانه وتعالى وعبادة، وأن ينفّذوا بدقة كل ما أمر به تعالى بشأن عباده، وليس بأمكانهم مطلقاً أن ينشغلوا بالتفكير فى المحافظة على مناصبهم أو مصالحهم الشخصية أو مصالح جماعة معينة.

فى حين أنّ الحكام الماديين يفكرون فى كيفية المحافظة على مناصبهم ومصالحهم الشخصية أكثر من أى شىء آخر، ومن الممكن أحياناً ان يعمدوا إلى صرف الملايين من أجل الوصول إلى أحد المناصب، والمؤكد أنّهم وبعد استلام الحكم يقومون بتعويض ما أنفقوه ويزيدون عليه أضعافاً مضاعفة، أو على الأقل يتعلق هؤلاء الأفراد بطبقة معينة من المجتمع، ومن أجل المحافظة على مصالح

تلك الطائفة التى ينتمون لها، والتى رصدت مبالغ طائلة لإيصالهم إلى سدة الحكم، يقومون بشتى الجهود، من أجل أن تعود على تلك الطبقة بالمزيد من الفوائد والارباح المضاعفة.

ولذا فإنّ اختلاف هذا المنظار عن المنظار الذى يعمل بموجبه الحكام والمديرون الإسلاميون واضح جدّاً وفى جميع المجالات.

۲- ينظر الناس إليهم كمبعوثين من قبل اللَّه تعالى ذلك لأنّ طاعتهم تعد فرعاً من طاعة اللَّه تعالى وأوامرهم بمنزلة أوامر اللَّه.

ويعتبرون قوانين الحكومة الإسلامية- فى حالة قيام تلك الحكومة على الاسس الصحيحة- بمنزلة قانون اللَّه، ويعتقدون بأنّ طاعتها توجب النجاة فى الآخرة، وأنّ مخالفتها يعد ذنباً ويوجب العذاب يوم القيامة.

هذه النظرة تختلف كثيراً عن النظرة السائدة فى الحكومات الماديّة، إذ يرى الناس أنّ الحكّام عبارة عن أفرادٍ مثلهم، وهم غالباً فى صدد المحافظة على مصالحهم الشخصية أو مصالح الحزب والجماعة التى ينتمون لها، وإذا شعروا بأنّ النّاس غير راضين بالقوانين المشرّعة، وأمنوا من العقاب، فإنّهم سرعان ما يتخلّون عن واجبهم فى تحمّل مسؤولياتهم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۵

۳- فى الحكومة الإسلامية وبشكل عام يجب أن تلقى الروح المعنوية والقيم الاخلاقية بظلالها على جميع الامور، وأن تأتى المسائل الاخلاقية والإنسانية على رأس قائمة الاعمال، ويجب أن تكون الدوافع أبعد بكثير من الدوافع الماديّة، أوليس الهدف النهائى من تشكيل الحكومة والحياة الأفضل إنّما يتمثل فى توفير المقدمات اللازمة للسير إلى اللَّه والقرب من البارى وايجاد التكامل الروحى والمعنوى؟!

فهل يمكن أن تتساوى هذه الأهداف والدوافع مع أهداف ودوافع الشعب والعاملين فى حكومة ماديّة؟

طبعاً لغرض الوصول إلى تحقق حكومة إلهيّة تامة وكاملة، لابدّ أن نطوى طريقاً طويلًا وشاقاً، ولابدّ من اعطاء دروس كثيرة للمجتمع، ولكن مهما يكن الحال فإنّ محتوى هذه الحكومة قياساً للحكومات المادية، من حيث العنصر الثقافى «متفاوت» للغاية بل و «متباين» أيضاً.

ومن خلال هذا التحليل ننتقل إلى الآيات القرآنية المباركة، ومن ثم إلى الروايات الإسلامية، لغرض الوقوف على الثقافة الحاكمة على المحاور المختلفة للحكومة الإسلامية ومناقشتها:

۱- نقرأ فى قوله تعالى

«فَبِما رَحْمةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَولِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمرِ فَاذِا عَزَمْتَ فَتَوكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ».

(آل عمران/ ۱۵۹)

وبناءً على ذلك فإنّ الحاكم الإسلامى وبالاضافة إلى الحزم والعزم الشديدين، فهو مطالب ومكلف بالعفو والصفح، وحتى الاستغفار واللين والانسجام، وأن يرى فى اللَّه تعالى السند والملاذ الأول والأخير فى كل حال من الأحوال.

۲- وفى سورة فصلت المباركة يأمر البارى تعالى بغسل العداوة والبغضاء بماء المحبة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۶

والاحسان، وتلافى مواجهة الأحبّة بالمثل كلما أمكن ذلك، إذ يقول تعالى «إِدْفَعْ بالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَاذِا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ». (فصلت/ ۳۴)

إنّ سيطرة مثل هذه الثقافة على النظام الإسلامى التنفيذى والتى تقف على نقيض الثقافة المادية تضفى عليه نورانية وصفاءً، وتعطى له معنىً ومفهوماً آخرين.

۳- ويقول تعالى فى سورة الكهف المباركة تجاه اصرار الذين يعتقدون بأنّ واجب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أن يُبعد الفقراء

وإن كانوا مؤمنين ومخلصين، ويقترب من الطبقات الغنية والمتنفذة، إذ تقول الآية بكل صراحة وحزم:

«واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاتَعْدُ عَينَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَياةِ الدُّنيا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً». (الكهف/ ۲۸)

وشتان بين هذا المنطق الذى يرى فى الحب والإيمان باللَّه تعالى لدى هؤلاء الأفراد أثمن وأغلى شىء لديهم، ويأمر بصد الأغنياء الغافلين عن ذكر اللَّه، وليس الفقراء المخلصين المؤمنين، وبين منطق الذين يعلنون اليوم بكل صراحة فى العالم، بأنّ القيمة العليا تكمن فى المصالح والمنافع المادية، ويضحّون بجميع القيم الاخرى فى سبيل تلك المصالح.

۴- وتخاطب سورة ص وبلهجة حازمة وشديدة، النبى داود عليه السلام:

«يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّه». (ص/ ۲۶)

وكما نرى فإنّ الآية الكريمة تنذر هذا النبى المعصوم والقدوة للنّاس بأن يحذر وساوس النفس الأمارة، لئلا تصبح سبباً لانحرافه عن طريق الحق والعدالة.

وعلى هذا الأساس، يجب على الحاكم الأسلامى أن يراقب نفسه جيداً ويحذر من الأهواء والدوافع الدنيوية والحبّ والبغض أن تتحكم فى أعماله وتصرفاته فيضيع بها حقاً أو يرتكب باطلًا، وما أشد ما اختلف هذا الميزان للحاكم مع من يقول إنّ القاضى يعتبر

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۷

مسؤولًا فقط أمام القانون لا أكثر، ذلك القانون الذى له أكثر من ألف طريقة للفرار والتبرير.

۵- وفى سورة النساء يخاطب القرآن الكريم جميع المؤمنين ويذكّرهم بأصل مهم، وهو تقديم الأصول والضوابط على الروابط، ويقول:

«يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ للَّهِ وَلَوْ عَلَى انْفُسِكُمْ او الْوالِدَيْنِ وَالاقْرَبِينَ انْ يَكُنْ غَنِيّاً اوْ فَقِيراً فَاللَّهُ اوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى انْ تَعْدِلُوا وَانْ تَلْوُوْا اوْ تُعْرِضُوا فَانَّ اللَّهَ كَانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً». (النساء/ ۱۳۵)

وبهذا لا ينبغى للروابط بين الأب والأم والأبن والأخ أن تكون حجر عثرة أمام تطبيق القانون وإجراء العدالة، بل حتى المنافع الشخصية لابدّ من نسيانها وتركها فى مقابل الحق.

ومن البديهى أنّ مثل هذه الكلمات يمكن أن تطرح فى المحافل المادية، ولكن مضافاً إلى عدم وجود الضمانات العملية فى تطبيقها، لا يمكن تصوّر مفهوم صحيح عنها، ولهذا نجدهم يقدّمون المنافع الشخصيّة والحزبية دائماً على القيام بالعدل والقسط، فالروابط حاكمة هنا على الضوابط، وأحياناً يتم هذا المعنى من تجاوز القوانين علناً فى التصرفات المتناقضة للحكّام الماديّين فيما لو تشابهت المفردات، أحدهم يسير وفق المصلحة، والآخر على نقيضه، فهنا يتضح زيف الشعارات المتعلقة بالقسط والعدل وحقوق البشر ويثبت بطلانها.

هناك ملاحظات ملفتة للنظر فى الروايات الإسلامية لبيان الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية يطول شرحها، ولكن يمكن الإشارة إليها باختصار:

۱- رعاية الاصول الأخلاقية فى حرب مع الأعداء

بالرغم من أن الحرب تمثل منتهى الخشونة لدى الإنسان، وتكون مع الأسف ضرورية فى بعض الأحيان مقابل من لا يدرك سوى منطق القوة، مع ذلك نجد أنّ الإسلام فى برنامجه الحربى قرن المسائل الإنسانية مع وحشية الحرب، وأوجب على المسلمين رعاية الأصول

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۸

الأخلاقية فى حربهم مع الأعداء الشرسين.

وعندما كانت مجموعات المجاهدين من جيش الإسلام تتوجه إلى ميادين القتال كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يدعوهم إليه ويوصيهم بوصاياه، ويقول:

«سِيرُوا بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَفى سَبيلِ اللَّهِ وَعَلى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّه لا تَغُلُّوا، وَلا تُمَثِّلُوا وَلا تَغْدرُوا وَلا تَقْتُلُوا شَيْخاً فانِياً، وَلا صَبِيّاً وَلا امْرَأَةً وَلا تَقْطَعُوا شَجَراً الّا انْ تَضْطَرُّوا الَيْها، وَايُّما رَجُلٍ مِنْ ادْنَى الْمُسْلِمينَ اوْ افْضَلِهِمْ نَظَرَ الى رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكينَ فَهُوَ جارٍ حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ فَانْ تَبِعَكُمْ فَاخُوْكُمْ فِى الدِّيْنِ وَانْ ابى فَابْلِغُوهُ مَأْمَنَهُ وَاسْتَعينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِ» «۱».

ونقرأ فى حديث آخر:

«نَهى رسُولُ اللَّهِ أنْ يُلقى السُّمُّ فى بلادِ المشركين» «۲».

«ما بيّتَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه و آله عدوّاً قَطْ» «۳».

ونقرأ أيضاً فى حديث آخر من وصايا النبىّ صلى الله عليه و آله الحربية إلى الإمام على عليه السلام عندما كان الإمام عازماً للتوجه إلى اليمن:

«لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه، وأيم اللَّه لأن يهدى اللَّه على يديك رجلًا خير لك ممّا طلعت عليه الشمس وغربت» «۴».

۲- الآداب الإسلامية فى جمع الضرائب

ونقرأ فى الآداب المتعلقة بجمع الزكاة والأموال لبيت المال أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كلما بعث رجلًا لجمع الزكاة أوصاه بوصايا عديدة. منها ما يلى:

---

(۱) فروع الكافى، ج ۵، ص ۲۷- ۲۸- ح ۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۸، ح ۲.

(۳) المصدر السابق، ص ۲۸، باب وصية رسول اللَّه ...، ح ۲۳.

(۴) المصدر السابق، ح ۴.

«انْطَلِقْ عَلى تَقْوَى اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وَلا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً، وَلا تَجْتازَنَّ عَلَيْهِ كارِهاً، وَلا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ اكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِى مالِهِ فَاذا قَدِمْتَ عَلَى الْحَىِّ فَانْزِلْ بِمائِهِمْ مِنْ غَيْرِ انْ تُخالِطَ ابْياتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ الَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقارِ حَتّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ، فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ وَلا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبادَ اللَّهِ! ارْسَلَنى الَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ وَخَليفَتُهُ لآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فى امْوالِكُمْ فَهَلْ للَّهِ فِى امْوالِكُمْ مِنَ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ الى وَلِيِّهِ، فَانْ قالَ قائِلٌ: لا، فَلا تُراجِعْهُ، وَانْ انْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ انْ تُخيفَهُ او تُوَعِّدَهُ اوْ تُعَسِّفَه أو تُرهقه» «۱».

وبعد هذه التعليمات، يوصيه الإمام عليه السلام بوصايا مؤكّدة عن كيفية الإنتخاب العادل لزكاة بيت المال من بين الأموال الجيدة والسقيمة، ورعاية الرفق والمداراة والمحبة، وغير ذلك ممّا يعتبر نموذجاً واضحاً على حاكمية القيم الإسلامية فى هذه الأمور فى المعاملة مع الناس.

قد يتصور البعض أنّ طريقة المعاملة هذه فى مسألة الضرائب الإسلامية توجب الضعف والفتور لدى الناس، وتختلف كثيراً عمّا نشاهده اليوم من كيفية جمع الضرائب.

ولكن لا ينبغى الغفلة عن أنّ هذه التعليمات واردة فى المجتمع الإسلامى الذى تربى أفراده تربية إسلامية وشعروا فيه بالمسؤولية.

كما أننا نجد الآن وفى بعض المجتمعات غير الإسلامية، كثيراً من الأشخاص- وبسبب الثقافة الحاكمة هناك- يدفعون الضرائب عن

طيب خاطر من دون أن يطالبهم أحد، وأكثر من ذلك وأفضل ما يجرى فى مجتمعنا الإسلامى حيث تأتى الناس زرافاتٍ ووحداناً إلى مراجع الدين ليؤدوا ما عليهم من الخمس الواجب وبدقة متناهية حتى يحسبوا حساب عدّة كيلو غرامات من السكّر أو الشاى الموجودة فى بيوتهم ممّا زاد عن مؤونة السنة، حيث إنّ النّاس يشعرون جميعاً بالمسؤولية، وهكذا بالنسبة لزكاة الفطرة وشعور الناس بالمسؤولية تجاهها.

وكلما انتشرت وتعمقت هذه الثقافة والشعور بالمسؤولية اتّضح الجواب عن هذا الإشكال كاملًا.

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۲۵.

۳- الإقتصاد فى كلّ شىء

من مميزات الثقافة الإسلامية أيضاً الاقتصاد والدقّة فى صرف أموال بيت المال بعنوان أنّه وديعة وأمانة إلهيّة بيد المسؤولين يحاسبون عليها يوم القيامة حساباً عسيراً، والحادثة المعروفة التى وقعت لعقيل بن أبى طالب أحد الشواهد على ذلك حيث طلب من أخيه الإمام على عليه السلام أن يفضله على الآخرين فى العطاء، فنجد أنّ الإمام عليّاً عليه السلام رفض وضع أدنى امتياز بين أخيه والآخرين حتىّ أنّه عليه السلام أحمى له حديدة وقربها من يده وحذّره من عذاب اللّه يوم القيامة.

وهناك موارد اخرى كثيرة ولا نظيرلها ستبيّن دقة المسؤولين ورجال الإسلام فى هذا المجال ومن ذلك تعليمات الإمام على عليه السلام إلى الكُتّاب فى الحكومة الإسلامية حيث يقول عليه السلام:

«ادِقُّوا اقْلامَكُمْ وَقارِبُوا بَيْنَ سُطُورِكُمْ وَاحْذِفُوا عَنّى فَضُولَكُمْ، وَاقْصُدُوا قَصْدَ الْمَعانى، وَايّاكُمْ وَالاكْثارَ، فَانَّ امْوالَ الْمُسْلِمينَ لا تحتمل الاضْرارَ» «۱».

وقد بيّن الإمام الصّادق عليه السلام هذا المعنى بصورة كلية حيث قال:

«انَّ الْقَصْدَ امْرٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَانَّ السَّرَفَ يُبْغِضُهُ حَتّى طَرْحَكَ النواةَ فَانَّها تَصْلحُ لِشَىءٍ وَحَتّى صَبَّكَ فَضلَ شَرابِكَ» «۲».

وقد ثبت فى هذا الزمان أن كل شىء لا ينبغى أن يطرح، فيمكن الاستفادة حتى من القمامة والمواد الزائدة للمصانع وغيرها، وحتى أنّ مياه المجارى مع قذارتها ورائحتها النتنة يتم تصفيتها من جديد وإرسالها إلى المزارع، وكذلك يتم جمع القمامة فيصنعون منها منتوجات مختلفة، ونختم هذا الكلام بحديث كريم من دعاء الصحيفة السجادية للإمام على بن الحسين عليه السلام فى هذا المجال حيث يدعو اللّه تبارك وتعالى ويقول:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَالِهِ وَاحْجُبْنِى عَنِ السَّرَفِ وَالازدِيادِ، وَقَوِّمْنِى بِالبَذْلِ وَالاقْتِصادِ، وَعَلِّمْنِى حُسْنَ التَّقْدير، وَاقْبِضْنِى بِلُطْفِكَ عَنِ التَّبْذِيْرِ» «۳».

---

(۱) الخصال، ج ۲۱، الباب ۲۵، ح ۸۵؛ بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۴۹، ج ۱۰۱، ص ۲۷۵.

(۲) بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۳۴، ح ۱۰.

(۳) الصحيفة السجادية، الدعاء ۱۳۰ (دعاؤه فى المعونة على قضاء الدين).

۴- المعيار الفضيلة وليس العمر

لقدتم انتخاب عتاب بن أسيد من قبل النبيّ صلى الله عليه و آله أميراً على مكة المكرمة، وكان شاباً شجاعاً ذكياً، فكتب له رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى كتاب تنصيبه كلمات منيرة توضح الثقافة السامية للإسلام فى المجال التنفيذى فى الحكومة الإسلامية ونقرأ فى بعض كلماته:

«فَهُوَلَنا خادِم وَفِى اللَّهِ اخ وَلَاوْلِيائِنا مُوالٍ، وَلَاعْدائنا مُعادٍ، وَهُوَ لَكُمْ سَماء ظَلِيلَة، وَأَرْض زَكِيةٍ، وَشمس مُضِيئَة وَلا يَحْتَجُّ مُحْتَجٌّ مِنْكُمْ فِى مُخالَفَتِهِ بِصِغَرِ سِنّه، فَلَيْسَ الَاكْبَرُ هَوَ الافْضَلَ، بَلِ الافْضَلُ هُوَ الاكْبَرُ!» «۱».

۵- الرأفة الإسلامية

الإمام على عليه السلام عندما أراد بيان الرأفة الإسلامية وشفقة الحاكم الإسلامى على سائر الرعية فى عهده المعروف بعهد مالك الأشتر الذى يعتبر حقاً أفضل مرسوم إدارى كتب لحد الآن ولم يصبه غبار النسيان على مرور الزمان، كتب يقول فيه:

«وَاشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِم، وَلاـ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضارِياً تَغْتَنِمُ اكْلَهُمْ، فَانَّهُمْ صِنْفان: إِمّا أَخٌ لَكَ فِى الدِّيْن اوْ نَظيرٌ لَكَ فِى الْخَلْقِ» «۲».

وفى الحقيقة أنّ الثقافة الإسلامية الحاكمة على العلاقات بين المسلمين وبين غيرهم تتلخّص فى هذه الجملات المعدودة.

۶- الإعتماد على الشعب

فى مكان آخر من كتاب العهد هذا، يوصى الإمام عليه السلام بأن يجعل الوالى اعتماده على

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۱۲۳.

(۲) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۲

الطبقة العامة والكادحة، والإجتناب عن الطبقة المترفة وموالاتها، والسعى دائماً لكسب رضا الطبقة الأولى دون الثانية، يقول عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ احَبَّ الامُورِ اَلَيْكَ اوْسَطُها فِى الْحَقِّ وَاعَمُّها فِى الْعَدْلِ وَاجْمَعُها لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَانَّ سُخْطَ الْعامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخاصَّةِ، وَانَّ سُخْطَ الْخاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعامَّةِ، وَلَيْسَ احَد مِنَ الرَّعِيَّةِ اثْقَلُ عَلَى الْوالِى مَؤُونَةً فِى الرَّخاءِ وَاقَلُّ مَعُونَةً لَهُ فِى الْبَلاءِ وَاكْرَهُ لِلانْصافِ وَاسْأَلُ بِالالْحافِ وَاقَلُّ شُكْراً عِنْدَ الاعْطاءِ وَابْطَأُ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَاضْعَفُ صَبْراً عِنْدَ مُلِمّاتِ الدَّهْرِ مِنْ اهْلِ الْخاصَّةِ، وإنّما عِمادُ الدّينِ وَجِماعُ الْمُسْلِمينَ وَالْعُدَّةُ لِلَاعْداءِ، الْعامّةُ مِنَ الامَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ».

ويأمر عليه السلام فى محل آخر بأن يبتعد كل البعد عن أهل الحسد والذين يبحثون عن عيون الناس، ويقول:

«وَلْيَكُنْ ابْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَاشْنأُهُمْ عِنْدَكَ، اطْلِبُهُمْ لِمَعايِبِ النّاسِ، فَانَّ فِى النّاس عُيُوباً الْوالِى احَقُّ مَنْ سَتَرها، فَلا تَكْشِفَنَّ عَمّا غابَ عَنْكَ مِنْها، فَانَّما عَلَيْكَ تَطْهيرَ ما ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلى ما غابَ عَنْكَ!».

۷- الإتصال المستمر بالعلماء

التعاون والإتصال المستمر مع المتخصصين والمفكرين والعلماء من كل فن أحد النقاط المهمّة فى الثقافة الإسلامية الحاكمة على الجهاز التنفيذى، وقد جاء فى عهد مالك الأشتر أيضاً:

«وَاكْثِرْ مُدارَسَةَ الْعُلماءِ وَمُناقَشَةَ الْحُكَماءِ فِى تَثْبيتِ ما صَلَحَ عَلَيْهِ امْرُ بِلادِكَ واقامَةِ مَا اسْتَقامَ بِهِ النّاسُ قَبْلَكَ» «۱».

ويستفاد من هذه العبارة بصورة جيدة أنّ على المسؤولين والحكام الإسلاميين أن يكون لهم دائماً مستشارون فى مختلف المسائل السياسية والاجتماعية، ولا يتخذوا قراراً أو يبرموا أمراً فى المسائل المهمّة من دون مراجعة هؤلاء المستشارين.

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۳

۸- الثقافة الحاكمة على الجهاز القضائى

يستفاد أيضاً من الصفات المذكورة للقضاة فى هذا العهد نكات مهمّة جدّاً لم يُتطرق إليها بهذه الدقة فى أى مذهب أو دين، وتوضح جانباً من الثقافة الحاكمة على الأجهزة القضائية فى الحكومة الإسلامية، يقول عليه السلام:

«ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النّاسِ افْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِى نَفْسِكَ مِمَّنْ لا تَضِيقُ بِهِ الامُورُ، وَلا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ وَلا يَتَمادى فِى الزَّلَّةِ، وَلا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيءِ الَى الْحَقِّ اذا عَرَفَهُ، وَلا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلى طَمَعٍ وَلا يَكْتَفى بِادْنى فَهْمٍ دُوْنَ اقْصاهُ، وَاوْقَفَهُمْ فِى الشُّبُهاتِ وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَاقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُراجَعَةِ الْخَصْمِ، وَاصْبَرَهُمْ عَلى تَكَشُّفِ الامُورِ وَاصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لا يَزْدَهيهِ اطراء، وَلا يَسْتَميلُهُ اغْراء وَاولئِكَ قَليل!» «۱».

۹- الإرتباط المباشر مع الناس

الارتباط المباشر مع الناس ارتباطاً واقعياً وصحيحياً لا ظاهرياً تشريفاتياً، من النقاط المهمّة الاخرى التى استند إليها فى هذا العهد، حيث يأمر الإمام عليه السلام مالك الأشتر بعنوانه حاكماً مطلعاً على الثقافة الإسلامية بهذه الصورة:

«وَاجْعَلْ لِذَوِى الْحاجاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فيه شَخْصَكَ وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عامّاً فَتَتَواضَعُ فيه للَّهِ الَّذى خَلَقَكَ وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَاعْوانَكَ مِنْ احْراسِكَ وَشُرَطِكَ حَتّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ فَانّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِى غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ امَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعيفِ فيها حَقُّهُ مِنَ الْقَوِىِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ» «۲».

وقد أثبتت التجارب أنّ الارتباط غير المباشر بالشعب، يكون سبباً لتزييف الواقع وعدم الإطلاع الكامل على الأوضاع الجارية، غالباً، وعدم حصول الضعفاء من النّاس على

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۴

الأخص على حقوقهم، مضافاً إلى أنّ الارتباط المباشر يوجب ازدياد المحبّة يوماً بعد آخر بين المسؤولين وبين أفراد الشعب.

۱۰- الإهتمام بالمحرومين

آخر نقطه مهمّة اخرى نذكرها كخاتمة فى بحث الثقافة الحاكمة على الجهاز التنفيذى فى الحكومة الإسلاميّة بالرغم من المطالب الكثيرة فى هذا المجال، وهى الأهميّة القصوى للاهتمام بالمحرومين فى‌الثقافة الإسلاميّة، ففى العهد المذكور لمالك الأشتر وعندما

يصل الإمام على عليه السلام إلى هذا الموضوع يتغيّر لحن كلامه كلّيّاً، ويقول:

«ثُمَّ اللَّهَ اللَّهَ فى الطَّبَقَةِ السُّفْلى مِنَ الَّذينَ لا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ المَساكِينِ وَالْمُحْتاجينَ وَاهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنى فَانَّ فى هذِهِ الطَّبَقَةِ قانِعاً وَمُعْتَرّاً وَاحْفَظْ لِلَّهِ مَااسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلّاتِ صَوافى الإِسْلامِ فِى كُلِّ بَلَدٍ، فَانَّ لِلأَقْصى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِى لِلأَدْنى، وَكُلٌّ قَدْ اسْتُرعِيتَ حَقَّهُ فَلا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَر، فَانَّكَ لا تُعْذَرُ بِتَضْييعِكَ التّافِهَ، لاحْكامِكَ الْكَثيرَ المُهِمَّ، فَلا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ» «۱».

إنَّ هذا التّأكيد والإصرار الشديد الذى لا نظير له لأمير المؤمنين عليه السلام بالنّسبة إلى هذه الطبقة يعتبر من أوضح معالم العدالة الاجتماعيّة فى الإسلام لحفظ حقوق النّاس وخاصّة الطبقة المُستضعَفة، والأسلوب العملى الّذى اتّبعه الإمام عليه السلام فى أيّام حكومته شاهد على هذا المدّعى

النّتيجة:

ما تقدّم يعتبر جانباً من الثّقافة الحاكمة على النّظام التنفيذى فى الإسلام ونموذجاً من

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

مجمل الثّقافة الإسلاميّة فى هذا المجال يبيّن أبعاد هذه الحكومة الإلهيّة والشعبيّة، وبواسطته يمكننا الوصول إلى هذه الحقيقة وهى أن ما يطرح فعلًا بعنوان الحكومة الإسلاميّة تفصله عن الشكل الأصلى لهذه الحكومة فاصلة واسعة بالرّغم من الحركة نحو ذلك الهدف المنشود:

كيفيّة انتخاب رئيس الجهاز التنفيذى

هناك طرق مختلفة فى عالمنا المعاصر لانتخاب رئيس السلطة التنفيذيّة والمسؤولين من الدّرجة الاولى فتارة عن طريق الانتخاب المباشر، وأخرى الإنتخاب غير المباشر، وثالثة تنصيبه من قبل مسؤولٍ أعلى

وأمّا بالنسبة لمن ينصبهم النبى صلى الله عليه و آله فتارة يكون تنصيبه أمراً إلهيّاً وأُخرى يكون التنصيب عن طريق النبى نفسه، وهذا ما لاحظناه فى حياة الرسول صلى الله عليه و آله

و بالنسبة لمن ينصبه النبى صلى الله عليه و آله عن طريق الأمر الالهى فذلك أمر واضح، وقد أشارت إليه الآيات التالية:

۱- «النَّبِيُّ أَولَى بِالمُؤمِنينَ مِن أَنفُسِهِم». (الأحزاب/ ۶)

۲- «يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ اولِي الأَمرِ مِنْكُمْ».

(النّساء/ ۵۹)

۳- «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَر بَينَهُم، ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى أَنفُسِهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسلِيماً». (النّساء/ ۶۵)

۴- «فَلْيَحذَرِ الَّذِين يُخَالِفُونَ عَن أَمرِهِ أَن تُصِيبَهُم فِتنَةٌ أَو يُصِيبَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ». «۱» (النّور/ ۶۳)

ومن الواضح أنّ الإطاعة المطلقة للنّبى صلى الله عليه و آله الواردة فى هذه الآيات الشّريفة ملازمة لتنصيبه صلى الله عليه و آله قائداً للمجتمع الإسلامى.

---

(۱) ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ، الضمير فى (أمره) يعود إلى الرّسول صلى الله عليه و آله، والبعض الآخر ذهب إلى رجوعه إلى اللّه تعالى ولكن الأوفق لمحتوى الآية الشّريفة هو المعنى الأول، وإليه ذهب صاحب الميزان.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۸

وهناك آيات اخرى فى القرآن الكريم تؤيّد هذا المعنى أيضاً.

أمّا بالنّسبة إلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام فاعتقادنا أنّهم أيضاً منتخبون من قبل اللّه تعالى وتّم نصبهم بواسطة الرّسول صلى الله عليه و آله، وهناك آيات من سورة المائدة تشير إلى ذلك «يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيكَ ...». (المائدة/ ۶۷)

الواردة فى واقعة الغدير والمذكورة فى التّفسير الأمثل بشرح كاف، وكذلك روايات عديدة من مختلف الفرق الإسلاميّة حول انتخاب الإمام على عليه السلام ونصبه خليفة واماماً بعد الرّسول صلى الله عليه و آله، وكذلك الرّوايات الواردة عن الرّسول صلى الله عليه و آله، حول تعيين الأئمّة الإثنَى عشر، والرّوايات الواردة عن الأئمّة والمعصومين عليهم السلام (تعيين كلّ إمام لما بعده) (وتمّ شرحها فى الجزء التاسع من نفحات القرآن) كلّها شاهدة على هذا المدّعى ولا حاجة لنا إلى التّكرار.

هذا بالنسبة إلى النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمة المعصومين عليهم السلام، وامّا بالنسبة إلى من يأتى بعدهم وفى الفترة اللاحقة، فيمكن للولى الفقيه الجامع للشرائط أن يعيّن شخصاً لذلك المقام، لأنّ الولى الفقيه والصالح والذى تتوفر فيه سائر الشروط المعتبرة هو النائب عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام كما فى بحث ولاية الفقيه والذى سنشير إليه فيما بعد، ويجب على الحاكم الشرعى والفقيه الجامع للشرائط أن يضع نصب عينيه مصلحة الامّة فى جميع الشؤون الاجتماعية والسياسية، وبلاشك أن مصلحة الامّة توجب أن يكون انتخاب مسؤولى الجهاز التنفيذى بمشورة الناس ومشاركتهم حتى يتسنى لهم التعاون بينهم بشكل أفضل فيما بعد، وهذا لا يكون إلّابانتخاب الشعب لهؤلاء المسؤولين، سواء كان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وخاصة فى عصرنا الحاضر الذى سادت فيه ثقافة مشاركة الشعب فى الحكومة فى المجتمعات البشرية.

وعلى هذا الأساس يُرشح عدّة أشخاص تتوفر فيهم الصلاحية الكافية والشروط اللازمة لإحراز هذا المنصب المهم والحساس طبقاً لتأييد مجلس الخبراء الصالحين، ويتمّ عرضهم على الناس، ثم ينتخب الشعب آخر هؤلاء الأشخاص ضمن برنامج انتخاب صحيح وسالم، ومن المعلوم أنّ من يتمتع بشعبية أكبر وأوسع هو الذى سيفوز بالإنتخابات،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۹

ومن خلال تأييد الناس له وتكاتفهم معه أكثر فسيكون هو الأصلح لهذا المنصب.

ثم تأتى النوبة لتنفيذ الحكم من قبل الولى الفقيه الجامع للشرائط لكى ينتهى بالأمر إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام والنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله حيث ينتهى فى الواقع إلى إذن اللّه تعالى ورضاه.

ومن المعلوم أن تنفيذ حاكمية هذا الشخص والذى يتمتع بشعبية أكبر، وتدلّ أكثرية الأراء التى حصل عليها على أنّه يتمتع بحماية أوسع من الشعب هى بصلاح الشعب ومصلحته، وسوف لا يمتنع الولى الفقيه الموظّف برعاية مصالح الامّة من تنفيذ هذا الحكم.

النتيجة: هى أن الحكومة الإسلامية التى تطوى مسيرها من الأعلى- أى حكومة اللّه- إلى الناس، يمكنها أن تتوافق بصورة كاملة مع موازين الحكومة الشعبية، مع فارق بينهما، وهو أنّ المرشحين لإشغال منصب رئاسة السلطة التنفيذية فى الحكومة الإسلامية لابدّ أنْ تتوفر فيهم عدّة شروط من الإسلام والإيمان والامانة والتقوى، بخلاف نظام الحكم غير الإسلامى الذى لا اعتبار فيه لهذه الشروط مطلقاً، وهذا فارق مهم يفرق بين الحكومة الإلهيّة والحكومة المادية بالرغم من اشتراكهما فى شكل الحكومة الشعبية.

كان هذا بالنسبة إلى المسؤول الأول للجهاز التنفيذى، أمّا بالنسبة إلى المسؤولين الكبار من الدرجة الثانية فما فوق، فيمكن أن تكون مشاركة الشعب فى انتخابهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، مثلًا يمكن للشعب أن يدلى بأصواته للوزراء، أو يتمّ ذلك عن طريق نوّابه فى مجلس الشورى الإسلامى، وفى كلا الصورتين يكون لرأى الناس ومشاركتهم دخل فى انتخاب الوزراء، ولكن فى هذه المرحلة

أيضاً لابدّ من توفر بعض الشروط كالإسلام والإيمان والأمانة فى المنتخبين، لأنّهم إنتخبوا من أجل إجراء أحكام الإسلام وتحقيق العدالة الاجتماعية ونشر الثقافة الإنسانية والفضائل الأخلاقية، فلو كان لا يملكها فكيف يمكنه السعى إلى إيجادها ونشرها؟

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۱

الركن الثالث: السلطة القضائية

تمهيد:

إنّ القضاء والحكم لحلّ الاختلافات ورفع المشاجرات موجود بين الناس من قديم الأيام. حتى فى المجتمعات البدائية كان هناك نوع من التحكيم لحلّ الاختلاف من قبل رئيس القبيلة أو بعض أقربائه أو يتم تعيين شخص لهذا الغرض، وفى الحقيقة أنّه من العسير أن يذكر تاريخ بداية القضاء، سوى أن نقول أن عمره يتزامن مع عمر المجتمعات البشرية.

والدليل على ذلك، لأنّه كما نعلم أنّ حياة الإنسان هى حياة اجتماعية، وبدون شك فإنّ هذا النوع من المعيشة بالرغم من الإيجابيات يعتبر ميداناً خصباً لنشوء الاختلاف والتضاد، وبعبارة اخرى، إنّ هذه الحياة الاجتماعية وبالرغم من أنّها تعتبر مصدراً لمنافع كثيرة وبركات للمجتمعات البشرية وتؤدّى إلى التطور المادى والمعنوى، إلّاأنّها تحتوى أيضاً على نقاط سلبية ومشكلات عديدة، وتتلخص فى الصراعات التى تظهر دائماً لدفع الاعتداء وإرجاع الحق إلى أهله، فلولا وجود الجهاز القضائى الصحيح لحلّها، لتبدلت المجتمعات البشرية إلى ميدان للصراع الدائم والدامى يحرق الأخضر واليابس.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذا الصراع والاختلاف والذى يكون تارة بين اثنين أو أكثر من الأشخاص، وتارة اخرى بين قبيلتين أو دولتين، ليس من الضرورى أن يكون نابعاً من روح العدوان والأنانية واتباع الهوى. بل لو فرضنا وجود مجتمع يكون مصداقاً تاماً للمدينة الفاضلة، وكان جميع من فيها على أعلى مستويات الإيمان والأخلاق والتقوى والثقافة الإنسانية، فمع ذلك يمكن لاختلاف الأذواق وعدم الإطلاع على جزئيات الحقوق

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۲

الاجتماعية والقوانين الموضوعة أن تكون سبباً لظهور الخلافات فى تشخيص الحقوق المُستَحقّة للأفراد.

على هذا الأساس يكون وجود السلطة القضائية على كل الأحوال جزءاً لا يتجزأ من المجتمعات الإنسانية وبدونها لا يمكن العيش فى مختلف السطوح والمستويات الثقافية والفكرية.

ومن البديهى أنّ السلطة القضائية تتوسع وتتعمق بموازاة توسع المجتمعات البشرية، لأنّه مضافاً إلى زيادة التعداد الكمىّ وكثرة الصراعات بسبب كثرة الروابط، نلاحظ زيادة فى كيفية الصراعات وتنوعها، فلو لم تتوسّع السلطة القضائية بموازاة توسع المجتمع لكان الجانب الاجتماعى مهدداً بالخطر بسبب الاختلافات العميقة والخطرة.

وخلاصة الكلام: إنّ من الضرورى وجود جهاز قضائى مقتدر مع ضمانات كافية لأجراء الأحكام وتعميم العدالة الاجتماعية ومنع الظلم والفساد، ووضع نهاية للصراعات والمنازعات والتنفيذ الصحيح للقوانين، وكذلك الرقابة الدقيقة على الأجهزة التنفيذية، وتعريف المسؤولين فى مختلف المراتب بوظائفهم، وبذلك أعطى الدين الإسلامى أهميّة بالِغَة لهذه المسألة ووضع لها المقررات الكثيرة والمتنوعة، لأنّه دين الحياة الحقيقية للبشرية بمضمون قوله تعالى:

«يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للَّهِ وللرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحييكُمْ». (الأنفال/ ۲۴)

نكتفى بهذه الإشارة ونرجع إلى القرآن الكريم حيث أشار إلى هذا الموضوع فى عدّة آيات، منها:

۱- يقول القرآن الكريم مخاطباً النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله:

«انَّا انْزَلْنَا الَیکَ الْکِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ بِمَا اراکَ اللَّهُ وَلَا تَکُنْ لِّلْخائِنِینَ خَصِیماً». (النّساء/ ۱۰۵)

۲- ویقول فی موضوع آخر مخاطباً الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله بالنسبة إلی التحکیم لغیر المسلمین:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۳

«وَانْ حَکَمْتَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ انَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ». (المائدة/ ۴۲)

۳- ویقول فی مکان آخر مخاطباً جمیع المؤمنین:

«انَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ انْ تُؤَدُّوا الأَمانَاتِ الَی اهْلِهَا وَاذَا حَکَمْتُمْ بَیْنَ النَّاسِ انْ تَحْکُمُوا بِالْعَدْلِ انَّ اللَّهَ نِعِمَّا یَعِظُکُمْ بِهِ انَّ اللَّهَ کَانَ سَمِیعاً بَصِیراً». (النساء/ ۵۸)

۴- ومن جهة اخری یوصی المؤمنین بالخضوع والتسلیم لحکم النبی صلی الله علیه و آله وعدم إظهار التبرم لا- فی الظاهر ولا فی الباطن، والقبول بالحق والعدل بالروح والبدن مهما کان الحق مرّاً، ویقول:

«فَلَا وَرَبِّکَ لَایُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیما شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لَایَجِدُوا فِی انْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَیْتَ وَیُسَلِّموا تَسْلِیماً». (النساء/ ۶۵)

۵- ویقول أیضاً:

«انَّما کَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِینَ اذَا دُعُوا الَی اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ انْ یَقُولُوا سَمِعْنَا وَاطَعْنَا وَاولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (النور/ ۵۱)

۶- ویؤکد القرآن الکریم حتی علی مسألة الشهادة فی المحاکم والتی هی أحدی المقدمات المهمّة فی القضاء بالحق والعدالة، ویخاطب جمیع المؤمنین قائلًا:

«یَا ایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوَّامِینَ للَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَی أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ اقْرَبُ لِلتَّقْوَی وَاتَّقُوا اللَّهَ انَّ اللَّهَ خَبِیر بِما تَعْمَلُونَ». (المائدة/ ۸)

فعلی هذا الأساس لا یمکن لأیشیء أن یخلّ بالحق والعدل فی المجتمع الإسلامی، فالشهادة ینبغی أن تکون عادلة سواءً فی حق الصدیق والعدو، والقضاء یجب أن یدور حول محور العدالة ویکون الأقرب والأبعد بالنسبة إلیه علی حد سواء.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۵

من یکون له حق الفصل والقضاء؟

تمهید:

کما أن حق الحکومة والحاکمیة یعود إلی اللَّه تعالی علی أساس أصل «التوحید الأفعالی» المسلّم به، کذلک حق القضاء أیضاً یعود إلی من له الإذن من اللَّه تعالی.

«التوحید الأفعالی» یقول: إنّ کل الأفعال تعود إلی اللَّه تعالی، و «توحید الخالقیة» یقول:

إنّ کل شیء فی هذا العالم خُلق منه و «توحید الحاکمیة» الذی هو فرع توحید الخالقیة یقول: إنّ الحکومة للَّه‌تعالی خالصة، وهذا هو السبب فی کون القضاء فی محیط حکومته من اختصاصه تبارک وتعالی ومن یأذن له بذلک.

من جانب آخر یقول توحید الطاعة: إنّ الأمر المطاع والمقبول إنّما هو أمر اللَّه تعالی ومن یعود أمره إلی أمر اللَّه تعالی، فعلی هذا الأساس لابدّ أنّ یکون الحکم القضائی المقبول أیضاً بإذن منه تعالی.

لو نظرنا إلی المجتمع البشری من هذه الزاویة فسوف نجد أنّ مبدأ القضاء واضح جدّاً، فلا نقع فی حیرة فی تشخیصه مطلقاً، لأنّ أنظارنا متوجهة إلی نقطة واحدة وهی التی صدر منها الوجود، وانبعثت منها الخلائق، والأمر النافذ فی کل شیء هو أمره، إذن فلابد أن نسعی کی تکون محاکمنا القضائیة خاضعة لأمره ومصطبغة بصبغة إلهیّة کی نحصل بذلک علی مشروعیتها.

نعود بعد هذا التمهيد إلى القرآن الكريم لنكتشف مسألة انحصار القضاء والتحكيم باللّه تعالى:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۶

۱- نقرأ فى قوله تعالى

«انِ الْحُكْمُ الَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِيْنَ». (الأنعام/ ۵۷)

وقد جاء صدر هذه الآية الشريفة «انِ الْحُكْمُ الَّا لِلَّهِ» فى سورة يوسف الآية ۴۰ كذلك.

ويمكن أن يكون ما جاء فى سورة يوسف له مفهوم أوسع بحيث يشمل الحكومة والقضاء، ولكن ما جاء فى الآية المذكورة فيه إشارة أقوى إلى القضاء وحل الاختلافات بقرينة ذيل الآية الكريمة، وقد أشار إلى هذا المعنى مجموعة من المفسرين:

أمثال الطبرسى فى مجمع البيان والفخر الرازى فى التفسير الكبير «۱».

۲- نقرأ فى قوله تعالى:

«وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا انْزَلَ اللَّهُ فَاولَئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ... فَاولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ... فَاولَئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ». (المائدة/ ۴۴- ۴۵، ۴۷)

فهم كفّار لأنّهم خرجوا عن جادة التوحيد (توحيد الحاكمية)، وظالمون لأنّهم ظلموا أنفسهم والآخرين وحُرموا من مصالح الأحكام القطعية وغرقوا فى دوّامة مفاسد الأحكام الجاهلية، وفاسقون لأنّهم خرجوا عن دائرة الطاعة، والفسق كما تعلم هو الخروج عن طاعة المولى، وهذه الآيات الشريفة لها مفهوم واسع كذلك بحيث يشمل الفتوى فى الأحكام الإلهيّة، ومسألة القضاء والتحكيم، ومسألة الحكومة أيضاً، فيجب أن تكون فى كل من الأبعاد الثلاثة موافقة ومطابقة لحكم اللّه تعالى (لاحظ جيداً).

۳- القرآن الكريم يعتبر كل حكم غير إلهى حكم طاغوت، واتّباعه يمثل السير على خطى الشيطان، فيقول:

«الَمْ تَرَ الَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ انَّهُمْ آمَنُوا بِمَا انْزِلَ الَيْكَ وَما انْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ انْ يَتَحاكَمُوا الَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ امِرُوا انْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ انْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً». (النساء/ ۶۰)

۴- القرآن الكريم يعتبر أيضاً الأحكام التى تصدر عن مبدأ غير إلهى أحكاماً جاهلية،

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۳۱۰؛ التفسير الكبير، ج ۱۳، ص ۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۷

ويعبّر عن الأشخاص الذين يريدون أحكاماً غير إلهيّة (كبعض اليهود الذين اختلفوا فيما بينهم فجاؤوا إلى النبىّ صلى الله عليه و آله وكانوا يريدون منه أن يصدر حكماً مطابقاً لرغبتهم) بقوله:

«افَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ احْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ». (المائدة/ ۵۰)

۵- يقول القرآن الكريم فى مكان آخر معلماً للنّبى الكريم صلى الله عليه و آله بأن يقول:

«افَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى انْزَلَ الَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلًا». (الأنعام/ ۱۱۴)

۶- ويأمرنا القرآن الكريم بحل اختلافاتنا بواسطة تحكيم اللّه تعالى، بقوله:

«وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَىءٍ فَحُكْمُهُ الَى اللَّهِ». (الشورى/ ۱۰)

يستفاد من مجموع هذه الآيات وآيات اخرى بصورة واضحة أنّ نظرية القرآن فى هذا الموضوع تقضى بأنّ الحاكم والقاضى هو اللّه تعالى، وكذلك من جعله اللّه تعالى قاضياً وحاكماً من قبله، وما سوى ذلك فهو حكم الشيطان والطاغوت والجاهلية.

وعلى هذا لابدّ فى سلسلة مراتب القضاة فى الحكومة الإسلامية أن تنتهى إلى أمر وإذن اللّه تعالى وتكتسب المشروعية منه، فالرسول الكريم صلى الله عليه و آله قد حصل على هذا المنصب من اللّه تعالى، والأئمّة المعصومون عليهم السلام أيضاً قد انتخبوا لهذا المقام من قبل اللّه تعالى وبواسطة النبىّ صلى الله عليه و آله، والقضاة الإسلاميون يكتسبون مشروعيتهم من الأئمة عليهم السلام.

وقد بيّن القرآن الكريم هذا المعنى بوضوح فى قوله تعالى

«وَاللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَايقضُونَ بِشَىءٍ». (المؤمن/ ۲۰)

إذن فقضاء اللَّه تعالى وأوليائه هو المقبول والصحيح، لا التحكيم الجاهلى وغيرالإلهى.

وهذا المعنى أيضاً ورد بصراحة أكثر فى الروايات الإسلامية فى أبواب القضاء منها:

۱- ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام قوله:

«اتَّقُوا الْحُكُومَةَ فَانَّ الْحُكُومَةَ إِنَّما هِىَ لِلامامِ الْعالِمِ بِالْقَضاءِ الْعادِلِ فِى الْمُسْلِمينَ، لَنَبىٍّ أو وصىّ نبىٍّ» «۱».

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، أبواب صفات القاضى، باب ۳، ح ۳.

۲- وفى حديث آخر ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام بأن الإمام على عليه السلام قال لشريح القاضى:

«يا شُرَيْحُ قَدْ جَلَسْتَ مَجْلِساً لا يَجْلِسُهُ الّا نَبىّ، اوْ وَصِىّ نَبىٍّ اوْ شَقِىّ» «۱».

۳- وفى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام أيضاً أنّه قال:

«وَالْحُكْمُ لا يَصِحُّ الّا بِاذْنٍ مِنَ اللَّهِ وَبُرْهانِهِ» «۲».

وهكذا نجد أنّ الأدلة العقلية الناظرة إلى التوحيد الأفعالى وتوحيد الحاكمية والمالكية تثبت اشتراط القضاء بالإذن الإلهى، وكذلك الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة الواردة فى هذا المجال، وما يقال إنّ المجتهد الجامع للشرائط (الولى الفقيه) له ثلاثة مناصب: منصب الإفتاء، ومنصب القضاء، ومنصب الولاية، فهوناظر إلى هذا المعنى.

والآن نبحث صفات القاضى فى الإسلام، وكذلك آداب القضاء، والفرق بين القضاء فى الإسلام والقضاء فى الثقافة الغربية ومسائل اخرى فى هذا الباب.

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ابواب صفات القاضى، باب ۳، ح ۲.

(۲) مصباح الشريعة، ص ۴۱ (إنّ اعتبار هذا الكتاب مشكوك عند العلماء، وبالاخص فإنّ مؤلفه لم يُعرف لحدّ الآن).

صفات القاضى

اشارة

ذُكرت فى المصادر الإسلامية شروط صعبة للقاضى لعلّنا لا نجدها فى أى مدرسة ودين آخرين، وإن اختلف فى عددها علماء الإسلام وفقهاء الشيعة والسنّة.

ولمّا لم يكن هذا الكتاب كتاباً فقهياً استدلالياً، فسنشير فقط إلى المجمع عليه منها عند فقهائنا، ثم نستعرض استعراضاً خاطفاً تلك الشروط التى وقعت محل بحث ونقاش بين العلماء والتى اعتبر البعض اشتراطها والبعض الآخر كونها أموراً كمالية فى القاضى.

أمّا الشروط المتفق عليها بين فقهائنا، وكما عبرّ عنها الفقيه الماهر صاحب الجواهر رضوان اللَّه عليه: «لا خلافَ أجِدُه فِى شىء منها»، وكما عدّها المرحوم الشهيد الثانى من موارد الاتفاق، فهى سبعة:

۱- البلوغ: فلا يقبل قضاء الصبى الذى لم يبلغ، ولا حكومته حتى لو كان يتمتع بدرجة عالية من التقوى والعلم والاطلاع، لأنّ غير

البالغين غير مكلفين بالأحكام الإلهيّة، ولذا فهم خارجون عن دائرة القوانين والأوامر الإسلامية، وبهذا الدليل لا يعتمد على قضائهم وحكومتهم.

۲- كمال العقل: فلا يحق للمجنون ولا لناقص العقل ومن يفقد التعادل الروحى، أن يجلس على مسند القضاء، ودليله واضح.

۳- الإسلام والإيمان: فلا تقبل حكومة الخارج عن زمرة المسلمين ومن لم يعتقد بمبانى مذهب أهل البيت عليهم السلام ودليله واضح أيضاً.

۴- العدالة: وهى مرحلة عالية من التقوى تمنع صاحبها من ارتكاب الكبائر والاصرار

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۰

نفحات القرآن ج ۱۰ ۱۹۹

على الصغائر، والحق أنّ من لا يتمتع بمثل هذه الدرجة من التقوى لا يُتوقع أن يقضى قضاءً صحيحاً.

۵- العلم والإطلاع على القوانين الإلهيّة: فى موارد حقوق الناس والحدود والديات والقصاص والمعاملات، وكذلك مقررات العدالة الإسلامية. فهل ينفذ حكم من يفقد مثل هذا الشرط (الاجتهاد المطلق أو على الأقل المتجزىء) أو غير المجتهد المطلع على كل المسائل الحقوقية ومقررات العدالة الإسلامية؟ فيه بحث ونقاش بين العلماء والفقهاء، وإن كان المشهور بينهم اعتبار الاجتهاد، حتى أنّ بعضهم اشترط أعلميته على كل علماء مدينته، ولكن هذا الشرط ضعيف.

وعلى كل حال، فإنّه وفى حالة عدم الحصول على العدد اللازم من المجتهدين- المجتهد المطلق- فلا مناص من الاعتماد على غير المجتهدين، والمطلعين منهم على كل المسائل عن طريق التقليد.

۶- طهارة المولد: وبعبارة أخرى ولد الحلال، لأنّ ولد الحرام وإن لم يكن له ذنب فى كونه ولد حرام، إلّاأنّه غير مقبول فى المجتمع الإسلامى، فلا تكون كلمته نافذة، ولا شك فى ضرورة نفوذ كلمة القاضى وقبولها- مضافاً إلى ذلك، فإنّ احتمال الانحراف والذنب فى مثل هذا الإنسان أكثر من احتمالهما فى غيره وإن لم يكن مجبوراً على الذنب والانحراف، (لاحظوا ذلك بدقة).

۷- الذكورة: المشهور والمعروف بين علماء الإسلام أنّ القاضى لابُدَّ أن يكون رجلًا، وإن خالف وتردّد بعض فقهاء العامة كأبى حنيفة فى هذا الحكم «۱».

ومن الواضح أن سيطرة العواطف والاحاسيس عند المرأة لايسمحان لها بالقيام بوظيفة فيها شدّة وصرامة كمسألة القضاء والحكومة، مضافاً إلى أنّ هذا الموضوع مورد اتفاق وإجماع علماء الشيعة.

---

(۱) نقل عن أبى حنيفة قبول قضاء المرأة فى الأموال، ولكن حكى عن الطبرى جواز ذلك بقول مطلق. (بداية المجتهد، ج ۲، ص ۴۶۰، كتاب الاقضية).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۱

وهنا ثلاثة شروط وقع البحث فى شرطيتها بين العلماء:

۸- الحرّية (وعليه لا يمكن أن يكون العبد قاضياً) ولكن الكثيرين لم يقبلوا هذا الشرط.

۹- البصر.

۱۰- السمع.

والواقع، لا يوجد اى دليل على اشتراط هذه الثلاثة، وعليه فلا فرق فى صلاحية القضاء عند الحر والعبد (ومن حسن الحظ أنّ موضوع الرقيّة منتفٍ فى زماننا).

وأمّا فى خصوص السمع والبصر، فإنّ لم يكن القضاء فى الموارد التى يحتاج فيها إلى الإبصار أو إلى السمع، فلو كان القاضى أعمى

ولكن كان بإمكانه الاستماع والقضاء بدقّة، أو كان أصماً ولكن كان بإمكانه النظر وقراءة ملف الدعوى والقضاء بشكل صحيح، فلا مانع من حكومته، وإن كان الأغلب هو أنّ الأعمى أو الأصمّ لا يمتلك القدرة الكافية للقضاء فى كل الموارد، وعليه تكون رعاية هذين الشرطين واجبة غالباً من باب المقدمة.

وما ذكرنا هنا من الشرائط السبعة ولزومها، وعدم لزوم الشرائط الثلاثة الأخيرة، كان فى‌الواقع بنحو الإشارة، وأمّا تفصيل الكلام فى ذلك فموكول إلى الكتب الاستدلالية الفقهية «۱».

الشرائط الكمالية:

وبالاضافة إلى الشرائط العشرة الانفة، فقد قلنا فى البحث السابق أنّ هناك شروطاً وصفاتٍ اخرى اعتبرت فى الروايات الإسلامية للقاضى والتى لابدّ من عدّها من شروط الكمال، وقد وردت إشارة إلى القسم المهّم منها فى عهد أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الاشتر (فى ضمن الشروط الواجبة)، وهى:

۱- «ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِى نَفْسِكَ».

۲- «مِمَّنْ لا تَضيقُ بِهِ الأُمُورُ».

---

(۱) يمكن فى هذا المجال مراجعة من كتاب الجواهر، ج ۴۰، ص ۱۲- ۲۳.

۳- «ولا تُمَحِّكُهُ الخُصوم»، سعة الصدر.

۴- «وَلا يَتمادَى فى الزَّلَّةِ»، عدم اللجاجة.

۵- «ولا يحْصُر مِنَ الفىء الى الْحَقِّ اذا عَرَفَهُ»، التسليم للحق.

۶- «ولا تُشرِفُ نفسُهُ عَلى طَمَعٍ».

۷- «وَلا يَكْتَفى بِادْنى فَهْمٍ دُونَ أَقْصاهُ»، عدم الاكتفاء بالتحقيق السطحى.

۸- «وَأَوقَفُهُمْ فى الشُّبُهاتِ».

۹- «وآخَذُهُمْ بِالحُجَجِ».

۱۰- «وأَقلُّهُمْ تَبرُّماً بِمُراجَعَةِ الخَصْمِ».

۱۱- «وأَصْبَرُهُمْ عَلى تَكَشُّف الأُمُورِ».

۱۲- «وأَصْرَمُهُمْ عِنْدَ اتَّضاحِ الْحُكْمِ».

۱۳- «مِمَّنْ لا يَزْدَهِيه اطْراء وَلا يَسْتَميلُهُ إغْراء».

۱۴- «وَافْسَحْ لَهُ فِى الْبَذْلِ ما يُزيلُ عِلَّتَهُ وتَقِلُّ مَعَهُ حاجَتُهُ إلى النّاس» «۱»، ينبغى أن يكون مكتفياً من بيت المال.

ومضافاً إلى ذلك فقد وردت بعض الإرشادات فى الروايات الإسلامية فى القاضى والتى يمكن عدَّها من جهة ما، شرائط كمالية منها: عدم قبول دعوة الناس إلى طعام، عدم قبول الهدية وأن لا يذهب بنفسه للسوق لشراء حوائجه، وأن لا يدعو احد طرفى الدعوى إلى ضيافته، والورع عن كل الامور التى قد تؤدى إلى تاثير الناس فى حكمه وتغيير قناعاته فيحكم بغير الحق عالماً أو جاهلًا.

القرآن وصفات القاضى:

لم ترد الصفات والشروط بشكل مفصل ومبسوط فى القرآن الكريم، ولكن وردت

---

(۱) نهج البلاغة، عهد الإمام علىّ عليه السلام لمالك الاشتر.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۳

تعبيرات جمعت فيها أكثر الشروط المذكورة.

۱- ففى موضع نجد القرآن الكريم يعتبر أنّ اتّباع الهوى يمنع من الحكم بالعدل، حيث يقول تعالى

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالاقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَولَى بِهِما فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا».

(النساء/ ۱۳۵)

۲- ونفس هذا المعنى جاء بشكل آخر فى قصه حكومة وقضاء داود عليه السلام، حيث خوطب داود بقوله تعالى

«يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». (ص/ ۲۶)

وبذلك يعتبر القرآن أنّ الورع عن «أمّ المفاسد»- وهو اتباع هوى النفس- يمثّل أحد الشروط الأساسيّة للحكومة بالحق، والنقطة المقابلة لها، هى الدرجة العالية من التقوى والمانعة من الانحراف عن مسير العدالة والحق، إلى درجة أنَّ أقوى العواطف الإنسانية كالعلاقات الأُسرية لا تستطيع أن تؤثر سلباً فى تلك التقوى

۳- وفى موضع آخر من القرآن- نجد أنّه يعتبر الحكم بما أنزل اللَّه من شروط الإيمان والعدالة «۱»، ويؤكد على نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أن يكون حكمه مطابقاً لما علّمه اللَّه «إِنَّا أَنْزَلْنَا الَيكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَراكَ اللَّهُ». (النساء/ ۱۰۵)

۴- وفى موضع آخر نجد القرآن الكريم يُحذّرُ النبى صلى الله عليه و آله من اتباع أهواء الناس، فيقول:

«وأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ الَيْكَ». (المائدة/ ۴۹)

۵- كما ويحذرهُ من أن تؤثر العداءات الشخصية فى القاضى فيحكم بغير عدل، بل لابدّ أن يكون الحكم والشهادة مطابقين دائماً للعدل والحق، سواءً كانا فى حق الصديق أو كانا

---

(۱) المائدة، ۴۴، ۴۵، ۴۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۴

فى حق العدو، يقول تعالى «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَومٍ عَلَى الَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . (المائدة/ ۸)

النتيجة:

من خلال الآيات المذكورة والروايات الإسلامية وفتاوى كبار الفقهاء فى الصفات اللازمة للقضاء والشهادة، وكذلك الصفات الكمالية فى القاضى، يمكن أن نستفيد هذه النتيجة وهى: أنّ الإسلام اعتنى عناية خاصة بهذهِ المسألة، وتابع بدقة فائقة قضية العدالة القضائية، وألزم معتقديه بها بشكل يمنع عن أدنى درجة من الانحراف عن الحق والعدالة فى القاضى مهما كانت قليلة حتى أنّه اهتم بأصغر الامور التى قد تؤثر فى عدالة حكم القاضى وتحرفه عن الحق، وحذّر منها.

ومتى ما اضفنا الشرائط الآتية فى الفصل اللاحق حول «آداب القضاء» سيتضح لنا أكثر فاكثر اهتمام الإسلام بهذا الأمر بشكل تتصاغر معه شعارات العدالة التى ترفعها المدارس الاخرى

آداب القضاء فی الإسلام:

المسألـة المهمّـة هی: إنّ الأدیان الإلهیّة قد تقدمت علی المدارس المادیة بخطوات کثیرة فی مجالات القضاء والحکومة والقواعد التی تقتضـیها المجالس القضائیـة، بل لا یمکن المقارنة بینهما فی هذا المجال، وما ذاک إلّامن أجل الاسـس الأخلاقیة القویة التی تمتکلها الأدیان الإلهیّة فی تلک المجالات.

ففی هذه الأحکام نجد لطائف ودقائق کثیرة، وعلی الرغم من أن بعضـها مرتبط بالزمان السابق وقد لا یکون له الیوم مورد، ولکنّها من وجهة النظر الاصولیة تمتاز بمفهوم قیّم بالنسبة للمسائل القضائیة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۵

ویکفینـا للاستشـهاد علی ذلـک ماجـاء علی لسـان «المحقق الحلی» فی کتـاب الشـرائع فی بحث آداب القضاء والـذی یعتبر فی الواقع عصارة ما ورد فی الروایات الإسلامیة وکلمات الفقهاء.

حیث یقول: یستحب للقاضی رعایة عدّة امور:

۱- أن یطلب من أهـل ولایته من یسأله عمّـا یحتـاج إلیه فی أمور بلـده (أی یتعرف علی عـادات النـاس واوضـاعهم الاقتصادیـة، وأن یتعرف علی العلمـاء والصـالحین وحتی القضـاة السابقین لیحصل علی بصـیرة کافیـة فی عمله، إذ إنّ الاطلاع بأوضاع المنطقـة والمحل والثقافة الحاکمة علی الناس، له تأثیر بالغ فی مسألة القضاء والحکومة العادلة).

۲- أن یسکن عند وصوله فی وسط البلد حتّی ترد الخصوم علیه وروداً متساویاً.

۳- وأن یُنادی بقدومه إن کان البلد واسعاً ولا ینتشر خبره فیه إلّابالنداء.

۴- أن یجلس للقضاء فی موضع بارز، مثل رحبة أو فضاء لیسهل الوصول إلیه (لا خلف الأبواب المغلقة محاطاً بالحرس).

۵- أن یبـدأ بأخـذ مـا عنـد الحـاکم المعزول من حاجـات النـاس وودائعهم، لأن نظر الأول سـقط بولایته. (وقـد کانت العادة فی تلک الأزمنة أن یودع الناس ودائعهم عند الحاکم، وکذا الأموال المتنازع فیها).

۶- لو حکم فی المسجد، صلّی عند دخوله تحیة المسجد، ثم یجلس مستدبراً القبلة لیکون وجوه الخصوم إلیها (لیستشعر الخصوم أنّهم فی محضر اللّه).

۷- ویسأل عن أهل السـجون، ویثبت أسـماءهم وینادی فی البلـد بذلک لیحضـر الخصوم ویجعل لذلک وقتاً فإذا اجتمعوا أخرج اسـم واحد واحد، ویسأله عن موجب حبسه، وعَرَض قوله علی خصمه، فإن ثبت محبسه فوجب اعادته، وإلّا اشاع حاله بحیث إن لم یظهر له خصم اطلقه.

وکـذا یسـأل عن الأوصـیاء علی الأیتـام، وأمنـاء الحـاکم، والحـافظین لأموال الأیتام (الـذین یلیهم الحاکم) فیعزل الخائن، ویسـتبدل به الصالحین بحسب ما یقتضیه رأیه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۶

۸- أن یحضر من أهل العلم من یشهد حکمه، فإن أخطأ نبّهوه.

۹- أن لا یتولی البیع والشراء بنفسه (حذراً من مراعاة الناس لحاله فیبیعونه بأقل من القیمة السوقیة، فیتأثر بذلک).

۱۰- أن لا یقطب وجهه فی مجلس القضاء، فیخاف الناس من بیان مطالبهم بصراحة، وأن لا یکون لیّنا فیتجرأ الخصوم.

۱۱- أن لا یضع فوارق بین الشهود (أن یکون الشهود سواءً الذین یعرفهم أم الذین لایعرفهم، القریب والبعید سواسیة أمام القضاء).

۱۲- أن یجمع الدعاوی المقدمة فی کل اسبوع مرّة، ویرتبها ویحفظها، وکذا ینظم الدعاوی المقدمّة فی کل شـهر وکل سـنة، فینظمها بتواریخها (أو یصدر أوامرهُ بهذا الصدد).

ويقول هذا الفقيه الكبير البارع فى بحث وظائف القاضى وما يلزم عليه مراعاته:

فى وظائف القاضى وهى سبع:

١- المساواة بين الخصمين فى السلام والجلوس والنظر والكلام والانصات والعدل فى الحكم، (بمعنى أنّه إذا سلّمَ على أحدهما سلاماً مميزاً بالاحترام فعليه أن يسلّم على الآخر بنفس الكيفية، وكذا فى ردِّ السلام دونَ أن تؤثر فيه العلاقات الاجتماعية والمقامات الاجتماعية، وإذا نظر إلى أحدهما بلحاظات معينة فعليه أن ينظر للآخر بنفس الكيفية وحتى إذا استمع إلى كلام احدهما بدقة فعليه أن يستمع لكلام الآخر بنفس الدقة، والحاصل أنّ عليه مراعاة المساواة الكاملة فى مجلس القضاء والحكومة فى كل الجوانب حتى التشريفات والاحترامات الجزئية، وما ذاك إلّاللحدّ من الانحراف الكلى الكبير).

٢- لا يجوز له أن يُلقِّنَ أحد الخصمين مافيه حذر على خصمه ولا أن يهديه لوجوه الإحتجاج.

٣- إذا سكت الخصمان، استحبَّ أن يقول لهما تكلّما، أو ليتكلم المدّعى.

۴- إذا ترافع الخصمان وكان الحكم واضحاً، لزمه القضاء، ويستحب له ترغيبهما فى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۷

الصلح، فإن أبيا إلّاالمناجزة، حكم بينهما.

۵- إذا ورد الخصوم مترتبين، بُدء بالأول فالأول، فإن وردوا جميعاً، قرع بينهم.

۶- إذا قطع المدّعى عليه دعوى المدّعى بدعوى لم تسمع حتى يجيب عن الدعوى وينهى الحكومة ثم يستأنف.

٧- إذا بدر أحد الخصمين بالدعوى فهو أولى «١».

ونكرر هنا إنّ البحث الجامع والمستدل حول هذه المسائل موكول إلى كتب الفقه الاستدلالية ومصادر الحديث المعروفة، وما ذكرناه هنا عصارة ما جاء فى تلك الكتب ليتضح النظام الحاكم على المؤسسات القضائية الإسلامية، وليتضح الفرق بينه وبين سائر المدارس الوضعية.

والنقطة الاخرى المهمّة هنا هى أن الروايات الإسلامية أوصت القاضى بأن لا يجلس مجلس القضاء حال الغضب «٢».

كما ينبغى عليه أن لا يقضى بين الناس وهو عطشان أو جائع أو حال النعاس (إذ قد تؤثر تلك الامور فى قضائه سلباً) «٣».

تفاوت كيفية القضاء فى الإسلام عن المدارس المادّية:

توجد اليوم فى العالم مجالس قضائية كثيرة وهى جذابة بظاهرها ولكن متى ما قارّنا محتوى تلك المجالس القضائية مع المجالس القضائية الإسلامية، نجد بأنّ تلك المجالس المادية خاوية وسخيفة وسوف نجد اختلافات واضحة وبينة فيها، ومن جملتها:

١- ينبغى على القاضى الإسلامى أن يكون صاحب نظر ورأى، ولا يقتصر على مواد القانون فقط، بل لابدّ أن يكون عارفاً بجذورها ومبانيها، مجتهداً فيها، وبعبارة أخرى الاجتهاد فى القضاء شرط من شروطه، بينما لا نجد مثل هذا الاشتراط فى دنيا اليوم

---

(١) جواهر الكلام، ج ۴۰، ص ۱۳۹- ۱۴۹.

(٢) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۱۵۶.

(٣) كنز العمال، ج ۶، ص ۱۰۳، ح ۱۵۰۴؛ اللمعة الدمشقية، كتاب القضاء.

ومجالسها القضائية حتى يكتفى بمعرفة مواد القانون فقط والاقتصار على تلك المواد، وهذا فرق واضح بين هذه المجالس والمجالس القضائية الإسلامية.

وبتعبير أوضح، أنّ الاطلاع على الأحكام التى جاءت فى تحرير الوسيلة (مثلًا) قد يكون عن طريق التقليد وقد يكون عن طريق الاجتهاد، وإن كانت وظيفة القاضى على أى حال تطبيق هذه الأحكام فى موارد الدعوى وتشخيص صاحب الحق عن غيره، ولكن هناك فرق واضح بين ما إذا كان مطلعاً على أحكام تحرير الوسيلة عن طريق التقليد، أم عن طريق الاجتهاد وتتبع جذور تلك الأحكام ومبانيها من الكتاب والسنّة والإجماع والعقل، فالإسلام يوحى بالطريق الثانى.

۲- فى النظم القضائية الحديثة، يُكتفى بلياقة القاضى فى حدود القضاء والحكومة فقط، أمّا فى الإسلام فإنّ هذا المقدار غير كافٍ، بل لابدَّ أن يكون القاضى نزيهاً فى كل المجالات، إذ إنّ العدالة تعنى الورع عن كل أنواع الذنب سواءً كان فى دائرة المسائل القضائية، أم فى دائرة غير القضاء.

ومن الواضح أن هناك فرقاً كبيراً بين من يكون ورعاً فى كل المجالات عن الذنب وبين من يكون ورعاً فى مجال معين ودائرة ضيقة، فاحتمال انحراف الثانى أكثر من احتمال انحراف الأول.

۳- إذا قضى قاضى المجالس القضائية الحديثة بالحق دون أن يكون مطلعاً، فإنّه لا يكون مسؤولًا، بينما وكما أشرنا آنفاً فإنّ مثل هذا القاضى مسؤول أمام اللّه فى نظر الإسلام، فالوصول إلى الحق لا يكفى وحده لعدم تحمل المسئولية، بل لابدّ أن يكون عن تحقيق واطلاع.

۴- يعتبر الارتشاء فى نظام القضاء الإسلامى ليس من الذنوب الكبيرة فحسب، بل طبقاً لبعض الروايات فإنّه فى حدِّ الكفر والشرك، قال الإمام الصادق عليه السلام: «أمّا الرُّشا فِي الْحُكْمِ فَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ» «۱».

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۱۶۳، باب تحريم الرشوه، ح ۸.

فالإسلام يمنع القاضى حتى من قبول الهدية (بطبيعة الحال الهدايا التى تقدم له باعتبار أنّه فى مقام القضاء، سواء قبل الحكومة والقضاء أم بعده) وقصّة الأشعث بن قيس معروفة، حيث جاء ليلًا بهدية إلى دار الإمام علىّ عليه السلام وهى طبق من الحلوى اللذيذة، فقال له الإمام علىّ عليه السلام ما هذا؟

فقال: هدية جئت بها إليك! فغضب الإمام عليه السلام وصاح به:

«هَبَلَتْكَ الْهَبُول أَعَنْ دِيْنِ اللَّهِ أَتَيْتَنى لِتَخْدَعَنى»؟!

أى تريد أن تعطينى الرشوة باسم الهدية «۱».

والملفت للنظر هو أنّ الإسلام يلعن الراشى والمرتشى والواسطة بينهما، وقد ورد فى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «لَعَنَ اللَّه الرّاشِي والْمُرْتَشى وَالرّائشَ الَّذى بَيْنَهُما» «۲».

وقد وردت آيات من القرآن الكريم وبشكل مكرر تشير إلى مسألة الرشوة وتذمها، منها قوله تعالى

«وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وتُدْلُوا بِهَا الَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ امْوال النَّاسِ بِالأِثْمِ وَانْتُمْ تَعْلَمُونَ». (البقرة/ ۱۸۸)

وللفخر الرازى هنا تعبير جميل وهو أنّ «الادلاء» مأخوذ من «الدلو» وهو الإناء الذى يستخرج الماء من البئر بواسطته، «والرشاء» بمعنى «الحبل» فكما أنّ الإنسان يستخرج الماء الموجود فى الدلو بالحبل، فكذلك الراشى يأكل أموال الناس بواسطة الرشوة التى يعطيها للقاضى.

نعم، فالتعبير ب «ولا تدلوا بها إلى الحكّام» تشبيه وإشارة لطيفة لهذا الموضوع.

ویستفاد أیضاً من سورة المائدة بأنّ علماء الیهود حرّفوا الأحکام الإلهیّة لمنافعهم الخاصة، وقد ذمّ القرآن الکریم هذه الظاهرة، فقد قال تعالی

«وَلَا تَشْتَرُوا بِآیَاتی ثَمَناً قَلِیلًا وَمَن لَّم یَحْکُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَاولِئکَ هُمُ الْکافِرُونَ».

(المائدة/ ۴۴)

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۴۴.

(۲) میزان الحکمة، ج ۴، ص ۱۳۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۰

فمن هذهِ الآیات یمکن الاستنتاج بأنّ القضاء والحکومة للّهبالدرجة الاولی ومن ثَمَّ نقلت منه إلی من یری فیه المصلحة، وبتعبیر آخر: إنّ غیر اللّه یأخذ مشروعیة أحکامه وقضائه من اللّه تعالی وهذا ما یقتضیه التوحید الأفعالی وحاکمیة اللّه أیضاً.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۱

الحدود والتعزیرات فی الإسلام

اشارة

فی معرض البحث عن النظام القضائی فی الإسلام، لابدّ من الإشارة السریعة إلی مسألة «الحدود والتعزیرات» (وتفصیل ذلک موکول إلی کتاب أو کتب مستقلة) وهذا البحث فی الحقیقة مکملُ لأبحاث القضاء فی الإسلام، لأنّ وظیفة القاضی هی «احقاق الحقوق» و «اجراء الحدود» لیردع المجرمین، ویحذّر المنحرفین والذین تلوثت أیدیهم بالاجرام، وهنا لابدّ من بحث وتسلیط الضوء علی عدّة مواضیع.

۱- فلسفة الحدود والتعزیرات فی الإسلام

لا شکّ فی أنّ تشریع الأحکام الإلهیّة إنّما هو من أجل دعوة الناس إلی القسط والعدل، وهدایة المجتمع إلی طرق الأمن والامان، لیتمکن الناس من کسب الفضائل والتخلص من الرذائل، والسیر إلی اللّه ومقام القرب الإلهی والذی هو أعلی مقصد للخلق.

ولما لم تکن الأحکام الإلهیّة بمفردها مؤثرة فی کل النفوس، کان من اللازم أن تقترن بالانذار والتبشیر من أجل خلق الدافع لدی الناس للتحرک باتجاه العمل بها.

ولمّا لم تکن الانذارات والبشارات الاخرویة کافیة لردع بعض الناس من ارتکاب المخالفات وداعیة لقیامهم بالواجبات والوظائف الفردیة والاجتماعیة، کان من اللازم تعیین مجازات دنیویة لاولئک الذین یتجاوزون الحدود الإلهیّة المرسومة، ویسحقون الحق والعدالة باقدامهم، لتکون تلک المجازاة ضامناً لإجراء هذه الأحکام بین أولئک الذین لم یتربوا تربیة دینیة کافیة والذین یفتقدون التقوی الدینیة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۲

ولا شکّ فی أنّ النظام الإسلامی یختلف فی هذا المضمار عن النظم المادیة، إذ لا یوجد فی تلک النظم أی ضامن إجرائی غیر تلک المجازاة الدنیویة والمادیة، ولذا فإنّ کل حکم فاقدٍ لمعاقبة المتخلف لا یعدُّ فی نظر تلک النظم قانوناً وحکماً، وإنّما یعتبر فی نظرهم توصیة أخلاقیة فحسب.

وأمّا فى النظم الإلهيّة، فإنّ الاعتقادات القلبية، والإلتزامات المعنوية والإيمان بمحكمة العدل الالهى العظيمة يوم القيامة والاعتقاد بمراقبة اللَّه فى الدنيا، كل ذلك يعتبر من الدوافع المهمّة وضامناً إجرائياً قوياً، ولكن لما لم يكن ذلك الداعى موثراً فى كل النفوس لوحده، كان من الضرورى أن يكون إلى جنبه ضامناً إجرائياً ماديّاً، وعقوبة دنيوية.

واهتمام الشارع المقدس بإجراء الحدود والمجازاة ضد المتخلفين وصل إلى حدٍّ بحيث ورد فى الروايات المتعددة:

«حدٌّ يُقام فى الأرض أزكى من مطر أربعين ليلة وأيّامها».

وهذا الحديث مروى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام أيضاً، وفى بعض النصوص وردت كلمة «أفضل» أو «أنفع» بدلًا عن كلمة «أزكى «۱».

ونقرأ فى حديث عن الإمام السابع موسى بن جعفر عليه السلام فى تفسير قوله تعالى «يُحيى الأرض بعد مَوْتِها» قال عليه السلام: «لَيْسَ يحييها بالقَطر ولكن يَبْعَثُ اللَّه رجالًا فَيُحيونَ العَدْلَ فتحيى الأرضُ لاحياء العَدْلِ ثمَّ قال عليه السلام: ولإقامَةُ الحَدّ فيه أَنْفَعُ فى الأرضِ من القَطر أربعين صباحاً».

وكيف لا يكون إجراء الحدِّ «أنفع» و «أفضل» و «أزكى من قطر أربعين صباحاً، وسلامة وأمن المجتمع إنّما هى فى ذلك الأصل، وأنّ جذور كل خير وبركة فى إجراء الحدود، إذ إنّ الأحكام المباركة التى تجلب الخير والنعمة والمنافع الاقتصادية لا تفيد بلا وجود أمن وأمان فى المجتمع، كما أنّ أمن المجتمع لا يحصل بدون إجراء الحدود واحقاق الحق، ولولا ذاك لعمَّ الفساد والظلم فى المجتمع ولقتل الناس بعضهم بعضاً وخُرِّبت المدن واستضعف

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، باب ۱ من أبواب مقدمات الحدود، ح ۲، ۳، ۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۳

عباداللَّه، ولهذا فإنّ أول ما طلبه إبراهيم الخليل عليه السلام من ربّه عندما بنى الكعبة، هو أن يجعل ذلك البيت آمناً فقال: «رَبِّ أجْعَل هَذَا بَلَداً آمِنَاً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوم الآخِرِ». (البقرة/ ۱۲۶)

وبذلك طلب نعمة الأمن قبل الأرزاق الاخرى لأنّه كان يعلم أنّ فقدان الأمن يمنع من الاستفادة من المواهب الاخرى

۲- معنى الحدِّ والتعزير

«الحدود»: جمع «حدّ» وهو لغةً بمعنى «المنع»، وانتخاب هذا الاسم لقسم من المجازاة الشرعية هو لأنّها تمنع الناس من ارتكاب بعض المخالفات القانونية الشرعية. وهى فى الاصطلاح الشرعى فى عبارات الفقهاء، مجازاة خاصة تجرى فى حق المكلفين لارتكابهم بعض الذنوب.

وأمّا «التعزير» فى اللغة فهو بمعنى «التأديب» وقد يأتى أحياناً بمعنى «التعظيم» أو «النصرة» و «المنع»، وفى الاصطلاح بمعنى المجازاة والاهانة، حيث لم يرد فيها مقدار معين فى الشرع وإنّما أوكلت إلى نظر القاضى، فهو الذى يحدد مقدار ونوع التعزير طبقاً «لميزان الجرم» الذى يرتكبه المذنب و «مقدار تحمله».

وعلى هذا فالفارق بين «الحدِّ» و «التعزير» هو أنّ مقدار الأول ثابت ومحدد، وأمّا التعزير فهو فى الأغلب غير معين، وقلنا (فى الأغلب) لأنّ بعض التعزيرات ورد فيها مقدار معين فى الروايات الإسلامية، وتفصيل ذلك فى كتاب الحدود، ومع ذلك وقع الخلاف فى أنَّ تعيين المقدار فى تلك التعزيرات هل هو معيّن قطعى أم أنّه مذكور من باب المثال والمصداق؟

وتوجد بعض الفوارق الاخرى بين الحدِّ والتعزير، حتّى عَدَّ الشهيد فى كتاب «القواعد» عشرة وجوه للاختلاف بينهما ولامجال هنا لتفصيل الكلام فيها «۱».

(۱) القواعد، الشهيد الأول، ج ۲، ص ۱۴۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۴

۳- تعداد الحدود الإسلامية

اشارة

ورد فى الإسلام عشرة حدود أساسية لعشرة ذنوب كبيرة، وذكرت أربعة منها فى القرآن المجيد صريحة، واستفيدت الستة الباقية من السنّة الشريفة.

۱- حدُّ الزنا

جاء فى قوله تعالى

«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِيْنِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طَآئِفَةٌ مِّنْ المُؤمِنِينَ». (النور/ ۲)

ففى الآية إشارة إلى حد زنا المرأة والرجل، ولم يرد فيها «الاستثناءات» و «الجزئيات» الاخرى مثل أحكام زنا المحصن والمحصنة والزنا بالمحارم والامور الاخرى من هذا القبيل والتى بيّنتها السنة والروايات الإسلامية بشكل مفصل.

۲- حدُّ السرقة

جاء فى قوله تعالى

«وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

(المائدة/ ۳۸)

ويوجد فى هذا المورد أيضاً بعض الشروط والاستثناءات فى قطع يد السارق التى وردت فى السنّة والروايات الإسلامية، ونحن نعلم بأنّ القرآن الكريم يذكر غالباً أصول المسائل فقط ويترك التفصيل والشرح للسنّة.

۳- حدَّ القذف

ورد فى قوله تعالى فيما يرتبط بنسبة الأعمال المخالفة للعفّة للأشخاص المنزهين عنها، ما يلى:

«وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمحصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلَدةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». (النور/ ۴)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۵

فهذه المجازاة الثلاثية للقاذف، ذكرت لتطهير المحيط الاجتماعى وحفظ احترام وكرامة الناس، وللحد من اشاعة الفحشاء والفساد، كما أنّ هناك بعض الشروط والخصوصيات والاستثناءات ذكرت فى الروايات الإسلامية.

۴- حدُّ المحارب

وردت فى القرآن المجيد مجازاة ثقيلة لأولئك الذين يحاولون الاخلال بأمن المجتمع، وأولئك الذين يتعرضون بالأسلحة لأنفس وأموال وأعراض الناس، وهذهِ الشدَّة والصرامة فى المجازاة إنّما هى لردع الأشرار، يقول تعالى

«إِنَّما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرضِ فَسَادَاً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصلَّبوا أَو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ». (المائدة/ ۳۳)

والمقصود من المحارب، وكما أشرنا أيضاً، هو الشخص الذى يحمل السلاح ويتعرض لأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم بالسلاح، سواء أكان ذلك من قطّاع الطرق أو من أهل المدن أو من الأشقياء الذين يتعرضون للناس بالسكّين والأسلحة الباردة فيعتدون على أنفس الناس وأموالهم ونواميسهم، والملفت للنظر أنّ القرآن عدَّ هولاء من المحاربين للَّه ولرسوله صلى الله عليه و آله وهذا دليل على اهتمام الإسلام الفائق بالحريات والأمن الاجتماعى وحقوق الناس.

وهناك كلام بين الفقهاء والمفسرين فى أنّ هذه الأنواع الأربعة من الحدود المذكورة فىالمحارب، هل هى على التخيير وبإمكان القاضى أن ينتخب أيّها شاء، أم أنّها معينة ولكنها تختلف باختلاف الجناية التى يرتكبها المحارب؟ فمثلًا المحارب الذى يقتل الأبرياء، جزاؤه الاعدام، والذى يتجاوز على أموال الناس فجزاؤه أن تقطع أصابعه، وإن ارتكب الجنايتين معاً فجزاؤه الاعدام والصلب لاعتبار النّاس، وإن شهر السلاح فقط فى وجه الناس وأرعبهم بدون أن يرتكب جناية أخرى فإنّ جزاءَهُ النفى عن بلده، ولا مجال

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۶

هنا لبيان اختلاف الفقهاء والمفسرين بشكل مفصل، ومن أراد التفصيل فليراجع كتب الفقه المطولة (كتاب الحدود بحث «حدّ المحارب») وتفاسير القرآن ومن جملتها «التفسير الامثل» «۱».

هذهِ الحدود الأربعة وردت فى القرآن المجيد، وأمّا الحدود الستّة التى وردت الإشارة إليها فى السنّة فهى كالآتى.

۵- حدُّ المرتد

اشارة

والمراد به، الشخص الذى يعتنق الإسلام ثم يعود إلى الكفر ويعلن كُفره، وقد ذكر الإسلام له حدّاً شديداً (ولذلك فلسفة خاصة سنشير إليها فيما بعد).

فى القرآن الكريم وردت الإشارة فقط إلى ذمّ هولاء المرتدين بشدّة وتوعدهم بالعذاب الإلهى العظيم، بدون أن يتعرض إلى الجزاء الدنيوى لهم، قال تعالى

«مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالايمانِ، وَلَكِنْ مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرَاً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». (النحل/ ۱۰۶)

ويقول عزوجل فى موضع آخر:

«كَيْفَ يَهدِى اللَّهُ قَوماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وشَهدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ البَيِّناتُ وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِين* أُولئِكَ جَزَائُهُمْ أَنَّ

عَلَيهِمْ لَعنَةَ اللَّهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». (آل عمران/ ۸۶- ۸۷)

وكما أسلفنا فإنّه لم ترد إشارة فى القرآن الكريم إلى حدِّ الارتداد، ولكن العذاب العظيم الذى وعِدَ به المرتد يحكى عن الجزاء الدنيوى الثقيل أيضاً.

والمشهور بين الفقهاء هو أن المرتدّ إن كان فطرياً (وهو الذى انعقدت نطفته من أب وام مسلمين أو على الأقل أحدهما مسلم) فحدُّه القتل ولا تقبل توبته (إذا كان رجلًا)، وإن كان

---

(۱) التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

مرتداً ملياً، وهو الذى ولد من أب وام كافرين، يستتاب فإن تاب وإلّا قُتل، ومن جملة من يلحق بالمرتد، الشخص الذى يسبّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله- نعوذُ باللَّهِ- ويهينهُ، ويلحق بالنبى والأئمّة المعصومين عليهم السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، وفى الحقيقة أنّ هذا العمل يعد من جملة أسباب الارتداد، وعليه فلا داعى لذكره كحدٍّ مستقل، وإن عنونه بعض الفقهاء فى كتاب الحدود فى الفقه الإسلامى بعنوان حدٍّ مستقل، وتوجد بعض الروايات الخاصة فى اباحة دم مثل هذا الشخص، وردت فى المصادر الإسلامية «۱».

لماذا كلُّ هذه الصرامة فى المرتدّ؟

الملاحظ هو أنّ الإسلام لم يتعامل بشدّة مع أولئك الذين لم يقبلوا الإسلام أصلًا، وإنّما يدعوهم إلى الإسلام بالاعلام والتبليغ المنطقى، فإن لم يقبلوا الإسلام وقبلوا العيش مع المسلمين بشرائط الذّمة فإنّه لا يكفّ عنهم فحسب بل يتكفل برعاية أموالهم ومنافعهم المشروعة وأنفسهم.

وأمّا بالنّسبة إلى أولئك الذين اعتنقوا الإسلام ثم ارتدوا فإنّه يتعامل معهم بشدّة، وما ذلك إلّالأنّ الارتداد عن الإسلام يؤدّى إلى زعزعة المجتمع الإسلامى ويعدُّ نوعاً من الانتفاضة ضد الحكومة والنظام الإسلامى، ويكون غالباً دليلًا على سوءُ نوايا المرتدّين.

ولذا وكما سبقت الإشارة فإنّ مثل هذا المرتد الذى انعقدت نطفته من أب أو ام مسلمين، وعدل عن الإسلام وأعلن ذلك وثبت ارتداده فى المحكمة الإسلامية، فإنّ الإسلام يهدر دمه، وتقسم أمواله على أقربائه المسلمين وتنفصل عنه زوجته ولا تقبل توبته ظاهراً، أى أنّ هذه الأحكام الثلاثة تجرى عليه على أيّة حال.

وأمّا إذا كان نادماً حقاً فإنّ توبته تقبل مابينه وبين اللَّه (هذا فى الرجل أمّا فى المرأة فإنّ توبتها تقبل ولا تقتل)، وأمّا إذا لم يندم ولم يتب، ولكنه لم يتفوه ظاهراً بما يدل على ارتداده، لم يتعرض له أحد باذى

---

(۱) وسائل الشيعة ج ۱۸، ص ۴۵۸، كتاب الحدود الباب ۲۵، ح ۱- ۴.

وإذا لم يكن المرتد عن الإسلام مولوداً من مسلمين أو من مسلم من طرف واحد فإنّه يؤمر بالتوبة، فإن تاب قبلت توبته ولم تجر عليه تلك الأحكام، وأمّا إذا لم يتب جرت عليه (ويكفى فى ذلك التوبة الظاهرية، ولم نؤمر بالتّحقيق فى حقيقة أمره).

ومن وجهة النظر السياسية قد يبدو أنَّ حكم المرتد الفطرى نوع من الارهاب العقائدى والفكرى، خصوصاً لأولئك الذين لم يطلعوا على حقيقة محتوى هذهِ الأحكام، ولكن الانصاف أننا إذا لاحظنا أنّ هذهِ الأحكام غير مرتبطة بأولئك الأشخاص الذين يعتقدون بامور لم يظهروها للملأ وإنّما هى مختصة بالمرتدين الذين يعلنون ارتدادهم، فهم فى الحقيقة يعلنون عن ثورتهم ضد الحكم

الإسلامی، وعلیه فمن الواضح أنّ هذه الصرامة والشدّة فی حقهم لیست خالیة من الدلیل، کما أنّها لا تتنافی أبداً مع حریة الرأی والعقیدة، فکم من دولة شرقیة وغربیة تجری قوانیناً شبیهة بهذا القانون مع اختلافات بسیطة حیث إنّها تهدر دم کل من یحاول التعرّض والثورة ضد الحکومة.

وینبغی الالتفات إلی هذه النکتة وهی أنّ قبول الشخص للإسلام لابدّ أن یکون طبقاً للمنطق والعقل، خصوصاً أولئک الذین ولدوا من أبوین مسلمین وترعرعوا فی محیط اسلامی، فإنّه من البعید جدّاً أنّهم لم یتعرفوا علی محتوی الإسلام، وعلیه فإنّ ارتدادهم عن الإسلام أقرب ما یکون إلی سوء النیّة والخیانة منه إلی الاشتباه وعدم درک الحقیقة، فمثل هذا الشخص یستحق جزاء الارتداد.

ورد فی القرآن الکریم الآیة ۷۲، ۷۳ من سورة آل عمران، الحدیث عن طائفة من المتآمرین علی الإسلام الذین یظهرون الإسلام أولًا ثم یظهرون الکفر بعد ذلک لیوهموا الآخرین أنّهم لم یجدوا فی الإسلام من عناصر القوة شیئاً یدفعهم إلی البقاء علی اعتناق الإسلام، ولذا فإنّهم عدلوا عنه، وهدفهم من ذلک زلزلة اعتقاد المسلمین بإسلامهم وإیمانهم، فقد ورد فی قوله تعالی

«وَقَالَتْ طائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الکِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِی انْزِلَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاکْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ». (آل عمران/ ۷۲)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۹

وخلاصة الکلام: أولًا: إنّ حکم توبة المرتد الفطری مختص بالرجال المتولدین من مسلمین، وقبلوا الإسلام أولًا ثم رجعوا عنه، فمن لم یقبل الإسلام عند بلوغه، لا تشمله تلک الأحکام!

ثانیاً: الأشخاص الذین لازالوا فی حال التحقیق والفحص، غیر مشمولین بهذا الحکم حتی لو کانت نتیجة تحقیقهم هی الرجوع عن الإسلام واعتناق عقیدة أخری لکن بشرط أن لا یظهروا خلافهم وعداءهم للإسلام بالقول، فلا یتعرض لهم حینئذٍ أحدٌ، ویعفون عن تلک العقوبات.

ثالثاً: متی ما سُرِکَتَ عن المرتدین، خیف علی الإسلام من التآمر علیه یومیاً من قبل جماعات (کالیهود فی صدر الإسلام) وخیانة المسلمین وزلزلة اعتقادات الناس والثورة ضد الحکومة الإسلامیة عن طریق اظهار الارتداد، ومن هنا یعمّ الهرج والمرج العظیمین فی المجتمعات الإسلامیة، خاصة وإن مثل هذهِ الأعمال التخریبیة لها آثار سریعة وخطیرة، ولذا فإنّ الإسلام تعامل معها بشدّة وصرامة.

۶- حدّ شرب الخمر

بحثت مسألة شرب الخمر وآثارها الوخیمة فی عدّة آیات من القرآن الکریم، ولکن لم یرد فی القرآن حدُّ شرب الخمر، وإنّما ورد ذلک فی الروایات الإسلامیة، وحدّ شرب الخمر هو ثمانین جلدة، فقد ورد فی حدیث عن برید بن معاویة عن الإمام الصادق علیه السلام قال:

«إنَّ فِی کِتابِ عَلِیّ یُضْرَبُ شارِبُ الْخَمْرِ ثَمانِینَ وَشارِبُ النَّبِیذِ ثَمانِینَ» «۱».

(والخمر هو الشراب المتخذ من العنب، والنبیذ: الشراب المتخذ من التمر وقد یطلق أحیاناً علی معنی أوسع).

وقد ورد فی بعض الروایات تعلیل هذا الحدّ بأنّ شارب الخمر یسکر فاذا سکر افتری وتعرض بالقذف (لناموس الناس، ومن هنا کان حدُّه حدِّ القذف) «۲».

---

(۱) مرآة العقول، ج ۲۳، ص ۳۳۰، ح ۴.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۳۱، ح ۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۰

۷- حدُّ اللواط

لقد بيّن القرآن الكريم قبح هذا العمل وعظمة هذا الذنب حين استعرض قصة قوم لوط عليه السلام، وباعتقاد بعض المفسرين فإنّ إشارة إجمالية وردت فى بيان حدِّه فى قوله تعالى

«وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَاعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً». (النساء/ ۱۶)

وهذا مبنى على أنّ «اللّذان» إشارة إلى الرجلين وأنّ الضمير فى «يأتيانها» إشارة إلى اللواط، فى حين أنّ هذا الضمير يعود إلى كلمة «الفاحشة» التى وردت فى الآية السابقة على هذهِ الآية إشارة إلى «الزنا».

وعلى أيّة حال فإنّ حدّ اللواط طبقاً للروايات الإسلامية هو الاعدام، فى صورة تحقق الادخال، فإن لم يتحقق فالجلد وقد وردت روايات كثيرة فى هذا المعنى عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام «۱».

۸- حدّ المساحقة

وللمساحقة فى الإسلام حدٌّ شديد، وهو طبقاً للمشهور، كحدِّ الزنا، مائة جلدة، ولا فرق فيه بين المحصنة وغيرها.

وهذا المطلب ورد فى روايات عديدة عن أئمّة الدين «۲».

ولا يوجد فى القرآن الكريم ما يدلُّ بصراحة على هذا الحكم، ولكن بعض المفسرين يرى أنّ فى سورة النساء إشارة إلى ذلك، يقول تعالى

«وَاللَّاتى يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِنْ نِّسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُم فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوفّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (النساء/ ۱۵)

ولكن أغلب المفسرين عدَّ هذهِ الآية إشارة إلى حكم الزنا قبل نزول حكم الجلد فى سورة النور، والقرائن الموجودة فى هذهِ الآية والآية التالية لها تؤيد هذا المعنى أيضاً.

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۴۱۶ أبواب حدّ اللواط.

(۲) المصدر السابق، ص ۴۲، أبواب حدّ السحق والقيادة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۱

۹- حدّ القيادة

القيادة أو الوساطة بين النساء والرجال الذين يرتكبون الأفعال المنافية للعفّة، لها حدٌّ ثابت ومعين فى الإسلام أيضاً (وأن لم يُذكر ذلك الحدُّ فى القرآن)، وطبقاً للمشهور فإنّ حدّ القيادة هو الجلد ۷۵ جلدة، أى ثلاثة أرباع حدِّ الزنا «۱».

۱۰- حدّ الساحر

يذمُّ القرآن المجيد السحر والسحرة بشكل واضح، حيث نقرأ فى قصة موسى وفرعون، على لسان موسى عليه السلام: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيثُ أتَى . (طه/ ۶۹)

وفى قصة هاروت وماروت (المَلَكَيْن) ورد ذمٌّ شديد، حيث عدّت الآيات القرآنية الواردة فى هذِهِ القصة السحر كفراً، حيث جاءت فى سورة البقرة، الآية ۱۰۲.

ولكن لم ترد إشارة فى القرآن الكريم إلى حدِّ الساحر، وإنّما ورد فى الروايات الإسلامية إنّ حدَّ الساحر القتل «۲».

وهناك خلاف بين الفقهاء فى أنَّ هذا الحدَّ مطلق وبدون قيد وشرط أم أنّه خاص بأولئك الذين يحلّون السحر ويفعلونه أو بتعبير آخر «المرتدين»؟

كما أنّ هناك كلام بين العلماء فى حقيقة السحر، وإنّه هل للسحر واقعية أم أنّه نوع تخّيل؟ أم أن بعضه واقعى وبعضه تخيّل؟

ومن هنا، بحثت مسألة السحر بشكل مطول فى الكتب الفقهية «۳».

وما ينبغى معرفته هنا هو أنّ شدّة الإسلام وصرامته فى مسألة السحرة قد يكون باعتبار أنّ هؤلاء السحرة وقفوا بوجه الأنبياء وحاربوهم كما هو واضح من قصة سحرة فرعون،

---

(۱) راجع كتاب جواهر الكلام، ج ۴۱، ص ۴۰۰؛ وكتاب وسائل الشيعة، أبواب حدّ السحق والقيادة، الباب ۵، ج ۱۸، ص ۴۲۹.

(۲) وسائل الشيعة ج ۱۸، ص ۵۷۶.

(۳) وهذا البحث تارة عنون فى المكاسب المحرمة فى مبحث تحريم السحر، وتارة فى كتاب الحدود، فى مبحث حدِّ الساحر.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۲

وأحياناً يقوم هؤلاء السحرة بدور إغواء الناس البسطاء فيحرفونهم عن الاعتقاد بمعاجز الأنبياء، وهذا ذنب عظيم يستوجب عقاباً شديداً.

كان ذلك، فهرسة للحدود الإلهيّة فى الإسلام، الهدف منها تطهير المجتمع والحدّ من انتشار الفساد والمنكرات وضياع الأمن بين الناس.

ومضافاً إلى هذِهِ الحدود، وكما أشرنا سابقاً، فإنّ بعض العقوبات الاخرى مقررة فى الإسلام، سمّاها الفقهاء «التعزيرات» (والتعزير ياتى بمعنى المنع، التأديب، التعظيم والاحترام والنصرة أيضاً كما بينا ذلك سابقاً، وكل هذِهِ المفاهيم تجتمع مع التعزير بمعنى «العقاب»، وذلك لأنّ التعزير يمنع المجرم والمذنب من الذنب، ويؤدبه، ويبعث على احترامه وتعظيمه فى المستقبل، وينصره على هواه ونفسه الأمارة).

قلنا بان «التعزيرات» هى العقوبات التى تجرى فى الذنوب التى لم يرد فيها حدٌّ معين.

وتوضيح ذلك:

إنّ كل قانون لابدّ من ضامن لتنفيذه، بمعنى السند الّذى يوجد دافعاً عقلائياً لاجرائه، فإن خلى القانون من هذا السند تبدل إلى توصية أخلاقيّة بحتة، وخرج عن النطاق العملى.

صحيح أنّ الدوافع الإلهيّة والثواب والعقاب يوم القيامة، من الدوافع القوية عند المؤمنين، ولكن الإسلام لم يكتف بهذِهِ الحوافز الاخروية وإن كان يحترمها ويقدسها، ولكنه أضاف إليها دوافع دنيوية ومادية، ليعمل من كان ضعيف الإيمان والذين لا تؤثر فيهم الوعود الاخروية كثيراً، على رعاية تلك القوانين خوفاً من العقاب على أقل التقادير، كى لا يتحول المجتمع إلى ميدان يجول ويصول فيه المفسدون الفاسدون عديمو أو ضعيفو الإيمان.

ولما كانت الذنوب يختلف بعضها عن البعض الآخر، كما ويختلف المرتكبون لها من جهة الاطلاع والعمر والسوابق الاخلاقية، وكذا

المكان والزمان، وقدرة تحمل تلك

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۳

العقوبات، اختلفت التعزيرات أيضاً، فأوكل تعيينُها إلى نظر القاضى فيراعى فيه الشروط بدّقة من كل الجهات فيعين ما يراه مناسباً للمجرم.

وفى الحقيقة، إنّ كل العقوبات الإسلامية متفاوتة- ماعدا بعض الموارد التى ادرجت فى الحدود المعينة، فيؤثر فى التعزير ومقداره أحوال المجرم وكيفية وكميّة الذنب الذى يرتكبه، ولذا فتعيين مقدار التعزير موكول إلى نظر القاضى.

عدّة نكات مهمّة فى التعزيرات الإسلامية:

۱- وحدة القرار

إنّ حرّية القضاة فى تعيين مقدار التعزير وإن كانت امتيازاً ونقطة قوة مضيئة تمنحهم إمكان تعيين التعزيرات المناسبة للمجرمين كلٌ بحسب جرمه، ولكن هذه المسألة تصير سبباً أحياناً فى اختلاف القضاة فى المناطق المختلفة فى كمية التعزيرات للجرم الواحد، وهذا الأمر لم يكن يشكل مشكلة فى الزمن الماضى حيث كانت المناطق متصلة بعضها عن البعض الآخر، ولكن اليوم وبالالتفات إلى الاتصالات السريعة والواسعة بين المناطق المختلفة، يشكل ذلك مشكلة حقيقية.

ولهذا الدليل، فلا مانع من أن يجلس أهل النظر والقضاة البارعون فى جلسات مشتركة لتعيين حدود للتعزيرات، ولكن ينبغى أن لا تكون تلك التعزيرات معينة وإنّما كحدٍ أعلى وحدٍّ أدنى كالحبس والغرامة المالية والعقوبات الإسلامية وامثال ذلك لتكون التعزيرات على نسق واحد فى المناطق المختلفة.

وهذا الأمر ينسجم تماماً مع الموازين الإسلامية، وعلى أقل تقدير يمكن الاستدلال على مشروعيته بالعناوين الثانوية.

۲- عدم اقتصار التعزير على الجلد

التعزير- وكما أسلفنا- له معنى واسع يشمل كل ردع وتأديب، ولا يوجد أى دليل على

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۴

أنّ هذا المعنى قد تغيّر فى الشرع الإسلامى المقدس أو فى اصطلاح الفقهاء (وبالاصطلاح ليس له حقيقة شرعية أو متشرعية)، كما أنّه لم ينقل إلى معنى جديد فى اصطلاح الفقهاء، وإن كان كثير من الفقهاء وتبعاً للروايات اعتمدوا على مصداق خاص منه (الجلد)، ولكن بيان هذا المصداق المعروف لا يُعدُّ دليلًا على انحصار مفهوم التعزير بالجلد، وإن توهّم بعضٌ أنّ التعزير مساوٍ للضرب والجلد.

ولكن التحقيق والتدقيق فى كلمات الفقهاء يثبت بطلان هذا التصور.

يقول العلّامة الحلّى- قدس سرّهُ الشريف- فى «التحرير» بعد أن يبيّن أنّ التعزير ورد للجنايات والذنوب التى لم يرد فيها حدٌّ معين:

«وَهُوَ يَكُونُ بِالضَّرْبِ وَالحَبْسِ وَالتُّوبِيخِ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ وَلا جَرْحٍ وَلا أَخْذِ مالٍ» «۱».

ويقول فى كتاب «الْفقه على المذاهب الأربعة» بعد نقل كلام «ابن القَيِّم» وإن ظاهر عبارته أن الحاكم له تعزير المجرمين بأى طريقة يرى فيها الصلاح- سواءً الحبس أو الضرب-: «وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ التَّعزِيرَ باب واسع يُمْكِنُ لِلْحاكِمِ أنْ يَقْضى بِهِ عَلَى كُلِّ الْجرائم الَّتى لَمْ يَضَعِ الشّارِعُ لَها حدّاً أَوْ كَفّارَةً عَلَى أنْ يَضَعَ العقُوبَةَ المُناسِبَةَ لكلِّ بَيئةٍ ولكلِّ جَرِيْمَةٍ مِنْ سَجْنٍ أَوْ ضَرْبٍ أَوْ نَفيٍ أَوْ تَوبيخٍ أَوْ غَيْرِ ذلِكَ» «۲».

هذهِ مقتطفات من كلمات فقهاء الخاصة والعامة.

ومضافاً إلى ذلك، فإنّ روايات كثيرة وصلتنا فى ابواب مختلفة من الفقه، تدلّ بوضوح على سعة معنى مفهوم ومصداق التعزير يطول المقام بذكرها هنا، ومن رغب فى الوقوف عليها لابدَّ له من مراجعة بحث التعزير فى كتاب الحدود والتعزيرات.

ومن مجموع ماورد فى كتب «اللغة» و «كلمات الفقهاء» و «الروايات الإسلامية» فى أبواب الفقه المختلفة، يمكن الاستنتاج بوضوح أن الحاكم الإسلامى غير مقيد بانتخاب نوعٍ معين من أنواع التعزير، والموارد ادناه كلها من جملة التعزيرات، بشرط رعاية حال المجرم

---

(۱) التحرير، ج ۲، ص ۲۳۹.

(۲) الفقه على المذاهب الأربعة، ج ۵، ص ۴۰۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۵

والمحيط الاجتماعى وكمية وكيفية الذنب وسائر الجهات:

۱- الضرب باشكال مختلفة.

۲- الحبس بكيفية وكمية متفاوتة.

۳- الغرامة المالية، أى أخذ مقدار من المال، وتوقيف أموال المجرم لمدة معينة (كحجز سيارات المتخلفين عن قوانين المرور).

۴- التوبيخ العلنى والسرّى.

۵- النفى إلى منطقة اخرى لمدّة طويلة أو قصيرة، وترك المراودة، أو ترك التعامل مع المجرمين.

۶- المنع من السفر إلى خارج البلدة، أو الدولة، أو حتى الإقامة الجبرية فى المنزل.

۷- المنع من التكسب والاشتغال لمدّة معينة.

۸- حرمانه من العمل فى بعض المناصب، والحقوق الاجتماعية.

۹- التشهير بالمجرم عن طريق وسائل الاعلام بشكل محدود أو موسع.

۱۰- حرمانه من بعض الامتيازات، كمنعه من ارتداء زى الروحانيين، بالنسبة إلى الأفراد الذين يرتدون ذلك الزى.

وامور اخرى يمكنها أن تردع المتخلفين والمجرمين، وتحدَّ من تكرار تلك الذنوب من قبلهم ومن ارتكابها من قبل الآخرين.

۳- معنى تخيير الحاكم فى التعزيرات

هناك كلام طويل بين الفقهاء فى مقدار التعزيرات التى يُخيّر فيها القاضى، ولكنهم متفقون على أن التعزير لابدّ أن يكون اقلَّ من الحدِّ وإن اختلفوا فى الحدِّ الذى لابدّ أن يكون التعزير أقلَّ منه، وهل هو حدُّ الزنا، أم أقل الحدود، أم أنّه يتناسب مع الذنب المرتكب؟

وما ينبغى التنبيه عليه هنا هو أنّ المراد من تخيير القاضى فى انتخاب كمية وكيفية التعزير، لا يعنى أنّه يتبع ميوله الشخصية فى ذلك، بل المراد فى التخيير هو فسح المجال

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۶

للقاضى لكى يأخذ بنظر الاعتبار مناسبات «الجرم» و «الجريمة» من كل الجهات، فالقاضى وإن كان ظاهراً مخيرٌ فى تعيين التعزير إلّاأنّه فى الحقيقة ليس مخيراً، لأنّه يُعيّن لكل جرم مقداراً من العقوبة يتناسب مع ذلك الجرم، بمعنى أنّ الجرم إذا كان يقتضى الحبس لمدة شهر من الزمان، أو عشرين جلدة فلا يمكنه زيادة تلك المدّة أو عدد الجلدات حتى يوماً واحداً أو جلدة واحدة، أو فلساً واحداً فى الغرامة المالية.

۴- التعزيرات فى القرآن الكريم

اشارة

ذكرت فى القرآن الكريم بعض موارد التعزير يمكن أن تكون نموذجاً للحكم الكلى الإسلامى:

أ) قصة المتخلفين عن غزوة تبوك

وتوضيحه: نقرأ فى قوله تعالى

«وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى اذَا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الارْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا انْ لَّامَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ الَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا انَّ اللَّهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ». (التوبة/ ۱۱۸)

فقد بُيِّنَ فى هذه الآية بنحو الإشارة، وفى الروايات والتفاسير بنحو التفصيل، التعزير العجيب الذى مارسه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى حق أولئك النفر الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك (والذين لم يأتمروا بأمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وتركوا الجهاد بدون عذر وجيه).

وهؤلاء الثلاثة طبقاً لتصريح بعض الروايات هم «كعب بن مالك» و «مرارة بن ربيع» و «هلال بن اميّه»، ومع أنّهم لم يكونوا من المنافقين ولكنهم تخاذلوا عن الجهاد فى تبوك، ثم انتبهوا إلى أنّهم ارتكبوا ذنباً عظيماً، وندموا على ذلك.

وعندما رجع الرسول الكريم صلى الله عليه و آله من غزوة تبوك، جاء هؤلاء الثلاثة إليه وقدموا الاعتذار، ولكن الرسول صلى الله عليه و آله لم يكلّمْهُمْ وأمر المسلمين بأن لا يكلّموهم، فلم يكلّمهم أحدٌ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۷

وقاطعهم الناس حتى أنّ نساءهم وأولادهم جاءوا إلى النبى صلى الله عليه و آله وطلبوا منه الرخصة فى الانفصال عنهم، فلم يسمح لهم الرسول صلى الله عليه و آله بالانفصال التامّ عنهم وإنّما أمرهم بعدم مقاربتهم.

وعندما وجَدَ هؤلاء المتخلفون أنفسهم فى حصار اجتماعى رهيب وضاقت عليهم الآفاق على سعتها اضطروا إلى ترك «المدينة» هرباً من الفضيحة والذلّ، والتجأوا إلى الجبال فى أطراف المدينة، فكان أهلوهم يأتونهم بالطعام ولكن كانوا لا يكلّمونهم حتى بكلمة واحدة!

وحينئذٍ قال أحدُهم لصاحبيه: والآن وقد قاطعنا الناس تعالوا ليقاطع أحدُنا الآخر، فلعلَّ اللَّه يقبل توبتنا!

وتحقق هذا الاقتراح عملياً، وبعد خمسين يوماً من التضرع والتوبة إلى اللَّه، قبلت توبتهم ونزلت الآية الآنفة الذكر «۱».

وبمختصر تدقيق فى هذه الحادثة التاريخية العجيبة، يتضح لنا أنّ هذا الأمر فى الواقع نوع مهمّ من التعزير، وإنّه سجن معنوى شديد مقترن بالتحقير والتشهير والطرد المؤقت من المجتمع، وقد ترك أثراً بليغاً فى نفوس المسلمين وفى نفوس هؤلاء المجرمين الثلاثة، وصار سبباً فى ترك مثل هذهِ الذنوب فى المستقبل.

وهذهِ القصة شاهد حيٌّ آخر على عمومية مفهوم التعزير وعدم اختصاصه بالجلد بالسياط، وتدلّ أيضاً على أنّ بعض أنواع التعزيرات لها تأثير أقوى وأبلغ بكثير من الجلد بالسوط، وإنّه يكون موجباً للنهى عن المنكر بشكل أوسع فى المجتمع.

ب) قصة ثعلبة

والمورد الآخر هو قصة أحد الأنصار (ثعلبة بن حاطب) والتى ورد ذكرها فى الآيات وهى قوله تعالى

---

(۱) تفسير مجمع البيان؛ وتفسير روح الجنان، ذيل الآية مورد البحث؛ وسفينة البحار.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۸

«وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ». (التوبة/ ۷۵- ۷۸)

يعتقد كثير من المفسرين أنّ هذهِ الآيات نزلت فى شأن أحد الأنصار واسمه «ثعلبة بن حاطب»، لقد كان هذا الرجل فقيراً، يأتى إلى المسجد دائماً ويطلب من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يدعو اللَّه أن يعطيه مالًا كثيراً، فكان النبى صلى الله عليه و آله يقول له: «قليلٌ تؤدّى شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لا تُطيقُهُ»، ولكن ثعلبة كان يصرُّ ويلِحُّ على النبى صلى الله عليه و آله، ويُقسم بأنّه سيؤدّى كل ما عليه من حقوق فيما لو أعطاه اللَّه المال الكثير، فاضطر النبى صلى الله عليه و آله إلى أن يدعو اللَّه أن يعطيه مالًا كثيراً.

لم تمض فترة طويلة إلّاومات ابن عمّ ثعلبة وكان غنيّاً، فورث ثعلبة ثروة طائلة، وكانت ثروته تزداد يوماً بعد آخر، فصار يملك قطعاناً من الأنعام.

وعندما حان موسم الزكاة بعث الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله الجباة لجمع الزكوات، فلم يمتنع ثعلبة الذى ذاق لتوّه لذَّة المال عن دفع الحق الإلهى فحسب، بلْ أخذ يُشكل على أصل تشريع الزكاة أيضاً! وادّعى أنّها «شبيه الجزية» التى تؤخذ من أهل الكتاب! (عاد مأمور رسول اللَّه صلى الله عليه و آله صفر اليدين، فنزلت الآيات المذكورة أعلاه فى ذمّ ثعلبة وبخله ونفاقه ونقضه العهد!).

نزول هذهِ الآيات بنفسه يُعدُّ تعزيراً شديداً فى حقه، لأنّها فضحت افعاله القبيحة.

وطبقاً لبعض الروايات فإنّ ثعلبة ومن أجل استعادة حيثيته وجبر هذهِ الخسارة الاجتماعية الفادحة، جاء بنفسه إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأعلن عن استعداده لدفع زكاة أمواله، ولكن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله رفض قبولها منه!

رَحَل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى جوار ربّه، فجاء ثعلبة ثانية إلى الخليفة الأول ليؤدّى زكاة ماله، فلم يقبلها منه الخليفة الأول!

وفى زمن الخليفة الثانى والثالث جاء ثعلبة ليدفع زكاة أمواله، فكان جواب كل منهما له

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۹

هو: لا نقبل منك لأنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يقبل منك، ومات ثعلبة فى آخر أيّام خلافة عثمان «۱».

ففى الآيات الآنفة الذكر، وإن لم يُصرَّح بمسألة التعزير، ولكن نفس هذا الأمر (نزول الآيات فى ذم فعل ثعلبة وفضحه، ومعاملة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والخلفاء لثعلبة بتلك الكيفية)، يعتبر من مصاديق التعزير، وقد ترك ذلك أثراً عميقاً فى نفسه ونفوس الآخرين، ولا يراد من التعزير إلّاردع المذنبين سواءً بالعقاب المادى أو المعنوى.

ج) آية الايذاء

وكما أشرنا سابقاً، فإنّ القرآن قد أمر بمعاقبة الرجال والنساء (الذين لا أزواج لهم) ويرتكبون الزنا، حيث يقول تعالى «وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُم فَآذُوهُمَا ...». (النساء/ ۱۶)

فإن كان المراد من الايذاء هنا هو نفس الحدّ الشرعى الوارد فى الآية ۲ من سورة النور:

«الزَّانِيَةُ والزَّانى ..»، فحينئذٍ لا علاقة له ببحث التعزيرات بل يدخل فى بحث الحدود، ولكن متى ما قلنا أنّ المنظور من «الايذاء» هو

العقاب بنحو مطلق والـذى ليس له حـدٌّ وحـدود معينـة مذكورة وإنّه يرتبط بما قبل نزول حدِّ الزِنا- كما قاله جمع من المفسـرين- فإنّه حينئذٍ سيرجع إلى التعزيرات، لأنّه عقاب غير معين فى حق الزناة غير المحصنين كان موجوداً فى الإسلام قبل تشريع حدّ الزنا.

وقد ذكر المرحوم «الطبرسى» فى مجمع البيان معنيين لجملة «آذوهما» كلاهما يتلائم مع التعزيرات، الأول: هو أنّ المراد منها توبيخهما بالألفاظ وضربهما بالنعل! والثانى: هو أنّ المراد منها توبيخهما بالكلام فقط «۲».

د) آية النشوز

---

(۱) القسم الأول من هـذهِ الروايـة نقله كثير من المفسـرين، والقسم الأـخير منها ذكر فى تفسـير الكبير، ج ۱۶ ص ۱۳۸؛ وتفسير روح الجنان، ج ۶، ص ۷۴.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۲۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۰

نلاحـظ فى القرآن الكريم حكمـاً يرتبـط بالنسـاء الناشـزات، ويعتبر هو الآـخر من مصاديق التعزيرات، مع أنّ الأزواج قـد امروا بمراعاة الاحتياط فى إجراء هذا الحكم، يقول عزوجل:

«وَاللَّاتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَانْ اطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا». (النساء/ ۳۴)

والمراد بالناشزات أولئك النسوة اللاتى يمتنعن عن أداء وظائف الزوجية، واللاتى تظهر فيهنَّ علامات عدم الوئام المختلفة «۱».

ففى الآيـة أعلاـه، ذكرت ثلاثـة أنواع من التعزير لمثـل هؤلاء النسوة، الأول: الوعظ والنصـيحة (ويجب أن لا ننسـى بأنّ الوعظ فى كل مورد يعـدُّ من مراتب التعزير، لمـا له من الأـثر الرادع)، الثـانى: الهجر والابتعـاد عنهُنَّ فى المضـاجِع، الثـالث: العقاب البـدنى، وكل من المرحلتين الثانية والثالثة إنّما تجرى مع عدم نجاح المرحلة السابقة لها فى التأثير.

فإن سُئلنا: هل يجرى ذلك فى الرجل إذا نشز وطغى

قلنا فى الجواب: نعم! ولكن لما كان مثل هـذهِ العقوبات خارجـة عن طاقـة النساء، فإنّها أوكلت إلى الحاكم الشـرعى، فيكلف الحاكم بمعاقبة الرجال الناشزين بوعظهم ونصيحتهم أو ضربهم فى موارده.

وقصـة الرجـل الـذى أجحف بحق زوجته ولم يقبـل الرضوخ إلى الحق فـأجبره الإمام علىّ عليه السـلام على التسـليم بكل الطرق حتى اضطر إلى تهديده بالسيف، معروفة.

ومن هنا يتضح الجواب عن السؤال الذى قد يخطر فى أذهان الكثير من الناس عند ذكر هذهِ الآية وهو: كيف يمكن أن يسمح الإسلام للرجال بضرب نسائهم، فى حين أنّ هذا الأمر يسىء إلى كرامة الإنسان وخصوصاً شريك الحياة، وذلك:

«أولًا»: أنّ المراد من الضـرب والعقاب البدنى هنا ليس أن يأخذ الرجل السوط وينهال على زوجته ضـرباً حتى يختلط لحمها بدمها، ولا أن يضربها بكفّه على وجهها حتى يسودّ وجهها، فإنّ كل ذلك غير جائز فى شرع الإسلام المقدس، بل وعليه الدّية لو فعل ذلك، بل

---

(۱) «نشوز» من مادة «نشـز» على وزن «نـذر» وفى الأصل بمعنى الأرض المرتفعة، وإذا اطلق على أحد الزوجين كان معناه طغيان ذلك الزوج وامتناعه عن أداء وظيفته تجاه زوجه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۱

المراد هو الضـرب الخفيف الـذى لاـ يؤدّى إلى الجرح ولا إلى احمرار واسوداد الجسم، حتى قال بعض المفسـرين فى توضـيح الآيـة:

ضرب كضرب اليد بالسواك! أو ما شابه ذلك ممّا يؤدّى إلى ايلامها، ولكن ينبغى أن لا يكون شديداً فيجرحها.

«ثانياً»: يجب أن لا ننسى أنّ النساء على أربعة أقسام:

القسم الأول: النساءُ المؤمنات الصالحات، الواقفات على مسؤوليتهنَّ فى الأسرة وذلك على أثر اللياقات الذاتية والتربوية المكتسبة عندهُنَّ، ومثل هؤلاء النسوة لابدّ من احترامهن من قبل أزواجهن على أتمّ وجه، وهُنَّ مصداق الآية: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمعَرُوفِ». (النساء/ ۱۹)

والقسم الثانى: أولئك النسوة اللاتى يتخلفن عن أداء وظائفهنَّ فى محيط الأسرة، فيتسبّبْنَ فى ايذاء أزواجهنَّ، ولكن تخلفهن ليس عميقاً وفاحشاً، بل يمكن أن يتأثرن بالوعظ والنصيحة خوفاً من اللّه، ويرجعن إلى الحق لتقواهُنَّ، فهؤلاء مشمولات بقوله: «فعِظوهُنَّ» فى الآية المذكورة.

والقسم الثالث: النسوة اللاتى يكون نشوزهُنَّ عميقاً، ولا ينفع معهن الوعظ ولكن ولأرواحهنَّ الشفافة يؤثر فيهن الهجر، فانّهن لا يرغبن إلّافى العيش بصلح وصفاء، فهؤلاء يشملهنّ: «وَاهجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ». (النساء/ ۳۴)

فيبقى القسم الرابع: فقط من النساء اللاتى يتمردنَّ على أزواجهن ويمتنعن عن أداء وظائفهنَّ، ويتمادَين فى غيهن وعنادهنَّ، ولجاجتهنَّ، فلا تقوى عندهن فتمنعهن عن ذلك، ولا وعظ ينفع ويؤثر فيهن، ولا هجر فى مضجع يكدِّر أرواحهن، فلا سبيل إلّاالشدّة، ومن هنا فإنّ الإسلام فى هذا المورد فقط يجيز للزوج أن يؤدب زوجته بالضرب الخفيف ويعزّرها، وهذا الأمر رائج حتى فى المجتمعات الشرقية والغربية المعاصرة، حتى أنّ المعترضين على هذا القانون الإسلامى يمارسون ذلك بأنفسهم أيضاً فى مثل هذهِ الظروف والحالات، فمع تلك الظروف التى بيّناها لا يُعدُّ هذا الأمر عجيباً لا يتلائم مع احترام كرامة الإنسان.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۲

«ثالثاً»: هذا الأمر لا يختص بالنساء، بل يشمل الرجال إذا ما نشزوا وامتنعوا عن أداء وظائف الزوجية، وبنفس تلك المراحل المذكورة، ففى البدء لابدّ من وعظهم ونصيحتهم، فإن لم يؤثر ذلك، فالتعزير المعنوى كالهجر وعدم الاكتراث بهم فى المجتمع حتى يرجعوا عن غيّهم، فإن لم يؤثر ذلك، فلابدّ من اتباع سبيل الضرب وأمثاله من العقوبات، ولكن وكما قلنا سابقاً: بما أنّ هذا العمل لايمكن للنساء القيام به وأنّ سلطة الرجل تحول دونه، أرجع الأمر إلى الحاكم الشرعى فهو المكلف بايقاف هؤلاء الرجال عند حدّهم.

وبالالتفات إلى النكات الثلاثة السابقة، لا نظن أن منصفاً يعترض على هذا الحكم ويدعى أنّه خلاف كرامة الإنسان.

ولابدّ من التنبيه إلى أنّه ورد فى ذيل هذهِ الأحكام الثلاثة مباشرة قوله تعالى: «فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا». (النساء/ ۳۴)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۳

أحكام السجن فى الإسلام

تمهيد:

اشارة

كما ذكرنا فى بحث التعزيرات، فإنّ «السجن» من أنواع «التعزيرات» والوسائل الرادعة للمتخلفين والمجرمين، مضافاً إلى أنّه لا مفر من الحبس، والتوقيف فى بعض الأحيان وذلك للحد من فرار المتهمين، أو الضغط والتضييق على المدينين لاجبارهم على أداء ديونهم، ولهذا فإنّ أحكام السجن لها موقع خاص فى الفقه الإسلامى، وسنشير هنا ببعض الإشارات لتكميل البحث المرتبط بالحكومة الإسلامية، وإن كان أداء حق هذا البحث يتطلب تأليف كتاب أو كتب مستقلة، وبعض المحققين قد كتب أيضاً فى هذا المجال بعض

الكتب «۱».

۱- تأريخ السجن

اشارة

لا يتأتى لأحد أن يحدد تاريخاً دقيقاً لتاسيس أول سجن فى تاريخ البشرية، لأنّ هذهِ المسألة تعود تقريباً إلى بدايات الحياة الاجتماعية للبشرية، ومنذ ذلك اليوم الذى وجدت فيه الحكومات فالسجون كانت موجودة، بل وحتى غير الحكام كالملّاك الجبّارين والاقطاعيين الظالمين، قد اعدوا بعض الأمكنة لسجن عبيدهم ورعيتهم، حتى أنّ بعضهم كان يحبسهم فى اصطبلات الحيوانات!

وأمّا فى خصوص تاريخ تأسيس السجن فى الإسلام، فقد اتفق المؤرخون تقريباً على

---

(۱) من جملتها كتاب «أحكام السجون» للدكتور الشيخ أحمد الوائلى، وهو أحد المصادر التى اعتمدنا عليها فى بحثنا هذا.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۴

أنّه لم يكن فى عصر النبى صلى الله عليه و آله سجن بشكل رسمى، لا لأنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يكن يُجوِّز ذلك، بل لعدم اتساع المجتمع حينذاك وخاصة فى بداية الإسلام حيث كان الناس يلتزمون بالقوانين الإلهيّة، وقلّما كان يوجد شخص متخلف عن تلك القوانين.

ولذا لا نرى فى القرآن الكريم عبارة أو جملة واحدة تدل على وجود السجن فى ذلك العصر مطلقاً.

ولكن وفى نفس الوقت كانوا يستعينون بطرق اخرى بالنسبة إلى المجرمين الذين لابدّ من توقيفهم حتى يتعين التكليف فيهم، أو المَدينين الذين يمتنعون عن أداء ديونهم مع امتلاكهم المال اللازم لذلك، أو الأسرى الذين يؤسرون فى حروب المسلمين، ومن جملة تلك الطرق:

۱- كان المجرمون يحبسون أحياناً فى المسجد، ولّما لم يكن فى ذلك الوقت قفلٌ وقيدٌ ونحو ذلك، كانوا يوكلون شخصاً لمراقبة ذلك السجين كى لا يفَّر من المسجد، أو أنّهم كانوا يخطُّون دائرة حوله ويوصونه بعدم اجتياز ذلك الخط المستدير، وإلّا فهو مسؤول عن ذلك! والمتهم أيضاً ولأسباب اجتماعية خاصة ولأجل أن لا يتضاعف عقابه، لم يكن يتخطى ذلك الخط المرسوم حوله، ولعلَّ التعبير «بالترسيم» فى بعض الروايات إشارة إلى هذا المطلب.

۲- الحبس فى دهليز المنازل إذ إنّ أكثر المنازل كان لها دهليز طويل بين باب الدار وباحتها وفى أكثر الأحيان كان لها باب يفصلها عن باحة الدار، فلو اغلقت البابان تحوّل الدهليز عملياً إلى سجن.

۳- نفس المنازل كانت نوعاً آخر من السجون، وكما ورد فى القرآن الكريم الأمر بحبس النساء فى المنازل، يقول تعالى: «وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ اربَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَامْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمُوتُ اوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (النساء/ ۱۵)

ولا يخفى أنّ هذا الحكم كان قبل نزول حدِّ الزنا، وعندما نزل، نسخ الحكم المذكور.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۵

۴- «الملازمة» وهى شكل آخر من السجون، وتكون بهذا الترتيب مثلًا، بأن يلازم الدائنُ المدين المتمكن ولا ينفصل عنه حتى يأخذ حقه.

۵- مسألة «استرقاق الأسرى تعتبر أيضاً قائمة مقام السجن، وقد وردت أحكامها مفصلًا فى الفقه الإسلامى.

هـذه أشـكال بدائيـة وبسـيطة للسـجون، وقـد تغيرت وتعقّـدت بمرور الزمن واتسـاع المجتمـع الإسـلامى وتعقيـد الحيـاة وزيـادة عـدد المجرمين، وأصبح السجن على شكل بناء مخصص، وإن كان السجن موجوداً وبشكل كامل فى بلدانٍ اخرى وقبل قرون من الزمن.

أولُ سجن أُسّس زمن عمر بن الخطاب:

على الرغم من اصـرار بعض المؤرخين على عـدم وجود سـجن بمعنى المحـل الخاص لحجز المجرمين فى زمن الخلفاء الثلاثـة الأُوَل، وإن السـجن بُنى فى زمن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، إلّاأنّ هذا الادّعاء مخالف لكثير من الروايات التى ورد فيها أنّ «عمر» كان أول من أقدم على تأسيس السجن فى الإسلام.

والشاهد على هذا الأمر هو ما ذكره «ابن همان» فى كتاب «شرح فتح القدير» المصنف فى الفقه الحنفى حيث يقول:

«لم يكن السـجن موجوداً فى زمن النبى صـلى الله عليه و آله ولا زمن خلافة أبى بكر، بل كان المجرمون يُحجزون فى المسجد أو فى دهليز المنازل، حتى جاء «عمر» فاشترى بيتاً فى مكة بأربعة آلاف درهم وجعله سجناً «۱».

وقـد ذكر هـذا المطلب فى كتب أخرى أيضاً ككتاب «النظم الإسـلامية» وكتاب «الجنبات المتحـدة بين القانون والشـريعة»، فقـد صـرّح هؤلاء أنّ «عمر» اشترى تلك الـدار من «صـفوان بن أميّـة» أحـد زعماء مكـة، وقـد ذكر هـذا المطلب أيضاً فى كتاب «المهـذب» لأبى إسحاق

---

(۱) شرح فتح القدير، ج ۵، ص ۴۷۱.

الشيرازى، المصنف فى الفقه الشافعى، وأنّ عمر اشترى تلك الدار وبدّلها إلى سجن «۱».

ومن هنا نجـد أنّ بعض الشـعراء فى زمن الخليفـة الثانى قد ضـمنوا أشـعارهم ببعض الأبيات التى لم ترق للخليفة أو أنّها كانت مخالفة للشـرع فكان عمر يأمر بحبسـهم فى تلك السـجون، ولـذا نظم بعضـهم بعض الأبيات معتذراً ومبيناً براءته من التهمة، ومن مجموع هذه الأمور يتضح الشاهد الحى على وجود السجن فى زمن خلافة عمر.

ومن جملة هؤلاء الشعراء، «الحطيئة» الذى حبسه عمر فانشد هذين البيتين وأرسلهما إلى عمر:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخٍحُمرِ الحواصِل لا ماءٌ ولا شجرُ!

أَلْقَيتَ كاسِبَهُمْ فى قَعرِ مُظلمةٍفارحَمْ عليك سلامُ اللّه يا عُمَرُ!

ومن تعبيره «قعر مظلمة» بالخصوص يستفاد أنّ ذلك السجن كان عميقاً ومظلماً فكأنّه كان طامورة.

وهناك قرائن اخرى تدل على وجود مثل هذا السـجن فى زمن عمر، إذ مع اتساع رقعة العالم الإسـلامى يزداد عدد الجرائم والمجرمين لا محالة، فلا يمكن تصور عدم وجود سجن ومحبس للمجرمين.

السجن فى زمن أمير المؤمنين على عليه السلام:

والوجه الوحيـد الـذى يبقى للجمع بين كلام أولئـك الـذين نفوا وجود السـجن فىزمن عمر وبين كلام أولئك الـذين يصـرّون على وجـوده هـو أنّ عمر لم يقـدم على بنـاء السـجن وإنّمـا اكتفى بشـراء دار «صـفوان بن أميّـة» بأربعـة آلاف درهم واسـتفاد منه فى هـذا المضمار.

وأمّا فى عصـر أمير المؤمنين على عليه السـلام فإنّه أقدم شخصـياً على بناء السجن (لكى تراعى المسائل الإنسانية بشكل أفضل فى حق المسجونين، وللحدّ من فرارهم).

والظريف فى هذا المقام هو أنّ التواريخ نقلت أنّ الإمام عليه السلام بنى أولَّ سجن من «البوارى»

---

(۱) المهذب، ج ۲، ص ۲۹۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۷

لتوفير الاضاءة والتهوية الكافيتين وسمّاه «النافع» (ولعلّ هذه التسمية لأنّ الحبس كان من أجل تربية المجرمين وإصلاحهم)، ولكن وللاسف فإنّ بعض المجرمين استغلَّ شفقة الإمام عليه السلام وأساء الاستفادة من هذا السجن، فقام بعض اللصوص بثقب حائط ذلك السجن وهربوا منه، فاضطر الإمام عليه السلام إلى بناء سجن محكم من الطين وسمّاه «المخيَّس».

وكما أشرنا آنفاً فإنّ الدولة الإسلامية كانت قد اتسعت رقعتها فى زمن عمر بن الخطاب بشكل لا يمكن معه إدارة المجتمع دون وجود سجن للمجرمين، والظاهر أنّ الاصرار على انكار هذا الموضوع يعود إلى الأوضاع السياسية والتوصيات القومية، وإلّا فإنّ التاريخ يشهد هو الآخر على هذا الأمر مضافاً إلى قرائن الأوضاع والاحوال.

وعلى أيّة حال كان السجن فى ذلك الوقت مجرد محلٍّ لحجز المجرمين والمدينين والسارقين وأمثال هؤلاء، ولم يكن ذلك السجن محلًا للمخالفين السياسيين أبداً، فلو صار وجودهم مضراً فى المجتمع فإنّهم كانوا يرسلون إلى المنفى كما هو الحال فى قضية أبى ذر الغفارى التى نقرأها فى التاريخ، حيث إنّ عثمان وحاشيته لم يتحملوا صراحة لسان أبى ذر الذى كان على الدوام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاضطروا إلى نفيه إلى أرض وعرة بلا ماء ولا كلأ باسم «الربذة» وبقى هناك إلى أن ودّع دار الفناء وانتقل إلى جوار ربّه، ولكن سنرى أنّ السجن قد تغيّر جدّاً فى عصر بنى أمية وصار مقراً لاعتقال الخصوم السياسيين والمعارضين المؤمنين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

۲- فلسفة وأقسام السجون

اشارة

ينبع عشق الإنسان للحرية من عشقه الملتهب للتكامل والرقى، ولا يمكن لأىموجود سجين أن يستمر فى سيره التكاملى، وحتى الحيوانات تتغرب فى أقفاصها مهما تهيأت لها ظروف العيش فى تلك الأقفاص، فهى ترجح الحرية على أسر القفص وإن كانت الأخطار تهددها خارج القفص.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۸

ولهذا، فإنّ الحيوانات الاسيرة فى الأقفاص لا تبدى أى مظهر من مظاهر الفرح والراحة كالتغريد واللعب إلّاإذا كانت قد ولدت فى نفس تلك الأقفاص ولم تذق طعم الحرية.

وإذا كان ذلك غريزة كامنة فى الحيوانات، ففى الإنسان يتلاحم هذا الشعور العاطفى مع الإدراك العقلى، فيطلب الإنسان بالدليل والبرهان حريته، ولهذا الدليل نفسه يعتبر السجن وسلب الحرية منه نوعاً من أنواع العقاب الصعب والمُرِّ.

ولا شك فى أنّ أكثر السجون على طول التاريخ كانت تعبر عن أبشع صور الظلم من قبل الطغاة والحاقدين للوصول إلى مقاصدهم الدنيئة اللامشروعة، ولكن ذلك لا يمنع فى أن يكون للسجن فلسفة وأهميّة واقعية، وآثار إيجابية فى إصلاح الأفراد ومحاربة الفساد الاجتماعى.

فالاعتقال وسلب الحرية، يُعدُّ وسيلة ثقيلة للضغط على المسجونين لتحقيق أحد الامور العشرة التالية التى تشكل فلسفة الحبس.

۱- السجن الايذائى

هذا النوع من السجن يكون عادة للأشخاص الذين يرتكبون المخالفات، فالسجن يسلبهم الحرية ليقفوا على قبح أفعالهم، ويردعهم عن تكرارها فى المستقبل، ولكى يعتبر الآخرون بذلك. وهذا السجن موجود منذ القدم وحتى الآن، وكل حكومة لها مثل هذا السجن (إلّا فى بعض الموارد الاستثنائية).

۲- السجن الإصلاحى

وهذا السجن يستفاد منه لحبس الأفراد الذين يعتادون على الامور السيئة (كالمعتادين على المخدرات) والذين لا ينفع معهم النصح والإرشاد، فلا مهرب من حبسهم فى هذا السجن وعزلهم عن المجتمع لمدّة قصيرة أو طويلة، لإصلاحهم واجبارهم على ترك ما اعتادوا عليه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۹

۳- السجن الاحتياطى

كأن تحدث حادثة مهمة كمقتل نفس محترمة، ولم يُعرف القاتل ولكن يُتهم البعض بالقتل، وحينئذٍ لابدّ من التحقيق للتعرف على القاتل، ولمنع هروب المتهمين وعدم التمكن من القبض على القاتل بعد ثبوت الأدلة الكافية، لابدّ من توقيف المتهمين فترة التحقيق المؤقتة، فمن ثبتت براءته قدّم الاعتذار إليه وأُطلق سراحه، ومن ثبت جُرمه عوقب بالعقاب الذى يستحقه.

وهذا النوع من السجون كالأنواع السابقة كان ولا يزال موجوداً فى كل مكان تقريباً، ومن الطبيعى أنّ التحقيقات لابدّ أن تتمّ على وجه السرعة، إذ قد يكون المتهم بريئاً فى الواقع، فينبغى أن لا يبقى فترة طويلة فى الحبس.

۴- السجن التأديبى

وهذا السجن يُستفاد منه عادة فى حق الأطفال الذين لا تشملهم القوانين، والذين لو اطلق عنانهم لأساءوا استغلال الحرية الممنوحة لهم وسلكوا طريق الانحراف، ومن هنا كان لابدّ من ايداعهم فى مثل هذا السجن فى مقابل ارتكابهم بعض الذنوب. ليتم تأديبهم وتربيتهم.

۵- السجن السياسى

يطلق لفظ «السجين السياسى» على أولئك الأشخاص الذين يقومون بنشاطات سياسية معارضة لمصلحة المجتمع والنظام الحاكم، وقد تكون تلك النشاطات أحياناً غير معارضة لمصلحة المجتمع، بل قد تكون فى‌مصلحته ولكنها مخالفة لمطامع الحكم المتسلط على رقاب أبناء المجتمع (كالسجناء السياسيين فى أكثر البلاد هذا اليوم، حيث يتمّ حبس هؤلاء الأفراد حتى لو كان الحق معهم).

۶- السجن الاستحقاقى

ونقصد بالاستحقاق هنا، أخذ الحق، فمثلًا، لشخص على آخر دينٌ يمتنع عن أدائه إليه

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۰

مع أنّه متمكن من الأداء، فهنا قد يحبس المدين حتى يضطر إلى دفع ما عليه للدائن، ولكن هنا لابدّ من الافراج عنه فوراً بمجرد أن يقبل دفع حق الدائن إليه، لأنّ فلسفة الحبس تنتهى بهذا المقدار.

۷- سجن الحفظ

اشارة

وهذا السجن قد يوجد ولكن بندرة، وهو مورد بعض الأشخاص الذين اشتد غضب الناس عليهم إلى درجة أنّ وجود هؤلاء الأشخاص فى المجتمع يشكل خطراً على حياة الناس، فى حين أنّهم على فرض ارتكابهم ذنباً فإنّهم لا يستحقون الاعدام، ومن هنا تضطر الدولة وهى الحافظة لمصالح الناس إلى نقل هؤلاء الأشخاص إلى سجن معين حتى تهدأ ثائرة المجتمع ضدهم، ومتى ما عادت الأوضاع إلى حالتها الطبيعية اطلق سراح هؤلاء الأشخاص، وكما قلنا فإنّ مثل هذا السجن نادر التحقق، وقد تحققت مصاديقه فى حالات الثورات والانتفاضات الشعبية والحركات الاجتماعية.

ما ذكرناه من الاقسام السبعة أعلاه، فلسفة معقولة يمكن تصورها للسجن.

وفى قبال هذه الفلسفة المعقولة، توجد أهداف ومبررات لا معقولة وظالمة كانت العامل الأصلى لكثير من السجون فى دنيا الأمس واليوم ولا تزال، ويمكن هنا ذكر عدّة أنواع منها:

۱- السجن الانتقامى

سجن ليس له هدف معقول اطلاقاً، إلّاأنّ الجبّارين والظلمة والاقطاعيين وللانتقام من الاحرار والرعية حيث يحمل هؤلاء الجبّارون حقداً أعمى فى قلوبهم على الناس، فيلقون بهم فى السجون، وكم من شاهد من التاريخ أنّ بعض هؤلاء الناس يبقون فى تلك السجون حتى يموتوا وتتهرأ أجسادهم؟

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۱

۲- السجون المعدة لقمع التحرر

يحاول الجبّارون كسر روح المقاومة المعنوية أو الجسدية عند المناضلين الثائرين ضدهم، فيلقون بهم فى السجون لأجل ذلك، وأحياناً يكون الحبس توأماً مع الاهانة والتعذيب الروحى والجسدى، ومن الواضح أنّ الأفراد المقاومين الصامدين سيخرجون من هذه الحلبة سالمين غانمين، بل يزدادوا أحياناً صلابة وتجربة وعزيمة كالفولاذ الذى يصهر فى الحرارة فيصير أكثر صلابة ونقاءً، ولكن قد يؤثر هذا السجن سلباً فى‌بعض الأشخاص الضعفاء أو ممن هم فى مستوى متوسط من الإيمان والعزيمة، فنراهم بعد التحرر من السجن يغيرون مسيرحياتهم ويتركون نضالهم، وقد ينحرف بعضهم ويعمل ضمن أجهزة القطاع الظالم، وذلك للضغوط التى واجهوها فى السجن.

۳- السجن لعزل القيادة عن القاعدة

هذه السجون خاصة بقادة الدين والقادة السياسيين، حيث إنّ الجبّارين وعندما يضيقون ذرعاً بجهاد هؤلاء يحاولون التفكيك بينهم وبين قواعدهم ومؤيديهم، فيلقون بالقادة فى السجون، والملفت للنظر أنّ هذه السجون يكون لها فى أكثر الموارد نتيجة معكوسة بحيث تؤدى إلى زيادة الانسجام والتآلف بين القواعد والقيادات، فتعزز مكانة القادة فى قلوب مؤيديهم، وتزيد من جماهيريتهم.

۴- السجن لرفع المضايقات

أحياناً يكون وجود العالم، المخترع، القائد، أو أى فرد لائق، مزاحماً لوجود الحكام الجبّارين، فما يكون من الجبّارين إلّاأن يودعوا

هؤلاء فى السجون ليرتاحوا من مضايقاتهم ومزاحمتهم، ويستمروا فى تسلطهم وتجبّرهم دون مزاحم.

حتى أنّ التاريخ نقل لنا أنّ بعض الجبّارين قام بسجن أزواج نساء جميلات من دون ذنب سوى السيطرة على نسائهم!

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۲

۵- السجن بسبب النزاهة

ومن أعجب أنواع السجن على طول التاريخ، السجن الذى يبتلى به بعض الأشخاص بسبب نزاهتهم وبراءتهم، ولابدّ من الإلتفات إلى النزاهة والطهارة تعدُّ جُرماً فى المحيط الملوث بالذنوب والآثام!! لأنّ ذلك يؤدّى إلى افشال مخططات هؤلاء الملوثين، فكم من يوسفٍ على مرِّ التاريخ أودع السجن بذنب الطهر والعفة والرغبة عن الذنوب.

كما فى يوسف الذى دخل السجن بسبب طهارته وعفته.

ومن الواضح أنّ مثل هذه السجون التى ليس لها أية فلسفة عقلية وشرعية خارجة عن موضوع بحثنا، وإنّما أشرنا إليها للتوضيح والضرورة.

۳- السجن من وجهة نظر القرآن الكريم

لا شك فى أنّ كثيراً من الامور التى ذكرت فى فلسفة السجن أمور معقولة، وفى الواقع يعتبر السجن تبعاً لتلك الامور ضرورة اجتماعية، سواء كان لمعاقبة المجرمين أو كان لإصلاحهم وتأديبهم، أو كان لقطع خطرهم أو قطع جذور الفساد وغير ذلك من المسوغات، وقد وردت إشارات عديدة لهذا المعنى فى القرآن المجيد.

ولا يخفى أنّ الألفاظ التى تدل على مفهوم «السجن» كثيرة فى لغة العرب وقد استعملت فى القرآن والسنّة الشريفة، وبعض تلك الألفاظ بشكل واضح الدلالة على هذا المعنى، وبعضها قابل للبحث والنقاش.

ومن جملة المصطلحات، لفظة «السجن» التى وردت فى تسعة موارد فى آيات القرآن الكريم فى سورة يوسف بمناسبة حبس هذا النبى الكريم الطاهر «بنفسها أو بمشتقاتها».

واستعملت فى مورد واحدٍ فى قصة فرعون فى سورة الشعراء حيث خاطب فرعون موسى عليه السلام مهدداً ايّاه بالسجن وحكى هذا القول القرآن الكريم بقوله تعالى «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ اِلَهاً غَيْرِى لَاجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ». (الشعراء/ ۲۹)

فمن هذه التعبيرات يُستفاد أنّ السجن بمعناه الواقعى كان موجوداً فى عصر موسى وفرعون، وحتى قبل ذلك أى فى زمن يوسف وعزيز مصر، فكانوا يودعون المذنب والبرىء

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۳

فى السجن بحيث إنّ بعض السجناء كان يبقى سنوات عديدة حتى يأتى عليه النسيان.

والمصطلح الآخر هو «الحبس» الذى استعمل فى القرآن الكريم فى موردين، ولكن ليس فى معنى السجن، وإنّما استعمل فى هذا المعنى فى الأحاديث الإسلامية كثيراً «۱».

مصطلح «الإمساك» الذى استعمل فى مورد واحد فى القرآن المجيد بمعنى السجن، وهو مورد النساء اللاتى يأتين الفاحشة، وذلك قبل نزول حكم حدِّ الزنا (الجلد)، وقد ورد هذا التعبير فى الآية ۱۵ من سورة النساء وسيأتى تفصيل الكلام عنه لاحقاً.

مصطلح «النفى» عن «الأرض» الذى ورد فى الآية ۳۳ من سورة المائدة وفسّره البعض بالسجن.

وكذا مصطلح «الإرجاء» الذى ورد فى سورة الأعراف الآية ۱۱۱ فى قصة موسى وفرعون، حيث يعتقد البعض أنّه بمعنى السجن،

وذلك عندما اقترح ملأ فرعون عليه أن يرجىء موسى وأخاه هارون حتى يجمع السحرة، قال تعالى «قَالُوا ارْجِهْ وَاخَاهُ وَ ارسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ».

ولكن أغلب المفسرين لم يفسر الإرجاء بهذا المعنى، بل قالوا إنّ معناه التأخير، وبالالتفات إلى المعجزات التى جاء بها موسى أمام فرعون، واستعداد فرعون لنزال السحرة مع موسى، يستبعد جدّاً أن يكون فرعون قد حبس موسى وهارون عليهما السلام.

وعلى أيّة حال، فإنّ المتيقن أنّه يوجد فى القرآن المجيد مورد واحد على الأقل من موارد حكم السجن، وكما أشرنا آنفاً فإنّه ذكر بعبارة «الإمساك» حيث يقول عزوجل:

«وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسائِكُمْ فَاستَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَربَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَامْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوفَاهُنَّ الْمَوتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (النساء/ ۱۵)

والمعروف بين المفسرين هو أنّ هذه الآية ناظرة إلى عقاب النساء اللاتى يرتكبن الزنا، قبل نزول حكم حدِّ الزنا وهنا ذكر حكمهن وهو السجن المؤبد، وإن تبدل هذا الحكم فيما بعد إلى حكم الجلد أو الرجم.

---

(۱) راجع كتاب ميزان الحكمة ج ۲ ص ۲۴۶- ۲۵۱ للاطلاع على تلك الأحاديث، حيث ذكرت أبواب مختلفة فيمن يجوز حبسه ومن يحكم عليه بالحبس المؤبد وكذلك حقوق المحبوسين وموارد حرمة الحبس.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۴

وجملة «أَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَى يَتَوفَاهُنَّ الْمَوتُ»، وإن لم يذكر لفظ السجن فيها، ولكن الإمساك فى البيوت إلى آخر العمر أمرٌ شبيه بالسجن.

وهذا هو المورد الوحيد المتحقق فى القرآن حول حكم السجن.

۴- موارد السجن فى الروايات الإسلامية

اشارة

وردت فى الروايات الإسلامية موارد متعددة للسجن المؤبد وغيره، من جملتها:

۱- فى مورد الإعانة على القتل

إذا أمسك شخص شخصاً آخر فقتله ثالث، فحكم القاتل هو الإعدام، وحكم المعاون هو السجن المؤبد، وهذا الحكم مورد اتفاق وإجماع فقهائنا، وقد وردت روايات كثيرة فى المصادر المعتبرة تدل عليه.

ففى حديث عن الإمام على عليه السلام فى رجلين أمسك أحدهما بثالث فقتله الثانى، قال عليه السلام:

«يُقتل القاتل ويحبس الآخر حتى يموت غمّاً كما حَبَسه حتى مات غمّا» «۱».

۲- الأمر بالقتل

يرى الفقه الإسلامى أنّ الشخص إذا أمرَ آخراً بقتل ثالث برىء، لا يحق للمأمور أن يقتل ذلك البرىء حتى لو هدده الآمر بالقتل إذا لم يفعل، إذ لا تقية فى الدماء وما يقال من أنّ المأمور معذور لا أساس له من الصحة.

فلو أنّ شخصاً لم يعتقد بهذا الحكم الإسلامى، فقتل بريئاً حفظاً لنفسه من تهديد الآمر الظالم، فحكمه فى الإسلام هو القتل وحكم

الآمر هو السجن المؤبد!

قال الإمام الباقر عليه السلام فى حقّ مثل هذا الشخص: «يُحبَسُ الآمر بقتله حتى يموت» «۲».

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۹، ص ۳۵، ح ۱، الباب ۷ من أبواب قصاص النفس.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۲، ح ۱، الباب ۱۳ من أبواب القصاص.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۵

۳- فى مورد تكرر السرقة

يحكم فى مورد تكرر السرقة فى المرّة الثالثة بالسجن المؤبد على السارق، وقد نقل هذا الحكم بعض كبار أصحاب الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عنهما «۱».

۴- فى مورد المرتدة الفطرية:

إذا لم تتب، حيث يحكم عليها بالسجن المؤبد، وقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر والإمام الصّادق عليهما السلام:

«والمرأةُ إذا ارتدت عن الإسلام استتيبت فإن تابت وإلّا خُلِّدَتْ فى السجن» «۲».

وقد ذكرت موارد أخرى للسجن المؤبد، لابدّ من مطالعتها فى كتب الفقه المطولة.

وتختلف السجون المؤقتة التى لها جنبة تعزيرية، ويرتبط ذلك بميزان «الجرم» و «مقدار تحمّل المجرم» وشرائط أخرى.

والمتهمون بالقتل فى صورة خوف فرارهم، ومن يساعد القاتل على الفرار بعد ثبوت جرمه، والمرأة الحامل التى يثبت عليها الزنا والتى يحتمل فرارها والتى ينبغى أن تسجن حتى تضع حملها، والسارق من غير حرز، والمدين الذى يمتنع عن أداء دينه مع تمكنه من ذلك، وشهود الزور، ومن يكفل مجرماً فيسجن حتى يحضر المجرم إلى المحكمة، وكل من يرتكب منكراً ولا يتركه إلّاأن يحبس، كل هؤلاء من المساجين المؤقتين.

۵- التعامل الإنسانى مع المساجين

كما أشرنا سابقاً، فإنّه على الرغم من سوء استغلال موضوع السجن بشكل واسع وعلى مرّ التاريخ، فإنّ السجن من وجهة النظر الاجتماعية والإنسانية، أمرٌ ضرورى لمكافحة الجرائم والجنايات وتربية النفوس المريضة، ولكن بحدود وشروط معينة ومحسوبة!

أحد تلك الشروط، هو مراعاة المعاملة الإنسانية مع السجناء، فلابدّ من التعامل معهم على أساس أنّهم بشر، فينبغى ترك المضايقات الظالمة، وأن لا يحبس أحدٌ بذنب غيره، وأن

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۴۹۲، الباب الخامس من أبواب حدِّ السرقة.

(۲) المصدر السابق، ص ۵۴۹، الباب الرابع من أبواب حدِّ المرتد، ح ۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۶

لا يعاقب أحدٌ أكثر ممّا يستحق حتى لساعة، ولابدّ أن تكون كل البرامج فى سبيل تعليم وتربية السجين، وبتعبير آخر، ينبغى أن يكون السجن مركزاً للتربية والتهذيب لا مركزاً لتخريج المجرمين والحاقدين، فلابدّ أن يتصف السجن بمواصفات درس التربية.

ومن قصة النّبيّ يوسف عليه السلام ومدّة سجنه في مصر، يستفاد بشكل جيد أنّ تلك السجون كانت على درجة عالية من الظلم والإضطهاد بحيث أنّ بعض السجناء كان يبقى طيلة عمره في السجن، وفقط بعض المصادفات أو الحوادث غير المترقبة هي التي كانت تلفت انتباه الظلمة والحكام إلى السجناء، ولو لم تقع تلك الحادثة لبقي السجين إلى آخر عمره في السجن، بالضبط كما حصل ليوسف حيث إنّ الملك لو لم يرَ تلك الرؤيا ولو لم يعرف يوسف تفسير الأحلام، لما التمس عزيز مصر تفسير رؤياه من يوسف ولما بعث خلفه ولبقي يوسف، إلى آخر عمره في السجن، في حين أنّه لم يرتكب أي ذنب، وذنبه الوحيد هو طهارته وتقواه وعدم انصياعه لرغبات وأهواء زوجة عزيز مصر (زليخا)، وبطبيعة الحال فإنّ هذه التقوى والطهارة ليست ذنباً صغيراً في قاموس مثل هذه البيئة المنحطة المتسافلة!

والقرآن الكريم يحدثنا كيف أن يوسف الصديق حاول أن يحوّل بيئة السجن إلى محيط للتربية والتعليم والإصلاح، فكان يعلم السجناء درس التوحيد وعبادة اللَّه وهو أصل كل طهارة وحسن، فمتى ما سُئل يوسف عن مسألة بسيطة، أو طلب منه تفسير رؤيا عابرة، كان يطرح المعارف الإلهيّة ويبين المسائل التربوية للسجناء.

قال تعالى حكاية عن لسان يوسف:

«يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَارْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ امِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ* ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ الَّا اسْماءً سَمَّيْتُمُوهَا انْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا انْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطانٍ انِ الْحُكْمُ الَّا للَّهِ امَرَ الَّا تَعْبُدُوا الَّا ايَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». (يوسف/ ۳۹- ۴۰)

فصحيح أنّ يوسف عليه السلام كان سجيناً من السجناء، ولكن عمله ذلك كان دليلًا على أنّه لو كان على رأس السلطة لكان يمارس نفس العمل التربوي مع السجناء في محيط السجن بالأولوية، ولحوّل بيئة السجن إلى مركز للتعليم والتربية الإلهيّة، ولبذل كل جهده من أجل

استغلال الفرصة التي يمتلكها السجناء في السجن لإعادة النظر في تصرفاتهم السابقة وإعادة حساباتهم لبناء أنفسهم من جديد، وتبديل سلوكهم المنحرف إلى سلوك قويم.

وقد أثبتت لنا التجارب أنّ كثيراً من السجناء الأشرار الملوّثين بالذنوب والجرائم سرعان ما يتمّ إصلاحهم إذا ما وجدوا قريناً صالحاً يرشدهم إلى الطريق الصحيح، إذ إنّهم خارج السجن لم يكن لديهم الفرصة الكافية من أجل التفكير والتأمل في تصرفاتهم الفائتة وإعادة حساباتهم للمستقبل، فالسجن توفيق إجباري لمثل هؤلاء.

ونلاحظ في الروايات الإسلامية اهتمام الدين بحقوق السجناء ومنحهم الإجازات للاشتراك في صلاة الجمعة والإلتقاء بذويهم وأصدقائهم.

ومن جملة ذلك ماورد في حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام حيث يقول:

«عَلى الإمام أنْ يُخرجَ المُحْبسِين فِي الدّين، يَومَ الْجُمعَة إلى الجُمعَة، وَيَومَ العِيدِ إلى العِيد فَيُرسلُ مَعَهُم فَإذا قَضَوا الصّلاة وَالْعِيد رَدَّهُم إلى السِجن» «۱».

وينبغي الإلتفات إلى أنّ لكلٍّ من صلاة الجمعة والعيد خطبتان ولهما أثر بالغ في التربية.

وفي حديث آخر يتوسع أكثر من نطاق الأول، حيث ورد فيه: «إنّ علياً عليه السلام كان يخرج أهل السجون- مَنْ حُبِسَ في دَيْنٍ، أو تُهْمَه- إلى الجمعة فيشهدونها ويُضمنهُمْ الاولياء حتى يَردُّوهمْ» «۲».

كما ويستفاد من حديث آخر أنّ علياً عليه السلام كان كل جمعة يتفقد السجن والسجناء بنفسه، فيجري الحدَّ على أولئك الذين ينتظرون إجراء الحدِّ عليهم (ويطلقهم) ويطلق من ليس عليه حدَّ «۳».

ومن خلال الآيات والروايات والأحكام الواردة في هذا المجال يمكن استنباط وتنظيم إرشادات جامعة، من نماذجها:

۱- عندما القى القبض على عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام على عليه السلام وأودع السجن،

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۲۲۱، باب من يجوز حبسه، ح ۲.

(۲) المستدرک، ج ۱۷، ص ۴۰۳، ح ۱.

(۳) ميزان الحكمة، ج ۲، ص ۲۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۸

أوصى الإمام عليه السلام بمداراته والإهتمام به، ومن جملة وصاياه لأولاده فى حق ابن ملجم، قال:

«أطعموه واسقُوه وأحسنوا أسارَهُ» «۱».

والمعروف هو أنّ الإمام عليه السلام بعد أن ضربه ابن ملجم على رأسه الشريف فشقّه ورقد الإمام عليه السلام فى الفراش يغمى عليه أحياناً ويفيق أحياناً، ناوله الإمام الحسن عليه السلام قعباً من لبن، فشرب منه قليلًا ثم نحّاه عن فيه وقال: إحملوه إلى أسيركم، ثم قال للحسن عليه السلام: بحقّى عليك يا بنى إلّاما طيبتم مطعمه ومشربه ... «۲».

ويروى العلّامة المجلسى حديثاً آخر، وذلك عندما جيء بابن ملجم إلى الإمام على عليه السلام فتكلم معه الإمام بكلام ثم قال لولده الإمام الحسن عليه السلام: «ارْفِقْ يا وَلَدى بِاسيرِكَ وَارْحَمْهُ وَاحْسِنْ الَيْهِ وَاشْفِقْ عَلَيْهِ، الا تَرى الى عَيْنَيْهِ قدْ طارَتا الى امِّ رَأْسِهِ وَقَلْبُهُ يَرْجِفُ خَوْفاً ورُعباً وَفَزَعاً، فَقالَ لَهُ الْحَسَنُ عليه السلام يا اباهُ! قَدْ قَتَلَكَ هذَا اللَّعينُ الْفاجِرُ وَافْجَعَنا فيكَ وَانْتَ تَأْمُرُنا بِالرِّفْقِ بِهِ؟! فَقالَ لَهُ نَعَمْ يا بُنَىَّ نَحْنُ اهْلُ بَيْتٍ لا نَزْدادُ عَلَى الذَّنْبِ الَيْنا الّا كَرَماً وَعَفْواً وَرَحْمَةً وَالشَّفَقَةُ مِنْ شيمَتِنا لا مِنْ شيمَتِهِ، بَحَقّى عَلَيْكَ فَاطْعِمْهُ يا بُنَىَّ مِمّا تَأْكُلُهُ، وَاسْقِهِ مِمّا تَشْرَبهُ وَلا تُقَيّدْ لَهُ قَدَماً، وَلا تَغُلَّ لَهُ يَداً» «۳».

۲- يقول المرحوم الشيخ الطوسى فى كتاب الخلاف: من أمسك بصبى صغير وحبسه، فسقط عليه جدار، أو قتله حيوان مفترس، أو لدغهُ عقرب أو ثعبان فمات، فهو ضامن لدمه، ثم يقول الطوسى بعد ذلك: «دليلنا إجماع الفرقة وأخبارهم» «۴».

فمن هذه العبارة يستفاد ضرورة كون السجن مأموناً ونظيفاً فلو مات السجين بسبب عدم تحقق ذلك فدمه مضمون.

۳- ونقل المرحوم الشيخ الطوسى فى كتابه «المبسوط» عن بعض الفقهاء، لو سجن شخصاً فى غرفة واغلق عليه الباب فاختنق ومات فهو ضامن لديته «۵».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴۲، ص ۲۳۹.

(۲) بحار الأنوار، ج ۴۲، ص ۲۸۹.

(۳) المصدر السابق، ص ۲۸۷- ۸۸.

(۴) كتاب الخلاف، ج ۳، ص ۹۴، (كتاب الجنايات، المسألة ۱۹).

(۵) أحكام السجن فى الإسلام، ص ۲۶۳ (فارسى).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۹

ونفس هذا الكلام قيل فى مورد الجوع ونحوه.

ومن مجموع ذلك يستفاد تأمين الغذاء ومراعاة التهوية الكافية فى السجن كى لا تتعرض حياة السجين وسلامته للخطر.

۴- ذكر كثيرٌ من الفقهاء فى بحث آداب القاضى، أنّ على القاضى إذا دخل المدينة أن يطالع أحوال السجناء وملفاتهم ويحقق فيها ويدرسها بشكل جيد، ليطلق من انتهت فترة محكوميته أو حُبس بلا دليل كافٍ، فوراً.

وصرح بعض الفقهاء أنّ على القاضى حين وصوله إلى المدينة أن يعلن للملأ بأنّه سيدرس قضايا السجناء فى موعدٍ يعينه لهم ليتسنى

لذوى السجناء الحضور ساعة التحقيق، وعندما يحضر أطراف النزاع يقرأ أسماء السجناء واحداً بعد الآخر.

ويسألهم عن علة حبسهم، ثم يسأل من طرف الدعوى الآخر، فإن كان عنده دليل مقنع على حبسه، ردّه إلى السجن، وإن لم يكن هناك مدعٍ، أعلن عن إسمه ليأتى من يدعى عليه شيئاً ويطرح دعواه عند القاضى، وإلّا أطلق صراحه «۱».

۶- الطرح التّاريخى لأبى يوسف لحماية السّجناء

يعتبر العصر العباسى من فترات التّاريخ الإسلامى المظلمة، واحد الشّواهد الحيّة على ذلك هو ازدياد عدد السّجون والضّغط الشدّيد على السّجناء، واعتقال الأبرياء بتهم واهية، وتعذيب القرون الوسطى.

لقد تسربت أخبار هذه السّجون الرهيبة إلى الخارج على الرّغم من التعتيم الشّديد من الحاكم فىذلك العصر، حتى تعالت صرخات النّاس من هنا وهناك، وطالبت العلماء فى ذلك الوقت للتدّخل فى الأمر لوضع حد لهذا الإرهاب والظّلم.

ومن جملة الأمور الايجابية التى تحققت فى هذا المجال، الطرح الذى قدمّهُ أبو يوسف

---

(۱) جواهر الفلاح، ج ۴، ص ۷۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۰

نفحات القرآن ج ۱۰ ۲۴۹

الفقيه السّنى المعروف وتلميذ أبى حنيفة، حيث إنّ هارون الرّشيد ومن أجل أنْ يكمَّ أفواه المعارضين طلب من أبى يوسف أنْ يكتب طرحاً فى كيفية التعامل مع السّجناء من وجهة النّظر الإسلاميّة والفقه الإسلامى، وقد أكدَّ هارون الرّشيد على كيفية التعامل مع السّارقين والأشرار والمخالفين عندما يلقى عليهم القبض، وإنّه هل يجب تهيئة الطّعام لهم؟ وإن كان واجباً فهل يجب أخذه من مورد الزكاة أم من محل آخر؟ وكيف يتعامل معهم بنحو كلى؟

ومن الواضح أنّ هارون الرشيد لم يكن يهمه أمر السّجناء وإنّما اضطره الضّغط الجماهيرى لذلك.

فكتب أبو يوسف طرحاً مفصلًا وموسعاً فىهذا المجال وأرسله إلى هارون الرّشيد وكان طرحه متسماً بالصّراحة والشّجاعة فى عدّة موارد من فقراته، وقرن ذلك بالإنتقاد الشّديد للوضع الرّاهن حينذاك من دون أن يحدد الإجابة بالموارد التى أرادها لهارون الرّشيد، لإنّه كان يعلم جيداً بأنّ أكثر سجناء الحكم العباسى هم من السّياسيين!

وتتلخص هذه الرّسالة التّاريخية بإثنتى عشرة فقرة نذكرها هنا:

۱- إذا لم يكن للسجناء شىء ممّا يأكلون منه، فيجب أن يُصرف عليهم من الزكاة أو «حق الفقراء» أو من بيت المال أو من «الأموال العامة».

۲- يجب أن يصرف على أى من السجناء مبلغ من بيتالمال وذلك لتأمين قوتهم، ويحرم عدا ذلك.

۳- واعلم أنّ الأسير من أسرى المشركين لابدّ وأن يُطعم ويُحسن إليه حتى يحكم فيه، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب أيترك ليموت جوعاً؟

۴- ولم تزل الخلفاء، يا أيّها الخليفة تجرى على أهل السجون ما يقوتهم فى طعامهم وكسوتهم فى الشتاء والصيف، وأول من فعل ذلك الإمام على بن ابى طالب عليه السلام وحذا من جاء بعده حذوه.

وحدثنى بعض الرواة، حيث قالوا: إنّ عمر بن عبدالعزيز كتب إلينا ما نصه: لا تدعن فى سجونكم أحداً من المسلمين فى وثاق لا يستطيع أن يصلى قائماً، ولا يبيتن فى قيد إلّا رجلًا مطلوباً بدم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۱

۵- أوصى بأنّ تدفعوا للسجناء دراهم فى كل شهر، فإنّك إن أعطيتهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة فلايصل إليهم شىء.

«و هنا كشف أبو يوسف اللثام عن فساد ولاة السجون فى زمان خلافة بنى العباس واوضح ذلك بكل جلاء».

۶- ووَلَّ رجلًا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء مَن فى السجن فتجرى عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده ويكون للأجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد.

۷- سمعت أنّ بعض السجناء يغلون بالسلاسل كى يتصدق عليهم الناس، فإنّ هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا واخطأوا وقضى اللَّه عليهم ما هم فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدقون، وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الإسلام؟

وإنّما صاروا إلى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فربّما أصابوا مايأكلون وربّما لم يصيبوا «وهذه من المصائب الكبرى .

۸- ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة يغسل ويكفن من بيت‌المال ويصلى عليه ويدفن.

وقد بلغنى وأخبرنى به الثقات أنّه ربّما مات منهم الميت الغريب فيمكث فى السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم وما يتصدقون ويكنزون لمن يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة عليه، فما أعظم هذا فى الإسلام وأهله.

۹- ولو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ولخاف الفساق وأهل الدعارة ولتناهوا عمّا هم عليه، وإنّما يكثر أهل الحبس لقلة النظر فى أمرهم، فأمُر ولاتك جميعاً بالنظر فى أمر المساجين، فمن كان عليه أدب أُدب وأُطلق، ومن لم يكن له قضية خلى عنه.

۱۰- وعليهم أن لا يسرفوا فى الأدب ولا يتجاوزوا بذلك إلى ما لا يحل ولا يسع، فإنّه

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۲

بلغنى أنّهم يضربون الرجل فى التهمة وفى الجناية الثلاثمائة والمائتين ضربة وأكثر أو أقل، وهذا ممّا لا يجوز ولا يحل فى الإسلام، فظهر المؤمن حمىً ولا يجوز أذيته.

۱۱- كل من أتى بما يجب عليه الحد أو القصاص وقامت عليه البيّنة بذلك، يجب أن تقام عليه الحدود الإسلامية، فمن جُرح منهم جراحة فى مثلها قصاص، وقامت عليه البينة بذلك، قِيسَ جرحُه واقتُصَّ منه إلّاأن يعفو المجنى عليه، فإن اقتُصَّ منه أو عَفا عنه صاحب الدم، فيطلق سراحه ولا يبقى فى السجن.

۱۲- إذا لم يستطع الجانى تحمل القصاص حكم عليه بالأرش واطيل حبسه حتى يحدث توبه ثم يخلى سبيله «۱».

فهذه الرسالة التاريخية تحكى عن رؤية فقيه عاصر العباسيين عن أحكام الإسلام فى السجناء، ويمكن أن تكون نموذجاً صغيراً من مجموعة كبيرة من الشواهد والأدلة على التعليمات الإسلامية فى هذا المجال.

---

(۱) كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف، ص ۱۴۹- بتصرُّف.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۳

الحسبة والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر

تمهيد:

إنّ قيمة أى قانون مرتبطة بميزان إجرائه، فأفضل القوانين إذا لم تطبق على الأرض لا تعدو أن تكون مجرّد حبر على ورق، ولا تحلُّ أى مشكلة من مشاكل المجتمع، وبالعكس فإن أضعف القوانين إذا طبقت بشكل جيد ودقيق فإنّه يمكنها أن تحلَّ كثيراً من مشكلاته. ولهذا، وردت فى الإسلام، والحكومة الإسلامية برامج موسعة وكثيرة لضمان إجراء القوانين والحدّ من التّخلف عنها، وهذه البرامج تشتمل على الأمور التّالية:

۱- الجهاز القضائى.

۲- وظيفة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

۳- مسألة الحسبة.

وقد تكلمنا بالمقدار الكافى حول وظائف الجهاز القضائى وإجراء الحدود والتّعزيرات، والآن نكرس الكلام للبحث فى مسألة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر وموضوع الحسبة.

يعتبر إجراء الحدود والحسبة فى الواقع من فروع الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، لإننا نعلم بأنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر له ثلاث مراحل، إثنتان منها وظيفة عامة النّاس بنحو الواجب الكفائى، ومرحلة واحدة من وظائف الحكومة، والمراحل هى:

۱- الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر بالقلب (أى أنْ يتأذى القلب من المخالفات والذنوب التى يرتكبها الآخرون، ويميل إلى الخير والصلاح، (وقال البعض أنّ المقصود من

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۴

هذه المرحلة هو أن يظهر انزجاره أو ميله القلبيين بوجهه أو عمله بصورة قطيعة أو صلح للمرتكبين) وهذه وظيفة عامة الناس فى‌قبال ترك الواجبات والإتيان بالمحرمات.

۲- الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر باللسان، ويكون إبتداءً بالكلمات اللطيفة اللينة الحبيبة والوعظ والحكمة، ثم بالكلمات الحادّة الخشنة (وهى وظيفة عامة النّاس أيضاً).

۳- الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر باليد، وبتعبير آخر اتخاذ الأجراءات العملية والقاسية أحياناً فى قبال تاركى الواجبات ومرتكبى المحرمات سواءً عن طريق العقاب البدنى أو الحبس أو الأعمال المشابهة الاخرى

وكما قلنا فى الابحاث الفقهيّة فإنّ هذه المرحلة من وظائف الحكومة الإسلامية ولا يمكن أن يسمح للناس بالقيام بها، لأنّ ذلك يؤدّى إلى وقوع الهرج والمرج وأنواع الفوضى الاخرى

وهذا الأمر هو بالضّبط ما جاء بعنوان وظيفة الحسبة فى الفقه الإسلامى وكلمات الفقهاء ومؤرخى الإسلام.

وبعد هذه الإشارة نرجع إلى الآيات القرآنيّة فى هذا المضمون:

۱- «كُنْتُمْ خَيْرَ امَّةٍ اخْرِجَتْ لِلْنَاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللَّهِ». (آل عمران/ ۱۱۰)

۲- «وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ امَّةٌ يَدْعُونَ الَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (آل عمران/ ۱۰۴)

۳- «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ اهْلِ الْكِتَابِ امَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَاولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ». (آل عمران/ ۱۱۳- ۱۱۴)

۴- «وَالْمُؤْمِنُونَ والْمُؤمِنَاتُ بَعْضُهُمْ اوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۵

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ اولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ انَّ اللَّهَعَزِيزٌ حَكِيمٌ». (التوبة/ ۷۱)

۵- «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ». (التوبة/ ۱۱۲)

۶- «الَّذِين انْ مَّكّنَاهُمْ فِى الارْضِ أَقامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَامَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الامُورِ». (الحج/ ۴۱)

۷- «يَا بُنَىَّ اقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا اصَابَكَ انَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الامُورِ». (لقمان/ ۱۷)

جمع الآيات و تفسيرها

خطوة مهمة فى طريق إجراء الأحكام:

ما جاء فى هذه الآيات هو أكثر ما جاء من آيات القرآن المجيد فى خصوص فريضة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر المهمّة، والتى تبين أبعادها المختلفة.

فالآية الأولى تصوّر الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر بعنوان أمرٍ عام وتعتبره من خصائص الأمة الإسلامية، لا بمعنى أنّه لم يوجد فى الأمم السابقة أصلًا، بل بمعنى أنّه يعدُّ أصلًا أصيلًا فى الأمة الإسلاميّة وركناً ركينا فيها حيث يقول: «كُنْتُمْ خَيْرَ امَّةٍ اخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللَّهِ».

والملفت للنظر أنّها من جهة تعتبر الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر خصوصيّة من الخصائص التى أدّت إلى أفضلية الإسلام على سائر الأديان وأنّ الأمّة الإسلامية هى الأمّة النموذجية المثلى ومن جهة أُخرى تقدم هذه الوظيفة على الإيمان باللَّه! وهذا يدل على أنّه إذا لم تؤدّ هذه الوظيفة على المستوى العام بصورة أصلين أساسيّين اجتماعيين، فلا ضمان لاستمرار إيمان الناس.

نعم، فهو كذلك، فلو نُسِيتَ هاتان الوظيفتان، ضعف الإيمان فى القلوب، وذبلت غصونه

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۶

وأوراقه، والنّتيجة هى اضمحلال الإيمان والإسلام.

ثُمّ إنّه من هذا البيان يتضح جيداً أنّ المسلمين إنّما يكونون أُمّة متميزة وممتازة ما داموا يدعون إلى الخير والصلاح ويجاهدون المنكر والفساد، فإذا ما نسوا ذلك لم يعودوا خير أمة ولم يترشح منهم النفع للمجتمع البشرى!

نعم .. فالمسلمون إنّما يمكنهم أن يكونوا قادة الأمم فى العالم وأن تستفيد البشريّة جمعاء من وجودهم، فيما لو طبقوا هاتين الوظيفتين الكبيرتين.

وبتعبير آخر: كل واحدٍ من أفراد الأمة الإسلاميّة، لابدّ أن يشعر بالمسؤولية، وخلافاً لما نراه اليوم حيث توكل مسؤولية مكافحة الفساد إلى مجموعة معينة من المأمورين الحكوميين ويبقى سائر أفراد المجتمع فى حلٍّ من تحمل هذه المسؤولية الاجتماعيّة المهمّة فيبقون متفرجين على الممارسات الاجتماعية السلبية بلاحراك.

فالآية تؤكد على أنّ هذه المسؤولية مسؤولية عامة لابدّ أن يتحملها الصغير والكبير، الشّاب والشّيخ والرّجل والمرأة والعالم والجاهل.

واستعمال كلمة «المعروف» و «المنكر» فى الآية لنكتة مهمة أُخرى، إذ هى من جهة، تبيّن أنّ الواجبات والمحرمات امورٌ يدركها ويعرفها عقل الإنسان وروحه جيداً، فهو يعشق الواجبات، فى حين أنّ المنكرات أُمور بعيدة عن ذوقه فهو يجهلها وينفر منها.

ومن جهة أخرى، فإنّ من البديهى إننا لو نسينا هاتين الوظيفتين واعتاد المحيط على المنكرات والبعد عن الخير والمعروف، صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً فى نظر الناس، وهذه أكبر خسارة يمكن أن يتحملها مجتمع من المجتمعات، وهذا البلاء هو الذى عمَّ اليوم كثيراً من المجتمعات العالمية، حيث تبدل المعروف عندهم منكراً والمنكر معروفاً!

والآية الثانية ناظرة إلى قسم آخر من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتى تختص

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۷

بها مجموعة من الامّة الإسلاميّة، وبتعبير آخر هى مختصة بالحكومة وموظفى الحكومة حيث ورد فيها: «وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ امَّةٌ يَدْعُونَ الَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وعندما نضع هذه الآية فى قبال الآية السّابقة نجد أنّ الآية السّابقة تتحدث عن مرحلة من مراحل هاتين الوظيفتين المهمتين غير المرحلة التى تتحدث عنها هذه الآية، فتلك مرحلة القلب واللسان وهذه مرحلة استخدام القوة والشدَّة، والملفت للنظر هو أنّ هذه الآية تحصر الفلاح بأولئك الأشخاص الّذين يؤدون هاتين الوظيفتين العظيمتين (إلتفتوا إلى أنّ جملة أولئك هم المفلحون تدل على الحصر) «۱».

والتعبير بالأمَّة، قد يكون إشارة إلى أنّ هذه الوظيفة لابدّ أنْ تؤدّى بصورة «جماعية»، وأن تكون مقترنة «بمنهج تنظيم»، ونحن نعلم بأنّ الأمور الّتى تحتاج إلى شدة والتى تؤدّى من قبل الحكومة لا تكون ممكنة بغير الشّرطين.

وذيل الآية يبيّن بوضوح أنّ كل فلاح ونجاح فى الدّنيا والآخرة وفى الفرد والمجتمع، لا يتحقق إلّافى ظل هاتين الوظيفتين.

وفى الآية الثّالثة، إشارة إلى نكتة ظريفة اخرى فى مجال هاتين الوظيفتين العظيمتين، تتضح لنا من خلال دراسة سبب النزول.

فقد ورد فى سبب نزول هذه الآية أنّ مجموعة من علماء وأخبار اليهود كانوا قد أسلموا والتحقوا بصفوف المسلمين، ممّا أدّى إلى غضب زعماء اليهود جدّاً، فمن أجل إذلال وتحقير هؤلاء المؤمنين ادّعى زعماء اليهود أنّ ثلّة من أشرارهم قد اعتنقوا الإسلام وإنّهم لو كانوا صالحين ما تركوا دينهم!!

---

(۱) ما قاله البعض من أنّ «من» التى وردت فى الآية زائدة أو أنّها للبيان، وأنّ مفهوم الآية شاملٌ لكل المؤمنين، مخالف لظاهر الآية، فالظاهر منها هو أنّ «من» تبعيضية، أى أنّه يجب على مجموعة منكم فقط القيام بهذه الوظيفة.

وكذلك فإنّ ما قاله البعض من أنّ «من» تبعيضية للواجب الكفائى، مخالف للظاهر أيضاً، لأنّ الواجب الكفائى واجب على الجميع، غايته أنّ نوع الوجوب فيه يختلف عن نوع الواجب العينى (وتوضيح ذلك موكول إلى علم الأصول).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۸

فالآية المذكورة أعلاه تجيب هؤلاء وتقول: «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ اهْلِ الْكِتابِ امَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِى الْخَيْراتِ وَاولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ».

فالآية تلخص خصائص الصّالحين من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام فى ثلاثة أمور: الإيمان بالمبدأ والمعاد، ثُمّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وفى النّهاية المسارعة فى الخيرات. وهذا يدل على أنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر يعدُّ من أبرز مظاهر الصّالحين بعد الإيمان باللَّه ويوم القيامة، وأنّه أصل كل الخير.

وفى الآية الرّابعة، يعتبر الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر أول خصوصيّة من خصائص المؤمنين، حتّى أنّ إقامة الصلاة وأداء الزّكاة وإطاعة اللَّه والنّبىّ صلى الله عليه و آله جاءت بعدها، وهذا يدل على أنّ هاتين الوظيفتين العظيمتين إذا لم تطبقاً، فإنّ أساس العبادة والطّاعة وعبوديّة اللَّه تتعرض للخطر.

يقول اللَّه تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ اوْلَياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ اولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ انَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

وقد احْتُمِلَت عدّة أمور فى تفسير جملة «بَعْضُهُمْ اوْلِياءُ بَعْضٍ»، من جملتها أنّ هؤلاء منسجمون فى الإيمان باللَّه ومبانى الإسلام- والآخر هو أنّ أحدهم ينصر الآخر فى امور الدين والدنيا، والثّالث هو أنّ هؤلاء بالتّعليم والتّربية يخرجون الآخرين صوب درجات الكمال العالية.

ومن الواضح أنّ هذه التفسيرات الثّلاثة لا منافاة فيما بينها، ويمكن أن تجتمع فى مفهوم الآية، لأنّ الولاية فى الآية جاءت مطلقة فتشمل ارتباط المؤمنين ببعضهم فى أبعادٍ مختلفة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۹

وفی الآیـة الخامسـة وبعد ذکر التجارة المربحة التی یتّجر بها المؤمنون الحقیقیون مع اللّه، أی الجهاد فی سبیله، حیث یشـرون أنفسـهم وأموالهم بالجنـة الغالیة، وبعد بیان أنّ اللّه عزّوجلّ یبارک لهم هذه المعاملة ویعدها فوزاً عظیماً، یلخّص أوصاف هؤلاء فی تسـعة أمور ویقول: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاکِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِینَ».

وفی الواقع فإنّ الأوصاف السّتة المذکورة أوّلًا، إشارة إلی مراحل العبادة والطّاعة والعبودیّة فی هؤلاء، والأوصاف الثّلاثة الأخیرة (وهی الأمر بـالمعروف والنّهی عن المنکر وحفـظ الحـدود) إشارة إلی جهاد هؤلاء الاجتماعی فی طریق إرساء مبانی الحق والعدالـة وإجراء الأحکام الإلهیّة، وبعد هذه الأمور جاءت البشارة الإلهیّة لهم بشکل مطلق.

وبتعبیر آخر، فإنّ الأوصاف الستة الاولی ناظرة إلی علاقة الخلق بالخالق، والثّلاثة الأخیرة ناظرة إلی علاقة الخلق بأنفسهم وهذه البشارة الّتی ذکرت فی آخر الأمر تشمل سعادة الدّنیا وسعادة الآخرة معاً.

وفی الآیـة السّادسـة، إشارة إلی بُعدٍ آخر من هـذه المسألـة وهو البعـد الحکومتی، وبتعبیر آخر تعتبر الآیـة الأمر بالمعروف والنّهی عن المنکر أحد وظائف الحکّام الإسلامیین المهمّة، حیث یقول عزّوجلّ:

«الَّذِینَ انْ مَکَّنَّاهُمْ فِی الارْضِ أَقامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّکاةَ وَامَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْکَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الامُورِ».

وفی الحقیقة فإنّ الوعد بنصـر اللّه، الوارد فی الآیة السّابقة لهذه الآیة «ولَیَنْصُـرَنَّ اللَّهُ مَنْ یَنْصُـرُهُ» مختصة بمثل هؤلاء الأشـخاص، الذین إذا ما تسـلموا زمام القـدرة والحکم فی الأرض فإنّهم مضافاً إلی أدائهم الصّلاة وحدهم، یقیمونها أیضاً فی کل مکان، ویؤتون الزکاة لمستحقیها، ویأمرون بالمعروف وینهون عن المنکر.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۰

هـذا علی الرّغم من أنّ البعض یتصور أنّ مراد الآیـة، المهـاجرون فقط، ولکن من الواضـح أنّ الآیـة الشّـریفة لها مفهوم أوسع وتشـمل الجمیع حتی قیام القیامة.

والنکتـة التی لابدّ من الإلتفات إلیها أیضاً هی أنّ القرآن الکریم غالباً ما یعبر بلفظ «الإقامة» فی خصوص الصّلاة إلّافی مورد المنافقین حیث عبر بالقیام بدل الإقامة، حیث یقول واصفاً إیّاهم، «وَإِذَا قَامُوا الَی الصَّلَاةِ قَامُوا کُسَالی . (النّساء/ ۱۴۲)

وهـذا التعبیر قـد یکون إشـارة إلی أنّ المؤمنین الحقیقیین لا یؤدّون الصـلاة بأنفسـهم فحسب، بل إنّهم یحاولون إقامـة الصـلاة فی کل المجتمع، وقال البعض إنّ ذلک إشارة إلی أنّ هؤلاء المؤمنین لیس فقط یأتون بظاهر الصّلاة وصورتها بل إنّهم یحاولون إقامة الصلاة بکل محتواها الحقیقی وشرائط صحتها وکمالها (والجمع بین هذین التفسیرین لیس مشکلًا).

وفی الآیـة السّابعـة والأـخیرة نلاحـظ نکتـة اخری حول الأـمر بالمعروف والنّهی عن المنکر، وهی أنّ هـذین الأمرین المهمین لیسا من مختصات الشـریعة الإسـلامیة فقط، بل إنّ هناک تأکید شدید علیهما فی الأمم السّالفة أیضاً (وإن کانتا قد أخذتا شکلًا موسعاً وأساسیاً فی الشّریعة الإسلامیّة).

فینقل لنا القرآن الکریم عن لسان لقمان ذلک الرّجل الحکیم العالم:

«یَا بُنَیَّ اقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنکَرِ وَاصْبِرْ عَلَی ما اصَابَکَ انَّ ذلِکَ مِنْ عَزْمِ الامُورِ».

فهنا اعتبرت الآیة أنّ رمز انتصار الإنسان فی أربعة أُمور:

إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف، النّهی عن المنکر، والصّبر.

وجملة «إِن ذَلِکَ مِنْ عَزمِ الأمُورِ» قد تکون إشارة إلی خصوص الصبر المذکور فی الذیل، وقد تکون شاملة للاصول الأربعة جمیعاً.

ولابدّ هنا من التدقیق فی هذه النّکتة وهی أنّ اقتران الصّبر بمسألة الأمر بالمعروف

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۱

والنّهى عن المنكر إشارة إلى الارتباط الوثيق بين هذين الأمرين، إذ إنّ أداء هاتين الوظيفتين الإلهيتين المهمتين يقترن أحياناً بالمشاكل والصعوبات، ولا يمكن تحقق الأمر بالمعروف، والنّهى عن المنكر إلّابالصّبر والإستقامة. كما أنّ هذين الأمرين على ارتباط وثيق أيضاً بالصلاة، لإننا نعلم جيداً بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أو بتعبير آخر هى الأساس الأصلى للأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحشَاءِ والمُنكَرِ». (العنكبوت/ ۴۵)

الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى الروايات:

نلاحظ فى الروايات أيضاً تأكيداً كبيراً على هاتين الوظيفتين المهمتين، وتعتبرهما الضّامن لإجراء كلّ الفرائض الإلهيّة والسّبب الرئيس فى الأمن والأمان وتحقيق العدالة.

۱- ورد فى حديث عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَنْ أمَرَ بالمعروفِ ونهى عن المنكرِ فهو خَليفَةُ اللَّه فى أرضِهِ، وخليفةُ رسول اللَّهِ وخليفةُ كِتابِهِ» «۱».

۲- وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله نلاحظ تعبيراً أوضح، حيث كان النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله على المنبر فقام إليه رجل وقال: يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَنْ خير النّاس؟» فقال النّبى صلى الله عليه و آله: «آمَرَهُمْ بالمعروفِ وأنهاهُمْ عن المُنكر وأتقاهم للَّهوأرضاهم» «۲».

۳- وفى حديث آخر عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «لتأمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهُنَّ عَن المُنكر أو لَيَعُمَنَّكُمْ عذابُ اللَّه» «۳».

۴- وفى حديث معروف أيضاً عن على عليه السلام قال: «وما أعمال البرّ كلّها والجهاد فى سبيل اللَّه عِنْدَ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر إلّاكنفثةٍ فى بحرٍ لُجىّ» «۴».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۲، ص ۴۸۴، ذيل الآية ۱۰۴ من سورة آل عمران.

(۲) المصدر السابق.

(۳) وسائل الشّيعة، ج ۱۱، ص ۴۰۷، ح ۱۲، الباب ۳ من أبواب الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

(۴) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۳۷۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۲

۵- وأخيراً نقرأ عن الإمام الباقر عليه السلام بياناً لفلسفة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى كلام مختصر مفيد حيث يقول عليه السلام: «إنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنّهىَ عَنْ المُنكر فريضةٌ عظيمةٌ بها تُقامُ الفرائِضُ وتأمنُ المذاهبُ وتحلُّ المكاسبُ وتُردُّ المظالم وتعمُرُ الأرضُ ويُنتَصَفُ من الاعداء ويَستَقيم الأمر» «۱».

والأحاديث الواردة عن أئمّة الدين الإسلامى عليهم السلام فى هذا المجال كثيرة جدّاً إلى درجة أنّها لو جمعت لصارت كتاباً مستقلًا.

وهنا ينبغى الإلتفات إلى عدّة نكات ضرورية:

۱- إنّ أحسن أنواع الحكومات، تلك الحكومة التى يشترك فيها كلّ النّاس، وبتعبير آخر الحكومة التى يحمل أركانها أكتاف النّاس، والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى الواقع تصميم لمسألة الحكومة وتثبيت لاشتراك عامة الناس فيها، إذ عن هذا الطّريق يمكن

الحدّ من الكثير من المخالفات، وتعريف النّاس بوظائفهم الفردية والاجتماعيّة، ومع الأخذ بنظر الاعتبار قلّة المأمورين الحكوميين (كالشّرطة وقوى الأمن الداخلى) قياساً إلى عدد المتخلفين، تتضح لنا أهميّة هذه الوظيفة الإسلاميّة أكثر فأكثر، إذ لا يمكن نظم المجتمع والحدِّ من وقوع المخالفات والجرائم إلّاعن هذا الطّريق.

وما قيل من أنّه لو كان فى داخل البيت ولد مجرم فإن أباه وأُمّه مسؤولان تجاهه، وأنّ الولد البالغ مسؤول عن أبيه وأُمهُ إذا ما ارتكبا ذنباً، وأنّه إذا صدر ذنبٌ فى شرق العالم وكان فى غربه رجل يمكنه الحدَّ من ارتكابه، فلم يفعل كان شريكاً له، هذا القول، له تأثير عميق بلا شك فى الحدِّ من ارتكاب الذّنوب والمخالفات والدّعوة إلى القيام بالفرائض والمسؤوليات.

هذا فى حين أنّ مجتمع اليوم والحكومات الالحادية، قد أوكلت مسؤولية الحدّ من

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۱، ص ۳۹۵، الباب ۱، ح ۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۳

المخالفات والمفاسد على عهدة مجموعة صغيرة خاصّة فقط، ولذا فإن نتاج هذه المجموعات محدود جدّاً وقليل.

ومن هنا يتضح لنا عظمة وأهميّة هذه الفريضة الإسلاميّة من جهة، وجماهيرية الحكومة الإسلامية من جهة أخرى.

ولكن هذا لا يعنى أن يتصرف جميع النّاس وكأنّهم رجال شرطة، بل إنّ وظيفتهم على مستوى الدّعوة إلى الخيرات ومكافحة المنكرات والشّرور عن طريق النّصح والموعظة، وأحياناً عن طريق قطع الرّوابط والعلاقات الاجتماعيّة مع الفاسدين والمفسدين.

۲- قد أشرنا فى بحث التعزيرات إلى أنّها قسمٌ من أقسام الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وهو نفس القسم الذى يجرى من قبل الحاكم الشرعى والذى لا يحق للآخرين التدّخل فيه، وكما جاء هناك، فإنّ التّعزير بمعنى المنع من ارتكاب الذنب أو الحدّ من الاستمرار على ارتكابه أو تكراره، وفى هذه الطريق لابدّ من الإستفادة من قاعدة الاسَهَل فالأسَهل أى ينبغى البدء بالمراحل البسيطة أولًا، فإن لم تقع مؤثرة انتقل إلى المراحل المعقدة والخشنة.

فيبدأ بالتذكير الأخوى أو الأبوى، ثّم العتاب الخفيف، ثُمّ الشّديد، ثُمّ عدم الإكرام وقطع الرّوابط، وفى النّهاية الحبس والجلد والغرامات المالية والتوبيخات الاجتماعيّة وأمثال ذلك، فهذه هى المراحل فى طريق التعزير عن المنكر، وبعبارة أُخرى المصاديق المختلفة للأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

ولهذا فإنّ العلماء يعتمدون على أدلة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى الفقه عندما يبحثون الحدود والتّعزيرات لإثبات مشروعيتها.

۳- لا يمكن إنكار تأثير فريضتى «الأمر بالمعروف» و «النّهى عن المنكر» فى تأمين العدالة الاجتماعيّة وإجراء القوانين ومحاربة المنكرات والحدِّ من الجنايات وتقليل عدد السّجناء، وتطوير الثّقافة الاجتماعّية، وقد أثبتت التجارب أنّ المجتمعات التى تؤدّى هاتين الوظيفتين بشكل صريح وقاطع ومدروس، تكون عادة مجتمعات نظيفة وسليمة ويعم الأمن والأمان فيها، وبالعكس فإنّ المجتمعات الّتى نسيت هاتين الوظيفتين والتى وقفت

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۴

مكتوفة الأيدى قبال التخّلفات والمعاصى، ابتليت بعواقب سيئة، فدخل الفساد حتّى فى المنازل والبيوت، وفى هذا المجتمع لا يأمن أى فرد من أفراده من المخاطر، وبالضبط كما ورد فى الحديث الشّريف عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فإنّ البلاء والعذاب سيعم الجميع، وكما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فيُولّى عليكُم شَراركم ثُمّ تَدعُونَ فلا يُستجاب لَكُمْ» «۱».

۴- إنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، يبدءان عادة كما نعلم من العمل الثّقافى، وعليه، فإن كلّ أجهزة الإعلام الجماعيّة، وكلّ مراكز الإذاعة والتلّفزيون لها دخل فى رفع مستوى الإطلاع والثّقافة الجماهيرية وتوجيه النّاس نحو الخير والصلاح والطهر والأخلاق

الإنسانيّة الرفيعة والفضيلة، والتّنفر من الفساد والقبائح، فلكلٍ من هؤلاء موقعه فى دائرة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وحتّى مراكز التّربية والتّعليم بمستوياتها المختلفة والّتى تُعرّف الشُبّان والصّبيان أُصول العقائد الصّحيحة والموازين الإنسانيّة والقوانين والأداب الاجتماعيّة، والتى تخطو من أجل التّعليم والتّربية الصّحيحين، لها موقعها الخاص فى تلك الدّائرة، وذلك لأنّ كل هذه الأمور يمكن أنْ تساهم فى الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وعليه فإنّ دور هذه المراكز فى تحقيق هذين الأصلين الاجتماعيين المهمين، واضح وجلّى.

والنّكتة المهمّة الاخرى هى أنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وإنِ اعتبرا قسمين من فروع الدّين، إلّاأنّهما من جهة أخرى، بدرجة من السّعة والأهميّة بحيث يشملان قسماً عظيماً من أصول العقائد، لأنّ تلك الأمور مؤثرة فى هذا المسير وعن طريق تحكم أُسس الإعتقادات يمكن محاربة المفاسد الاجتماعية، كما أنّ العبادات أيضاً تعتبر مقدمة لها.

۵- خلافاً لما يراه البعض، فإنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر ليسا وظيفة عبادية، بل فلسفة عقلية واضحة (التفتوا جيداً).

وتوضيح ذلك:

بالإلتفات إلى العلاقات الاجتماعيّة، وأنّ أى عمل خير أو شرّ فى المجتمع الإنسانى لا يتحدد بنقطة خاصة، بل يسرى بأى صورة إلى النقاط الاخرى، فكل عمل قبيح يعتبر كالنار

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۴۷.

التى إذا لم تطفأ فإنّها ستسرى وتحرق كل ما فى طريقها وتحيله إلى رمادٍ، فمحاربة الفساد حقٌ اجتماعى.

وأفضل تعبير عن هذا المطلب هو ما ورد فى الحديث النبوى حيث يقول:

«إنّ مثل الفاسق فى القوم كمثل قوم ركبوا سفينة فى البحر فاقتسموها فصار لكل واحد منهم [مكان فعمد أحدهم الى مكانه لخرقه تعالى فقالوا أتريد أن تهلكنا فقال وما انتم من مكانى فإن تركوه غرقوا وغرق معهم و إن أخذوا على يديه نجوا ونجا فذلك مثل الفاسق» «۱».

ومن هنا يتضح لنا، أنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، ليسا تدخلًا فى حياة الآخرين الخاصّة، فلا شك فى أنّ الإسلام يعتبر التدّخل فى حياة الآخرين والتجسس عليهم حراماً، والقرآن الكريم تحدث عن هذه الحقيقة فى (سورة الحجرات)، ولكن حدود الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر هى الإضطرابات والمفاسد الاجتماعيّة الفاضحة، والتى لها مدخلية مباشرة فى تحديد مصير المجتمع، وأنّ مصير المجتمع معقود عليها، والتّخلف والانحراف فى كلّ فردٍ من أفراد المجتمع له أثر بالغ على المجتمع ككلّ.

وبناءً على هذا، فإنّه لا يحق لأحد أن يعترض على أولئك الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى مثل هذه الموارد ويقول لهم: إنّ هذا الأمر لا يهمكم فلا تتدخلوا فيه، فإن جواب هذا الشخص، هو أنّ هذا الأمر يخصّنا جميعاً، فإنّ مصيرنا مرتبط بنا جميعاً، فهل يحق لأحد أن يعترض على الدولة إذا ما عينت مأمورين للتلقيح ضد الأمراض المسرية إذا ما سرت تلك الأمراض فى المجتمع ويقول لمسؤولى الدولة: إنّ هذا الأمر لا يعنيكم؟ فأنا الذى أتمرّض وأنا الذى أعرّض نفسى للخطر فلماذا تتدخلون فى حياتى الشخصية؟!

فلا شك فى أنّ الجميع سيجيبون ذلك الشّخص بأنّ سلامتك ليست منفصلة عن سلامة المجتمع، ومرضك سيسرى إلى أفراد المجتمع الآخرين، ولذا فإن الأمر يهمّ الجميع.

وعليه فلابدّ من الإذعان بأنّ هاتين الوظيفتين (الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر) تعتبران من أثار الحياة الاجتماعيّة للإنسان ومن الحقوق والواجبات الاجتماعية.

كان هذا ملخصاً لبحث الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وأثرهما فى تحقيق أهداف الحكومة الإسلاميّة.

---

(۱) راجع تفسير روح الجنان، ج ۳، ص ۱۴۲؛ المعجم الاوسط، ج ۳، ص ۱۴۹.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۶

جهاز الحسبة والمحتسب فى الحكومة الإسلاميّة:

هذا البحث مرتبط تماماً ببحث الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر وهو فى الحقيقة فرع من فروعه، إذ كما أشرنا فإنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر له شقّان، شقّ عام يشمل جميع النّاس، وشقّ خاص تختص به الحكومة الإسلاميّة، ففى هذه المرحلة قد يلزم إبداء الخشونة والشّدّة وهذا ليس من شأن النّاس، بل لابدّ أن يقوم مأمور الحكومة المدربون على القيام بهذه الوظيفة، وهذا يشكل أساس «الحسبة» «۱».

توضيح ذلك:

«الحسبة»: فى اللغة، إسم مصدر من مادة «إحتساب»، وكما ذكر أرباب اللغة فإنّه بمعنى التّسليم والصّبر حيال المشكلات طلباً للأجر الإلهى، وكذلك السّعى فى أداء أعمال الخير لتحصيل الثّواب.

ولما كان هذا الشق من الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر سعىٌ واجتهاد وجدٌّ فى طريق إطاعة اللَّه ومكافحة المنكرات لنيل رضا اللَّه، سُمى «حسبة».

يقول فى كتاب «التّحقيق» حول معنى مادة «حسب»: الأصل فى هذا المصطلح بمعنى التّحقيق والبحث والتّدقيق بقصد الإمتحان.

وهذا التعبير يناسب كثيراً شغل المحتسب الذى يستخبر عن شرائح مختلفة من المجتمع ويبحث ويحقق ويراقب حركاتهم، فإن وجد انحرافاً نبهّهم إليه، فإن لم ينفع واجههم بشدّة.

وكانت دائرة «الحسبة» من الدوائر المعروفة فى زمن الخلفاء وتشرف على نشاطات الكسبة والتجّار والفلاحين وشرائح المجتمع الاخرى من حيث المخالفات والمنكرات، وكلما رأى المحتسبون مخالفة كانوا ينهون مرتكبيها لها، فإن لم يؤثر فيهم النهى والتذكير والموعظة، كانوا يعاقبون المخالف فى نفس المكان مباشرة، أو يقبضون عليه ويسلّمونه إلى القاضى فيأمر بحبسه.

---

(۱) التّحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ح ۲، مادة (حسب).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۷

وباعتقاد البعض، فإنّ جذور هذه المسألة تعود إلى عصر النّبىّ صلى الله عليه و آله حيث كان صلى الله عليه و آله يمارس عمل المحتسب بنفسه الشّريفة، وتارة كان يوكل الأمر إلى شخص ينتخبه لهذا الغرض، ولكن لابدّ من الإلتفات إلى أنّ استعمال هذا المصطلح لم يكن معمولًا به فى ذلك العصر، ولم يكن موجوداً فى كلام الفقهاء المتقدمين، ويبدو أنّ هذا المصطلح استعمل لأول مرّة، فى عصر خلفاء بنى أُميّة وبنى العبّاس، حيث انتخب لهذا الشق من الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

وعلى أيّة حال، فإنّ الأخبار الواصلة عن عصر النّبىّ صلى الله عليه و آله تدل على أنّ كلمة «الحسبة» وإنْ لم تكن متداولة فى ذلك العصر بمعناها ومفهومها المعهود اليوم، ولكن مفهومها الواقعى أى، النظارة على المسائل الاجتماعيّة من قبل الحكومة الإسلاميّة، كان

مراعیً تماماً حینذاک، فتارة کان الرسول صلی الله علیه و آله یقوم بنفسه بهذه الوظیفة، واخری یوکلها إلی آخرین.

ومن جملة الشّواهد علی ذلک، ما ورد من أنّ الرّسول صلی الله علیه و آله قد أمر سعید بن سعید بن العاص- بعد فتح مکة- بالاشراف علی السّوق، حیث ورد فی‌الحدیث: «استعملَ رَسولُ اللَّهِ سعید بنَ سَعید بن العاص بَعْدَ الفَتح علی سُوق مکّة» «۱».

حتی أنّ المستفاد من بعض الرّوایات، أنّ بعض النّساء کنَّ یمارسن وظیفة الاشراف علی المسائل النّسائیة (کمسائل الحجاب وأمثال ذلک)، ومن جملة تلک النّسوة امرأة باسم «سحراء» بنت نهیک «۲» الذی أدرک عصر النّبیّ صلی الله علیه و آله، کانت مأمورة بالقیام بتلک الوظیفة، فکانت تدور فی الأسواق وتأمر بالمعروف وتنهی عن المنکر (وإن ذهب البعض إلی أنّها لم تقم بذلک الدور فی عصر النّبیّ صلی الله علیه و آله وإنّما کان ذلک فی زمن عمر بن الخطاب) «۳».

وفی کثیر من المواضع، کان النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله یتولی ذلک بنفسه، خاصة فی مسائل الإحتکار والغش والتدلیس فی المعاملة وأمثال ذلک، ومن جملة ما ورد فی ذلک: «إنّ

---

(۱) التّراتیب الإداریة، للکتانی، ج ۱، ص ۲۸۵ (ینقل الرّوایة عن إبن عبد البرّ فی الإستیعاب).

(۲) «نهیک» علی وزن شریک، وفی‌الأصل بمعنی الجمل القوی، والسّیف القاطع، ویقال للرّجال القاطعین الحازمین أیضاً.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۸

رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مرَّ بالمحتکرین فأمر بحکرتِهم أنْ تخرج إلی بطون الأسواق وحیث تنظرُ الأبصار إلیها» «۱»، فاقترح النّاس أن تُعیّن أسعارها، فرفض النّبیّ صلی الله علیه و آله ذلک.

وفی حدیث آخر، أنّ النّبیّ صلی الله علیه و آله مرَّ علی رجل خلط طعاماً جیداً بردیء، فقال له النّبیّ صلی الله علیه و آله فی ذلک، فقال الرجل: أردت أن أبیعه جمیعاً فقال صلی الله علیه و آله: «میِّزْ کُلَّ واحدٍ منهما علی حِدة، لیس فی دیننا غشّ» «۲».

وجاء فی عهد الإمام علیّ علیه السلام إلی مالک الأشتر:

«إمنَع من الإحتکار فإنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مَنَعَ مِنهُ، ولیکن البَیْعُ بیعاً سَمحًا بموازین عدلٍ، وأسعار لا تجحِفْ بالفریقین من البائع والمبتاع، فمن قارفَ حُکْرَةً بعد نهیک إیّاه، فنکِّل به وعاقبهُ فی غیر إسراف» «۳».

ونقرأ أیضاً فی أحوال الإمام علیّ علیه السلام أنّه کان یتولی بنفسه الأُمور المرتبطة بالحسبة، فکان أحیاناً یمرُّ فی سوق القصابین وینهاهم عن المخالفة «۴».

وکان علیه السلام یمرَّ تارة فی سوق السّماکین وینهاهم عن بیع الأسماک المحرّمة «۵».

ولکن، وبمرور الزّمان، اتسعت مسألة «الحسبة» واتخذت تدریجیاً صورة دائرة مهمّة من دوائر الدولة الإسلامیّة، فکان المأمورون باسم «المحتسبین» یدورون فی الأزقة والأسواق والشّوارع الکبیرة لیل نهار ویراقبون الأمور الاجتماعیّة المختلفة، فیعاقبون المخالفین فی‌محل ارتکاب المخالفة أحیاناً، وأحیاناً أخری یأخذونه إلی القاضی (کما فی مأموری شرطة المرور هذه الأیّام).

واتّسعت دائرة «الحسبة» إلی درجة أنّ «جرجی زیدان» المؤرخ المعروف ذکر فی کتابه «تاریخ الحضارة الإسلامیة» یقول:

---

(۱) وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۳۱۷، ح ۱، الباب ۳.

(۲) کنز العمال، ج ۴، ص ۱۵۹.

(۳) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

(۴) کنز العمال، ج ۴، ص ۱۵۸.

(۵) وسائل الشيعة، ج ۱۶، ص ۳۳۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۹

«الحسبة»: وهى احدى المناصب الإسلامية، شأنها شأن منصب القضاء وللمحتسب حق ردع الناس عن القيام بالمنكرات، وله حق الاشراف على التعزير والتأديب، وأمر الناس بضرورة رعاية المصالح فى المؤن، ومنعهم من الوقوف فى الطرقات، ومراقبة شؤون النقل، ومنع أصحاب السفن من تحميل السفينة أكثر من طاقتها، وذلك حفاظاً على أموال وأرواح الناس، ويأمر بإقامة وتعديل الجدران المشرفة على السقوط وكل شىء من شأنه تعريض المارة للخطر، وكل شىء يلحق بهم الضرر، ويمنع الغش والتدليس فى الكسب والعمل، ويأمر بمراعاة المكيال والميزان والاشراف على منع كل ما من شأنه أن يلحق الاذى والاجحاف بالناس.

وكل ما ذكر هو مسؤوليات القاضى، ولكن لكون القاضى لا- يستطيع ممارسة كل هذه الأعمال بشكل عملى، لذا فُصلت هذه المسؤولية من مهامه، وأصبحت مستقلة.

المتصدى لهذا المنصب أو المسؤول يجب أن يكون فرداً صالحاً ومن ذوى الوجاهة، لأنّ هذه المسؤولية تمثل خدمة دينية «ومن دون هذه الوجاهة لا يمكنه القيام بهذه المسؤولية».

ورئيس امور الحسبة يقوم بتعيين ممثلين عنه فى كافة المناطق ويستطيع أن يجلس كل يوم فى أحد المساجد المهمّة، ويقوم مُمثّلوه يقومون بممارسة الأعمال المختلفة الملقاة على عاتقهم فى الاشراف على المشاغل المختلفة والسوق.

وفى مصر، كان رئيس امور الحسبة يجلس يوماً فى مسجد القاهرة ويوماً فى مسجد الفسطاط، ويرسل ممثليه إلى الشوارع والأزقة لكى يقوموا بالاشراف على وضع اللحوم ومراكز الطبخ والأغذية، وكذلك الاشراف على الحمولة التى تحملها الحيوانات، حيث لا يسمحون تحميلها أكثر من طاقتها، ويأمرون سقاة الماء بأن يغطوا أوانيهم بقطع من القماش، وأن يراعوا الموازين الصحية والإسلامية فى أعمالهم.

ويحذرون معلمى المدارس والمكاتب بأن لا يضربوا تلامذتهم ضرباً شديداً إذا ما أذنبوا، وإذا ما ضربوهم فليتجنبوا المناطق الحساسة والخطرة من الجسم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۰

والمحتسب له حق الاشراف على محل ضرب العملة لكى لا يحصل الغش أثناء ضرب السكة فتخرج عن العيار المطلوب.

وفى الأندلس كان يسمى هذا المنصب لاخطة «الاحتساب» والمسؤول عنه أحد القضاة، ويقوم هذا الشخص بركوب مركباً والتجوال فى الأسواق يحيط به أعوانه وموظّفوه، ويحمل معه ميزان ليزن به الخبز، فاذا كان أقل مِمّا هو مقرر فيعاقب البائع.

ويجب على القصاب أن يعلق قيمة للحومة فى دكانه، وذلك لكى لا يتلاعب بالاسعار.

وفى بعض الأحيان يقوم المحتسب بإرسال طفلٍ أو امرأة لكى يشتريا من السوق، ويقوم المحتسب بوزن ما اشترياه، فاذا راى نقصاً فى الوزن فيقوم بمجازاة البائع.

هؤلاء، لديهم قوانين واسعة لها علاقة بالحسبة يقومون بتدريسها فى مدارسهم، كما يدرس فقهاء الإسلام دروسهم «۱».

ومن مجموع هذا الكلام والمطالب الاخرى المذكورة فى الكتب المصنفة فى «الحسبة»، يظهر أنّ «دائرة الحسبة» كانت تتولى كثيراً من الأمور التى تتولاها اليوم الدوائر الحكومية كأمانة العاصمة والقوى الدّاخلية، وقوى التعزيرات والغرامات الحكومية، والتّربية والتعليم، والقضاة، وأنّها أحد أركان الحكومة الإسلاميّة الفعالة، وخاصة فى دورها الواضح والبارز فى محاربة المنكرات، ولذا فإنّ قصائد الشعراء تضمنّت مصطلح «المحتسب» ووظائفه بشكل موسع.

والمستفاد من مجموعة من المصادر أنّ القيام بوظيفة «المحتسب» كان من الواجبات الكفائيّة بين المسلمين، إذ كما قلنا فإنّ «الحسبة» فرع من فروع الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، حتّى أنّ بعض النّساء كنَّ يُنتَخَبْنَ لهذه الوظيفة ليشرفن على تحركات النّساء

الاجتماعيّة.

ونقرأ فى «دائرة معارف دهخدا» (فارسى) فى بحث «وظائف المحتسب»: «إنّ وظيفة المحتسب، أوّلًا: الاشراف على إجراء المقررات الشّرعيّة والمنع من ارتكاب

---

(۱) تاريخ الحضارة الإسلامية «جرجى زيدان»، ج ۱، ص ۲۵۲، مع التصرف.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۱

المحرمات، وثانياً: الاشراف على صحة سير الأمور المرتبطة بالمصالح العامة للمجتمع ورفاههم وحياتهم، وكذلك الحدِّ من سدِّ الطّرقات العامة والأزقة من قبل بعض المخالفين والباعة ... والإشراف على الوزن، وما هو اليوم فى عهدة «البلديات» من هذه الوظائف كان فى الأصل فى عهدة القاضى، ولكنّهم جعلوها شغلًا مستقلًا لكى لا يبتلى القاضى بها» «۱».

ويذكر فى نفس الكتاب وظائف المحتسب نقلًا عن كتاب «معالمُ القُرْبَة» والذى قد يكون أجمع كتاب كتب فى أحكام الحسبة، حيث يذكر ما يظهر منه أنّ شغل المحتسب يشمل الاشراف على أنواع الكسب والتجارات وموارد الإنتاج والخدمات والتّربية والتعليم.

ومن جملة الموارد: منع وقوع المنكرات فى‌الأزقة والأسواق ومراقبة صحة الوزن والمكيال وأمور الأفران والمخابز، والأمُور الصّحيحة والمسالخ والتّدقيق فى صحة الذّبح وشرائطه، والحمّامات العامة، والأطباء والمعلمين والمؤذنين وخدمة المساجد والوعاظ والكتّاب، وكذا النظارة على أشغال التّجارة، والملاحين، والمعمارين والبنّائين، والسماسرة والصرّافين والصاغة وأمثالهم «۲».

وفيما يرتبط بالفرق بين مسألة «الحسبة» ومسألة «الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر» ذكرت بعض الكتب مثل «الأحكام السلطانية» فروقاً كثيرة بينهما بلغت تسعة فوارق «۳».

ويمكن فى الواقع تلخيص تلك الفروق فى جملة واحدة وهى أنّ «الحسبة» هى الشّق الحكومى للأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر والذى يمكن التّوسل به فى موارد اللزوم، وعليه فالمحتسب يُعَيَّن من قبل الحكومة، وله أعوان وأنصار، وظيفتهم الإشراف والنظارة على المسائل الاجتماعيّة المذكورة، وهؤلاء يستلمون مرتباتهم الشّهرية من صندوق بيت المال، ويلقون القبض على المخالفين ويعزّرونهم ويعاقبونهم على النحو الذى مرَّ، وأما الشّق العام للأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، فلا يكون بهذا النحو.

---

(۱) لغتنامه دهخدا، مادة (حسبة).

(۲) المصدر السابق.

(۳) الأحكام السلطانية، ص ۲۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۳

الرّكن الرّابع: التربية والتعليم

تمهيد:

اشارة

يعتبر نشر الثقافة الصّحيحة والتّربية والتّعليم أحد الأركان المهمّة فى الحكومة الإسلاميّة، وبالنظر إلى الإنسان كموجود ثقافى، أى أنّ أعماله وسلوكه نتاج لمجموعة افكاره واستعداداته، لذا فأىّ إصلاح وتحوّل فى وضع المجتمع غير ممكن ما لم يتمّ النفوذ إلى فكره وروحه.

ولذا تحاول الدول العظمى النّفوذ فى ثقافة المجتمعات ووسائل الإعلام العامة كالمطبوعات (الكتب والجرائد والمجلات) والإذاعة والتلفزيون وأمثال ذلك، من أجل تحقيق أهدافها السياسية والاجتماعيّة والعسكرية والاقتصادية المختلفة، ويعتبر ذلك ركناً من أركان تلك الحكومات وقوة رابعة تضاف إلى القوى الثّلاث (القوة التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائية)، بل إنّ الكثيرين يعتبرون ذلك من أهم أركان المجتمع ويراهنون عليه كثيراً.

وهذه حقيقة لا مبالغة فيها، إذ إنّ وسائل الإعلام العامة لو استغلت فى طريق نشر الثقافة الصحيحة السالمة المبرمجة المؤثرة، لكان جو التّشريع والقضاء والتّنفيذ سالماً، ولخففت كثيراً من ذلك العبء الثقيل عن كاهل المسؤولين، ولأدّى أفراد المجتمع وظائفهم بشكل طبيعى ومنظم.

والملفت للنظر هو أنّ منهج الحكومة الإسلاميّة المستنبط من القرآن المجيد والسّنة النبوية، والمقرر قبل أربعة عشر قرناً، كان قد اهتم فوق حد التصور بمسائل التّربية والتّعليم والتّبشير والإنذار، وقد اعتمد برامج عديدة ومتنوعة لتحقيق هذا الغرض.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۴

والموضوع القابل للتّأمل هو أنّ أبرز أنواع الحكم الإسلامى وهو حكومة الرّسول الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله، بنيت على أساس ثورة ثقافيّة، فقد إهتم الرّسول صلى الله عليه و آله طيلة الثّلاثة عشر عاماً التى قضاها فى مكة بالتربية والتّعليم ونشر الثّقافة الإسلاميّة والعقائد، وقد ربّى أصحابه وعلّمهم بحيث صار كلٌ منهم لُبنَةً أساسية فى بناء الحكومة الإسلامية، أى أنّ الثّورة السياسيّة والاجتماعيّة للنظام الإسلامى قامتا على أساس نفس تلك الثّورة الثّقافية.

ويعتبر إحياء الفكر والتّفكر، المادة الأولية لكل البرامج الإسلاميّة، حتّى أنّ الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله كان يطلب من مخالفيه هذا الأمر فقط وكما ورد فى القرآن المجيد: «قُلْ إِنَّما أَعِظُكُم بِوَاحِدةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّه مَثنَى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفكَّرُوا ...». (سبأ/ ۴۶)

وفى حديث عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «إنَّ التّفكر حياةُ قَلْبِ البَصيرِ، كما يمشى المُستَنِيرُ فى الظّلمات بالنّور» «۱».

وفى حديث عن الإمام علىّ عليه السلام قال: «بالفِكْرِ تَنْجلى غياهِبُ الأمور» «۲».

وورد فى حديث آخر معروف: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستّين سنة» «۳».

وعلى هذا الأساس، سنتناول بالبحث الأمُور التّالية، مستلهمين من القرآن الكريم:

۱- التّربية والتّعليم فى الإسلام.

۲- أهميّة العلم لا تنحصر بالعلوم الدينيّة.

۳- تعلم العلوم المفيدة، فى الرّوايات الإسلاميّة.

۴- مقام المعلّم فى الإسلام و ...

۱- التّربية والتّعليم فى الإسلام

وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة فى «التّعليم» و «التّعلّم» و «نشر العلم»، وذكر كلّ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۸۹، ص ۱۷.

(۲) غرر الحكم.

(۳) بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۲۹۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۵

تلك الآيات لا يَسَعَهُ هذا المختصر، ولذا سنشير هنا إلى بعض تلك الآيات:

۱- «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ وَمِنَ الارْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الامْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً». (الطلاق/ ۱۲)

۲- «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنَا ويُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». (البقرة/ ۱۵۱)

۳- «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمُ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (البقرة/ ۱۲۹)

۴- «وَمَا ارْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي الَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لَا تَعْلَمُونَ». (النّحل/ ۴۳)

۵- «وَمَا كَانَ الْمُؤمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ اذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ». (التوبة/ ۱۲۲)

۶- «يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ اوتِىَ خَيْراً كَثيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا اولُوا الالْبَابِ». (البقرة/ ۲۶۹)

۷- «انَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ». (البقرة/ ۱۵۹)

فبنظرة إجماليـة إلى هـذه الآيات السبع التى انتخبناها من بين عشرات الآيات القرآنيـة حول التّعليم والتّربيـة، يتضح لنا اهتمام الإسـلام البالغ بهذا الأمر المهم.

ففى الآيـة الأولى، يعتبر العـالم كلّه بمثابـة جامعـة خُلِقَت جميع الموجودات فيه لتعليم الإنسـان وزيادة اطلاعه، والهـدف هو أن يتفكر الإنسان فى أسـرار هـذه الكائنات، فيتعرف على علم وقـدرة الخالق، وبتعبير آخر، الهـدف من عالم الخلقة كلّه هو العلم والمعرفة حيث يقول عزّوجلّ:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۶

«اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... لتَعلَموا أنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٍ ...» «۱».

وهذا فىالحقيقة موضوع ظريف وهو أنّ خلق السـماوات وخلق الأرضين وتدبيرهما الدائمى، يكون وسيلة لتحريك حسّ الإطلاع عند الإنسـان للتفكر والتّأمـل فى أسـرار العالم، وبالنّتيجـة التّيقن من علم اللّه وقـدرته، فكل تلك الأمور إذن مقدمـة لتربيـة النفس الإنسانيّة والقرب إلى اللّه، وللإطلاع على أنّ أحكام الشّريعة كأحكام الخلقة، مبتنية على حسابات دقيقة، فالخلقة إذن من أجل العلم.

وتشـير الآية الثّانية إلى الهدف من بعثة نبىّ الإسـلام صلى الله عليه و آله، وتعتبر أنّ الهدف هو التّعليم والتّربية فى ظل تلاوة آيات اللّه، حيث تقول:

«كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ويُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

فهنا لم يحصر الهدف من البعثة فى تعليم الكتاب والحكمة، بل تعليم الأمور التى لم يكن بالإمكان التعرف عليها إلّابنزول الوحى، ولذا يقول: «وَيُعَلِّمُكُمْ مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

وبهذا يكون الهدف من الخلقة تطوير المعرفة، والهدف من البعثة كذلك هو توسعة ونشر العلم والحكمة وتهذيب وتربية النفوس.

---

(۱) فُسرّت السّـماوات السّـبع بتفسـيرات عديـدة، منها تفسـير معروف وهو أن كلّ ما نراه من سـماوات وكرات سـماوية ونجوم سـيارة وثابتة، مرتبط بالسّـماء الأولى، وما بعدها سـتة عوالم أخرى عظيمة جدّاً، واحد تفاسـير الأرضـين السـبع هو أن ما يوجد فوقنا من عوالم يوجـد مثله تحت أرجلنا وهذا المعنى بينه الرّسول الأكرم صـلى الله عليه و آله فى عبارة رائعة حيث سأل أصـحابه هل يعرفون ما تحت أرجلهم؟ فقالوا: اللّه ورسوله أعلم فقال صـلى الله عليه و آله: «الأرض وتحتها أرض اخرى بينهما خمسـمأة عام» (تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۴۴). وللإطلاع أكثر على معنى السماوات السبع راجعوا الى ج ۲، ص ۱۴۴ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۷

والمستفاد من الآية الثالثة هو أنّ هذا الهدف الكبير أى التّربية والتعليم والحكمة، ورد فى دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام لهذه الأمة، حتى إنّه يطلب ذلك من اللَّه عزّوجلّ ويقول:

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وهذا يدل على أنّ هذين الهدفين (التربية والتعليم) كانا من الأهداف المعروفة فى الأمم السّابقة أيضاً.

والملفت للنظر هو أنّه ورد فى هذه الآية وبعض الآيات الاخرى الواردة فى هذا المضمار، الحديث عن تعليم الكتاب وتزكية النّفس إضافة إلى تعليم الحكمة، وفيما يرتبط بمعنى «الحكمة» وردت تفسيرات كثيرة ومختلفة.

الأول: إنّ المراد منها هو العلوم الدّينيّة والتّعرف على أحكام الدّين.

والثّانى: إنّ المراد منها هو سنّة النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، لإنّها ذُكرت إلى جنب كتاب اللَّه. وقال البعض الآخر إنّ المراد من الحكمة هو العلامات والفوارق التى تميز الحق من الباطل، وقيل أيضاً إنّ الحكمة بمعنى الآيات المتشابهة التى لابدّ أنْ يُعلِّمها الرّسول بنفسه للآخرين «۱».

لكن وبالتأمل فى أصل لفظ «الحكمة» فى اللغة، والتى جاءت بمعنى المنع من الجهل والخطأ، ووضع كلّ شىء فى موضعه، يبدو أنّ المراد من الحكمة هنا الإطلاع على أسرار وعلل ونتائج الأحكام، وأسرار خلقة الكون والإنسان، ومصيره ونهايته.

وفى الآية الرّابعة إشارة إلى قاعدة كلية هى أساس مسألة التّربية والتعليم، حيث يقول عزّوجلّ: «فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لَاتَعْلَمُونَ».

وهذه الآية وإنْ وردت فى صفات الأنبياء السابقين عليهم السلام وإنّهم كانوا من جنس البشر، وأنّه لا فرق بينهم وبين سائر البشر فى الظّاهر، ولكننا نعلم أنّ مورد الآية لا يحدّد مفهومها

---

(۱) التّفسير الكبير، ج ۴، ص ۶۶ (ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۸

الوسيع، بل الحكم باقٍ على عموميته.

وهذا فى الواقع أصلٌ أساسى يذعن بصحته كل عقلاء العالم، وهو أن غير أهل العلم يتعلمون من أهل العلم، إذ إنّ العلوم والمعارف الحقيقية محصول التفكر والتأمل والتجارب التى اكتسبها القدماء، والّتى يضعونها تحت تصرف الأجيال القادمة، وهؤلاء يضيفون عليها ويسلمونها للأجيال اللاحقة، وهكذا يتكامل العلم والمعرفة البشرية يوماً بعد يوم، ولهذا الدّليل تعتبر مسألة التّربية والتّعليم الأساس الأول لكل تطور ورقّى اجتماعى فى البعد المعنوى والمادى.

ونُقِلَت عبارة عن الغزّالى توضح هذا المطلب أكثر، وهى أنّه سئل عن كيفية حصوله على هذه الإحاطة العلميّة باصول وفروع الإسلام، فأجاب بتلاوة هذه الآية: «فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لَاتَعْلَمُونَ» «۱».

وقد فَسَرَّت الروايات العديدة الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، أهل الذكر، بمعنى الأئمّة المعصومين عليهم السلام «۲» ولكن وكما تعلم أنّ هذه التفاسير ليست بمعنى الحصر، بل فى بيان المصداق الأتمّ والأكمل لها، وشبيه هذا المعنى نلاحظه فى تفسير كثير من آيات القرآن.

والآية الخامسة تقسم المسلمين إلى مجموعتين: «المعلمين والمتعلمين» وفى الواقع لابدّ أن يكون المسلم فرداً من أفراد إحدى المجموعتين، فإمّا أنْ يكون معلماً أو متعلماً حيث يقول عزّوجلّ:

«وَمَا كَانَ الْمُؤمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ اذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ».

وقد استند كثير من العلماء على طول التّاريخ إلى هذه الآية الشّريفة لإثبات لزوم تعلم

(۱) تفسیر روح البیان، ج ۵، ص ۳۷.

(۲) للإطلاع علی هذه الروایات یراجع من تفسیر البرهان ج ۲ ص ۳۶۹، والملاحظ أنّ هذا التعبیر ورد فی روایاتأهل السنّة أیضاً (راجع شواهد التّنزیل للحسکانی ج ۱، ص ۳۴۴، وإحقاق الحق، ج ۳، ص ۴۸۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۹

العلوم الإسلامیّة لإبلاغها إلی الآخرین بعنوان الواجب الکفائی، مضافاً إلی أنّهم یوجبون التّعلُّمَ علی الجمیع وجوباً عینیاً.

وفی عالم الیوم، یعتبر طلب العلم فی کثیر من الدّول إلزامیاً، فیجب علی کلّ طفل أنْ یتعلم وإلّا استدعی ولیّه من قبل الجهات المسؤولة، ولکن التّعلیم لیس إلزامیاً فی أی مکان من العالم، بل الناس مخیرون بین انتخاب التعلیم وعدمِه.

وأمّا فی الإسلام، فإنّه کما یعتبر تحصیل العلم واجباً، فکذلک تعلیم الآخرین فإن فیه جنبة الإلزام والوجوب وأحد الأدلة علی ذلک هو نفس آیة النّفر هذه، فإنّها من جهة توجب تحصیل العلم بجملة «فَلَولَا نَفَرَ مِنْ کُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طائِفَةٌ» «۱».

ومن جهة أخری فإنّها توجب التّعلیم، بجملة «وَلِیُنْذِرُوا قَومَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَیْهِمْ»، ولا شک فی أنّ کلّ ذلک مقدّمة للقیام بالتّکالیف الإلهیّة، والذی تخلّصَ فی جملة: «لَعَلَّهُمْ یَحْذَرُونَ».

ولهذا، فإنّ بعض علماء الإسلام، کان أحیاناً یطوی المسافات البعیدة لأیّام عدیدة وینتقل من بلدٍ إلی آخر لتعلّم حدیثٍ واحد!، ومن جملة هؤلاء- کما ذکر التاریخ- «جابر» الذی سافر من «المدینة» إلی «مصر» لیسمع حدیثاً واحداً من أحد العلماء الذی کان یروی ذلک الحدیث، ولذا قیل إنّ أحداً لا یصل إلی مرحلة الکمال إلّابالسفر (والإلتقاء بعلماء البلاد المختلفة والاستفادة من علومهم وتجاربهم)، وإنّ أحداً لا یصل إلی مقصوده إلّا بالهجرة «۲».

ونقرأ فی قصة الخضر وموسی علیه السلام والتی وردت الإشارة إلیها فی سورة الکهف کیف أنّ هذا النّبیّ الکبیر (موسی)، کان قد طوی طریقاً طویلًا وشاقاً حتی وصل إلی هذا العبد الصّالح (الخضر) وتعلم شیئاً من علومه.

(۱) طبقاً لأقوال علماء الأدب فإن «لولا» تحضیضیة، وهی فی مقام اللَوم والتّقریع ومن الواضح فإن التقریع إنّما یکون علی ترک الواجب أو فعل الحرام.

(۲) تفسیر روح البیان، ج ۳، ص ۵۳۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۰

وفی الآیة السّادسة، نواجه تعبیراً مهماً آخر حول تعلُّم العلم والمعرفة، یقول عزّوجلّ:

«یُؤتِی الْحِکْمَةَ مَنْ یَشاءُ وَمَنْ یُؤتَ الْحِکْمَةَ فَقَدْ اوتِیَ خَیْراً کَثِیراً وَمَا یَذَّکَّرُ إِلَّا اولُوا الالْبَابِ».

بداهة أن المنظور من تعبیر «مَنْ یَشاءُ» لیس هو أنّ یعطی اللَّه الحکمة والعلم لهذا وذاک بلا مبرر وبدون مقدمة، بل وکما تعلم فإنّ «مشیئة» اللَّه وإرادته منسجمة دائماً مع «حکمته»، أی أنّه یؤتی الحکمة من کان لائقاً بها، وهذه اللیاقة إنّما یحصل علیها الإنسان عن طریق الجد والسّعی وتحمل عناء ومشقة تحصیل العلم، أو بواسطة جهاد النفس والتقوی التی تعتبر منبع النّظرة الصائبة والفرقان الإلهی.

واللّطیف فی هذا الأمر هو أن الآیة الکریمة تعبر عن العلم والحکمة بعبارة «خَیْراً کَثیراً» وهو تعبیر جامع یشمل کل الحُسْن والخَیر، خیر الدنیا والآخرة، والخیر المادی والمعنوی، والخیر فی کل الجهات.

وللمفسر الکبیر، المرحوم العلّامة الطّباطبائی (ره) نکتة فی هذا المقام یقول: «إنّ جملة «وَمَنْ یُؤتَ الْحِکْمَةَ» جاءت بصیغة المبنی للمجهول، فی حین أنّ الجملة التی قبلها جاءت بصیغة المعلوم حیث قال تعالی «یُؤتِی الْحِکْمَةَ مَنْ یَشَاءُ» وماذاک إلّالیبیّن أنّ الحکمة والمعرفة ذاتاً منبع خیر کثیر، لا من جهة الإنتساب إلی اللَّه المتعال فقط، بل إنّ ذات وحقیقة العلم خیر کثیر» «۱».

والآيـة الأخيرة، أشارت إلى بُعـد آخر فى‌هـذه المسألـة، حيث ورد فيها ذمٌّ شديـد لأولئك الـذين يكتمون العلم والمعرفة، حيث يقول تعالى:

«انَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ».

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۲، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۱

والتعبير بلعن اللَّه ولعن اللاعنين من أشدّ التّعبيرات التى استعملت فى القرآن المجيد فى ذنب من الذّنوب، وهذا دليل على قبح كتمان العلم والهدى إلى أبعد الحدود، بالخصوص تلك العلوم والمعارف التى تكون أساساً لهداية النّاس.

وفى الآيـة الـتى تلى هـذه الآيـة مباشـرة من سورة البقرة، ذكر تعـالى الطريق الوحيـد للتوبـة من هـذا الـذّنب الكبير وهو تبيين المسـائل المكتومـة بعـد النّـدم والعودة إلى اللَّه، وهذا بنفسه دليل واضح على أنّ جبران «كتمان العلم» لا يتحقق إلّابتبيينه حيث يقول تعالى: «إِلَّا الَّذِين تَابُوا وَأَصلَحُوا وبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوابُ الرَّحِيمُ». (البقرة/ ۱۶۰)

وهـذه الآيـة وإن نزلت فى أهـل الكتاب الّـذين كتموا علامات نبيّ الإسـلام صـلى الله عليه و آله المـذكورة فى كتبهم، إلّاأنّ مفهومها أوسع من ذلك، فتشـمل كتمان كلّ علم من العلوم يكون سبباً فى هداية النّاس، والرّوايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام تشهد بهـذا الأمر وأنّ المراد من العلم مفهـومه المطلـق، يقول النّبيّ الأـكرم صـلى الله عليه و آله: «مَنْ سُـئل عن عِلْم يَعْلَمُهُ فَكَتَمه، الجِمَ يوم القيامة بلجام من نارٍ» «۱».

وفى حـديث آخر عنه صـلى الله عليه و آله نلاحظ تعبيراً أوضـح من الأوّل حيث يقول صـلى الله عليه و آله: «مَنْ كَتَمَ عِلمَاً نافِعاً عِنْدَه، أَلْجَمَهُ اللَّهُ يومَ القيامَة بلجامٍ منْ نارٍ» «۲».

ومن الواضح أنّ هذا التّعبير يشمل كلّ العلوم المفيدة للإنسان فى مجالٍ من المجالات.

وقد نُقل هذا المعنى بصـراحة فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله أيضاً حيث يقول صلى الله عليه و آله: «مَنْ عَلِمَ شَيئاً فلا يكتمه» «۳».

۲- أهميّة العلم لا تنحصر بالعلوم الدينيّة

قـد يتصور البعض أنّ كـلّ تلك التأكيـدات الواردة فى الآيات القرآنيـة والرّوايات الشّـريفة فى التعلّم والتّعليم ونشـر العلوم، ناظرة إلى العلوم الدينيّة فقط، ولا تشمل ما يرتبط ببحث

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱- ۲، ص ۲۴۱، ذيل الآية مورد البحث.

(۲) كنز العمال، ح ۲۹۱۴۲، ج ۱۰، ص ۲۱۶؛ بحار الأنوار، ج ۲، ص ۷۸.

(۳) كنز العمال، ح ۲۹۱۴۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۲

الحكومة الإسلاميّة ونشر كلّ العلوم وهو مورد حديثنا!

ولكن هذا اشتباه كبير، إذ إنّ المستفاد من آيات القرآن، ومن الرّوايات الإسلامية أيضاً، هو أهميّة العلم والتّربية والتعليم بشكل مطلق.

والشواهد على هذا المعنى كثيرة، من جملتها الآيات القرآنيّة الشّريفة التالية:

۱- ورد فى قصـة آدم عليه السـلام، مسألـة تعليم الأسـماء، وهى إشارة إلى العلم والإطلاع على أسـرار خلقـة تمام الموجودات، لا فقط

العلوم الدينيّة، يقول عزّوجلّ:

«وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَّهَا». (البقرة/ ۳۱)

۲- تعرضت الآيـة الرّابعة من سورة الرحمن التى تعدّد نعم اللّه تعالى وآلائه إلى تعليم البيان، واعتبرته موهبة إلهيّة عظيمة، يقول تعالى:

«عَلَّمَهُ البَيَانَ». (الرحمن/ ۴)

۳- ورد فى سورة يوسف عليه السـلام إشارة إلى علم تفسير الأحلام التى تحكى عن المستقبل والتى قد يكون لها أثر فى مصير الأمم كشعب مصر، وتأويل تلك الأحلام، حيث يحكى القرآن عن لسان يوسف ويقول:

«ذَلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى». (يوسف/ ۳۷)

۴- وفى نفس تلـك السّورة، يشـير إلى مسألـة تـدبير أمر دولـة كاملـة والإطلاـع على إدارة بيت المـال، حيث يحكى القرآن عن لسان يوسف مخاطباً عزيز مصر:

«قَالَ اجْعَلنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف/ ۵۵)

۵- (وفى أمر إدارة الدّولـة هـذا) قصّـة طالوت وجالوت، عنـدما يُبين دليل انتخاب طالوت ملكاً من قبل نبىّ ذلك العصـر (اشـموئيل)، تقول الآية:

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بسَطَةً فِى العِلْمِ وَالجِسْمِ». (البقرة/ ۲۴۷)

ومن الواضح أنّ امتياز طالوت على سائر بنى إسـرائيل لم يكن فى العلوم والمعارف الإلهيّة فقط، بل كان العلم والقدرة الإدارية للأمور العسكريّة والسّياسية عند هذا الشّاب الذكّى المدبّر، مورد نظر فى الاستدلال.

۶- وفى قصة داود عليه السلام يعتبر تعليم (صنعة لَبوس من امتيازاته الكبيرة بل على رأى

الطبرسى فى مجمع البيان أنّ «لبوس» يشمل كلّ أنواع الأسلحة الدفاعيّة والهجوميّة، ولا تختص بالدّروع «۱»، يقول عزّوجلّ:

«وَعَلَّمْنَاهُ صَنعَةَ لَبُوسٍ لَّكُم لِتُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ». (الأنبياء/ ۸۰)

۷- وتتحدث سورة الكهف عن قصّة موسى والخضر والعلوم والمعارف التى تعلمهاموسى عليه السلام من الخضر عليه السلام، ونلاحظ أنّ أياً منها لم يكن من العلوم الدينيّة، بل كانت من العلوم التى تدير المجتمع الإنسانى طبق نظام أحسن، يقول تعالى:

«فَوَجَدَا عَبْدَاً مِّنْ عِبَادِنَا آتينَاهُ رَحمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وعَلَّمنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْماً». (الكهف/ ۶۵)

ثم يذكر فى الآيات اللاحقة ثلاثة نماذج لهذه العلوم وهى ليست من العلوم الدينيّة، بل مرتبطة بتدبير الحياة.

۸- ورد فى سورة النمل الحديث عن اطلاع سليمان عليه السلام وعلمه بحديث الطير ومنطقه، ويعتبر ذلك من الأمور التى كان سليمان يفتخر ويتباهى بها، يقول تعالى

«وقَالَ يَا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمنَا مَنطِقَ الطَّيرِ». (النمل/ ۱۶)

۹- وفى أواخر سورة الكهف وفى قصّـة ذى القرنين، ورد الحـديث عن بنائه السّـد وإنّه حادثة مهمّة حتى أنّها تبيّن بعض الجزئيات فى عمليـة بناء ذلك السّـد وكيفيّـة تـدبير أمر بناء سـدٍّ محكم قوى حديدى للحدّ من هجوم القبائل الفاسدة والمفسدة (يأجوج ومأجوج)، يقول تعالى:

«آتُونِى زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَينِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتونِي أُفْرِغْ عَلَيهِ قِطْراً». (الكهف/ ۹۶)

۱۰- وفى سورة لقمان أيضاً، وردت آيات فى بيان وصايا لقمان لابنه، حيث نرى مجموعه من الإرشادات لها جنبـة اجتماعيّـة وإداريّة، يعتبر رعايتها والاهتمام بها من الأمور المهمّة فى حياة كلّ فردٍ، من جملتها إنّه قال:

(۱) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ۸۰ من سورة الأنبياء عليهم السلام ولكن هناك قرائن فى الآية تشير جميعها إلى أنّها إشارة إلى الدّرع.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۴

«وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمشِ فِى الأَرضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخورٍ* وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوتُ الحَمِيرِ».

(لقمان/ ۱۸- ۱۹)

هذا فى حين أنّ اللَّه تعالى كرَّم لقمانَ لعلمه وحكمته ومعرفته، حتى قرن كلامه بكلامه تعالى!

۱۱- وفى سورة سبأ وفى بيان أحوال سليمان عليه السلام ورد الحديث عن برامجه العمرانية والفنيّة المتشعبة والتى كان الجن يقومون بها تحت إشرافه:

«يَعمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ».

(سبأ/ ۱۳)

وفى الآية السابقة لهذه الآية، وردت إشارة إلى تعلم سليمان إذابة الفلزات، حيث يقول تعالى: «وَاَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ». (سبأ/ ۱۲)

۱۲- يقول تعالى فى سورة البقرة، فى ما يرتبط بحكومة داود النّبىّ:

«وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ المُلكَ وَالحِكمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ». (البقرة/ ۲۵۱)

ومن الواضح، فإنّ العلم والحكمة هنا، هى المعرفة اللازمة بتدبير المُلك والمملكة وإن كان لها معنى أوسع من ذلك، فإنّها بلا شكّ تشمل هذا القسم من العلوم وهو المرتبط بالحكومة وإدارة الدّولة.

ومن مجموع الإشارات التى وردتْ فى الآيات المذكورة والبعض الآخر من آيات القرآن المجيد، يمكن الإستفادة بوضوح أنّه وخلافاً لتصور البعض أنّ القرآن الكريم قد اهتم فقط بالعلوم الدينيّة والمعارف الإلهيّة، وأنّه لم يتعرض لأهميّة العلوم الاخرى، يتبين لنا أنّ القرآن الكريم قد اهتمَّ بتعلّم وتعليم هذه الأقسام من العلوم وعدَّها من المواهب الإلهيّة العظيمة، وهو يحفِّز المسلمين على تعلُّمها وتعلُّم كلّ علم مفيد ونافع فى الحياة المادية والمعنوية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۵

۳- تعلّم العلوم المفيدة فى الرّوايات الإسلاميّة

وفى الأحاديث الإسلاميّة أيضاً (وتبعاً لآيات القرآن المجيد) فلم تكتف بالحث والتّرغيب لتعلم العلوم الدينيّة فقط، بل نجد أنّ الرّوايات قد اهتمت بالترّغيب لتعلم العلوم المفيدة فى الحياة المادية والمعنوية مضافاً إلى العلوم الدينية، وإليك نماذج من تلك الرّوايات الشّريفة:

۱- ورد فى حديث معروف عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«اطلبُوا العِلمَ ولو بالصّين فإنّ طَلَب العِلم فَريضَةٌ عَلى كُلّ مسلم» «۱».

وينبغى الإلتفات إلى أنّ الصيّن فى ذلك الوقت كانت أبعد دولة معروفة، وعليه فإنّ المراد من ذكر الصين هو التمثيل للبعد فى المسافات فى هذا الحديث.

ومن البديهى، فإنّ ما كان فى الصّين من العلوم لم يكن من العلوم الدينيّة والمعارف القرآنيّة، إذ لم تكن الصين مركزاً من مراكز الوحى، بل كان المراد هو العلوم الدنيوية المفيدة.

۲- وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام، قال: «الحِكْمَةُ ضالةُ المؤمنِ فاطلُبوها وَلو عِنْدَ المُشرِك» «۲».

ومن الواضح، أنّ ما عند المشركين ليس من العلوم الدينيّة ومعارف التوّحيد، بل كان عندهم بعض العلوم المفيدة الاخرى النافعة فى الحياة.

ومن مثل هذه الأحاديث، يتداعى إلى الذّهن الشّعار المعروف «العلم ليس له وطن» ويؤكد على أن العلم ضالة المؤمن، وقد ورد فى حديث آخر: «كلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيثُ وَجَدها فهو أحقُّ بها» «۳».

۳- وفى حديث معروف عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «العلمُ عِلْمان عِلمُ الأديانِ وعِلْمُ الأبدانِ» «۴» (فالعلم الأول أساس سلامة الرّوح والثّانى أساس سلامة جسد الإنسان).

۴- وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله قال:

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۸۰؛ وكنز العمال، ح ۲۸۶۹۷.

(۲) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۳۴.

(۳) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۱۹۹، ح ۵۸.

(۴) بحار الأنوار، ج ۱، ص ۲۲۰، ح ۵۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۶

«العِلْمُ ثلاثَة: الفِقْهُ للأديان والطِّبُ للأبدان والنّحو للِّسان» «۱».

فهنا يبيّن صلى الله عليه و آله ثلاثة أقسام مهمة من العلوم الإلهيّة والبشريّة، وهى العلوم الدينيّة وعلم الطّب والنحو الذى هو مفتاح العلوم الاخرى

۵- وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام:

«العلُوم أربَعَةٌ الفقه للاديانِ والطّبُّ للأبدان والنّحو للِّسان والنّجوم لمعرفة الأزمان» «۲».

۶- وفى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام يقول فيه:

«وكذلك أعطى (الإنسانَ) علم ما فيه صلاح دُنياه كالزّراعة والغِراس واستخراج «۳» الأرضينَ واقتناء الأغنامِ والأنعام واستنباط المياه ومعرفة العقاقير التى يُستَشفى بها من ضروب الأسقام، والمعادن التى يستخرج منها أنواع الجواهر، وركوب السَّفن والغوصِ فى البحر ... والتصرُّف فى الصّناعاتِ ووجوه المتاجرِ والمكاسبِ» «۴».

وبهذا، يعتبر الإمام الصّادق عليه السلام أن جميع هذه العلوم من المواهب الإلهيّة وأنّه يحفِّز ويرغب النّاس على تعلّمها.

۷- وفى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ضمن بيان حقوق الأبناء على الآباء، قال:

«ويُعَلِّمُهُ كتابَ اللَّهِ ويُطَهِّرَهُ ويَعلِّمَهُ السِّباحَةَ» «۵».

فمن هذا الحديث، يستفاد بوضوح أن تعليم فنِّ السباحة أيضاً اخذ بنظر الاعتبار لدّى مشرع الإسلام، وأوصى بتعليمه للأبناء.

۸- وفى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «وبَعْدَ عِلْمِ القرآنِ ما يكون أشرفَ من علم النّجوم وهو علم الأنبياء والأوصياءِ وورثة الأنبياءِ الذّين قال اللَّه عزّوجلّ: وعلاماتٍ وبالنّجم هم يهتدون» «۶».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۴۵، ح ۵۲.

(۲) المصدر السابق، ج ۱، ص ۲۱۸.

(۳) بما أنّ استخراج المعادن ذكر فى الفقرات اللاحقة، فلا يبعد أن المقصود من استخراج الأرضين هو تحضيرالأراضى الموات لزراعتها.

(۴) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۸۳.

(۵) وسائل الشّيعة، ج ۱۵، ص ۱۹۹، باب ۸۸ ح ۷.

(۶) بحار الأنوار، ج ۴۷، ص ۱۴۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۷

فالمستفاد من مجموع الآيات والروايات المذكورة، وروايات أخرى يطول المقام بذكرها جميعاً، هو أنّ الإسلام أسَّس نهضة علمية واسعة، وأنّ هذه النهضة المباركة نمت وترعرعت خلال قرنين أو ثلاثة وتشعبت تلك الشّجرة المباركة حتى عمَّت غصونها كلّ العالم الإسلامى، وأثمرت فى فترة وجيزة ثماراً كثيرة منها الكتب الكثيرة التى أُلِّفتْ وصُنِّفتْ فى مختلف الفروع العلميّة كالمعارف الإلهيّة والفلسفيّة والطّب والصّحة والجغرافيا والفيزياء والكيمياء وغير ذلك، وتُرجِمَ بعضها وحقّق البعض الآخر ونشرت بصورة تحقيقات جديدة لعلماء الإسلام.

العلماء الذين بحثوا تاريخ الحضارة الإسلاميّة وكتبوا كُتُباً فى‌ذلك، ومنهم علماء الغرب خصصوا فصلًا مهما من تاريخ الحضارة الإسلاميّة للنهضة العلميّة عند المسلمين، وعدّدوا فروع علوم مختلفة انتشرت وإتخذت رونقاً خاصاً عندهم مع ذكر روّاد تلك العلوم المسلمين فرداً فرداً.

والنكتة المهمّة هنا هى اعتراف المؤرخين الغربيين الصّريح بأن النّهضة العلميّة فى أوربا قد استندت إلى نهضة المسلمين العلميّة وأنّ الأوربيين مدينون فى نهضتهم لعلماء الإسلام!

ففى كتاب «تاريخ الحضارة الغربية ومبانيها فى الشّرق» والذى كتب من قبل مجموعة من علماء الغرب، جاء: «عندما نطالع خدمات البيزنطيّة «۱» والمسلمين للثّقافة الغربيّة يمكننا القول بأنّ نوراً عظيماً أشرق من الشرق على الغرب»!

يقول الدكتور ماكس يرهوف فى كتاب «ميراث الإسلام»: «لقد كانت علوم العرب (المسلمين) كالقمر المنير الذى يضىء ظلمات ليالى أوربا القرون الوسطى، ولما ظهرت العلوم الجديدة خفت نور ذلك القمر، ولكن كان ذلك القمر هو الذى هدانا فى تلك الليالى الظلماء حتى وصلنا إلى هذا المستوى، ويمكننا القول بأنّ نور ذلك القمر لا زال معنا» «۲».

ونقرأ فى ذلك الكتاب أيضاً: «.... والخلاصة، وبهذه الوسيلة (ترجمة كتب علماء

---

(۱) «البيزنطيّة»، إمبراطورية روما الشّرقية وعاصمتها البيزنطيّة وهى الآن تشمل قسماً من تركية، وتعتبرإسطانبول الفعلية محلًا لعاصمتها البيزنطيّة.

(۲) ميراث الإسلام، ص ۱۳۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۸

الإسلام) هطلت علوم الشّرق كمطر الرّحمة على أرض أوربا القاحلة، فحولتها إلى أرض خصبة مثمرة، وشيئاً فشيئاً تعرّف الأوربيون على علوم الشرق!».

ويقول هذا الكاتب فى مذكرات تحت عنوان «العلوم الطبيعيّة والطّب»: «إنّ ما اكتشف فى‌السنين الأخيرة كان نوراً جديداً على تاريخ علوم العالم الإسلامى القديم، ولا شكَّ فى أنّ هذه الإكتشافات ليست كافية لحد الآن، وأنّ العالم سيقف أكثر فأكثر على أهميّة العلوم الإسلامية فى المستقبل» «۱».

وفى مقالة اخرى عن البروفسور «كيب» أستاذ اللغة العربية فى جامعة لندن، تحت عنوان «نفوذ الأدب الإسلامى فى أوربا» يقول:

«عندما نلقى نظرة على الماضى نلاحظ بأنّ علوم وأدب الشرق كان بمنزلة المادة الأولية للحضارة العربية بنحو أضاءت معنويات وأفكار الشرق، الروح الكدرة لأهل القرون السّالفة الغربيين، وهَدَتْهُم إلى عالم أوسع» «۲».

وكتب «جرجى زيدان» المؤرخ المسيحى المعروف فى كتابه «تاريخ الحضارة الإسلاميّة» فى مبحث تأثير الإسلام فى العلوم والمعارف التى وردت دائرة الإسلام من الخارج، قائلًا: «عندما وصلت الحضارة الإسلاميّة إلى مرحلة الكمال، وانتشرت العلوم الأجنبية فى بلاد المسلمين، بدأ المسلمون بتعلُّم تلك العلوم، فاستفاد بعض (علماء الإسلام) من نبوغهم وسبقوا أهل تلك العلوم الأصليين، وأضافوا إليها آراء واكتشافات جديدة، وبهذا تنوعت العلوم وتكاملت وانسجمت مع الثّقافة والآداب الإسلاميّة، واتخذت شكل الحضارة الإسلاميّة.

وعندما نهض الغربيون لاستعادة علوم اليونان، أخذوا أكثر هذه العلوم بنفس ذلك اللون الإسلامى من اللغة العربية!» «۳».

ويقول فى موضوع آخر: «وممّا قلناه حول دور التّعليم فى الحضارة الإسلاميّة، يمكن

---

(۱) ميراث الإسلام، ص ۱۱۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۸۱.

(۳) تاريخ الحضارة، جرجى زيدان، ج ۳، ص ۱۹۶.

الجزم بأنّ العلم والمعرفة نشأتا فى جهات مختلفة عند المسلمين، وأنّ العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة قد أبدَوا نبوغهم وإبداعهم فى هذا المجال» «۱».

وخلاصة الكلام، إنّ الكتب التّاريخية العالميّة العامّة، أو تلك الخاصّة بتاريخ الحضارة الإسلامية، قد ذكرت بوضوح اعترافات مؤرخى الشرق والغرب بتأثير النهضة العلميّة عند المسلمين على تأريخ وعلم وثقافة المجتمع البشرى على المدى البعيد أو القصير، وتفصيل الكلام فى ذلك يحتاج إلى كتاب مستقل، وما ذكر إنّما هو جانب مختصر من ذلك.

۴- مقام المُعَلِّم فى الإسلام

كما نعلم فإن التعلّم فى نظر الإسلام واجب عينى، وقد يكون فى بعض العلوم واجباً كفائياً، أى أنّ بعض العلوم يجب على الجميع تعلّمها، وأمّا ذلك القسم الذى يتميز بميزة تخصّصية وتعلّمهُ ليس ميسوراً للجميع، فهو واجب كفائى.

وكذلك الكلام فى تعليم العلوم، فقسم من العلوم لابدّ أنْ يتم تعليمه للجميع من قبل الذين يحملون تلك العلوم، فى حين أنّ تعليم البعض الآخر، واجب كفائى.

فعلى كل حال، فإنّ تَعلُّم وتعليم كلّ العلوم التى يرتبط بها قوام المجتمع البشرى مادّياً ومعنويّاً لازم وضرورى، سواءً كان واجباً عينيّاً أو كفائيّاً، ولهذا فإنّ أى مسلم لا يحق له أن ينفصل عن التّطورات العلميّة الحديثة، بل عليه ومن أجل تقوية أركان الحكومة الإسلاميّة، أنّ يبذل كل ما بوسعه لتعلّم وتعليم تلك العلوم، ولا شك فى أنّ المسلمين لو قصّروا فى هذا المجال وصاروا سبباً فى تأخر الدّول الإسلاميّة عن المجتمع البشرى، فإنّهم سيكونون مسئولين أمام اللّه!

يعتبر القرآن المجيد أنّ المعلم الأوّل هو اللّه عزّوجلّ، وأنّ التّلميذ الأوّل هو آدم عليه السلام، وأوّلُ عِلمٍ تعلمه آدم هو، علم الأسماء «ويحتمل قوياً أنّ المراد من ذلك هو الإطلاع على أسرار الخلقة وموجودات الكون».

---

(۱) تاريخ الحضارة، جرجى زيدان، ج ۳، ص ۲۲۲.

وآدم لم يكن الوحيد الّذى تعلَّم من اللّه عزوجل، بل عَلَّمَ اللّه يوسف الصّديقَ أيضاً عِلْمَ تفسير الأحلام: «وَعَلَّمتَنِى مِن تَأوِيلِ

الأحَادِيثِ». (يوسف/ ۱۰۱)

وعلَّمَ سليمان لغة الطيور وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيرِ». (النّمل/ ۱۶)

وعلَّمَ دواد عليه السلام صنعة الدّروع: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ». (الأنبياء/ ۸۰)

وعلّم الخضر علْماً واطلاعاً كثيراً: «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنّا عِلْماً». (الكهف/ ۶۵)

وعلَّمَ الملائكة علماً جمّاً: «سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمتَنَا». (البقرة/ ۳۲)

وعلَّمَ البشر النّطق والبيان: «عَلَّمَهُ البَيَانَ». (الرحمن/ ۴)

وفوق كلّ ذلك فإنّه علَّمَ نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله علوماً ومعارف لا يمكن تحصيلها عن طرق طبيعية «وَعَلَّمَكَ مَالَم تَكُنْ تَعْلَمُ». (النساء/ ۱۱۳)

كما أنّ المَلَك العظيم سفير الوحى جبرئيل قد علَّمَ النّبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله علوماً كثيرة «عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى «۱». (النجم/ ۵)

والأنبياء عليهم السلام بدورهم يُعتبرون فى زمرة أكبر معلمى العالم حيث إنّهم علَّموا البشريّة علوماً ومعارف كثيرة فى مجالات الدّين والدّنيا، يقول القرآن الكريم فى نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله أعظم الأنبياء: «ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ». (الجمعة/ ۲)

ونفس هذا المنهج سلكه كلّ نبيّ من الأنبياء عليهم السلام مع أمّته وعلَّمهم علم الدّين والدّنيا.

والعلماء وهم ورثة الأنبياء، جلسوا مقعد التعليم بعد الأنبياء وعلّموا النّاس العلم والمعرفة، ولذا فإنّ مقامهم فى نظر القرآن شامخ وعظيم حتّى قال تعالى فيهم: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ». (المجادلة/ ۱۱)

وأمّا مقامُ المعلِّم فى الرّوايات الإسلاميّة فإنّه شريف وعظيم حتّى أنّ اللَّه وملائكته وكل الموجودات- حتّى النملة فى جحرها والحيتان فى البحار- تصلّى عليهم كما ورد فى الحديث المروى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حيث قال:

---

(۱) أكثر المفسرين، فسروا «شديد القوى بأنّه جبرئيل، ولكن البعض يرى أنّ المقصود (بشديد القوى) هو الذات الإلهيّة المقدّسة.

«إنَّ اللَّهَ وملائِكتَهُ حَتَّى النَّمْلَةَ فِى جُحْرِها وَحتّى الْحُوتَ فِى الْبَحْرِ يُصَلُّونَ عَلى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ» «۱».

وهذا المضمون ورد فى أحاديث عديدة اخرى أيضاً.

وفى حديث آخر عن النّبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً:

«ألا أُخْبِرُكُم بأجودِ الأجْوَدِ؟ اللَّه الأجْوَدُ الأجْوَدُ! وأنا أجْوَدُ وُلدِ آدم! وأجْوَدكُم مِنْ بعدى رَجُلٌ عَلَّمَ عِلْماً فَنَشَرَ عِلْمَهُ، يُبعَثُ يومَ القيامة أُمَّةً وَحْدَهُ!» «۲».

والتّعبير بالأُمّة، يبين لنا بوضوح سعة وجود المعلمين فى موازاة سعة انتشار تعليماتهم بين المجتمع البشرى، وكلمّا كان عدد تلامذتهم أكثر كانت سعة شخصيتهم المعنوية الاجتماعيّة أوسع، حتّى تصل أحياناً إلى سعة أمَّة كاملة.

وقد بلغت أهمّية نشر العلم والمعرفة والثّقافة فىالإسلام إلى درجة أنّه ورد فى حديث معروف أنّ مجلس العلم روضة من رياض الجنّة «۳».

والملفت للنظر أنّ أى عمل فى الإسلام يكون مقدمة لنشر العلم أو يتناسب معه، يعد عبادة، فقد ورد فى حديث عن النّبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «مُجالَسةُ العُلماءِ عِبَادَةٌ» «۴».

وفى حديث آخر عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «النّظرُ إلى وجهِ العالم حُبّاً لهُ عِبادةٌ» «۵».

وفى حديث آخر عن النّبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله قال لأبى ذر: «الجلُوسُ ساعةً عِندَ مُذاكَرةِ العِلْمِ

---

(۱) کنز العمال، ح ۳۸۷۳۶.

(۲) میزان الحکمة، ج ۶، ص ۴۷۴.

(۳) هذا الحدیث وإنْ لم نعثر علی نصّه فی المصادر الإسلامیّة، إلّاأنّه ورد فی بعض الرّوایات عن النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «بادروا إلی ریاض الجنّة، قالوا: یا رسول اللّه وما ریاض الجنّة؟ قال: حَلَقُ الذکر»، وبعد أن ذکر المرحوم الفیض الکاشانی هذا الحدیث فی المجلد الأوّل من الوافی، قال: والمراد من حلقة الذّکر هنا، وکما ورد فی أحادیث اخر فی هذا الباب، هو مجلس العلم (الوافی، ج ۱، ص ۱۷۷).

ونقل الترمذی فی صحیحه هذا الحدیث بتفاوت بسیط «إذا مررتُم بریاض الجنّة فارتعوا. قالوا: وما ریاض الجنّة؟ قال: حَلَقُ الذکر» صحیح الترمذی، ج ۵، ص ۵۳۲، باب ۸۳، ح ۳۵۱۰).

(۴) بحار الأنوار، ج ۱، ص ۲۰۴.

(۵) المصدر السابق، ص ۲۰۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۲

خیرٌ لکَ مِن عبادة سَنة، صِیامُ نهارها وقیامُ لیلها، والنّظرُ إلی وجه العالم خیرٌ لکَ من عتق ألف رقبةٍ» «۱».

والأحادیث الواردة فی هذا المضمار کثیرة ومتنوعة، یطول المقام بذکرها ونختصر الحدیث هنا ونختم هذا البحث بحدیث عن لقمان الحکیم، الذی قُرِنَ کلامُه بکلام اللّه تعالی فی القرآن الکریم، یقول لقمان لولده: «یا بُنَیَّ جالسِ العلماءَ .... فإنّ اللّهَ عزّوجلّ یُحیی القُلُوبَ بنورِ الحِکْمَة کما یُحیی الأرضَ بوابل السّماءِ» «۲».

وممّا ذکر، یتضح جیداً أنّ مسألة التّعلیم والتّربیة ونشر العلم والثّقافة، تتمیز فی المنهج الإسلامی عموماً وفی برنامج الحکومة الإسلامیّة بشکل خاص، (ومن وظیفة الحکومة الإسلامیّة الإهتمام الفائق بأمر التّربیة والتّعلیم).

۵- التّعلیم المباشر وغیر المباشر

ماذکر فی البحوث المتقدمة، کان فی اطار التّربیة والتّعلیم بالطّرق المباشرة، کتشکیل حلقات الدّرس، والمدرسة وأمثال ذلک، ولکن توجد فی الإسلام طرق تعلیم غیر مباشرة کثیرة، وتأثیرها من بعض الجهات أوسع وأعمق من تأثیر الطرق المباشرة.

فالعبادات الإسلامیّة، وخاصّة تلک التی تؤدّی بشکل جماعی کصلاة الجماعة والجمعة ومناسک الحج، من جملة الأمور التی لها تأثیر قویّ فی التّعلیم الجماعی للنّاس.

فصلاة الجماعة الّتی تقام خمس مرّات بالیوم واللّیلة تُعَلِّم المسلمین درس الوحدة والإتحاد ورصّ الصفوف والمساواة والأُخوة، فتجمع شرائح المجتمع المختلفة والتی قد لا تلتقی فی السّنة مَرَّةً واحدة فی غیر الصّلاة علی أثر المشاغل والمسؤولیات المختلفة التی ینشغلون بها عن بعضهم، فصلاة الجماعة تعلّم هؤلاء درس وحدة التّفکیر ووحدة الهدف فی المسائل الاجتماعیّة.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱، ص ۲۰۳.

(۲) المصدر السابق، ج ۱، ص ۲۰۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۳

فصفوف صلاة الجماعة، ومضافاً إلی روحانیتها الخاصة الحاکمة علیها واقترانها بنور المعنویة والصّفاء، خیر وسیلة لاطلاع عامة النّاس علی المسائل المصیریّة للمجتمع الإسلامی.

لقد استطاع المسلمون الأوائل ومن خلال صلاة الجماعة- وهو لقاء یوفرلهم اللقاء صباحاً ونهاراً ومساءً- کسب الوعی الکافی ووحدة

الصف والكلمة مقابل اعدائهم ذوى العدة والعدد، حيث استطاعوا أن ينشروا برنامج الحكم الإسلامى وتعاليم الدين بسرعة فائقة. ففى صلاة الجمعة والجماعة، وطبقاً للتعاليم الإسلامية، فإنّ الإمام وحده هو الذى يقرأ الحمد والسورة نيابة عن الجميع، وبهذه الطريقة يبعث الانضباط الاجتماعى فى نفوس الناس التى تعتاد على الإدارة المقرونة بالروح والمعنى اللذين توفِّرهما مضامين السورتين اللتين يقرأهما إمام الجماعة.

والنّكتة المهمّة هنا هى أنّ للإمام الحق أنْ ينتخب سوراً مختلفة وآيات متنوعة من القرآن لقراءتها بعد سورة الحمد بحسب المناسبات المختلفة، وكلّ واحدة من هذه السور يمكنها أنْ تشتمل على دروس فى المعرفة الإسلاميّة، والأخلاق، والتّربية السّياسية والاجتماعيّة، فعندما يقرأها الإمام بشكل جذّاب والكلّ قائم يصغى لها بسكون عميق، يكون لها أثرٌ تعليمى قوى منقطع النّظير فى نفوس المأمومين، يضطرهم إلى التّفكر والتّعمق فى محتوى الآيات، ويضاعف روحانيّة العبادة وتأثيرها، ولو أنّ هذه المراسم العبادية تؤدّى بآدابها الإسلاميّة المقررة وحضور القلب وتمركز الحواس وهى الشرط الأساسى لقبولها، لكانت مدرسة عظيمة لتربية المجتمع الإسلامى، وفضلًا عن ذلك فإنّ هذه المراسم تكون درساً تربوياً لأعداء الإسلام والأجانب، وغالباً ما يلاحظ أنّ هؤلاء يقفون متأملين متفكرين فى هذه العبادة عندما يشاهدون المسلمين فى صفوف منظمة ومرصوصة يُقيمون الصلاة.

ومن هنا ورد عن الإمام على بن موسى الرّضا عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّما جُعلتْ الجَماعَةُ لِئَلا يَكُونَ الإِخلاصُ وَالتُّوحِيدُ وَالإِسْلامُ وَالْعِبادَةُ لَلَّهِ إِلّا ظاهِراً مَكْشوفاً مَشْهُوراً، لأنَّ فِى إِظْهارِهِ حُجَّةً عَلى أَهلِ الشَّرقِ وَالْغَرْبِ ... مَعَ مافيهِ مِنَ المُساعَدَةِ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۴

عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوى وَالزَّجْرِ عَنْ كَثيرِ مِنْ مَعاصِى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» «۱».

وخلاصة الكلام هى إنّ تأثير صلاة الجماعة فى إيقاظ المسلمين وتربيتهم، وتأثيرها فى افشال مخططات الأعداء وكسر شوكتهم، لا يخفى على أحد.

ولهذا فإنّ هذه العبادة العظيمة، من أهَم وآكد العبادات الإسلاميّة، وقد ذكر لها فضل عظيم وثواب جزيل فى الرّوايات إلى درجة يبهت الإنسان لها.

ففى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «مَنْ مَشى إلى مَسْجِد يَطْلُب فيه الجَماعَةَ كانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ سَبْعُونَ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَيُرْفَعُ لَهُ من الدّرَجاتِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ ماتَ وَهُوَ عَلى ذلِكَ، وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ سَبْعينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَعُودُونَهُ فِى قَبْرِهِ وَيُبَشِّرُونَهُ وَيُؤنِسُونَهُ فِى وَحْدَتِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتّى يُبْعَثَ» «۲».

۶- صلاة الجمعة وآثارها التّربويّة

وصلاة الجمعة هى الاخرى إحدى أهم الاجتماعات العباديّة السيّاسية الإسلاميّة، والتى لها تأثير قوى فى التّربيّة المباشرة وغير المباشرة. فهذه الصّلاة الرائعة، تقام كل أسبوع مرّة ومسلموا المدينة الواحدة مكلّفون بالإشتراك فى صلاة واحدة فقط «۳».

ولصلاة الجمعة خطبتان قبل الصلاة، تشتملان على مواعظ وعبر وأمرٍ بالتّقوى، وخصوصاً على المسائل الاجتماعيّة السّياسية المهمّة للمجتمع، فهى من جهة تُلَطِّفُ الرّوح والنّفس وتغسلها من أوساخ الذنوب والمعاصى، ومن جهة أخرى تعلم النّاس الإطلاع على المعارف الإسلاميّة والأحداث الاجتماعيّة والسّياسية المهمّة، وكيفية اتخاذ المواقف

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۵، ص ۳۷۲.

(۲) المصدر السابق، ح ۷.

(۳) هـذا بحسب الفقه الشّـيعى التّابع لأهل البيت عليهم السـلام وهناك من الفرق الإسـلامية السـتيّة من يجيز إقامة العديد من صـلوات الجمعة فى المدينة الواحدة، كصلوات الجماعة التى تقام فى مساجد متعددة (الفقه على المذاهب الأربعة، ج ۱، ص ۳۸۵).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۵

الصّحيحة قبالها، ومن جهة ثالثة توفر الجو المناسب للعمل الجماعى لحلِّ المشاكل فى إطار تجديد الروح الإيمانية والنشاط المعنوى.

والخطبتان من واجبات الصّلاة، وورد فى الرّوايات الإسـلاميّة والكتب الفقهيّة أن من آداب الخطبة هو أن يرفع الخطيب صوته بحيث يسمعه كلّ النّاس، وأن عليهم أن يصغوا لكلامه ويراعوا السكوت التام، وأن يستقبلوا الخطيب بوجوههم.

والأفضل أن يكون الخطيب رجلًا فصيحاً بليغاً مُطّلِعاً على أوضاع وأحوال المسـلمين، خبيراً بمصالحهم، شجاعاً، صريح اللهجة فى بيان الحقّ، مضافاً إلى حسن سيرته وسلوكه فى المجتمع فيكون ذلك سبباً لنفوذ كلامه فى قلوبهم وأن يُذَكِّر سلوكه النّاس باللّه.

ولابدّ من بيان المسائل المهمّة المرتبطة بالدِّين ودنيا المسـلمين فى الخطبتين، وكذا ما يحتاجه النّاس فىداخل وخارج الدّول الإسلاميّة والمنطقـة، وطرح المسائل السيّاسـيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة المهمّة مع مراعاة الأولويات، فيزود النّاس بالمعلومات اللازمة ويخبرهم عن مؤامرات الأعداء، ويشير إلى البرامج القصيرة والبعيدة المدى لإفشال خُطَطِهم.

ولابدّ أن يكون الخطيب ذكيّاً جدّاً وفطناً، مفكراً، مطّلعاً على المسائل المعنوية والمادية فى الإسـلام، وأن يسـتغل هذه الشـعيرة العظيمة أفضل استغلال لتوعية المسلمين وتطوير الأهداف الإسلاميّة.

وفى حديث جامع عن الإمام علىّ بن موسـى الرّضا عليه السـلام، يُبين فيه ضرورة خطبة الجمعة وأنّ ذلك لتعميم الفائدة وأنّ اللّه يريد أن يفسح المجال لأمير المسـلمين ليعظ النّاس ويُرغبهم فى الطّاعـة ويحـذرهم المعصـية، إلى أن يقـول الإمـام الرضـا عليه السـلام: «وَتَوْقِيفِهُمْ عَلى ما أرادَ مِنْ مَصْلَحَةِ دينِهِمْ وَدُنْياهُمْ وَيُخبِرُهُمْ بِما وَرَدَ عَلَيْهِمْ مِن الآفاقِ مِنَ الأَهْوالِ الَّتى لَهُمْ فِيها المَضَرّةُ وَالمَنْفَعَةُ».

ثُمّ يبين الإمام عليه السـلام فلسفة وجود خطبتين فالأولى للحمد والثّناء والتّمجيد والتّقديس للّه (والمسائل المعنوية والأخلاقيّة)، والثّانية لبيان باقى متطلبات الوعى والإنذار والأدعية

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۶

وغير ذلك من الأوامر والنّواهى والإرشادات المرتبطة بصلاح وفساد المجتمع «۱».

والـدّور الّـذى تلعبه اليوم صـلاة الجمعـة فى توعيـة النّاس فى المسائل السياسـية والاجتماعيّة غير خافٍ على أحد، وكثيراً ما يتم إفشال مخططات الأعـداء التى يبثونهـا من خلال وسائل إعلامهم على طول الأسبوع ومع كل إمكاناتهم وتجهيزاتهم، فى خطبـة واحـدة من خطب الجمعـة المدروسـة والدقيقة، ولو أنّ المسـلمين يعون أهميّة هذا البرنامج الأسـبوعى المهم، ويقيمونه كما أراد الإسـلام، وأن لا يمسـخوا هوية هذه العبادة العظيمة كبعض الدول ضـعيفة الإرادة أو المأجورة من قبل الاسـتعمار، فإنّهم- أى المسـلمون- سيسـتثمرون هذه الشعيرة الإسلاميّة ويتعرفون على عمق تأثيرها الثّقافى والتّربوى.

ولصـلاة العيـدين (عيـد الفطر وعيـد الأضـحى) وهما تشابهان صـلاة الجمعـة كثيراً وخصوصاً من جهـة الخطبتين اللتين يؤتى بهما بعد الصلاة هنا، نفس آثار وبركات صلاة الجمعة.

۷- الآثار الثّقافيّة لمؤتمر الحجّ العظيم

ومن العبادات الاخرى التى لها تأثيرٌ مهم فى تربيّة المسـلمين ونشـر العلم والمعرفة ووحدة الصّفوف وقوة شوكة المسـلمين هى مراسم الحـجّ، التى يجتمع فيهـا كـل سـنة الملايين من المسـلمين من شتى بقاع الأرض فى مؤتمر عظيم فيتعلمون فى هـذا المؤتمر شتى أنواع العلوم والمعارف وفى كلّ الجهات الماديّة والمعنويّة.

والنّكتـة المهمّـة هنا هى أنّ الإشتراك فى هـذا المؤتمر العالمى واجب على كلّ مُسـلم يسـتطيع الحـج مرّةً واحـدة فى العمر، وأمّا باقى

المرّات فهى مستحبة، ولا فرق فى هذا الحكم

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۵، ص ۳۹، ح ۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۷

بين المسلمين، فالحج واجب على الرّجل وعلى المرأة، والشّاب والشّيخ، والأبيض والأسود والمتعلم والجاهل، ولهذا نجد كلّ سنة مجموعة عظيمة من كبار الشّخصيات العلميّة والثّقافيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة من المسلمين بين صفوف الحجّاج يتشرفون بزيارة بيت اللَّه الحرام، وفى طول المدّة الّتى يقضونها فى مكة والمدينة وسائر المشاهد والمواقف يلتقى بعضهم بالبعض الآخر فيتبادلون العلوم والمعارف والمعلومات والأخبار فيما بينهم.

وفى الآونة الأخيرة وبعد وقوف المسلمين على أهميّة هذا الاجتماع المعنوى العظيم نجد أنّ علماء الدّول الإسلاميّة المختلفة يعقدون المؤتمرات المصغرة والموسعة على هامش مؤتمر الحجّ العظيم، فيلتقون ويتبادلون العلوم والمعارف والثّقافات عن هذا الطريق.

يذكر القرآن الكريم جملة مختصرة فى بيان فلسفة الحجّ حيث يقول: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ». (الحج/ ۲۸)

وللمفسرين كلام طويل فى تفسير معنى كلمة (منافع) ولكن من الواضح أنّهُ لا يوجد حدٌّ لمفهوم هذا اللفظ، فيشمل كلّ المنافع والبركات المعنويّة والماديّة والنّتائج السّياسيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة.

وقد سأل الرّبيع بن خيثم الإمام الصّادق عليه السلام عن تفسير هذه الكلمة، فبيّن له الإمام عليه السلام أنّها تشمل المنافع الدنيويّة والأخرويّة «۱».

وفى رواية أخرى عن الإمام الصّادق عليه السلام يجيب فيها هشام بن الحكم عن فلسفة الحجّ، فيشير الإمام عليه السلام إلى عدّة أبعاد مهمة، منها تعرف مسلمى العالم بعضهم على البعض الآخر، ثُمّ المنافع الاقتصاديّة، ثُمّ إيجاد كثير من مجالات العمل فى إطار موسم الحجّ ثم يشير عليه السلام إلى آثاره الثّقافيّة ويقول: «ولِتُعْرَفَ آثارُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله وتُعْرَفَ أخْبارُهُ ويُذْكَرَ وَلا يُنْسى» «۲».

وعلى أيّة حال، فلو أنّ أحداً دقّق وتأمل فى جزئيات مراسم الحجّ، وخاصة إذا شاهد تلك المراسم عن قرب، فإنّه سيقف على أهمّية البعد الثّقافى والتّربوى للحجّ بنحو يقل نظيرُهُ.

---

(۱) تفسير نور الثّقلين، ج ۳، ص ۴۸۸.

(۲) وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۹، ح ۱۸.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۸

نعم، فالحجّ يمكن أنْ يكون مؤتمراً سنوياً ثقافيّاً عظيماً- بل مؤتمرات- فيلتقى العلماء من كل أنحاء العالم الإسلامى فى الأيّام التى يتواجدون فيها فى مكة المكرمة، فتُتبادَل الأفكار والإبداعات الّتى يحملونها فيما بينهم مضافاً إلى آثار الحجّ المعنويّة الخاصّة.

وفى الفترات المظلمة لحكومة السّلاطين الظّالمين والطّغاة الّذين لم يفسحوا المجال لانتشار العلوم والمعارف الإسلاميّة، كان المسلمون يستفيدون من الظّرف الّذى يتاح لهم فى موسم الحجّ لحلّ الكثير من مشاكلهم، وبالإلتقاء بائمّة الهدى عليهم السلام وكبار علماء الإسلام، حيث كانوا يطّلعون على المعارف والقوانين الإسلاميّة وسنة النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وعندما يعودون إلى بلادهم، يعودون وهم يحملون رسالات مهمّة فى الأخلاق والثّقافة وشتى العلوم.

۸- تأثير المساجد والأماكن المقدّسة

من جملة المراكز التى يمكنها أن تشارك فى نشر الثّقافة الإسلاميّة، وتكون مؤثرة فى زيادة اطلاع عامة المسلمين، هى الأماكن المقدّسة التى يرتادها الزّائرون لزيارة مراقد قادتهم العظام حتّى يشدُّ هؤلاء الرحال من بلدانهم فى سفر معنوى باتجاه تلك المشاهد الشّريفة، وهذا بنفسه وسيلة جيدة لتبادل المعلومات والمعارف، ومواجهة الهجمة الثّقافية المضادة للإسلام.

وهناك بعض المساجد الشّهيرة فى الإسلام، امرنا بشدِّ الرحال إليها، لتسبح الروح ويغوصُ القلب فى بحر متلاطم من الرّوحانيّة والمعنويات والنّور، ولتقوية الارتباط بين المسلمين الذين يفدون من مناطق قريبة وبعيدة لزيارة تلك المساجد.

وقد ورد فى‌حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «لا يُشَدُّ الرّحال إلّاإلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرّسول ومسجد الكوفة» «۱».

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۳، ص ۵۵۲، أبواب أحكام المساجد، الباب ۴۴، ح ۱۶.

وهذا المعنى جاء أيضاً فى كتب أهل السنّة المعروفة، فقد رووا عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله إنّه قال: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلّاإلى ثلاثة مساجد: مسجدى هذا، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى «۱».

ومن الواضح أنّ هذين الحديثين لا تنافى بينهما، ومتى ما ضممناهما إلى بعضهما، يكون المقصود أربعة مساجد، كما أنّه من الواضح أنّ الهدف من بيان مثل هذه الأحاديث هو بيان أهميّة المساجد الثّلاثة أو الأربعة ولا يعنى أنّ الإنسان إذا ماشدَّ الرّحال إلى مسجد آخر فإنّه يكون قد ارتكب مخالفة، كما تصور بعض الجّهال، إذ لو كان مفهوم هذا الحديث هو التّحريم، فإنه يَحُرم كل سفرٍ مطلقاً إلّاإلى هذه الأسفار الثّلاثة فى حين أنّ هناك أسفاراً مشروعة اخرى كثيرة.

(ولابدّ من الإلتفات إلى أنّ «لا تُشَدُّ الرّحال» مطلقة تشمل كلّ سفر).

وشبيه هذا المعنى ورد فى بحار الأنوار مع تفاوت مختصر «۲».

فمثل هذه المساجد فى الحقيقة، تعتبر من المراكز الإسلاميّة الثّقافية وقد كانت لسنين عديدة فى صدر الإسلام وما بعد ذلك محلًا لإقامة حلقات الدّرس والبحث العلمى، وكان كبار العلماء يتواجدون فيها للتّدريس وتعليم العلوم والتّربية، وكذلك اليوم فإنّ المسجد الحرام ومسجد النّبىّ غاصٌّ على طول السّنة بالطّلاب والأساتذة وحلقات الدّرس، كما أنّ كثيراً من المساجد الإسلاميّة المهمّة فى البلاد الاخرى كسورية وإيران والعراق تعتبر منتديات للتّربية والتّعليم، حتّى أنّها تصير أحياناً مركزاً لأكبر حلقات الدّرس، وقد يكون التّحفيز من قبل الرّوايات على شدِّ الرّحال إلى هذه المراكز إنّما هو لأجل ذلك، مضافاً إلى كسب المعنويات والرّوحانيات فى تلك المساجد، والاستفادة من السّوابق العلميّة التّاريخية لهذه المساجد.

ونفس هذا المعنى متحقق فى المراقد المقدّسة لأئمّة الدّين عليهم السلام، حيث يكون صحن

---

(۱) صحيح مسلم، ج ۲، ص ۱۰۱۴، كتاب الحجّ، باب ۹۵، ح ۱۳۹۷.

(۲) بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۲۴۰، باب ۴۴، ح ۲.

وروضة تلك المراقد مركزاً للدّرس والتّعليم ونشر العلوم والمعارف الإسلاميّة، وأنّ زيارة تلك المراكز تكون عادة مقترنة بالاستفادة العلميّة.

وممّا يلفت النّظر هو أن بعض هذه المشاهد الشّريفة كحرم الإمام علىّ بن موسى الرّضا عليه السلام يَغصُّ على طول السّنة بالزّوار حتّى

يصل عددهم إلى ۱۲ مليون زائر سنوياً، ولذا فإن اجتماعات عظيمة تعقد على طول أيّام السنّة، وتقام مؤتمرات وجلسات رائعة، ولذلك كله تأثيره العميق فى تربية المسلمين.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۱

دور الصحف والمجلات فى الحكومة الإسلامية

تمهيد:

لاشكّ فى أنّ الصحف والمجلات تعتبر اليوم من أهم وسائل التّربية والتعليم فى العالم، والتى انتشرت بفضل التّقدم العلمى وتطور التّكنولوجيا والصّناعة، ولذا فهى عاملٌ مهم فى تهذيب الأفكار العامة أو تخريبها وتضليلها، وقد يصل عدد النّسخ المطبوعة لمجلة من المجلات أو صحيفة من الصحف، إلى عدّة ملايين نسخة، توزع فى عدّة قارات من هذا العالم فى نفس الوقت تقريباً، فتؤثر فى توجيه أفكار المجتمعات فى العالم نحو جهة معينة.

ولاشك فى أنّ دور الصّحف والمجلات لم يكن واسعاً ومؤثراً فى السّابق كما هو عليه اليوم- كما فى كثير من الأمور الاخرى أيضاً- ولكن وعلى أيّة حال، كان للكتاب والمكتبات على طول التّأريخ أثرٌ بالغٌ فى التربية والتعليم وانتقال العلوم من جيل إلى آخر وفى تكامل الثّقافة البشريّة.

وبعد هذه الإشارة الخاطفة، نعود إلى القرآن الكريم، ونتأمل فى الأهميّة التى أوْلاها للكتاب والكتابة والتى كانت بلا شكّ مبرراً من مبررات الحركة العلميّة للمسلمين فى صدر الإسلام.

وفى القرآن المجيد آيات كثيرة تتعرض لهذا الموضوع، منها:

۱- «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ». (القلم/ ۱)

۲- «اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكْرَمُ* الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الانْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ». (العلق/ ۳- ۵)

۳- «وَلْيَكْتُبْ بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيهِ الحَقُّ ...». (البقرة/ ۲۸۲)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۲

۴- «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ». (البقرة/ ۲۸۲)

۵- «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا». (سبأ/ ۴۴)

۶- «ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ اثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (الأحقاف/ ۴)

۷- «رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُّطَهَّرَةً* فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ». (البيّنه/ ۲- ۳)

جمع الآيات و تفسيرها

يستعمل القرآن الكريم فى بعض الآيات صيغة القسم للتأكيد على أهميّة الموضوع الذى يريد بيانه، والقسم تارة يكون بالذات الإلهيّة الطّاهرة، وفى كثير من الموارد يكون بالموجودات المهمّة كالشّمس والقمر والأرض والسّماء وأمثال ذلك.

وفى الآية الأولى الّتى ذكرناها وهى أوّلُ آية من سورة القَلم، يقسم عزّوجلّ بالقلم، وكل ما يكتبه القلم: «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ».

وفى الحقيقة أنّ ما وقع القسم به هنا، وإن كان فى الظّاهر موضوعاً صغيراً، فهو قطعة خشب وقصبة بسيطة أو ما شابه، وشىء من السّوائل الملونة، وأسطرٍ على صفحات متواضعة، إلّاأنّه فى الواقع منبع ظهور الحضارات الإنسانيّة وتقدم العلوم والمعارف ويقظة الفكر وتصوير المذاهب والأديان بصورتها الحقيقية، ومصدر التّربية والتعليم والهداية للبشرية.

ومن هنا، فإنّ العلماء يقسّمون أدوار حياة الإنسان إلى دورين رئيسيين هما «مرحلة ما قبل التّاريخ» و «مرحلة ما بعد التّاريخ»، ويقولون إنّ مرحلة ما بعد التّاريخ تبدأ من حين اختراع الخط والكتابة، وعندما استطاع الإنسان أن يمسك القلم بيده ويكتب أحداث حياته على الصفحات، وأمّا قبل ذلك فيسمى بمرحلة ما قبل التّاريخ.

ويجب أن لا نغفل عن أنّ هذه الآية نزلت فى محيط جاهلى أكثر من أى محيط آخر، حيث لم يكن هناك من يهتم بالقلم والكتابة، ولم يصل عدد الذين كانوا يعرفون الكتابة فى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۳

مكة- وهى أكبر مركز عبادى سيّاسى واقتصادى فى الحجاز حسب قول بعض العلماء- إلى أكثر من عشرين شخصاً!

فالقَسَم بالقلم فى مثل هذا المحيط له من العظمة والجلال الكبيرين مالا يخفى!

ومن فلسفة القسم فى القرآن هو أنّه كان يحفز المسلمين على التأمل فى الأمور التى يُقسَمُ بها، وفى هذه الآية كان الأمر كذلك، فصار ذلك سبباً فى اتساع أمر القراءة والكتابة والتّأليف وترجمة كتب المجتمعات الاخرى، وانتشار العلوم فى العالم الإسلامى.

وتعتبر الآية الثّانية، من أولى الآيات- طبقاً للرأى المشهور- الّتى نزلت على قلب النّبىّ الطّاهر فى جبل النور فى غار حراء، وكانت أولى ومضات الوحى، ولذا فإنّها إشارة إلى أَهم المسائل، فعندما يأمر تعالى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بتلاوة آيات القرآن، يقول له: «اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكْرَمُ* الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الانْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ».

وبهذا فإن أوّل وصف للّه‌تعالى بعد الرّبوبيّة والكرامة هو وصف التّعليم بواسطة القلم وهو منبع تعليم «مالم يعلم».

ومن هنا فإنّ بداية الوحى نشأت مع بداية الحركة العلميّة، وهذا المعنى عميق ودقيق ومربٍّ لكل مسلم.

فمثل هذه العبارات، حفّزت المسلمين باستمرار على الإهتمام بالكتاب والمكتبات وتعلم العلوم والمعارف، وإذا كانت الرّوايات قد صرحت بأن «مداد العلماءِ أفضل من دماءِ الشُّهداءِ»، فإنّ ذلك من أجل أن أسس دماء الشهداء مبتنية على المعارف والعقائد التى تنبع أساساً من القلم، كما أنّ سند بقاء دماء الشهداء هو مداد أقلام العلماء.

إنّ تفاهم النّاس فيما بينهم وانتقال الأفكار ينحصر فى طريقين عادة: البيان والقلم مع تفاوت بينهما وهو أنّ البيان وسيلة للارتباط بين الحاضرين فى مكان وزمان واحد، أمّا الارتباط بالقلم فلا ينحصر فى الحاضرين، وإنّما يعتبر القلم وسيلة للارتباط بين أبناء

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۴

الأجيال والعصور المختلفة وفى الأمكنة المختلفة، فهو يربط أهل القرون السّابقة بالقرون السائدة واللاحقة، ولذلك يقول أحد العلماء: «بيانُ اللِّسان تُدرِسُهُ الأعوام وما تُثبتُهُ الأقلام باقٍ على مرِّ الأيّام».

وكذلك قال بعض العلماء: «ينبغى أن لا تسقط برايا الأقلام تحت الأقدام، فإنّها محترمة أيضاً!».

والنّكتة الملفتة للنّظر هى أنّه كما أنّ البيان من خصوصيات الإنسان، فإنّ القلم أيضاً من مختصاته، بل إنّ القلم أعقد بكثير من البيان باللِّسان، وليس عبثاً أن يكون أمرُ تعليم الكتابة بالقلم من قبل اللّه نفسه- بشكل مباشر بواسطة أحد الأنبياء (آدم أو إدريس) أو بطريق غير مباشر، أى منح موهبة وقابلية القراءة والكتابة للبشرية- من أكبر النعم الإلهيّة على الإنسان، وأنّ الآيات القرآنية الأولى للوحى قد استندت إلى القلم، وأشارت إليه بعد الإشارة إلى عظمة اللّه.

وفى الآية الثّالثة وهى مقطع من أطول آيات القرآن المجيد، والنّاظرة إلى تنظيم العلاقات اليوميّة بين النّاس، نجد اهتماماً خاصاً بمسألة القلم، يقول عزّوجلّ: «وَلْيَكْتُبْ بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ» ثُمّ يضيف: «وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيهِ الحَقُّ ...».

فهنا تعتبر الآية أنّ القدرة على الكتابة موهبة إلهيّة، ويوصى أولئك الّذين شملتهم هذه العناية الرّبانيّة أن يعينوا أولئك الاميين لإحقاق حقوقهم، فيستفيدوا من هذه القدرة ويكتبوا لهم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۵

والظّريف هو أنّه جاء فى بقيـة هـذه الآيـة: «وَلَا يُضارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَـهِيْدٌ» أى لا ينبغى أن يتضـرر كاتب أو شـهيد، فإن وسّـعنا مفهوم هذه الآيـة الّتى وردت فى مورد خاص (وهو كتابة وثيقة القرض) أى لو ألغينا الخصوصـيـة وألحقنا بها الموارد الاخرى التى يمكن الاستفادة فيها من موهبـة الكتابـة لإعانـة أفراد المجتمع، وكـذلك عـدم إضـرار الكتّاب، وبعبارة أُخرى حفظ حريـة القلم، نصل إلى نكتـة مهمّة وصلت إليها البشريّة بعد قرون من نزول هذه الآية، مع أنّها تواجه مشاكل عديدة فى تطبيق ذلك عمليّاً.

وفى الآيـة الخامسـة، يـذّم القرآن المجيـد أولئك الّذين يخالفون الآيات الإلهيّة، ويحاججهم ويطالبهم بالمبررات المنطقية التى دعتهم إلى ذلك، يقول عزّوجلّ:

«وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَّذِيرٍ».

وبالرغم من أن المراد من الكتب، الكتب السّماوية، ولكن ماذكر من موضوع الكتاب ودراسته وتعلمه فى هذه الآية إلى جانب إرسال الأنبيـاء، وأنّ الكتاب أحـد الـدليلين المعتبرين، يكفى لمعرفـة أهميّـة ودور الكتاب، ونظير هـذا المعنى نجـده فى سورة القلم، فى مقام المؤاخذة وذم منكرى الإسلام والقرآن، حيث يقول تعالى: «أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ». (القلم/ ۳۷)

وهذا إشارة إلى أنّ الكتاب يمكن أنْ يكون فى عدّة موارد سنداً معتبراً يُستند إليه فى الإحتجاج.

والحقيقـة أنّ اعتماد القرآن المجيد على مسألة الكتاب والكتابة فى مورد الكتب السّماوية للأنبياء سواءً فى أمور الدّنيا، أو فى صـحيفة الأعمال والمحكمة الإلهيّة، كلها تبيّن أهميّة هذا الموضوع من وجهة نظر القرآن والإسلام.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۶

توضيحات

۱- أهميّة الكتاب والقلم فى الرّوايات

وردت روايات كثيرة عن النّبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله والأئمّـة المعصومين عليهم السـلام فى بيان أهميّة الكتاب والكتابة، وإليك نماذج من تلك الروايات:

۱- ورد فى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«قَيِّدوا العِلْمَ فقيل: يا رسول اللَّه، وَما تَقْييدُهُ».

قال صلى الله عليه و آله: «كِتابَتُهُ» «۱».

۲- وفى حديث آخر عنه أيضاً: «اكْتُبُوا العِلْمَ قَبْلَ ذَهاب الْعُلَماءِ وَإِنَّما ذَهاب العِلْم بِمَوتِ الْعُلَماءِ» «۲».

۳- قال الإمام الصّادق عليه السلام لأحد أصحابه: «أُكْتُبْ وبُثَّ عِلْمَكَ فِى إخوتِكَ فإنْ مِتَّ فورِّثْ كُتُبَكَ بنيك، فإنَّهُ يأتى على النّاس زَمانُ هَرَجٍ ما يأنسونَ فيه إلّابِكُتبِهِمْ» «۳».

۴- وفى حديث آخر عنه أيضاً: «مَنَّ اللَّهُ على النّاس بَرِّهم وفاجِرِهِمْ بالكتاب والحساب ولولا ذلك لتغالطوا» «۴».

۵- يقول أمير المؤمنين عليه السلام فى حديث رائع جدّاً ومختصر: «الكُتُبُ بَساتُينُ العُلَماءِ» «۵».

والبسـاتين لهـا هواء لطيف، ولهـا منـاظر خلّابـة، وفيهـا أنواع الثمـار، وفيها أنواع الأوراق والورود والأعشاب الطبيّـة، وفى الحقيقـة، فإنّ الكتاب له كلّ تلك الآثار.

۶- وفى حديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ورد بتعبير رائع جدّاً يُبيّن فيه أهميّة الكتاب والكتابة بطرز محيّر للعقول، يقول

صلى الله عليه و آله: «ثلاث تخرِقُ الحجبَ، وتنتهى إلى مابين يدى اللَّه:

صريرُ أقلامِ العلماءِ، وَوَطءُ أقدام المجاهدينَ، وصوتُ مغازلِ المُحصَناتِ» «۶».

وفى الواقع، كلّ واحدٍ من هذه الأصوات الثّلاثة خفيٌّ فى الظّاهر إلّاأنّه فى باطنه وواقعهِ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۱۵۱.

(۲) كنز العمال، ح ۲۸۷۳۳.

(۳) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۱۵۰.

(۴) فروع الكافى، ج ۵، ص ۱۵۵.

(۵) غرر الحكم.

(۶) الشهاب فى الحكم والآداب، ص ۲۲.

جوهرى، وكلّ واحدٍ منها إشارة إلى إحدى المسائل الاساسيّة فى المجتمعات البشريّة «العلم والكتابة» «الجهاد والشّهادة» «السّعى والعمل»!

۷- يقول الإمام الصّادق عليه السلام للمفضّل ضمن بيان نعم اللَّه العظيمة على البشرية:

«وكَذلِكَ الكِتابَةُ الَّتى بِها تُقَيَّدُ أخْبارُ الْماضِيْنَ لِلْباقينَ وَأَخْبارُ الْباقينَ لِلآتينَ وَبِها تُخَلَّدُ الْكُتُبُ فِى الْعُلُومِ وَالآدابِ وَغَيْرِها وَبِها يَحْفَظُ الإنْسانُ ذِكْرَ ما يَجْرى بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُعامِلاتِ وَالْحِسابِ، وَلَوْلاهُ لانْقَطَعَ اخبارُ بَعْضِ الأزْمِنَةِ عَنْ بَعْضٍ، وَأَخْبارُ الْغائبينَ عَنْ أوْطانِهِم، وَدَرَسَتِ الْعُلُومُ وَضاعَتِ الآدابُ، وَعَظُمَ ما يَدْخُلُ عَلَى النّاسِ مِنَ الْخَلَلِ فِى أُمُورِهِمْ وَمُعامِلاتِهِمْ، وَما يَحْتاجُونَ إلَى النَّظَرِ فِيهِ مِنْ أمْرِ دِينِهِمْ وَما رُوِىَ لَهُمْ مِمّا لا يَسَعُهُمْ جَهْلُهُ» «۱».

۸- ونختم هذا البحث برواية عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تكشف الستار عن أهميّة بقاء الآثار العلمية بواسطة الكتابة، وتدعو العلماء وتحفزهم وتشدُّهُمْ إلى ذلك، يقول صلى الله عليه و آله:

«الْمُؤمِنُ إذا ماتَ وَتَرَكَ وَرَقَةً واحِدَةً عَلَيْها عِلْمٌ، تَكُونُ تِلْكَ الْوَرَقَةُ يَوْم القِيامَةِ سِتْراً فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ النّارِ وَأعْطاهُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالى بِكُلِّ حَرْفٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْها مَدينَةً أوْسَعُ مِنَ الدُّنْيا سَبْعَ مَرّاتٍ» «۲».

۲- وصايا مهمة للحكومات الإسلامية

من مجموع ما قرأناه فى الآيات والرّوايات، تتضح لنا هذه النّقطة، وهى أنّ المسلمين فى القرون الأولى لظهور الإسلام لما توجهوا للعلوم والفنون والمعارف، وأوجدوا نهضة علميّة واسعة عمّت بركاتها وثمارها اوربا أيضاً، فإنّ جذور ذلك موجود وكامن فىالثّقافة الّتى علمهم إيّاها الإسلام، ومن الواضح جدّاً أنّ على الحكومات الإسلاميّة أن تهتم بهذه المسألة

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۵۸، ص ۲۵۷.

(۲) المصدر السابق، ج ۱، ص ۱۹۸.

الّتى تعتبر أساس حياتهم وتقدمهم فى دينهم ودنياهم.

وفی هذا المجال، فإنّ الحکومة الإسلامیّة وبالاستفادة ممّا ذُکر، علیها أنْ تراعی القواعد والأمور التّالیة.

۱- لابدّ أن تنتشر القراءة والکتابة بشکل واسع فی کلّ طبقات المجتمع حتّی لا یبقی فرد جاهل بهما، بل یتنعم الجمیع بنعمة القراءة والکتابة، وأی تقصیر فی هذا المجال تکون الحکومة الإسلامیّة مسؤولة عنه.

۲- تأسیس المکتبات العامة والخاصّة لعامة النّاس ولخصوص المحققین والعلماء، والمکتبات التی تضم مختلف الکتب فی شتی العلوم من وظائف الحکومة الإسلامیّة أیضاً.

وکلّ جهد فی هذا المجال، فضلًا عن کونه مطلوب من قبل الشّارع المقدّس، فمع ذلک سیکون سبباً فی قوة واقتدار المسلمین، ومواجهة النواقص والمفاسد الفردیة والاجتماعیّة المختلفة، وهو أیضاً سبب فی تطور المجتمع الإسلامی ورقیه.

۳- ینبغی أن لا تقتصر وسائل الإعلام العامة فی الحکومة الإسلامیّة علی الأخبار والمسائل السیّاسیة وبرامج التّسلیة، بل لابدّ أن یخصص جزءٌ کبیر منها لنشر العلوم والمعارف وبما یتناسب مع کل الأمزجة لجمیع أفراد المجتمع ونشر آخر التطورات والإکتشافات العلمیّة فی أوّل فرصة ممکنة بشکل واسع فی المجتمع الإسلامی، للحدِّ من أی تخلف حضاری وعلمی عند المسلمین.

۴- علی الحکومة الإسلامیّة أن تشجِّع العلماء والمحققین والکتّاب علی الاستفادة من کل الوسائل العلمیّة الحدیثة وأن توفر ما یلزم لتعزیز هذه القدرة عندهم، وعلیها من أجل إنتاج حصیلة علمیة تشجیع الابداعات والإبتکارات العلمیّة، وتوزیع الجوائز والإمتیازات، وإن تکرم العلماء والمحققین بنحو یحفز الآخرین علی الجدّ والسعی فی هذا المجال.

۵- توسعة المدارس والجامعات وتعمیق برامجها وتطویرها واستثمار الإبتکارات العلمیّة للعلماء المسلمین، وحتی المحققین الأجانب، وفی هذا المجال لابدّ أن یکون ذلک علی رأس برامج الحکومة الإسلامیة، وأن یتبلور ذلک طبقاً لما أراده الإسلام والذی

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۹

انعکس فی الآیات والروایات المذکورة وهی نموذج من تعالیم الإسلام.

والإطلاع علی الصنّاعة والتّکنلوجیا لیس أمراً منفصلًا عن ذلک بحال، لأننا نعلم أن تعلّم کل الأمور المهمّة بنحوٍ من الأنحاء لحفظ المجتمع الإسلامی، واجبٌ عینی فی الفقه الإسلامی، ولا یحقّ لأی‌مسلم أن یغفل عنه.

۳- تأسیس المکتبات

إحدی مسؤولیات الحکومة الإسلامیّة المهمّة فیما یرتبط بمسألة التّربیة والتّعلیم هو تأسیس المکتبات العامة، وذلک لأنّ أکثر النّاس غیر قادرین علی شراء کتب مختلفة وعدیدة، فی حین أنّهم یطلبون العلم ویریدون المعرفة، وحتی لو کانوا قادرین علی ذلک، فإنّه لا یلزم أن تُجَمّد أموال طائلة فی المنازل، فالأفضل أن یتمّ تأسیس مکتبات عامة لیتم استغلال الثروات فی أمور أخری، ولکی یتمکن الفقیر والغنی ومتوسط الحال والصغیر والکبیر من اقتناء الکتب المختلفة ومطالعتها، سواءً الکتب الدینیّة أو العلمیّة أو الأدبیّة أو التّاریخیة والسیاسیة.

وفلسفة تشکیل المکتبات معروفة من قدم الدهر، ولهذا نجد أن مکتبات عدیدة قد اسست منذ آلاف السّنین فی نقاط مختلفة من هذا العالم وإن کان بعضها بسیطاً وابتدائیاً.

وفی المجتمع الإسلامی، وللتأکید الکبیر الذی ورد فی التعالیم الإسلامیة علی مسألة العلم والمعرفة نجد أنّ المکتبات العظیمة کانت قد اسست منذ القرن الثّانی للهجرة فی البلاد الإسلامیّة، حتّی أظهر المؤرخون غیر المسلمین إعجابهم وتقدیرهم لمثل تلک المکتبات.

ولجرجی زیدان، المؤرخ المسیحی الشّهیر، بحث مفصل حول مکتبات بغداد والأندلس ومصر وسائر نقاط العالم الإسلامی، الأمر الذی یُبیِّن انفتاح المسلمین العلمی العظیم فی القرون الأولی للإسلام.

ومن جملة المكتبات العظيمة المهمّة التى يذكرها هى مكتبة بيت الحكمة فى بغداد،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۰

والتى يُحتمل وبشكل قوى أنّ هارون الرّشيد هو الّذى أسسها، والتى جُمِعَ فيها كل الكتب المؤلفة فى الطّبّ والعلوم الاخرى وكذا العلوم الإسلاميّة المدوّنة «۱».

وقد قام كثير من رجال بغداد بتأسيس مكتبات أخرى تبعاً لمكتبة بيت الحكمة، جمعوا فيها آلاف الكتب المختلفة.

ولقد كان المأمون العبّاسى، من السّباقين فى تأسيس المكتبات فى الدّول الإسلاميّة، وكان بعض حكام الأندلس قد اقتدوا به فى هذا المجال.

ومن جملة من اهتم بهذا الأمر «المستنصر العبّاسى» فى القرن الرّابع للهجرة، حيث أسس مكتبة عظيمة فى «قُرطبة» جمع فيها الكتب من أنحاء العالم، وكان قد كلَّفَ جماعة من التّجار بالترحال والسّفر إلى نقاط الدنيا وشراء الكتب العلمية لتلك المكتبة، حتى أنّ البعض قال إنّ عدد الكتب الموجودة فى تلك المكتبة بلغ «أربعمائة ألف كتاب» «۲».

وهذا العدد كبير جدّاً بعد الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كل الكتب حينذاك كانت مخطوطة، وكانت كتابة الكتاب الواحد تستغرق أسابيع أو أشهر أو سنين.

وقد اقتدى به كثير من ملوك «الأندلس» فأسسوا مكتبات عديدة فى سائر البلاد، حتى قيل إنّ «غرناطة» كانت تضم سبعين مكتبة عامة ضخمة، وكل ذلك إنّما هو لأجل الرغبة الشديدة واللهفة لطلب العلم والمعرفة عند النّاس، حتى صار جمع الكتب وتأسيس المكتبات من علامات العظمة والشخصية، فحتى الرؤوساء والملوك الذين لم يكونوا من أهل المطالعة، كانوا يحاولون تأسيس مكتبة معتبرة خاصة فى منازلهم!!

وفى زمن «الفاطميين فى مصر» تأسست مكتبات كبيرة أيضاً، كانوا يسمون بعضها «خزانة الكتب» ويصرفون أموالًا طائلة فى جمع الكتب حتى أنّهم كانوا أحياناً يجمعون عدّة نسخ من الكتاب وبخطوط مختلفة وزخرفة متنوعة، حتى ذكر التاريخ أنّ المكتبة التى أسسها «يعقوب بن كلس» كانت تضم ۳۴۰۰ نسخة مختلفة من «القرآن المجيد» و ۱۲۰۰

---

(۱) تأريخ الحضارة، جرجى زيدان، ج ۳، ص ۲۲۸.

(۲) تاريخ الحضارة، جرجى زيدان، ج ۳، ص ۲۲۸.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۱

نسخة من «تاريخ الطبرى» وقيل أن عدد الكتب فى تلك المكتبة بلغ ۱ /۶۰۰ /۰۰۰ كتاب منها ۶۵۰۰ نسخة فى النّجوم والهندسة والفلسفة «۱».

يقول «ول ديورانت» فى كتابه «تاريخ الحضارة»: كانت مكتبات الخلفاء الفاطميين تضم مئات الكتب المزينة بالنقوش من جملتها (۲۴۰۰) نسخة من القرآن، وكان فى «مكتبة الخليفة» فى القاهرة ۱۰۰ /۰۰۰ كتاب فى عهد الخليفة «الحاكم بأمر اللّه» و ۲۰۰ /۰۰۰ كتاب فى عهد الخليفة «المستنصر» «۲».

ومتى ما قارنا بين هذه الأعداد وبين أعداد الكتب فى المكتبات اليوم فى كثير من البلدان، نلاحظ تفاوتاً واضحاً بينها، مع أنّ أمر طبع ونشر الكتب اليوم أسهل بكثير من ذلك الوقت خصوصاً مع تطور وسائل الطّباعة الكبير، حيث لم يكن فى السّابق إلّاالكتب المخطوطة، وهذا التفاوت فى الأعداد والأرقام مسألة مهمّة لابدّ من دراستها، ونختم هذا الحديث بعبارة أخرى للمؤرخ الشّهير «ول ديورانت» حيث يقول: كانت أغلب المساجد تشتمل على مكتبة، وكان فىأكثر المدن أيضاً توجد مكتبة عامة تحتوى على عدد كبير من الكتب، تفتح أبوابها لطلّاب العلم ... وكان فهرست مكتبة «الرىّ» فقط عشرة مجلدات، وكان روّاد مكتبة «البصرة» يحصلون على

مخصصات وإعانات مالية!

وكان «ياقوت الحموى» الجغرافى الشهير قد قضى ثلاث سنوات فى مكتبة «مرو» و «خوارزم» لجمع المعلومات لكتابه «معجم البلدان»، وعندما خرَّب المغول «بغداد» كان فى بغداد ستة وثلاثون مكتبة عامة، غير المكتبات الخاصة العديدة، إذ كان المتعارف أن يكون لكل من الأغنياء مكتبة تضم عدداً من الكتب!

ولقد دعى «أمير بخارى» طبيباً معروفاً إلى بلاطه، فلم يستجب الطبيب لدعوته واعتذر بأنّه يحتاج إلى أربعمائة بعير! لحمل كتبه، وعندما توفى «الواقدى» ترك ستمائة صندوق مملوءة بالكتب، يلزم لحمل كل منها رجلين.

---

(۱) تاريخ الحضارة «ول ديورانت»، ج ۳، ص ۲۳۱.

(۲) المصدر السابق، ج ۴، ص ۳۶۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۲

وكان لبعض الأعاظم مثل «الصاحب بن عبّاد» كتبٌ بعدد كتب كل مكتبات أوربا! ولم يكن فى أى بلد من بلدان العالم- إلّاالصين أيّام «مينك هوانك»- شوق وشغف بجمع الكتب نظير ما كان عند المسلمين فى الفترة ما بين القرن الثامن وحتى القرن الحادى عشر الميلادى (الثانى- الخامس الهجرى) وقد وصلت الحياة الثّقافيّة للمسلمين إلى أوجها فى تلك الفترة «۱».

لقد كانت الدوّل الإسلاميّة مهداً للعلم والحضارة والثقافة فى القرون الوسطى وفى أكثر القرون حيث كان الأوربيون يعيشون فى أحلك فترات تاريخهم المظلم.

ولكى لا نبتعد عن صلب الموضوع، نقول: إنّ الهدف هو أن يتضح مدى تأثير تعاليم الإسلام فى تطور التّربية والتّعليم وتأسيس المكتبات وانتشار العلم والمعرفة، ومن هنا تتضح لنا خطورة مسؤولية الحكومة الإسلاميّة فى هذا الأمر المهم.

---

(۱) قصّة الحضارة، ول ديورانت، ج ۴، ص ۳۰۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۳

الركن الخامس: الدفاع (القوات المسلحة)

تمهيد:

لو كانت الدنيا خالية من الظّلمة الطّامعين والمعتدين والمتجاوزين، لما كان هناك أيّة ضرورة لوجود القوات المسلحة لحفظ الحدود، ولعاش النّاس فى بلادهم آمنين مطمئنين تربطهم روابط تجارية وثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية سالمة وطبيعيّة.

ولكن حب الإستعلاء والتّسلط الذى قد يوجد أحياناً عند بعض الأفراد، وأحياناً عند بعض الشعوب، يؤدّى غالباً إلى اعتداء هذا الفرد أو ذلك الشعب على فرد آخر أو شعب آخر، وفى مثل هذه الحالات يحق للجميع أن يتسلحوا ويستعدّوا لحفظ أمنهم وحياتهم، إذ إنّ النّظام الذى يحكم العالم اليوم وللأسف هو نظام الغلبة للقوى وهذا الأمر يبرر لنا فلسفة تشكيل القوى المسلحة وقوات الدفاع.

فصحيح أنّ وجود مثل هذه القوى لم ينجح بشكل كامل لمنع مثل هذه الإعتداءات العدوانيّة، ولكنّها بلا شك كانت ولا تزال مانعة بنسبة معينة من ذلك، إذ فى كثير من الأحيان يتحتم على القوى المعتدية أن تغامر وتخاطر بوجودها فى اعتدائها، حيث إنّ النتيجة لا تكون معلومة، فقد تتحمل خسائر جسيمة وتدفع ضريبة غالية فى طريق الغلبة على البلد المعتدى عليه وهذا نفسه يمنع فى كثير من الأحيان مثل هذه الإعتداءات والحروب.

ومضافاً إلى ذلك، فإنّ الأمّة ذات الحضارة والثقافة والتى تريد الحصول على ميدان حرٍّ لتنشر ثقافتها بين الأمم الاخرى تحتاج إلى قوة عسكرية للحصول على ذلك الجو الحرّ، ولا يمكنها ذلك بدون الإتكاء على القوة، وهذه فلسفة اخرى لتشكيل القوى العسكرية.

ولو أردنا بحث هذه المسألة فى بعد أوسع، لابدّ أن نقول إنّ الحياة غير ممكنة بلا

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۴

«جهاد»، إذ إنّ الكائن الحى يواجه دائماً فى طريق استمرار حياته، بعض الموانع والصعوبات التى تهدد كيانه فى كل لحظة، وإذا لم يكن مجهزاً بقوة دفاعية فسوف ينهزم بسرعة.

وجسم الإنسان وهو «عالَمٌ صغير» يتجلى فيه العالم الأكبر، هذا الجسم نموذج بارز لهذه المسألة، وذلك لأنّ حياة الإنسان مهددة دائماً بخطر التلوث «بالميكروبات» و «والفايروسات» التى ترد البدن عن أربعة طرق (التّنفس، الأكل، الشّرب، والجلد إذا ما أصيب البدن بجراحات)، فلو لم يكن بدن الإنسان مزوداً بالقوى الدفاعية المجهّزة، لابتلى بأنواع الأمراض الخطيرة التى تشلُّ حركته وتقتله.

نعم، فكريات الدّم البيضاء تهب لمواجهة أى عدو خارجى يرد البدن، وتجاهده عن طريق حروب فيزيائية وكيميائية، وحتى لو انتصر العدو مؤقتاً ومرض الإنسان، تستمر تلك الكريات بدفاعها حتى تتغلب على العدو وتؤمّن السلامة الكاملة للبدن.

وعدد هذه الخلايا الدفاعية الموجودة فى بدن الإنسان يصل إلى عدّة ملايين كما يقول العلماء، وعند ملاحظة عمل هذه القوى يحتار عقل الإنسان حيث تحكى عن نكات عجيبة من أسرار الخلقة تجعل الإنسان يضطر للركوع أمام قدرة الخالق عز وجلّ.

والمجتمع الإنسانى والدّول المختلفة غير مستثناة عن هذا القانون العام، وتحتاج إلى إدامة حياتها واستمرارها لقوى عسكرية مجهّزة ومتطورة.

وبعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم.

ففى القرآن الكريم آيات عديدة فى مجال الجهاد وفلسفته وأحكامه، وكذلك آثاره ونتائجه، وقد إنتقينا إحدى عشرة آية من بين تلك الآيات:

۱- «اذنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِانَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ اخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَ هُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ». (الحج/ ۳۹- ۴۰)

۲- «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ فَإِنِ انْتَهَوا فَإِنَّ اللَّهِ بِمَا يَعمَلُونَ بَصِيرٌ». (الأنفال/ ۳۹)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۵

۳- «وَاعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ».

(الأنفال/ ۶۰)

۴- «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ». (الصف/ ۴)

۵- «يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِّنْكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ». (الأنفال/ ۶۵)

۶- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذابٍ أَلِيمٍ* تُؤمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ* وَاخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ».

(الصف/ ۱۰- ۱۳)

۷- «إِنَّ اللَّهَ إِشْتَرَى مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوراةِ

وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». (التوبة/ ۱۱۱)

۸- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

(آل عمران/ ۲۰۰)

۹- «يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ». (التوبة/ ۷۳) (التحريم/ ۹)

۱۰- «لَّايَستَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ غَيْرُ اوْلِى الضَّرَرِ وَالْمجاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِامْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمجاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً». (النساء/ ۹۵)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۶

جمع الآيات و تفسيرها

روح الجهاد، دفاعٌ لاغزو:

فى الآية الأولى من الآيات الآنفة الذكر، والتى يعتقد جمعٌ من المفسرين أنّها أول آية فى الجهاد، تزيح الستار عن أهم فلسفة للجهاد، وتجيز للمسلمين الذين حوصروا من قبل الأعداء الشرسين الجائرين، أن يحاربوا هؤلاء عسكرياً ويجاهدوهم، يقول تعالى.

«اذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِانَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ».

فهنا حصل المسلمون على إذن بالجهاد، مضافاً إلى أنّهم وُعدوا بالنصر من قبل اللَّه تعالى، وقد ذكر لذلك دليل، وهو أنّ العدو هو الذى بدأ الحرب العدوانية عليهم، ولذا فالسكوت عنه خطأ، لأنّه يؤدّى إلى تجرؤ العدو وتجاسره وإلى ضعف المسلمين.

يقول المرحوم الشيخ الطبرسى فى مجمع البيان: وكان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ويشكون ذلك إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فيقول لهم صلوات اللَّه عليه وآله: إصبروا فإنّى لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأنزل اللَّه عليه هذه الآية بالمدينة وهى أول آية نزلت فى القتال» «۱».

والملفت للنظر هو أنّ القرآن المجيد يقول فى الآية السّابقة لهذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا»، أى أنّ هذا الكلام لا يعنى أن يجلس هؤلاء فى زاوية من زوايا المسجد ويضعون يداً على يدٍ وينتظرون دفاع اللَّه، بل إنّ سنة اللَّه اقتضت أن يكون دفاعه عن المؤمنين بعد أداء وظيفتهم فى أمر الجهاد ومواجهة العدو، إذن، فالذين يحقّ لهم الإطمئنان للحماية الإلهيّة هم الذين لم يتركوا وظيفة الجهاد.

كما أن النكتة الاخرى التى ينبغى الإلتفات إليها هى أنّ الآية اللاحقة تقول فى تحفيز المؤمنين على الدفاع المقدس: «الَّذِينَ اخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ». (الحج/ ۴۰)

---

(۱) ومن جملة من صرّح بأن هذه الآية هى أوّل آية نزلت فى الجهاد- مضافاً إلى ما جاء أعلاه- المرحوم العلّامة الطّباطبائى فى الميزان» و «البرسوئى) فى (روح البيان) والعلّامة المشهدى فى (كنز الدقائق) و «الآلوسى»، فى روح المعانى، وإن ادّعى البعض أن الآية الأولى فى الجهاد هى قوله تعالى: «قاتلوا فى سبيل اللَّه الذين يقاتلونكم ...» (البقرة/ ۱۹) وقال البعض إنّها قوله تعالى: «إن اللَّه اشترى من المؤمنين ..» (التوبة/ ۱۱۱).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۷

أى أنّ المشركين أخرجوكم من وطنكم ومنازلكم لا لذنب إلّالإيمانكم باللَّه، ولذا إذا لم تقفوا فى وجوههم وتقاتلون تعرضت دنياكم ودينكم وإيمانكم ومساجدكم للخطر.

وبما أنّ الأمر بالجهاد صدر بعد الهجرة، فيدل على أنّ أصل الجهاد فى الإسلام هو الدفاع ضد الأعداء، لأنّ المسلمين لم يحملوا السلاح طيلة السّنوات الثّلاث عشرة على الرّغم من كل أساليب الإيذاء والضرب والجرح، لعل المشركين يعودون إلى الرّشد، ولما لم تنفع الأساليب السّلمية مع المشركين وكانت نتيجة الصبر والتّحمل هو الهجرة العامة والضّغوط الاجتماعية والاقتصادية حتى بعد الهجرة، لم يكن هناك أى مبرر عقلى لجلوس المسلمين مكتوفى الأيدى ناظرين قساوة الأعداء واضطهادهم واعتداءاتهم!؟

وفى الآية الثّانية إشارة إلى فلسفة أُخرى للجهاد، وهى كالفلسفة المذكورة فى الآية السّابقة يمكن أن توجد فى كل زمان ومكان، يقول تعالى: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

والظّريف أنّ القرآن الكريم يشير فى ذيل هذه الآية بصراحة ويقول:

«فَإِنِ انْتَهَوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

وذهب جمع من المفسرين إلى أنّ المراد من «الفتنة» هو «الشرك»، وبعض قال إنّ المراد منها الضّغوط التى استعملها المشركون لإرجاع المؤمنين إلى الشرك وردّهم عن إيمانهم.

وفى تفسير الميزان- واعتماداً على جذور هذا المصطلح الأصلية- فسّر الفتنة بمعنى الأمور التى يُمتَحن النّاس بها، وبالطّبع فإنّ تلك الأمور تكون ثقيلة على النّاس وتستعمل عادة بمعنى زوال الأمن والصلح.

وقد ذكرنا فى التفسير الأمثل، فى ذيل الآية ۱۹۳ من سورة البقرة خمسة معانٍ لهذا المصطلح استناداً إلى آيات القرآن وهى:

۱- الإمتحان.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۸

۲- المكر.

۳- البلاء والعذاب.

۴- الشّرك وعبادة الأوثان.

۵- الإضلال والإغواء.

وقد اشير فى بعض كتب اللغة كلسان العرب إلى أغلب هذه المعانى أيضاً، ومن البديهى أنّ الفتنة فى الآية مورد البحث لا يمكن أنْ تكون بمعنى الإمتحان أو المكر والبلاء، وعليه فهى بمعنى الشّرك أو ضغوط المشركين لإضلال الآخرين، ويمكن أن تكون بمعنى جامع شامل للشّرك وضغوط المشركين والعذاب والبلاء، وعليه فما دامت الضغوط مستمرة من قبل الكفّار لتغيير عقيدة المؤمنين، يكون القتال فى مواجهة ذلك مأذوناً فيه، ويجوز الجهاد للحصول على الحريّة والحدِّ من الضّغوط والتّعذيب، ولكن متى ما رفع الكفّار أيديهم عن ممارسة ذلك، ينبغى الكف عن قتالهم، وعليه فالجهاد هنا نوع من أنواع الدّفاع.

وفى الآية الثالثة ورد أمرٌ للمسلمين لإعداد كلّ لون من ألوان القوّة لقتال الأعداء، يقول عزوجلّ: «وَاعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ» ثُمّ يشير إلى مصداق واضح لذلك كان يعدُّ حينذاك من وسائل القتال المهمّة، يقول عزّوجلّ: «وَمِنْ رِّبَاطِ الخَيْلِ».

وفى العبارة اللاحقة يشير تعالى إلى الهدف النّهائى لهذا الإعداد ويقول: «تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم».

وعليه فالهدف من الإعداد وتهيئة القوى ليس غزو الآخرين والهجوم على أحد، وإنّما الهدف هو إخافة الأعداء، ذلك التخويف الذى يكون رادعاً من نشوب الحرب والقتال.

وفى الحقيقة، فإنّ تقوية البنية الدّفاعيّة، كان دائماً عاملًا مؤثراً فى الحدِّ من هجوم الأعداء، وهذا هدف مقدّس جدّاً ومطابق للعقل والمنطق.

ولابدّ من الإلتفات إلى هذه النّكتة وهى أنّ مفهوم الآية الكريمة أوسع بكثير، ويشمل كلّ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۹

نوع من أنواع إعـداد القوى المعنويّـة والماديّـة والعسـكريّة والاقتصاديّـة والثّقافيّة، وخصوصاً وأنّها تؤكد على القوى المتناسـبة مع كل زمان، ويدل ذلك على أنّ المسـلمين يجب أن لا يتوانوا، بل عليهم أن يسـعوا جاهدين لتوفير أحدث الأسـلحة المعقدة فى زمنهم، بل ويسـبقوا الآخرين فى ذلك، ولكن يبقى الهدف الأصلى لهذا الإعداد والاستعداد ليس غزو الآخرين والإعتداء عليهم، بل هو إطفاء نار الفتنة والحدّ من الإعتداء، وبعبارة اخرى خنق هجوم الأعداء فى مرحلة النّطفة.

ولما كان إعـداد المعـدات العسـكريّة المتطورة والحديثـة فى قبال الأعداء يحتاج إلى أموال طائلة، وهذا الأمر لا يمكن بدون اشتراك جميع أفراد المجتمع، تعقّب الآيـة الكريمـة بهـذا المعنى بـالقول: «وَمَـا تُنْفِقُوا مِنْ شَـىءٍ فِى سَبِيـلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيكُم وَأَنْتُم لَـا تُظْلَمُونَ». (الانفال/ ۶۰)

والنّكتة المهمّة هنا هى أنّ الآية اللاحقة لهذه الآية: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ». (الأنفال/ ۶۱) فـذكر هـذه الآية بعد تلك له معنى دقيق وعميق، وهو تأكيدٌ آخر على روح حب الصّـلح والسّـلام فى الإسـلام، أى أنّ أمر المسـلمين بإعداد أفضل أنواع الأسلحة والقوى إنّما هو من أجل تحكيم اسس السّلام والصّلح لا الإعتداء على أحد.

والآية الرّابعة وفى ضـمن التّرغيب فى الجهاد، تقّيد الجهاد أوّلًا بالأهداف المقدّسة، ثُمّ تؤكد على توحيد صـفوف المسلمين، وهى من أهم عوامل الإنتصار فى الحرب مع الأعـداء، يقول عزوجلّ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَـفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ» وعبارة «فى سبيله» الـواردة فى كـثير من آيـات الجهـاد تكشف لنـا هـذه الحقيقـة وهى أنّ الجهـاد يجب أن لاـ يكون من أجـل حبّ التسلّط والإسـتعمار والإسـتعلاء وغصب حقوق الآخرين وأراضـيهم أو الإنتقام منهم أو اتباعاً للهوى والرّغبات، بل لابـدّ أنْ يكون الهـدف هو الحقّ والعدالة وما يوجب رضا اللَّه تعالى فقط، وتكرار هذا التّعبير فى آيات عديدة من القرآن إنّما

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۰

هو للحـدِّ من وقوع الحروب التى يكون الهـدف منهـا وسـاوس ورغبـات شـيطانيّة ومادّيـة، وهـذا الأمر هو الفارق الأساسـى بين القوى المسلحة الإسلاميّة وبين غيرها! (التفتوا جيداً).

ثُمّ أنّ التّعبير بجملة بنيان مرصوص (وهو البناء الذى استُعمل فيه الرّصاص الذّائب بدلًا من الإسمنت، لكى يكون صلداً وقوياً) ويمكن أنْ يكون إشارة إلى أنّ أعـداء الإسـلام كالسّـيل الجارف المخرب، وأنّ صـفوف المجاهدين المسـلمين كالسدِّ الحديدّى المنيع الذى يصـمد أمام السُّيول. أو هو إشارة إلى السّـدِّ الحديـدى الـذى بناهُ ذو القرنين لمقابلة قوم «يأجوج ومأجوج» السّـفاكين للدّماء، أو كناية عن كلِّ سدٍّ يقام فى وجه الأعداء وهجومهم.

وعلى أيّـة حال، فإنّ هـذا التّعبير يدلّ على أنّ الجهاد فى الإسـلام له صـفة دفاعيّة فى الأصل، لأنّ السّدود وسـيلة دفاعيّة مؤثرة فى قبال أمثال «يأجوج ومأجوج» على مرِّ التّاريخ، ولا يوجد سدٌّ لهُ ميزة الغزو والهجوم والإعتداء.

وكما أنّ السُّدود إذا أصابها خَللٌ أو ثغرة فإنّها سـتكون معرضة للخطر والتّلاشـى، فكذلك صـفوف المجاهدين الرّساليين فمتى ما برز فيها اختلاف وفرقـة وعـدم انسـجام، فسـتكون محكومـة بالإنـدحار والفشل، فاللَّه عزّوجلّ يحب الصّـفوف المتراصـفة المتحدة المتفقة والمنسجمة تماماً.

وفى الآية الخامسة، يأمر نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله أن يحفز المسلمين على قتال الأعداء، وهذا الأمر وارد بعد تلك الآيات التى تحرض على إعداد القوى لإخافة العدو والحدِّ من وقوع الحروب المدمرّة، وكذلك بعد الآية التى تحرضهم على الصّلح والسّلم.

وفى الحقيقة، الحرب فى نظر الإسـلام آخر وسـيلة مشروعة تستعمل للحدِّ من اعتداءات الأجانب الأعداء، ففى البدء تعدُّ القوى لترهب الأعـداء، ثُمّ دعوتهم إلى السّـلم من موضع القدرة لا من موضع الضّـعف، ثُمّ يصدر أمر القتال والجهاد إذا لم تنفع تلك السّـبل، يقول عزّوجلّ: «يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ»، ثُمّ يشير إلى أهم عوامل النصر يعنى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۱

الإستقامة والصّمود، ويقول: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِّنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ».

فغباء هؤلاء وجهلهم يكون من جهةٍ سبباً فى مخالفتهم للمنطق والعقل وإصرارهم على روح العدوان فلا يفهمون إلّامنطق القوّة، ومن جهة اخرى يكون جهلهم سبباً لضعفهم وعدم اقتدارهم فى ميدان الحرب، وذلك لأنّهم يفتقدون الهدف والمبرر الواقعى فى حروبهم، ومن هنا فإن بإمكان المؤمن الواحد أن يغلب عشرة منهم إذا ما استقام وصمد، وبإمكان العشرين أن يغلبوا مائتين من الكفار.

يقول الراغب فى مفرداته: التّحريض فى الأصل بمعنى التّحريك نحو شىء بعد تزيينه وتسهيل طريق الوصول إليه عن طريق إزالة الموانع- وفى الحقيقة فإنّ الإيمان باللّه والإعتقاد بيوم المعاد والأجر العظيم الذى أعدّهُ اللّه للمجاهدين والشّهداء فى سبيل اللّه يزيل كل الموانع عن طريق جنود الإسلام، ويهوّن عليهم هذا العمل الثقيل والصّعب جدّاً.

هذه الآية تُخطّىء كلّ حسابات الموازنة بين القوى الظّاهريّة والماديّة، وتدل بوضوح على أنّ سلسلة من القوى المعنويّة موجودة عند المسلمين يمكنهم بالإتكاء عليها كسر شوكة جيش العدوّ المتفوّق صورياً بعدته وعدده عليهم، وكسب المعركة لصالح المسلمين.

الآية السّادسة تحرض المؤمنين على الجهاد بطريق آخر، بواسطة تشبيه الجهاد بالتّجارة المربحة الّتى توجب النّجاة من عذاب أليم، والنصر فى الدّنيا والآخرة، يقول تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، وفى الآيات اللاحقة لهذه الآيات يَعد المؤمنين بدرجات عظيمة، حيث يقول: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ* وَاخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ».

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۲

ففى هذه الآيات يعتبر رأسمال هذه التّجارة المربحة فى الدّنيا والآخرة مُركَّب من الإيمان والجهاد، أى أنَ «العقيدة» و «الجهاد» هما ركنا هذه التّجارة، ذلك الجهاد الذى يكون بالمال والنّفس معاً، إذ إنّ إعداد الوسائل والمعدات العسكريّة اللازمة للنّصر لا يمكن إلّا بصرف الأموال، والملفت للنّظر هنا هو أنّه لم يذكر أن نتيجة الجهاد هى المغفرة والرّحمة الإلهيّة والنِّعم الخالدة فى الجنّة فقط، وإنّما يذكر النّصر القريب فى هذه الدّنيا ويعتبره أعزّ من آثاره الاخرى. (دققواجيداً).

والتّعبير بالتّجارة، إشارة إلى نكتة أنّ الإنسان على أيّة حال له رأسمال، وهذه الدّنيا كالمتجر يمكن استغلال رؤوس الأموال، فيها وتشغيلها وتبديلها إلى رؤوس أموال خالدة وباقية، وهذا لا يتمّ إلّابالتّعامل مع الوجود المقدسّ للبارى تعالى، الوجود الذى بيده كل مفاتيح الخير والسّعادة، والتّجارة مع هذا الوجود مقترن على الدوام مع الكرامة والمواهب وأنواع النّعم.

كما أنّ النّكتة الجديرة بالذكر هنا هى أنّ المخاطب فى هذه الآيات هم المؤمنون، مع أنّها تدعوهم فى نفس الوقت إلى الإيمان! والهدف من ذلك هو أنْ يرتقى هؤلاء المؤمنون من مراحل الإيمان الابتدائية والصُورية إلى المراحل العالية المقترنة بالجهاد والأعمال الصّالحة، وذلك لأنّ الإيمان شجرة مثمرة تبدأ من شجيرة صغيرة حتّى تصير أغصانها عالية إلى عنان السّماء، فتثمر أنواع الفضائل ومكارم الأخلاق، وهذا يحتاج إلى طى مراحل تكامليّة مختلفة.

وفى الآيةالسّابعة، نجد نفس مضمون الآية السّابقة ولكن فى صورة جميلة أخرى، فهى تصور المعاملة وكأن اللّه هو المشترى والمؤمن هو البائع، والمتاع هو الأموال والأنفس، والثمن هو الجنّة الخالدة، وأسناد هذه المعاملة العظيمة المربحة ووثائقها، ثلاثة كتب سماوية هى التّوراة والأنجيل والقرآن، يقول تعالى:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۳

«إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوراةِ وَالإِنْجِيلِ

وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ».

وهذه التّجارة المربحة بأركانها الأربعة ووثائقها المضمونة، من أهم التّجارات التى يمكن أن يقوم بها الإنسان فى طول عمره ولهذا يبارك عزّوجلّ للمؤمنين بصورة مباشرة هذه المعاملة المربحة حيث يقول: «فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

نعم لقد كانت هذه الدّواعى هى السبب فى وصول معنويات المقاتلين المسلمين إلى أعلى مستوياتها الممكنة، فمع قلة عَدَدهم وعدّتهم استطاعوا أنّ يتغلبوا على عدوهم فى شرق العالم وغربه.

وفى الآية الثّامنة يخاطب المؤمنين مرّةً أُخرى ويأمرهم بالصبر والمثابرة والإستعداد لصدّ هجمات الأعداء، يقول عزّوجلّ:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ورَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

ففى هذه الآية أربعة أوامر مهمّة تضمن عزّة المؤمنين وانتصارهم: الأوّل، الأمر بالصّبر والصّمود أمام الأحداث المختلفة وهوى النّفس والشهوات، فيقول: إصبروا وهو فى الواقع أساس كل انتصار.

ثُمّ يأمرهم بعد ذلك بالمصابرة، وهى من باب مفاعلة بمعنى الصّبر والإستقامة فى مقابل صبر واستقامة العدو، وبتعبير آخر فإنّ مفهومها هو إنّه مهما كانت المشاكل كثيرة وصعبة فإنّ صبركم واستقامتكم أيها المؤمنون لابدّ وأنْ يكون أكبر، وكلما زاد العدو من هجومه، عليكم أنْ تزيدوا من استقامتكم وصمودكم حتى تغلبوا العدو (وصابروا).

وفى الأمر الثّالث يأمرهم بالمرابطة ويقول: «ورَابِطُوا»، وهذه الجملة مأخوذة من مادة «رباط» وهى بالأصل بمعنى ربط شىء فى مكان ما (كربط الفرس فى محلٍ معين) وهى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۴

كناية عن الإستعداد الذى يعتبر الصمود وحماية الثّغور من أوضح مصاديقه، إذ إنَّ الجنود يحفظون دوابهم ووسائلهم ومعداتهم فى ذلك المحل.

ولذا فإنّ بعض المفسرين فسرها بحفظ الخيل والدّواب المركوبة فى الثغور فقط، والإستعداد فى مقابل العدو حتّى قالوا إنّ مفهومها الواسع يشمل الإستعداد لصناعة المعدات الحربية الحديثة- أعم من تلك التى يستفاد منها فى حروب الجو أو الأرض أو البحر «۱».

ولا شك فى أنّ هذا لا يعنى أنّ الآية الكريمة لا تشمل الحدود الثّقافيّة والعقائديّة، فإنّ مفهوم «رابطوا» واسعٌ إلى درجة أنّه يشمل كلّ استعداد للدّفاع مقابل العدو، ولذا شبّهت بعض الروايات الإسلاميّة، العلماء بحراس الحدود حيث يقف هؤلاء صفّاً بوجه جنود إبليس، ويحولون دون هجومهم على الأشخاص الفاقدين لقدرة الدفاع عن أنفسهم، يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «عُلَماءُ شيعتِنا مُرابطون فِى الثّغر الّذى يلى إبليسَ وعفاريتَه ويمنَعونَهُ عن الخروجِ على ضعفاءِ شِيعَتنا وعن أنْ يَسَّلطَ عليهم إبليس» «۲».

حتّى أنّه ورد فى بعض الرّوايات عن الإمام علىّ عليه السلام تفسير جملة «رابطوا» بانتظار الصّلوات الواحدة بعد الاخرى «۳»، وهو فى الحقيقة كالإستعداد فى مقابل جنود الشّيطان (تأملوا جيداً).

وفى الأمر الرّابع، يأمرهم بالتّقوى، إشارة إلى أنّ الصّبر والإستقامة والمرابطة لابدّ أن تكون جميعاً منسجمة ومعجونة بالتّقوى والإخلاص، وأن تكون منزهة عن كلّ رياء وتظاهر.

وفى الآية التّاسعة، يأمرهم عزّ وجلّ بأن يقاتلوا على جبهتين ويغلظوا فى القتال، جبهة الأعداء الدّاخليين والعناصر المخربّة الّذين تغلغلوا فى صفوف المسلمين والّذين يستغلون

---

(۱) تفسير المراغى، ج ۴، ص ۱۷۲.

(۲) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۵.

(۳) تفسير مجمع البيان، ج ۱ و ۲، ص ۵۶۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۵

الفرص لتضعيف الحكومة الإسلاميّة وزعزعة الأمن الداخلى، ويأمرهم أن يقفوا أيضاً بوجه الأعداء فى الخارج الّذين أشارت الآية إليهم بعنوان الكفار، يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظ عَلَيْهِمْ وَمَأواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

وبطبيعة الحال فإنّ الجهاد له معنى واسع، فكما يشمل المواجهة المسلحة يشمل أيضاً المواجهة الثقافية والاجتماعية والغلظة فى الكلام والكشف عن الهويات والتهديد أيضاً، وعليه فما ورد فى الرّوايات عن الإمام الصّادق عليه السلام: «إن رسولَ اللَّهِ لم يُقاتِل منافقاً قط» «۱» لا ينافى ما جاء فى هذه الآية.

ومضافاً إلى ذلك فإن ما جاء فى الآية الشرّيفة يعتبر أمراً كلّياً، فإن لم يتجاوز المنافقون الحدود المعينة لابدّ من مواجهتهم بالأساليب غير المسلحة فقط، وأمّا إذا كانت مؤامراتهم تشكل خطراً جدّياً، لم يكن إلّامواجهتهم بالجهاد المسلح وكسر شوكتهم، كما حدث مراراً فى زمن الإمام على عليه السلام.

وبتعبير آخر، فإنّه وإنْ كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قد سلك طريق المداراة واللين مع المنافقين ولكن، كما وذكر ذلك سيد قطب فى تفسير الظلال فإن اللين له مواضع وللشدّة مواضع اخرى، وإذا لم يتصرف فى كل موضع بما يناسبه، أدى الأمر إلى تضرر الشّريعة والمسلمين، وعليه فلا مانع من المداراة فى شرائط معينة، واستعمال الشّدّة والخشونة وحتّى الجهاد المسلح فى شرائط وظروف اخرى «۲».

وفى الآية العاشرة إشارة إلى مقام المجاهدين والقوى العسكريّة الإسلاميّة الشّامخ، وأفضليتهم وامتيازهم على الآخرين، يقول تعالى «لَّايَستَوِى الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ غَيْرُ اوْلِى الضَّرَرِ وَالْمجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِامْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمجَاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۱۹.

(۲) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۴، ص ۲۵۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۶

وَأنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسنى وَفَضَّل اللَّهُ الْمجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً».

وبهذا يقسّم القرآن المجيد المسلمين إلى مجموعتين «المجاهدين» و «القاعدين»، ثُمّ يقسم القاعدين إلى قسمين «اولى الضّرر» و «غير اولى الضّرر» الذين يمتنعون عن الإشتراك فى القتال لتخاذلهم ثم يعتبر أنّ الدرجات العظيمة والفضل الكبير والمغفرة والرّحمة الإلهيّة لا تشمل إلّاالمجاهدين.

ومن هنا يتضح تماماً أنّه، وخلافاً لما هو المعروف اليوم فى العالم من أنْ وظيفة القتال مع الأعداء مختصة بمجموعة خاصّة من النّاس.

إنّ وجوب القتال فى الإسلام يكون فى عهدة كلّ من يقدر على حمل السلاح وجهاد الأعداء ولهذا لم نعهد فى عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تشكيل جيش خاص بعنوان القوات المسلحة، وعندما تندلع الحرب كان كلّ من يقدر على حمل السلاح وباستلهام من القرآن المجيد يحمل سلاحه ويتجه نحو ميدان القتال، وبتعبير اليوم، فإنّ لكل فرد من المسلمين مكانه الخاص فى صف التعبئة العسكريّة، وهذا الأمر صار سبباً فى تعاظم القدرة العسكريّة عند المسلمين.

توضيحان

۱- الجيوش المنظمة والتعبئة الجماهيريّة

من خلال آيات كثيرة اخرى واردة فى أبعاد مسألة الجهاد الإسلامى المختلفة يتضح الهيكل العام للقوات المسلحة فى الحكومة

الإسلاميّة وخصائصها، وتبدو امتيازاتها على سائر مناهج المجتمعات الاخرى فى الأمور العسكريّة.

وبطبيعة الحال فإننا نعيش فى عصر تعقدت فيه الفنون العسكريّة جدّاً، واكتسبت طابع التّخصص، فلا مفرَّ من الاستفادة من القوى المتخصصة فى هذه الفنون من كبار الضّباط وذوى الرتب العسكريّة الذين درسوا فنون الحرب وتمرنوا عليها، وعليه فمن اللازم إبقاء

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۷

مجموعة من هؤلاء بعنوان «الكوادر الثّابتة» فى الجيش، ليهتموا ليلًا ونهاراً بالأمور الدّفاعيّة والتّخطيط والبرمجة والإستعداد فى كلّ لحظة لمواجهة الخطر الخارجى والدّاخلى، ولكن مع كل ذلك، فدور التّعبئة الجماهيرية العامّة محفوظ فى محله، بل لا يمكن أنْ تؤدّى المجاميع المذكورة دورها بشكل فاعل ومثمر بدون التّعبئة العامة والقوات الجماهيريّة، كما شاهدنا دور هذه القوات الجماهيريّة فى الحرب العدوانيّة التى فرضت على الجمهوريّة الإسلاميّة ولمدّة ثمان سنوات، إذ لولا وجود قوات التعبئة الجماهيريّة، لاحتلت القوات العراقيّة المعادية مساحات عظيمة من أراضى إيران، وقد كانت هذه القوات العظيمة البطلة هى التى صدت قوات صدام المدعومة من القوى الإستكباريّة العظمى كلّ الدعم.

ولذا، فإن تصور البعض أنّ دور التعبئة الجماهيريّة العامة خاص بذلك الزمن الذى لم تكن الفنون العسكريّة قد تعقدت وتطورت فيه كما هى عليه اليوم- كزمن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، تصور خاطىء جدّاً.

واليوم أيضاً لا يمكن إنكار دور قوات التّعبئة الجماهيريّة فى الدّفاع عن الدّول الإسلاميّة، والشّاهد الأخر على هذا الموضوع مجاهدو فلسطين المحتلة، فنحن نعلم جيداً أنّ الذى أقلق إسرائيل وسلب النوم من عينيها فى الأراضى المحتلة هو القوات الجماهيريّة غير النظاميّة والتى تتشكل غالباً من الشبّان والصّبيان ذوى الأعمار الصّغيرة، والذين لا يمتلكون السلاح إلّاالحجارة فى مواجهة إسرائيل!

فلو لم نكن نعيش نماذج عينية لهذه القضيّة، فسوف يصعب تصديق وجود أفراد يقاتلون بالحجارة ويؤرقون العدو فى عصر الأسلحة المتطورة والقنابل الذّرية والصّواريخ العابرة للقارات!

ففى فلسطين المحتلة، لا يوجد جيش نظامى يواجه إسرائيل، وكلّ ما يوجد إنّما هو قوات تعبوية وقوات جماهيرية غير منظمة، اكتسبت بمرور الزّمن تجربة جيدة وخبرات كثيرة حتى صارت عملياً وكأنّها جيش مدرب، مع وجود مجاميع لا تزال تحارب بنفس

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۸

الطرق البدائيّة ومع ذلك فقد أقلقت العدو المجهز بأحدث أنواع الأسلحة!

وعليه ينبغى على الحكومة الإسلاميّة أن لا تتساهل فى مسألة الاستفادة من قوات التعبئة الجماهيريّة مطلقاً.

وعدم وجود قوات تعبوية جماهيريّة فى الدّول الصّناعيّة المتطورة، وعدم استفادة تلك الدوّل من الجماهير، ليس إلّالعدم اعتقاد هؤلاء بوجوب الجهاد بعنوان فريضة إلهيّة عظيمة، فهؤلاء يرون أنّ الحرب مسئولية الدّولة فقط، أمّا فى الإسلام فإنّ الجهاد وظيفة كلّ فرد من أفراد المسلمين.

إنّ عظمة الشّهادة وعظمة مقام الشّهداء فى الإسلام أمر غير معروف عند غير المسلمين، ومن هنا فإنّ دواعى التعبئة الجماهيريّة غير موجودة عند الآخرين، أمّا عند المسلمين فهى موجودة دائماً.

وطبيعة الحال، فإنّ تلك الدّول التى لا تعتقد بمثل هذه الثّقافة عندما يصل حدُّ السيف إلى رقابها، وتتعرض بلادهم لخطر الفناء فإنّها قد تفكر فى الإستعانة بتشكيل قوات تعبئة جماهيريّة، أمّا فى الإسلام فإنّ هذه القوات موجودة على الدّوام.

ولذا، فعلى الحكومة الإسلاميّة وبعد الإفتخار بهذه الثّقافة الدّينيّة، أن تهتم جيداً بقوات التعبئة الجماهيريّة حتى فى زمن الصّلح، بل عليها أن تدرب قوات التبعئة الجماهيريّة بمرور الزّمن على الفنون العسكريّة المتناسبة مع عصرها، حتّى يتمكن كل من يقدر على حمل السلاح من التّوجه إلى ميدان المعركة ساعة الخطر.

ومن ذلك الوقت، أصبح تكريم مقام الشّهداء واحترام أُسرِهم وتقديرهم المادى والمعنوى جزء من إرشادات الإسلام، ومن التّدابير

الأساسيّة لحفظ روح التّعبئة الجماهيريّة الجهاديّة وبقائها فى أوساط المسلمين، ولو نُسى الأمر فإنّه سيترك بدون شك تأثيرات سلبية خطيرة وكثيرة فى تضعيف الرّوح الجهادية عند المسلمين.

وكم هو جميل أن يكون إلى جنب كل مسجد من مساجدنا وحدات للتعبئة الجماهيرية، وأن تعتبر التّعبئة الجماهيريّة عبادة كبيرة إلى جنب الصّلاة، وهذه الأمور لا يمكن تحققها إلّا

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۹

فى ظلّ الإعتقادات الصحيحة والثّقافة الدّينيّة، وهى من الأسلحة الإستراتيجية التى نمتلكها اليوم والتى حرمت منها الدّول الإلحادية وإن كانت مجهزة بأحدث أنواع الأسلحة والتّدريبات العسكريّة:

ويتضح لنا من خلال الآية الشريفة: «وَأَعِدُوا لَهُم مَّا استَطَعتُم مِّن قُوَّةٍ». (الأنفال/ ۶۰)

والتى مرَّ الحديث عنها فى البحث السّابق، أنّ على المسلمين أن يحفظوا استعدادهم وقدراتهم العسكرية حتّى فى زمن الصّلح، فإذا تطورت الفنون العسكرية الحربيّة يوماً بعد آخر فإنّ على المسلمين أنْ يتدربوا باستمرار بحسب ما يتناسب مع ذلك التّطور، كما أنْ عليهم أنّ يحصلوا على تلك الأسلحة المتطورة بأى ثمن كان، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كلمة «قوّة» تشمل كلّ أنواع القوى الماديّة والمعنويّة، البشريّة وغير البشريّة، فلابدّ من إعداد كلّ ذلك.

ونقرأ فى القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً». (النساء/ ۷۱)

وبعد الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «الحذر» بمعنى اليقظة والفطنة والإستعداد الدائم لمواجهة المخاطر، وقد تأتى أحياناً بمعنى الوسيلة التى يمكن بها مواجهة الخطر، يتضح لنا جيداً لزوم الإستعداد الكامل الدّائم عند المسلمين فى مقابل الأعداء.

وجملة «فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً» مع الإلتفات إلى أنّ النّفر هو الرّحيل والهجرة، تدلّ على أنّه لا ينبغى للمسلمين الجلوس فى البيوت انتظاراً لهجوم العدو، بل عليهم أنْ يستعدوا لاستقباله ومواجهته- قبل أنْ يهجم عليهم- ويهجموا عليه مستفيدين من الأساليب القتاليّة المختلفة لهذا الأمر، فتارة يهجمون بصورة مجاميع متفرقة، واخرى بصورة حرب عصابات، وتارة بشكل جيش منظم يبدأ بالهجوم على العدو، فيقاتلون فى كلّ ظرف بما يتناسب معه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۰

۲- السّبق والرّماية

وبالنسبة إلى التّدريب العسكرى، نجد أنّ الإسلام مضافاً إلى ترغيبه المسلمين بمسابقة الخيل والرماية، فإنّه أجاز للمسلمين إقامة المسابقات والرّهان والرّبح والخسارة فى هذا المجال أيضاً، مع أنّ الإسلام يحرم القمار والرّبح والخسارة ويعتبر ذلك من الذّنوب الكبيرة، أمّا فى هذا المورد فهناك حكمة وفلسفة واضحة استثنى فيها هذه الموارد.

يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّ الملائكةَ لَتَنْفِرُ عِند الرِّهان، وتلعن صاحبه ما خلا الحافِرِ والخُفّ والرّيش والنّصل» «۱».

والملفت للنظر أنّ مثل هذه المسابقات كانت تقام بحضور رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأحياناً بدعمه المادىلها، حتّى ورد عن الإمام السّجاد عليه السلام أنّه قال: «إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله أجرى الخيل وجعل سبقَها أواقى من فضة».

حتّى أنّ المستفاد من بعض الرّوايات أنّ النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله كان يشترك بنفسه فى بعض تلك المسابقات «۲».

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۱۳، ص ۳۴۷، ح ۶، الباب ۱ من كتاب السبق والرمّاية، واحتمل بعض الأعاظم أنّ مصطلح «نصل» لا يختص بالسهم بل يشمل كل سلاح له رأس مدبب كالرّمح والخنجر، حيث كانوا يستبقون برميها، كما أنّ مصطلح «الخف» يشمل السّباق بالجمال والفيلة، وإن «الحافر» يشمل ذوات الأربعة غير الحصان، وأن «الريش» إشارة إلى السهم، الذى يكون فى آخره عادة عدّة

ریشات لتنظیم حرکته.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۴۹، ح ۵، وص ۳۵۱، ح ۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۱

آداب الجهاد

اشارة

أحد أفضل الطرق لمعرفة أصالة المدارس الفكرية هو دراسة كيفية سلوك أنصار تلك المدرسة مع العدو وخاصة فی میدان الحرب وما بعدها أی مع أسری الحرب وما تفرزه تلك الحرب.

ودراسة الآیات القرآنیة والرّوایات الإسلامیّة الواردة فی آداب الحرب توضح هذه الحقیقة وهی أنّ الإسلام لم یتخلَّ عن الإهتمام بالمسائل الأخلاقیّة والإنسانیّة حتّی فی أخشن لحظات الحیاة، یعنی میدان القتال، فنجده قد عجن مورد الغضب باللطف والخشونة بالرحمة، ولا شك أنّ علی الحكومة الإسلامیّة أنّ تهتم بهذه الأخلاقیّة الرّفیعة التی لها أثر عمیق فی كیفیة نظرة الأجانب للإسلام والتی یمكنها أن تكون وسیلة لاستقطاب هؤلاء وتأملهم فی الدین الإسلامی علّهُمْ یرجعون.

وقد وردت تأكیدات كثیرة فی آیات القرآن علی رعایة العدالة وعدم تجاوز الحدود المعقولة والإنسانیّة فی مقابل الأعداء.

من جملة تلك الآیات، قوله تعالی:

«وَقَاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ الَّذِینَ یُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ المُعتَدِینَ».

(البقرة/ ۱۹۰)

ففی الآیة إشارة إلی ثلاث نقاط، الأولی هی أنّ الحرب لابدّ أن تكون للّهوفی سبیل اللّه لا من أجل السلطة والإنتقام.

والاخری هی أنّ الحرب لابدّ أنْ تكون ضد المعتدی، أی مالم تُشنَّ الحرب علیكم، لا تمدوا أیدیكم إلی السلاح.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۲

والنقطة الثّالثة هی عدم تجاوز الحدود فی میدان الحرب، ورعایة الأصول الأخلاقیة.

وعلیه، فإن وضع العدو سلاحه واستسلم، فلا ینبغی قتاله، وكذا الحال بالنّسبة لأولئك الذین لا یقدرون علی الحرب والقتال كالعجزة والشّیوخ والأطفال والنّساء، فلا ینبغی إلحاق الأذی بهم، كما أنّ تدمیر البساتین والمزارع وهدم الأماكن الّتی یمكن أن یستفاد منها، واللجوء إلی استخدام الأسلحة ذات الدّمار الشامل، كل ذلك من مصادیق التعدّی علی الأبریاء والأسالیب غیر الإنسانیّة، وهی ممنوعة فی نظر الإسلام.

وفی نفس السورة (بعد تلك الآیة بعدّة آیات) یؤكد تعالی مرّة أخری علی هذا المعنی ویقول:

«فَمَنِ اعتَدَی عَلَیكُم فَاعْتَدُوا عَلَیهِ بِمِثلِ ما اعتَدَی عَلَیْكُم وَاتّقُوا اللَّهَ وَاعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِینَ». (البقرة/ ۱۹۴)

وفی هذا إشارة إلی أنّكم إذا أردتُم نصر اللّه لكم والإنتصار فی الحرب، فعلیكم اجتناب التّعدی والّتمادی فی القتال.

ونفس هذا المعنی أكدت علیه سورة المائدة بشكل آخر، حیث تصرح الآیة قائلة: «وَلَا یَجرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا». (المائدة/ ۲)

(وتسیطر علیكم روح الإنتقام الناشئة من سلوك أعدائكم الخشن فی الحدیبیة).

وفی الرّوایات الإسلامیّة أیضاً وردت تعبیرات مختلفة وإرشادات كثیرة فی مورد رعایة الأصول الأخلاقیّة الإنسانیّة فی میدان الحرب وبعد الإنتهاء منها تجاه الأعداء، وتتجلی فی هذه الرّوایات العواطف الإنسانیّة وروح السّلم بشكل واضح.

كتب أرباب السّير فى سيرة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه متى ما أمرَ جيشاً بالسّير إلى حرب، كان يستدعى الجيش وقادته ويعظهم ويرشدهم بمواعظ وإرشادات منها: «إذهبوا باسم اللَّه تعالى ...» «۱».

اغزوا بسم اللَّه وفى سبيل اللَّه تعالى، قاتلوا من كفر باللَّه ولا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثّلو،

---

(۱) منتهى الأمال، ج ۱، ص ۱۶، فى باب الفضائل الأخلاقية عند النّبىّ صلى الله عليه و آله وذكر العلامّة المجلسى شبيه هذا المعنى فى بحار الأنوار، ج ۹۷، ص ۲۵.

ولاتقتلوا وليداً ولا متبتلًا فى شاهق ولاتحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تحرقوا زرعاً وأنّكم لا تدرون لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقروا من البهائم ممّا يؤكل لحمه إلّاما لابدّ لكم من أكله وكان ينهى عن إلقاء السم فى بلاد المشركين ورسول اللَّه صلى الله عليه و آله نفسه لم يتعامل مع الأعداء بغير هذا التّعامل الإنسانى، فلم يتوسل بالإغارة لتحقيق النصر، وكان يرى جهاد النّفس مقدّم على كل شىء.

والتّدقيق فى هذه الإرشادات الدّقيقة جدّاً، يبيّن بوضوح أنّ الإسلام لم يغفل عن المسائل الأخلاقيّة المرتبطة بالحرب أبداً، وإن شخص الرسول صلى الله عليه و آله كان يعمل بها بحذافيرها تجاه العدو، لا مثل الأشخاص الذين يدافعون عن حقوق الإنسان بألسنتهم فقط، وأمّا أعمالهم فلا تشير إلى شىء من ذلك.

ومضافاً إلى ذلك فإنّ التأكيد على أنّ جهاد النّفس أفضل الجهاد، إشارة إلى أنّ المسلم الحقيقى هو المسلم الذى يراعى الأصول الإنسانية فى ميدان الحرب.

وممّا ذكر يتّضح أنّ الإسلام يمنع من استخدام الأسلحة الكيميائية وكل سلاح ذى دمار شامل، وعلى الحكومة الإسلاميّة أن تجتنب استخدام مثل هذه الأسلحة.

وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «فإذا كانت الهزيمة بإذن اللَّه فلا تقتلوا مُدْبِراً ولا تصيبوا مُعْوراً ولا تجهزوا على جريح ولا تهيجوا النّساء بأذى وإن شَتَمْنَ أعراضكم وسببنَ امراءَكُم» «۱».

ومن خلال التأمل فى حديث النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله الذى ذكرناه وأوامره إلى الجيش وقادته قبل الحرب، يتضح لنا أنّ هذه الإرشادات إنّما هى من متبنيات الإسلام الأساسيّة فى الجهاد والحرب ضد الأعداء، وعلى الحكومة الإسلاميّة أن تعمل كلّ ما بوسعها من أجل إحياء تلك المبانى والمحافظة عليها.

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۱۴.

أقسام الجهاد:

اشارة

الجهاد الإسلامى وإن قسّمهُ المحققون إلى قسمين هما: الجهاد الابتدائى والجهاد الدفاعى، ولكل منهما فروع اخرى، ولكن فى الواقع حتى الجهاد الإبتدائى يعتبر جهاداً دفاعيّاً كما سيتضح لنا لاحقاً، وبعد هذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن المجيد، ونتناولها بالبحث

والتحقيق:

۱- الجهاد الإبتدائى

ورد فى سورة الحج، والتى يعتقد بعض المفُسرين أنها أول آية نزلت فى الجهاد: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِيرٌ». (الحج/ ۳۹)

ثُم يضيف تعالى فى توضيح المطلب ويقول: «الَّذِينَ اخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ».

والتعبير (بالإذن) فى الآية يناسب ما ذهب إليه القائلون بأنّها أول آية نزلت فى الجهاد، وتدلّ على عدم وجود مثل هذا الإذن قبل ذلك.

وعلى أيّة حال، فهى تدلّ بوضوح على أنّ بداية تشريع الجهاد هو الجهاد الدّفاعى فى مقابل العدو، ذلك العدو الذى أجبر المسلمين على الهجرة وترك منازلهم بلا ذنب اقترفوه، نعم إن كان لهم ذنب فهو الإعتقاد باللَّه تعالى وحده.

ويذهب البعض الآخر من المفسرين إلى أنّ أوّل آية فى الجهاد هى قوله تعالى:

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ». (البقرة/ ۱۹۰)

وحتى لو قبلنا هذا الرأى فإنّ أساس الجهاد مبتنٍ على كسر هجوم العدو وعدوانهم، وكلّ عاقلٍ يدرك أنْ السكوت على عدوان العدو السّفاك لا يتلائم مع أى منطق.

والتّعبير ب «فى سبيل اللَّه» يدلُّ على أنّه حتّى الدّفاع الإسلامى، إنّما يكون للَّهوعلى أساس الموازين الشّرعية الإلهيّة لا طلباً للتّسلط والجاه والهوى.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۵

هذا أول شكل للجهاد فى الإسلام، ولكن لا ينبغى أن يُفهم من معنى «الجهاد الدّفاعى» أنّ الحكومة الإسلاميّة لابدّ أن تجلس مكتوفة الأيدى بلا- حراك حتّى يدخل العدو بيتها ويغزوها فى عقر دارها، ثم تهب للدفاع، بل على العكس من ذلك، فبمجرّد أن تشعر باستعداد العدو للهجوم والقتال وأن غرضه هو الإعتداء على بلاد الإسلام، عليها أن تأخذ بزمام المبادرة وتكسر شوكة العدو وقدرته فى مهدها.

۲- الجهاد لإخماد نار الفتنة

ورد فى قوله تعالى «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ». (البقرة/ ۱۹۳)

وكما أشرنا فيما سبق فإنَّ فى تفسير مصطلح «الفتنة» بين العلماء كلام، ولكن مهما فسرنا «الفتنة»، تارةً بإيجاد الفساد، وإيذاء المؤمنين أو بالشّرك وعبادة الأوثان المقترنة بفرض هذا الإعتقاد على الآخرين، أو كان بمعنى إضلال وإغواء وخداع المؤمنين، كلّ ذلك أنواع من الهجوم من قبل العدو على المؤمنين، ولذا فإنّ الجهاد فى مقابل ذلك يأخذ شكلًا دفاعيّاً.

وجملة «فَإِنِ انتَهَوا فَلا عُدوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» تدل بوضوح على أن الهدف هو الحدُّ من ظلم الظّلمة الجائرين.

والملفت للنّظر أنّه ورد فى الآية نفس السورة:

«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَاخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيثُ اخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ». (البقرة/ ۱۹۱)

فهذه الآية وبملاحظة الآية السّابقة الّتى تتحدث عن المشركين المهاجمين، تدعو بصراحة إلى قتال ومحاربة أولئك الذين أغاروا على

المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ومنازلهم والذين لا يمتنعون من ارتكاب أى جريمة فى حقّ المسلمين خاصّة من أجل تغيير عقيدتهم، فكانوا يمارسون الضّغوط والتّعذيب الوحشى ضدّهم، فالقرآن لا يجيز قتال هؤلاء فحسب، بل إنّه يوجب ذلك عليهم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۶

والفتنة وإن فُسّرت فى بعض الأحاديث وكلمات جمعٍ من المفسرين بالشّرك وعبادة الأوثان، ولكن قرائن كثيرة فى هذه الآية والآيات السّابقة واللاحقة تدلّ بوضوح على أنّه لم يكن المنظور منها الشّرك أبداً، بل أعمالٌ كأعمال مشركى مكّة الّذين كانوا دائماً يمارسون الضّغوط والتّعذيب ضدّ المسلمين لتغيير عقيدتهم، ولذا ورد فى تفسير «المنار» فى معنى الآية قوله: «حتّى لا تكونَ لَهُم قوّة يفتنونَكُم بها ويؤذونكُم لأجلِ الدّين ويمنعونكم من إظهارهِ أو الدّعوة إليه» «۱».

ولا شكَّ فى أنّ مثل هذه الفتنة وسلب الحريات والتّعذيب والضّغوط لتغيير العقيدة ودين اللّه أشدُّ من القتل.

وعليه فجملة «ويكون الدّينُ كُلُّهُ للّه إشارة إلى أنّ رفع الفتنة إنّما يكون فى أن يعبد شخص خالقه بحرية، وأن لا يخشى أحداً، لا أنْ يكون المشّركون أحراراً فى عبادة الأوثان فيبدلوا الكعبة إلى محل عبادة الأصنام، ويُسلَبُ المسلمون حقّ قول «اللّه أكبر» و «لا إله إلّا اللّه» علناً.

وعلى أيّة حال، فالآيات «۱۹۰» و «۱۹۱» و «۱۹۳» من هذه السّورة والمرتبطة بعضها مع البعض الآخر، تدلّ جميعاً على أنّ إخماد نار الفتنة باعتباره هدفاً للجهاد الإسلامى له جنبة دفاعيّة فى الواقع، ويحفظ المسلمين فى مقابل الهجمة الثّقافيّة والاجتماعيّة والعسكريّة لأعداء الإسلام.

۳- الجهاد لحمايّة المظلومين

يدعو القرآن الكريم المسلمين إلى الجهاد من أجل حماية المظلومين وقتال الظالمين وتقول: «وَمالَكُمْ لَاتُقاتِلُونَ فِى سَبيلِ اللّهِ والْمُسْتَضْعَفينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا اخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَليّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصيراً». (النساء/ ۷۵)

---

(۱) تفسير المنار، ج ۲، ص ۲۱۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۷

ففى الآية أوّلًا دعوة للجهاد فى سبيل اللّه، ثُمّ تعقب مباشرة بالكلام عن المستضعفين والمظلومين الذين مارس الأعداء القساة معهم أشدَّ الضّغوط حتى أجلوهم عن وطنهم وديارهم ومنازلهم وأهليهم، ويبدو أنّ هذين المعْنيين يعودان فى الواقع إلى معنى واحد، إذ إنّ نصرة مثل هؤلاء المظلومين مصداق واضح من مصاديق الجهاد فى سبيل اللّه.

وينبغى أن لا نغفل عن الفرق الواضح بين «المستضعف» والضّعيف، فالضّعيف يطلق على الشّخص العاجز، أمّا المستضعف فهو الشّخص الذى أُضطهد على يد الظّلمة الجائرين، سواءً كان اضطهاداً فكرّياً أو اجتماعيّاً أو اقتصادياً أو سياسيّاً (إلتفتوا جيداً).

ومن الواضح أنّ هذا الجهاد جهادٌ دفاعى أيضاً، وهو الدّفاع عن المظلومين ضد الظّالمين.

والأهداف الثّلاثة المذكورة، هى أهم أهداف الجهاد الإسلامى، وبالرغم من تقسيمه إلى قسمين (الجهاد الابتدائى والجهاد الدّفاعى) إلّاأنّ حقيقتهما دفاعيّة- ولهذا لا نجد فى تاريخ الإسلام مورداً واحداً يدلّ على استعداد الكافرين للعيش بصلح وسلام مع المسلمين ومواجهة ذلك بالرّد والرّفض من قبل الإسلام.

واليوم أيضاً، ليس للحكومة الإسلاميّة هدف عدوانى ضد أحدٍ، ومالم تفرض عليها الحرب فإنّها لا تقاتل أحداً أبداً، ولكنّها تعتقد أنّ

الدّفاع عن المظلومين من أهم وظائفها ومسؤولياتها، وأنّ حبّ الفتنة وإيجاد الرّعب والوحشة والتّضييق والضغوط وسلب الحريات من قبل أعداء الإسلام نوعٌ من أنواع إعلان الحرب، ولذا تعتبر نفسها مسؤولة عن الدّفاع ضد المعتدين.

ونكرر ثانية، إنّ مفهوم الدّفاع ليس أنْ يجلس الإنسان مكتوف الأيدى حتّى يُغزى فى عقر داره، بل عليه أنْ يتحرك إيجابياً ضدّ تحركات الأعداء ويحفظ قدرته العسكريّة القتاليّة وخاصة فى الظرّوف الحسّاسة، وأنْ يبادر بضرب الأعداء قبل أن يفاجئه العدو المتآمر.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۹

الحكومة الإسلاميّة والسّلام

اشارة

لا شك فى أنّ الحرب وإراقة الدماء والتّخريب مضافاً إلى منافاتها للفطرة السليمة، فإنّها لا تنسجم أيضاً مع قوانين عالم الوجود.

فالحرب، هى نوع من المرض والانحراف واللجوء إلى العنف للوصول إلى الأهداف الظالمة، وحتى الحروب المقدسة التى تتميز بصفة الدفاع عن الحق والعدالة، إنّما تنشأ نتيجة انحراف مجموعة من النّاس عن الصّراط المستقيم، وتارة تفرض على بعض الأفراد أو الأمم.

فحصيلة الحرب دائماً هى الدّمار وإزهاق الأرواح وإتلاف الأموال وتخريب المدن وتعطيل الإعمار، وتأصيل العداوات والبغضاء.

ولذا ينبغى اجتناب الحروب كلما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، واستغلال القوى البشريّة والمنح الإلهيّة فى طريق بناء المجتمعات.

نحن نعرف أنّ جهاداً وقتالًا دائماً يدور فى داخل وجود كلّ إنسان، وهو الجهاد ضد الميكروبات الخارجية، فكريات الدّم البيضاء الّتى تعتبر فى الواقع جنوداً مدافعة عن الجسم فى حالة قتال دائم ومرير مع أنواع الميكروبات التى ترد إلى الجسم عن طريق «الماء» والغذاء و «الهواء» و «الجروح».

وهذه الحرب فى الواقع، حرب دفاعيّة أيضاً، فلو توقفت الميكروبات عن مهاجمة جسم الإنسان لتوقف دفاع كريات الدم، وعندها فلا حرب.

يحاول بعض المفكرين الذين جنّدوا طاقاتهم لخدمة المستعمرين أنْ يصوروا الحرب

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۰

على أنّها أمرٌ ينسجم مع الطبع البشرى، فيضفون الشّرعية على استخدام المستعمرين القوّة والعنف لتحقيق أهدافهم الخبيثة التّوسعية، فهؤلاء يتوسلون بأصل الصّراع من أجل البقاء وهو أحد أصول (دارون) الأربعة ويقولون: «ينبغى أنْ تكون الحرب والصّراع بين البشر قائمة على قدم وساق وإلّا عمَّ الخنوع والضّعف الأرض، وتأخر نسل البشر إلى الوراء! وأمّا الصّراع والحرب فهو سبب لبقاء الأقوياء واضمحلال الضعفاء وزوالهم وبهذا تتحقق مسألة انتخاب الأصلح!!».

وقد يُستدل أحياناً ببعض آيات القرآن- التى يفسرونها تفسيراً محرّفاً بالإعتماد على الرأى- لإثبات هذا الموضوع.

ولكن هذا الاستدلال ضعيف جدّاً، إذ على فرض قبول هذا الأصل- الصّراع من أجل البقاء- فى خصوص الحيوانات المفترسة المتوحشة- وهو رأى مردود من قبل العلماء الذين نقدوا الأصول الدارونية- فلا يمكن أن نقبل ذلك فى عالم الإنسانيّة، إذ إنّ البشر يمكنهم أنْ يتكاملوا عن طريق التعاون البقائى والإستباق السّالم للرقى، كما يفعلون ذلك فى ميدان الصّناعة والسّياسة بين الأحزاب والجمعيات المتنافسة فى دنيا اليوم، وعلى هذا الأساس فإنّ حياة البشريّة اليوم مبتنية على أصل التّعاون من أجل البقاء لا الصّراع من أجل البقاء.

وعلى كل حال، لا نجد أى دليل يمكنه توجيه الحرب وإضفاء الشرعيه عليها وخاصة فى مثل حروب هذا العصر التى لا يمكن جبران الخسائر النّاجمة عنها فى قرون، سواءً الخسائر البشريّة أو الصّناعية والزّراعيّة وغيرها.

والفكر السّقيم المريض فقط هو الذى يمكنه تبرير مثل هذه الحروب.

وبعد هذه الإشارة نعود للقرآن المجيد، ونحقق فى روح السّلم فى الحكومة الإسلاميّة:

۱- «يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». (البقرة/ ۲۰۸)

۲- «وَانْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». (الأنفال/ ۶۱)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۱

۳- «فَانِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ الْقَوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

(النساء/ ۹۰)

۴- «وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُمَا عَلَى الاخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى امْرِ اللَّهِ فَانْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَاقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». (الحجرات/ ۹)

۵- «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ». (النّساء/ ۱۲۸)

۶- «وَاذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْفَسَادَ». (البقرة/ ۲۰۵)

۷- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ الْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤمِناً». (النساء/ ۹۴)

جمع الآيات و تفسيرها

تدعو الآية الاولى المؤمنين فى كل العالم إلى الصّلح والسّلام والاستقرار، وتعتبر الحرب من مؤامرات ومخططات الشّيطان، يقول تعالى:

«يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

فمن جهة تخاطب الآية المؤمنين، وهذا يدلّ على أنّ السّلام والصّلح لا يتحقق إلّافى ظل الإيمان.

ومن جهة أخرى، فإنّ الإعتماد على مصطلح «كافَّة» يدلّ على عدم وجود أى استثناء فى قانون الصّلح، وأنّ الحرب أمرٌ مخالف لتعاليم الإسلام والقرآن، ولا يمكن تصورها إلّا بشكل مفروض.

ومن جهة ثالثة، فإنّ التعبير «بخطوات الشيطان» إشارة لطيفة إلى أنّ أسباب الحرب تنشأ بشكل تدريجى وأنّ شياطين الجنّ والإنس يسوقون النّاس خطوة خطوة نحو

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۲

الإقتتال، وكما ورد فى المثل المعروف «بَدْو القِتال اللّطام» أى الصفعه، ولذا ينبغى إخماد نار الحرب فى مراحلها الأولى.

ومن جهة رابعة، يستفاد من الآية أنّ كلّ عمل يؤدّى إلى عرقلة عملية السلام والصلح، إنّما هو عمل شيطانى، ولم لا يكون كذلك والحال أنّ الحرب نارٌ محرقة تأكلُ كلّ القوى والطّاقات الماديّة والمعنوية البشريّة وغير البشريّة وتحيلها إلى رمادٍ، وخاصّة فى مثل عصرنا الحاضر والذى تكون الحروب فيه أفضع وأكثر تخريباً وخسارة من الحروب السابقة، وطبقاً للحسابات والاحصائيات فإنّ جبران الخسائر النّاجمة من بعض الحروب تستغرق أحياناً قرناً من الزمن، وهذا بالنسبة إلى الخسائر المادية فقط، أمّا الخسائر البشريّة فهى غير قابلة للتعويض والجبران أبداً.

وقد يكون ذلك هو السّبب فى أنّ الملائكة اعتبروا أنّ من أهم العيوب فى الإنسان هو إراقته للدّماء والحروب المدمرّة، وذلك عندما قال تعالى: «إِنّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً» فكان جواب الملائكة: «قَالُوا اتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ». (البقرة/ ۳۰)

فيتضح أنّه لا عيب أقبح من هذا العيب.

وما ينبغى التّأمل فيه هنا هو أنّ أرباب اللّغة صرّحوا بأنّ «السِّلم» و «السَلَم» كلاهما بمعنى «الصّلح» وقد اخذا من مادة «السّلامة» وإن أحد أسماء اللّه تعالى هو «السلام»، وذلك لإنّ ذاته المنزهة هى مصدر الصّلح والإستقرار والسّلامة، وطبقاً لما ورد فى «التحقيق» فإنَّ مادة «سِلْم» فى الأصل ما يقابل «الخصومة» ولازمها الخلاص من الآفات والبلايا والوصول إلى السّلامة والعافية، وإنّما سُمى الإسلام (إسلاماً) لأنّه منشأ الصّلح والسّلامة فى الدّنيا والآخرة، (والسِّلْمَ) هو الآلة التى يصل بها الإنسان سالماً إلى النقاط العالية ثم يعود كذلك.

والعجيب أن بعض المفسرين الكبار فسّروا «السِّلْمَ» فى هذه الآية بتفسيرات لا تتناسب مع ظاهر الآية.

وفى الآية الثّانية، إشارة إلى جماعة من الّذين يحاربون المسلمين، يقول عزوجلّ: «وَانْ

جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

والمهم هنا هو أنّ هذه الآية فى سورة الأنفال وردت بعد آية شريفة تأمر المسلمين بالإستعداد الدّائم وتهيئة كافة أنواع القوى لإخافة الأعداء.

أى أنّ الهدف الأصلى ليس هو الحرب، بل من أجل تقوية دعائم الصّلح أيضاً، إذ لو لم يكن المسلمون مستعدين تماماً، لسيطرت الروح الاستعمارية والتسلط على تفكير العدو.

والنّكتة المهمّة الاخرى هنا هى استخدام لفظ «جَنَحُوا» المأخوذة من مادة (جَناح) بمعنى الخضوع والرّغبة والتّحرك نحو الشىء، ومفهومها التّرغيب فى قبول حتّى المحادثات الأوليّة للصّلح.

والتّعبير ب «توكّل على اللّه» قد يكون إشارة إلى أنّ بعض المسلمين أخذ يروّج أنّ رغبة العدو فى الصّلح إنّما هى خدعة منهم، ولذا خالفوا ذلك، أو على الأقل دبّت فيهم بعض الوساوس.

فالقرآن يخاطب الرّسول الكريم ويأمره بعدم الأخذ بآراء هؤلاء ووساوسهم إذا ما رغب العدو فى الصّلح، وإنّما عليه أن يتوكل على اللّه ويجنح للسّلم مع رعاية موازين الإحتياط اللازم.

فهذه الآية من الآيات التى توصى الحكومات الإسلاميّة باتخاذ الرّغبة فى الصّلح أصلًا أساسياً فى سياساتها، وما قاله البعض من أنّ هذه الآية نسخت بآيات الجهاد «۱» لا أساس له، إذ لا دليل عليه، حيث لا تنافى بين آيات الجهاد وهذه الآية، فلا ضرورة للقول بالنسخ.

وفى الآية الثّالثة إشارة إلى مجموعة من الكفّار من أنصار الحرب، حيث تقول: «فَانِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ الْقَوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

وتعبير «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا» تأكيد كاملٌ على قبول دعوة الصّلح التى تقدم

---

(۱) راجع تفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۱۸۷.

بها العدو، ذلك الصّلح العادل الحقيقى لا الصّلح الكاذب الذليل.

وذكر فى سبب نزول هذه الآية، إنّها تحكى عن طائفة «الاشجع» حيث جاء جمع منهم بزعامة مسعود بن رجيله إلى مقربة من المدينة، فأرسل الرسول صلى الله عليه و آله ممثلين عنه إليهم للتّعرف على نواياهم من هذا السّفر، فقالوا:

جئنا للتّعاقد مع محمّد على ترك المخاصمة (وأن نكون على حياد فى نزاعكم مع الآخرين). فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يأخذوا إليهم مقداراً من الّتمر بعنوان الهديّة، ووقع على عقد ترك التّعرض معهم.

ومن البـديهى أنّ مفهوم الآيـة قانون كلّى عام وخالـد، وإن كان سبب نزولها مورداً خاصّاً، لإنّنا نعلم بأنّ سبب النّزول لا يحدد مفهوم الآيات العام.

وفى الآيـة الرّابعـة، حديث عن الحروب المحتملة فى داخل الدّولة الإسـلاميّة بين الاجنحة المتخاصـمة، أى طوائف من المؤمنين، ففى الآيـة أمرٌ أكيـد على إقرار الصّـلح بينهـا، فـإن أُغلقت كـلّ الطّرق إلّاقتال الفئـة الباغيّـة لتحقيق الصّـلح والسّـلام، كان ذلك واجباً على المؤمنين، يقول تعالى:

«وَإِنْ طَائِفَتـانِ مِنَ الْمُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَاصْـلِحُوا بَيْنَهُمَـا» ثُمّ يضـيف «فَـإِنْ بَغَتْ إِحْـدَاهُمَا عَلَى الاخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغى حَتّى تَفِىءَ إِلَى امْرِ اللَّهِ»، وفى الختام يعود إلى مسألة الصّلح ويقول: «فَانْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَاقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

فالمسـتفاد من صدر الآية هو أنّ ترك الخصام وإقرار الصّـلح داخل الدّول الإسـلاميّة أصل أساسى أيضاً، ولذا فإنّ الشّارع جوّز القتال باعتباره آخر الحلول المتصورة لتحقيق هذا الهدف!

ويسـتفاد من ذيل الآية أنّ الصّـلح لابدّ أن يكون عادلًا ومن موقع القوّة، لا أنْ يكون جائراً ومن موقع الضّـعف والإستسـلام، إذ إنّ مثل هذا الصّلح الأخير يكون دائماً متزلزلًا وغير ثابت ويُربّى فى داخله نطفة الحرب.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۵

والنّكتـة المهمّـة هنا هو أنّه ورد التعبير فى الآية ب «العدل» أحياناً، واخرى بتعبير «القسط»، وعلى رأى الرّاغب الأصـفهانى، فالعدل لفظ يحمـل مفهوم المساواة، و «القسط» يعنى «النّصـيب العادل» (غايـة الأمر، إذا جاء هـذا المصـطلح بصـيغة الثّلاثى المجرّد فإنّه يعنى أخذ نصـيب الآـخرين، وعليه فـإنّه يعطى مفهوم الظّلم، وتـارة يسـتعمل على وزن أفعـال- أقساط- ومفهومه إعطاء نصـيب وسـهم الآخرين، وحينئذٍ يحمل معنى العدالة).

وطبقـاً لهـذا البيـان، وتعبيرات اخرى للراغب، فإنّ كلمـة «القسط» و «العـدل» واحـدٌ من حيث المعنى والمفهوم، ولكن يمكن أنْ يكون بينهمـا فـارق وهو أنّ مصـطلح «القسط» و «الإقساط» يسـتعمل فى الموارد التى يشترك فيها جماعـة إذا اعطى لكل واحـد منهم نصـيبه الكامل فذلك القسط، وإلّا فهو «الجور».

وأمّا «العدالة» التى يُقابلها «الظّلم» فإنّ لها مفهوماً أوسع من ذلك فهى تسـتعمل فى موارد الشّـركة وفى غير موارد الشّـركة، وعليه، فإن كان مالٌ حقاً مُسَلَّماً لشخص ما، وأُعطى ذلك الحقّ فتلك هى العدالة وإن أُخذ ذلك الحق منه فهو «الظلم» «۱».

والآية الخامسة ناظرة إلى الخلافات الشخصـية الخاصة، فتأمر بإقرار الصـلح بين الرجل والمرأة إذا برزت الخلافات بينهما، يقول تعالى: «وإِنِ امرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَو إِعَراضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَن يُصلِحَا بَينَهُمَا صُلحًا وَالصُّلحُ خَيرٌ».

وعلى الرّغم من أنّ مورد الآية هو الصّـلح فى الخلافات الزوجية، ولكن مفهوم العبارة واسع جدّاً يشمل كل صلحٍ وصفاء بين شخصين أو مجموعتين أو شعبين ودولتين. (تأملوا جيداً).

والملفت للنّظر هو أن الصّلح الوارد فى هذه الآيات المتعاقبة ورد فى ثلاث صور هى:

---

(۱) وفى الواقع أن النّسـبة بينهما هى نسـبة العموم والخصوص المطلق، فللقسط مفهوم خاص يسـتعمل فى موارد الشّركة فقط، والعدالة مفهوم أوسع يشمل غير موارد الشّركة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۶

الصّلح بين المسلمين وأعدائهم الّذين يرغبون فى الصّلح.

والصّلح بين المجاميع المتخاصمة من المسلمين أنفسهم.

والصّلح بين فردين متنازعين.

إنّ الصّلح العادل الشّريف مطلوب بكل أشكاله، حيث الإسلام يدافع عن مثل هذا الصّلح، ومسئولية الحكومة الإسلاميّة هى تقويّة أُسس الصّلح فى هذه المراحل الثّلاثة أيضاً.

والآية السّادسة التى لا تشير إلى مسألة الصّلح بشكل مباشر ولكنّها تحمل رسالة بيّنةً بشكل غير مباشر فى هذا المجال، إذ إنّها تقول فى ذم بعض المنافقين (إنّ له ظاهراً خادعاً) وعندما يخرج من عندك: «وَاذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْفَسَادَ».

وفى الآية اللاحقة فى نفس هذه السّورة يُهددَّ أمثال هؤلاء الأشخاص بالعذاب الإلهىّ الأليم، ومن الطّبيعى، فإنّ الحروب لا تثمر إلّاالفساد فى الأرض وهلاك الحرث والنّسل والأموال سواءً المزارع وحقول تربية الحيوانات وغير ذلك، ولذا فإنّها منفورة فى نظر الإسلام، ومالم يكن هناك موجب ومسوغ مشروع للحرب، ينبغى الإنتهاء عنها، وبعبارة اخرى (الصّلحُ أصلٌ والحرب استثناء).

النّتيجة:

من مجموع ما جاء فى الآيات الآنفة الذكر، يُستفاد أنّ أساس الحكومة الإسلاميّة قائم على الصّلح والصّفاء والصّداقة، وقد اعتبر القرآن الكريم ذلك أصلًا ثابتاً فى كلّ الأحوال سواء فى مورد الأعداء، أو فى مورد الاصدقاء والأحبّة، وحتى فى داخل الأُسرة الواحدة

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٧

وآحاد النّاس، وإذا لم يكن هناك مبرر وموجب لفرض الحرب، فلا يرجح القرآن الحرب أبداً.

ولكن هذا لا يعنى أنْ يفقد المسلمون استعدادهم العسكرى فيرغب الأعداء فى الهجوم عليهم، كما أنّه لا يعنى أنْ يقبل المسلمون الصّلح غير العادل ومن موقع الضّعف، إذ إنّ هذين الأمرين من عوامل الحرب، لا الصلح العادل الثّابت.

وكذلك الرّوايات الإسلاميّة فإنّها تؤكد على ضرورة السّعى والجدّ فى إقرار السّلام والصّلح فى المجتمعات البشريّة، حتّى ورد فى الحديث:

«أجْرُ المُصْلِح بين النّاس كالمجاهدِ فى سبيلِ اللّه»، أى لا تتصوروا أنّ كلّ ذلك الثّواب العظيم المذكور «للمُجاهِدينَ فِى سَبيلِ اللّهِ» لا يشمل «المُصلحين»، بل إنّ السّاعين إلى إقرار السّلام حالهم حال المجاهدين المترصدين للعدو فى المتاريس، وورد فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«من كمال السّعادة السّعى فى صلاح الجمهور» «١».

ويمكن أن يكون لهذا الحديث مفهوم أوسع يشمل كلّ صلاح اجتماعى، ولكنه بلا شك يدل على الصّلح فى قبال الحرب.

وجاء فى عهده عليه السلام لمالك الأشتر الذى يعتبر أفضل مصدر للأبحاث المرتبطة بالحكومة الإسلاميّة، حول إقرار الصّلح:

«ولا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دعاك إليه عَدُوُّكَ وللّه فيه رضى فإنَّ فى الصّلح دَعَةً لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك».

فالإمام عليه السلام يبيّن هنا فلسفة الصّلح فى ثلاث ثمرات: الأمن للنّاس، وفرصة لتجديد قوى المقاتلين، وراحة لفكر رئيس الدّولة.

والنّكتة المهمّة هنا هى أنّ الإمام عليه السلام لا يعتبر كل صلح مفيد، بل ذلك الصّلح الّذى فيه

---

(١) غرر الحكم، نقلًا عن ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٣۶٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٨

رضى للّه‌تعالى، أى، ذلك الصّلح الذى يكون سبباً فى عزّة المسلمين ونشر العدل، ولكنه يحذّر مالكاً من العدو بعد عقد الصّلح ويقول:

«ولكنّ الحَذَرَ كُلَّ الحَذَرِ من عَدُوِّك بعد صُلْحِه فإنّ العَدو رُبّما قاربَ ليتغَفَّلَ فَخُذْ بالحَزْم واتَّهِمْ فى ذلك حُسْنَ الظَّنِّ» «١».

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۹

أسرى الحرب

تمهيد:

يقع عادةً فى أكثر الحروب عددٌ من الأسرى، وذلك لحصول ظروف قاهرة فى أثناء الحرب لم يَعُد بإمكان المقاتلين الاستمرار بالقتال أو التّراجع إلى الخلف، كأن تنفذ معداتهم أو ينفذ طعامهم أو يحاصروا من قبل القوات المعادية، حتّى يصبح القتال بالنّسبة لهم نوعاً من الإنتحار، ولذا يضطرون إلى التّسليم.

والعقل والمنطق يحكمان بعدم جواز قتل هؤلاء، بل ينقلوا إلى الخطوط الخلفية للجبهات، ويحبسون فى أماكن محروسة، إلى حين الاستفادة منهم فى تبادل الأسرى، أو الاستفادة منهم فى ممارسة الضّغط على العدو والحرب النّفسية لإجباره على الكفِّ عن الاستمرار بالقتال أو كسب امتيازات معينة حين الصّلح.

والأهم من هذا كله، فإن إراقة الدّماء تحتاج إلى مسوغٍ ومبرر، وفى حالة استسلام العدو لا يبقى وجه لذلك.

ولذا فإنّ مسألة وقوع الأسرى فى الحروب أمرٌ عاديّ وكذلك الحال فى الإسلام، ونلاحظ أنّ الإسلام قد شرّع أحكاماً عديدة ومهمّة بالنسبة للاسرى ينبغى على الحكومة الإسلاميّة العمل بها وتطبيقها مع الاسرى الذين يقعون فى حوزتها.

وبعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنرى أحكام أسرى الحرب من وجهة نظره:

۱- «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا اثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً». (محمّد/ ۴)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۰

۲- «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْرَى حَتّى يُثْخِنَ فِى الارْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (الأنفال/ ۶۷)

۳- «يَا ايُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لِّمَنْ فِى ايْدِيكُمْ مّنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمّا اخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». (الأنفال/ ۷۰)

جمع الآيات و تفسيرها

تخاطب الآية الأولى المسلمين وتذكّرهم باستعمال الشدّة والحزم فى الحرب، فتقول أوّلًا: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ».

وواضح أنّ كلمة «لقيتُم» هنا مأخوذة من «اللقاء» بمعنى الحرب لا كلّ لقاء، وخير دليل على ذلك هو ذيل الآية حيث تتحدث عن أسرى الحرب.

وبعد التأمل فيما مرَّ من أنّ الحرب فى الإسلام كانت دائماً دفاعية ومفروضة على المسلمين، تتضح منطقية الأمر أعلاه وذلك لأنّ المسلمين إذا لم يظهروا الشدّة والحزم قبال هجوم الأعداء، فإنّ الفشل سيكون حليفهم لا محالة، فكل إنسانٍ يواجه عدواً سفاكاً للدماء، إذا لَم يوجه الضربات المهلكة له، فإنّ ذلك يعنى الهزيمة أمامه.

ثُمّ تضيف الآية: «حَتَّى إِذَا اثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ».

وأكثر المفسرين قالوا: إنّ هذه الجملة تعنى التّشديد على العدو والإكثار من قتلهم، ولكن وبعد الإلتفات إلى أنّ هذه الجملة مأخوذة من مادة «ثخن» بمعنى «الغلظة» والصّلابة فإنّه يمكن حينئذٍ تفسيرها بالنّصر والغلبة التّامّة على العدو والسّيطرة الكاملة عليه، أى ينبغى

أن يستمروا بالقتال بقوّة واقتدار حتّى يغلبوا العدو (وعليه فليس الهدف هو إراقة الدّماء وإنّما الهدف هو الغلبة على العدو).

وعلى أيّة حال، فإنّ الآية الاولى ناظرة إلى أمرٍ عسكرى مهم وهو وجوب متابعة الحرب وعدم إيقافها مالم يتمّ التّغلب على العدو وكسره وأخذ الأسرى، لأنّ إيقاف الحرب يكون

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۱

سبباً فى زعزعة صمود المسلمين فى الحرب، وأنّ الإنشغال بنقل الأسرى إلى الخطوط الخلفية يشغل المقاتلين عن أهدافهم الأساسية.

وتعبير «شُدّوا الوَثاق» إشارة إلى ضرورة إحكام قيد الأسرى والتّدقيق فى حبسهم، كى لا يهربوا من الأسر، فينقلبوا إلى مقاتلين ضد المسلمين.

ثُمّ تبين الآية حكم الأسرى وتقول: «فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً».

فهنا تخيِّر المسلمين بين أمرين، إطلاق الأسرى بلا مقابل، أو مقابل الفدية (ويراد بالفدية «الغرامة» التى يتحملها العدو فى أزاء إطلاق سراح أسراه، وهى فى الواقع جزءٌ من الخسائر التى تسبب بها فى عدوانه).

والنّكتة المهمّة هنا هى أنّ فقهاء الإسلام وتبعاً للرّوايات، ذكروا طريقاً ثالثاً فى المسألة وهى استرقاق الأسرى، ولكن لم ترد إشارة إلى ذلك فى الآية الشّريفة على الرّغم من مسألة استرقاق الأسرى كانت أمراً عادياً فى ذلك الزّمان، وقد يكون ذلك باعتبار أن «الإسترقاق»- وكما ذكرنا ذلك مفصلًا فى محله- كان حكماً مقطعياً متناسباً مع شرائط خاصة، وكان نظر الإسلام هو أن يتمّ تحرير هؤلاء العبيد تدريجياً حتّى لا يبقى شىء بإسم الإسترقاق، ولهذا فإنّ الآية إشارة فقط إلى الطريقين الأولين أى الإطلاق بلا مقابل أو فى مقابل الفدية (وتبادل الأسرى بين الطرفين نوعٌ من أخذ الغرامة فى مقابل إطلاق سراح الأسرى).

كما أنّهم ذكروا طريقاً رابعاً فى الكتب الفقهية للأسرى (وهو قتل الأسرى) ولم تذكره الآية أيضاً، وذلك لأنّ قتل الأسير ليس حكماً أساسياً فى الأسرى، بل هو استثناء يتمّ إجراؤه فى خصوص الأسرى من ذوى الخطر ومجرمى الحرب لا فى كل أسير «۱».

وممّا ذكرنا يتضح أنّ حكم الآية ليس منسوخاً، ولا دليل على نسخة، وعدم ذكر بعض أحكام الأسرى فيها، له دليل وجيه.

---

(۱) وللفخر الرازى فى تفسير هذه الآية وعدم ذكر القتل والإسترقاق، رأى يشابه ما ذكرناه أعلاه (تفسير الكبير، ج ۲۸، ص ۴۴).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۲

نفحات القرآن ج ۱۰ ۳۳۸

وفى الآية الثّانية إشارة إلى كيفية أسر الأسرى، تقول: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الارْضِ».

وتعبير «يُثْخِنَ فِى الارْضِ» وكما أشرنا سابقاً لا يعنى المبالغة فى إراقة الدّماء والإكثار من القتل، بل ومن خلال جملة «فِى الارْضِ» يتضح أنّ المراد هو تحكيم المواقع على أرض المعركة والتّفوق على العدو، والسّيطرة على المنطقة، وحتّى لو فرضنا أنّ معناها هو إراقة الدّماء فإنّما هو من أجل كسر شوكة العدو والغلبة عليه.

وفى الواقع فإنّ هذا التّعبير شبيه جدّاً بما جاء فى ذيل الآية حيث يقول تعالى «حَتَّى تَضَعَ الْحَربُ أَوْزَارَهَا» وهذا خير شاهد على تفسيرنا.

والنّكتة المهمّة هنا هى أنَّ هذا تحذير للمسلمين من أخذ الأسرى قبل تحقيق الأهداف المرسومة، بسبب أنّ بعض المسلمين الذين أسلموا حديثاً، كان هدفهم الأساسى هو أخذ الأسرى، ليحصلوا على مبلغ أكبر من المال عند الفداء، وكان ذلك يؤدّى إلى تماهل هؤلاء فى أداء مسؤولياتهم الخطيرة فى الحرب وعدم اكتراثهم بالأخطار المحتملة ضد المسلمين، وانشغالهم بالأمور الثّانوية، فيتعرض جندُ الإسلام إلى ضربة ماحقة، كما حدث ذلك فى معركة أُحد وانشغال بعض المسلمين فى جمع الغنائم.

ولذا يقول تعالى فى ذيل الآية: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

ثُمّ إنّ المستفاد من الآيـة هو أن أخذ الأسـرى لم يكن فى عصـر نبىّ الإسـلام صـلى الله عليه و آله فقط، بل كان ذلك أمراً جارياً فى عصور الأنبياء السّابقين أيضاً، غايـة الأمر أنّ هـذه الآيـة تؤكـد على أنّ أخـذ الأسـرى ينبغى أنّ لا يكون لأجل الربح المادى، فكم من مورد تقتضى فيه مصلحة المسلمين أنْ يطلق المسلمون سراح أسرى العدو بدون أخذ الفدية منهم.

والملفت للنظر هنا هو أنّ القرآن الكريم يُحـذِّر فى الآية اللاحقة أولئك الذين يضـحّون بالمصـلحة العامة وأهداف الحرب المهمّة من أجل مصالحهم الشّخصية الماديّة، فيعّرضون مصلحة المجتمع للخطر، تقول الآية: «لَّولَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ» (وهو أنّه لا يعذب أمة بلا

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۳

حجة) «لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُم» (الأسرى الذين أخذتموهم لأغراض دنيوية) «عَذابٌ عَظِيمٌ». (الانفال/ ۶۸)

ومن مجموع هذه العبارات، يستفاد بوضوح أنّ أخذ الأسرى لابدّ أنْ يتمّ أولًا بعد السّيطرة الكاملة على العدو (ولو فى موقع معين من ميـدان القتال)، وثانياً إنّ أخـذ الأسـرى يجب أنْ لا يكون لأغراض مادية أى لأخذ الفدية مقابل إطلاق سـراحهم فيما بعد، إذ فى كثير من الأحيان تستوجب المصالح الإنسانيّة ومصلحة المسلمين أن يتمّ إطلاق سراح هؤلاء الأسرى بلا مقابل، وفى مثل هذه الظروف يصعب على المسلمين الذين أسّروا هؤلاء الأسرى لأغراض مادية إطلاق سراحهم والإمتثال للحكم الإلهىّ.

وفى الآيـة الثّالثـة، نجد حديث عن مسألة الرفق بالاسـرى بما يَدّلُّ على احترام الإسـلام لَهُم ولأحاسيسـهم، تقول الآية: «يَا ايُّهَا النَّبىُّ قُلْ لِّمَنْ فِى ايْدِيكُمْ مِّنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا اخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وكلمـة «خيراً» فى الجملـة الأـولى إشـارة إلى الإيمـان والإسـلام وإتّبـاع الحقّ، والمراد من «خيراً» فى الجملـة الثّانيـة هو الثّواب الإـلهى المـادىّ والمعنوى الـذى يحصـل عليه هؤلاء فى ظـلّ الإيمـان بـاللّه، وهـذا أفضل بكثير من المبالغ التى دفعوها بعنوان الفديـة أو الّتى خسروها فى ساحة الحرب.

وجملة «إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ» وكما ذكرنا ذلك مِراراً، بمعنى التّحقق- المعلوم- إذ إنّ علم اللّه شمل كلّ شىء من الأزل، ولا يحدث شىءٌ فى علمه أو يزيد أو ينقص، إلّاالمعلومات التى تتحقق على أثر مرور الزّمن مثل وجود نيّة أوْ اعتقاد فى قلب الأسير.

ومضافاً إلى هـذا الثّواب، فإن لطفاً إلهياً آخر يشـملهم وهو غفران ذنوبهم، والـذى يُشـغل بالهم لا محالة بعد إيمانهم ويُعذب روحهم، فالمغفرة الإلهيّة تسكين لهم.

كان هذا تفسيراً مختصراً للآيات القرآنيّة الواردة فى الأسرى، واستنتاجاتها.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۴

الأسرى فى الرّوايات:

وردت روايات عديـدة عن الأئمّـة الأطهار عليه السـلام فى التّعامل العطوف مع أسـرى الحرب، ورعايـة الأخلاق الإنسانيّة معهم، وهذه الرّوايات تبيّن عظمة التّعاليم الإسلاميّة فى هذا المجال.

۱- ورد فى حـديث عن أمير المؤمنين على عليه السـلام بعـدما ضـربه إبن ملجم (لعنه اللّه) ثمّ قبض عليه، قال الإمام عليه السـلام لولده الحسن عليه السلام: «إحبسوا هذا الأسير، وأطعِمُوه واسْقوه وأحسنُوا أسارَهُ» «۱».

۲- وفى حديث آخر عنه عليه السلام قال: «إطعام الأسير والإحسانُ إليه حق واجبٌ وإن قَتْلَتُهُ من الغَدِ!» (أى وإن كان محكوماً بالإعدام غداً كإبن ملجم) «۲».

وهذا الحكم شامل لجميع الأسرى ويعمّ المسلم والكافر، ولذا نجد فى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام ما يدلّ صراحة على هذا الحكم، يقول عليه السلام: «إطعامُ الأسِير حقّ على من أسَرَهُ وإنْ كان يراد من الغدِ قتلُهُ فإنّهُ ينبغى أنْ يُطعم ويُسقى ويُرفَقَ به كافراً كان أو غَيْرَهُ» «۳».

وهناك روايات اخرى فى قصّة أسر ابن ملجم قاتل الإمام علىّ عليه السلام تحكى جميعاً عن غاية لطف الإمام علىّ عليه السلام بالإسرى (سواءً كانوا أسرى حرب أو غير حرب).

ومن جملة ذلك ما ورد عن الإمام علىّ عليه السلام عندما كان راقداً فى فراش الشّهادة يوصى ولده الحسن عليه السلام بمداراة أسيره والتّرحُم عليه والإحسان إليه، ثُمّ يغمى على الإمام عليه السلام، وعندما يفيق يأتيه ولده الحسن بقدح من لبن فيشرب الإمام عليه السلام منه قليلًا ثُمّ ينحيه عن فيه ويأمرهم أن يَسقُوا ابن ملجم، ويضيف قائلًا: «وحقّى عليكَ يا بُنّى إلّاما طَيّبتُمْ مطعَمَهُ ومَشْرَبَهُ وارْفِقوا بِهِ إلى حينِ موتى وتُطعمهُ ممّا تأكُلُ وتسقيه ممّا تَشربُ» «۴».

---

(۱) مستدرك الوسائل، ج ۲، ص ۲۵۷.

(۲) وسائل الشّيعة، ج ۱۱، ص ۶۹.

(۳) المصدر السابق، ص ۶۸.

(۴) مستدرك الوسائل، ج ۳، ص ۲۵۸، ح ۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۵

وهنا نكتة مهمّة اخرى وهى أنّ إطلاق سراح الأسرى مقابل فدية لابدّ أن يتناسب مع مكنتهم، كما راعى ذلك النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله مع أسرى بدر، بل ويجوز إطلاق سراحهم فى قبال عملٍ ثقافى يقدمونه كما ذكر المؤرخون، واعتبروا ذلك خطوة تاريخيّة مهمّة بعد معركة بدر الكبرى من قبل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهى إطلاق سراح كل أسير من المشركين فى قبال تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة «۱» فى حين دفع البعض الآخر من الأسرى أربعة آلاف درهم فدية لحريته، أمّا الفُقراء والمعدمين فقد أطلق سراحهم بلا مقابل.

---

(۱) سيرة الحلبى، ج ۲، ص ۱۹۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۷

علاقة المسلمين بغير المسلمين، الأقليات الدّينيّة والحكومة الإسلاميّة

تمهيد:

من المسائل الّتى تثار ضدّ الحكومة الإسلاميّة ويُطبَّلُ ويزمَّرُ لها من قِبل الأعداء هى مسألة كيفيّة تعامل الحكومة الإسلاميّة مع الإقليات الدّينيّة غير المسلمة، ولكن ليس هذا بسبب وجود تعقيد فى المسألة، بل من أجل أمرين هما:

الأول: عدم اطلاع الكثير من النّاس على قوانين وتعاليم الإسلام فى هذه القضيّة، والوقوع فى شباك التّعصبات الجافة.

الثانى: وسائل اعلام العدو المضللة وسعى الأعداء لابعاد أتباعهم عن الشّريعة الإسلاميّة، لأنهّم يعلمون جيداً أنّ جاذبية التّعاليم الإسلاميّة قويّة إلى درجة أنّها تؤثر على أتباع الأديان الاخرى بمجرّد تفهمها، ولذا يقول هؤلاء لأتباعهم: إنّ الإسلام يتعامل بخشونة مع أتباع الأديان الأُخرى، فابتعدوا عن المسلمين!!

فى حين أنّ الإسلام يتعامل تعاملًا أخوياً مع أتباع المذاهب الاخرى ويدعوهم دائماً للعيش بسلام جنباً إلى جنب، وتفصيل الكلام فى ذلك سيتضح فى الأبحاث القادمة.

وبعد هذه الإشارة، نرجع إلى القرآن الكريم ونتعمق فى دراسة الآيات القرآنيّة ثُمّ الرّوايات الواردة فى هذا المجال:

۱- «لَّایَنْهَاکُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِینَ لَمْ یُقَاتِلُوکُمْ فِی الدِّینِ وَلَمْ یُخْرِجُوکُمْ مِّنْ دِیَارِکُمْ انْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا الَیْهِمْ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ* إِنَّمَا یَنْهَاکُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِینَ قَاتَلُوکُمْ فِی الدِّینِ وَاخْرَجُوکُمْ مِّنْ دِیَارِکُمْ وَظَاهَرُوا عَلَی إِخْرَاجِکُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ یَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (الممتحنة/ ۸- ۹)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۸

۲- «قَاتِلُوا الَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْیَوم الآخِرِ وَ لَایُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَلَا یَدِینُونَ دِینَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِینَ اوتُوا الْکِتَابَ حَتَّی یُعْطُوا الْجِزْیَةَ عَنْ یَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

(التوبة/ ۲۹)

۳- «وَلَا تُجَادِلُوا اهْلَ الْکِتَابِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ احْسَنُ إِلَّاالَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِی انْزِلَ إِلَیْنَا وَ انْزِلَ إِلَیْکُمْ وَ إِلهُنَا وَ إِلَهُکُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

(العنکبوت/ ۴۶)

۴- «قُلْ یَا اهْلَ الْکِتَابِ تَعَالَوْا إِلَی کَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَیْنَنَا وَ بَیْنَکُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَانُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لَایَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِانَّا مُسْلِمُونَ». (آل عمران/ ۶۴)

۵- «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِینَ آمَنُوا الْیَهُودَ وَ الَّذِینَ اشْرَکُوا وَ لَتَجِدَنَّ اقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ قَالُوا إِنّا نَصَارَی ذَلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَ رُهْبَاناً وَ انَّهُمْ لَا یَسْتَکْبِرُونَ». (المائده/ ۸۲)

جمع الآیات و تفسیرها

الآیة الأولی الّتی وردت بعد آیات تحذر المسلمین من عقد الصّداقة مع أعداء اللّه، وتذکرهم ببغض هؤلاء للنّبیّ صلی الله علیه و آله والمسلمین، وإیذائهم بالید واللسان للمسلمین الأبریاء، تقول: «لَایَنْهَاکُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِینَ لَمْ یُقَاتِلُوکُمْ فِی الدِّینِ وَلَمْ یُخْرِجُوکُمْ مِّنْ دِیَارِکُمْ انْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا الَیْهِمْ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ».

ثُمّ تضیف للتأکید الأقوی فی مورد الذین یحاربون المسلمین وتقول: «إِنَّما یَنْهَاکُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِینَ قَاتَلُوکُمْ فِی الدِّینِ واخْرَجُوکُمْ مِّنْ دِیَارِکُمْ وَظَاهَرُوا عَلَی إِخْرَاجِکُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ یَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

من ملاحظة سبب نزول هاتین الآیتین والآیات السّابقة لهما فی سورة «الممتحنة»، وبملاحظة القرائن الموجودة فی نفس الآیات، یتضح تماماً أنّ هذه الآیات ناظرة إلی

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۹

المشرکین وعبدة الأوثان، فهی تقسّمُهُمْ إلی مجموعتین: مجموعة قاتلت المؤمنین وآذتهم ولم تتردد عن کل مخالفة وممارسة عدائیة ضدهم، ومجموعة ثانیة کانت مستعدة للعیش معهم بسلام.

ففی هذه الآیات نجد منع إنشاء العلاقة والتّعامل مع المجموعة الأولی وقد أجازت ذلک منع المجموعة الثّانیة، وعدّت الّذین یرتبطون بالمجموعة الأولی من الظّالمین، أمّا المتعاملین مع المجموعة الثّانیة فاعتبرتهم الآیة الشریفة من أنصار العدالة.

وإذا کان الحکم الإلهی فی مورد المشرکین وعبدة الأوثان علی هذا النّحو، فهو بالنسبة للکفار من أهل الکتاب من باب أولی.

واعتبر بعض المفسرین أنّ الأمر الوارد فی هذه الآیة قد نُسِخ، وأنّ ناسخة هو قوله تعالی: «فَإِذَا انسَلَخَ الأَشهُرُ الحُرُمُ فَاقتُلُوا المشرِکِینَ حَیثُ وَجَدتُّمُوهُمْ». (التوبة/ ۵)

ولکن وبقرینة أنّ هذه الآیة بشهادة سائر آیات سورة التّوبة، نازلة فی شأن المشرکین الذین ینقضون العهد، والّذین أعلنوا العداء للمسلمین، یتضح لنا تماماً أنّ الآیة لم تُنْسَخْ، بل إنّ آیات سورة التّوبة مرتبطة بالمجموعة الأولی.

وروى بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية أنّ زوجة أبى بكر المطلّقة قد جاءت لإبنتها «أسماء» ببعض الهدايا من مكة، ولما كانت لا تزال مشركة، امتنعتْ أسماء من قبول تلك الهدايا منها، حتى أنّها لم تسمح لأمّها بالدّخول عليها، فنزلت الآية المذكورة، وأمرها الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنْ تستقبل امَّها وتقبل هديتها وأنْ تحترمها «۱».

وعلى أيّة حال، يستفاد من هذه الآيات، أصلٌ عام كلّى فى كيفية تعامل المسلمين مع غير المسلمين، بلا تحديد ذلك بزمانٍ أو مكانٍ خاص، وهذا الأصل هو أنّ المسلمين مكلّفين بسلوك طريق السّلم مع كلّ فرد أو مجموعة أو مجتمع أو دولة لا تتخذ موقفاً معادياً تجاههم، أو تحارب الإسلام والمسلمين وتنصر أعداءهم، سواءً كان هؤلاء مشركين أو كانوا من أهل الكتاب.

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۴۸۱، كما نقلت هذه الرواية فى كثير من كتب التفسير، وفى صحيح البخارى بتفاوت.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۰

وحتى لو كانت مجموعة أو دولة تقف فى صف أعداء الإسلام ثمّ تراجعت عن ذلك وغيرّت سياستها، فإنّ على المسلمين أنْ يقبلوهم وأن لا يعادوهم، فالمعيار هو الموقف الراهن لأولئك تجاه الإسلام والمسلمين.

قصّة «الجزية»:

والآية الثّانية وهى من سورة التّوبة أيضاً، وبعد بيان الأحكام الخاصّة بالنّسبة للمشركين وعبدة الأوثان، تتعرض لبيان موقف المسلمين من كفار أهل الكتاب (اليهود والنّصارى) وتقول:

«قَاتِلُوا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَومِ الآخِرِ وَ لَايُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ اوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»

ولا شكَّ فى أنّ لهجة الآية فى خصوص أهل الكتاب «شديدة» وذلك لأنّ أهل الكتاب وخاصة «اليهود» كانت لهم مواقف سلبية جدّاً تجاه الإسلام والمسلمين، فقد وافقوا الأعداء فى حرب الأحزاب وبعض الحروب الاخرى مضافاً إلى أنّهم وقفوا فى وجه الإسلام فى بعض الحروب كحرب «خيبر» وتآمروا على قتل رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وكانوا يتجسسون على المسلمين لصالح الأعداء.

وبالنظر لأن الآية أعلاه من آيات سورة التّوبة، ونعرف أنّ سورة التوبة نزلت فى السّنة التّاسعة للهجرة، حيث كان المسلمون قد غزو غزوات عديدة، وكان من الضّرورى أن يحددوا موقفهم من كل القوى المخالفة لهم.

ففى البدء تحذر المشركين وتطلب منهم تحديد موقفهم، فتعلن الحرب ضد أولئك الذين نقضوا عهدهم إلّاإذا أذعنوا للحق، وأمّا أولئك الذين وفوا بعهدهم فتطلب منهم الاستمرار بالوفاء حتّى النّهاية (وهذا المعنى ذكر فى الآيات الأولى من السّورة).

ثُمّ تعلن الحرب على أهل الكتاب الّذين لا زالوا يُنسّقون مع المشركين ضد المسلمين،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۱

فتصفهم بثلاثة أوصاف، الأولى: «لا يُؤمِنُونَ بِاللَّهِ ولَا بِاليَومِ الآخِرِ»، فصحيح أنّ اليهود والنّصارى كانوا فى الظّاهر يقبلون المبدأ والمعاد، ولكنّهم من جهة اخرى كانوا قد دنّسوا هذا الإعتقاد بالخرافات، فأداروا ظهورهم للتّوحيد الصّحيح وتمسّكوا بالتثليث والشّرك، وقالوا بانحصار المعاد غالباً فى المعاد الرّوحانى، والأهم من ذلك هو أنّ إيمانهم بالمبدأ والمعاد لم ينعكس على أعمالهم وأفعالهم، وانغماسهم فى الخرافات والضّلال كان إلى درجة يمكن القول معها أنّهم ليسوا بمؤمنين بالمبدأ والمعاد.

والصّفة الثّانية هى: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

وتاريخ هؤلاء يشهد بأنّهم لم يلتزموا عمليّاً باجتناب المحرمات وكانوا يرتكبون الذّنوب المحرمة فى كلّ الشّرائع السماويّة، فكان الدين عندهم مجرد طقوس خاوية صوريّة (كما أن الدين عندهم اليوم عبارة عن مسألة شخصيّة تقتصر على الدّعاء الأسبوعى وذكر بعض

الأمور الأخلاقيّة التى ليس لها أى أثر على حياتهم عملياً، مثالهم الصهيونيّة التى لا تتورع عن القيام بأى جريمة نكراء من أجل تحقيق أغراضها).

والصفة الثّالثة هى: «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ».

لأنّهم غيّروا مفهوم الدّين كلياً وعزلوه عن هموم البشريّة وخلطوه بالخرافات.

وهذه الأوصاف الثّلاثة، تعتبر متلازمة لهم فى الواقع، وهى التى كانت تدعوهم مجتمعة لمواجهة الإسلام ومخالفته.

ولكن مع كلّ ذلك فإنّ الآية تفتح باباً للصّلح أمامهم وتقول: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

يقول الرّاغب فى مفرداته: «الجزية» ما يؤخذ من أهل الذّمة (وهم غير المسلمين الذين يتعاهدون معهم للعيش جنباً إلى جنب داخل الدّول الإسلاميّة)، وتسميته بذلك لإنّه بمنزلة الجزاء والأجر الّذى يدفعونه لحفظ أنفسهم (وأموالهم).

وجاء فى كتاب التّحقيق، أنَّ الجزيّة نوع من الجزاء والأجرة، وهو نفس ما يؤخذ من غير المسلمين.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۲

وعلى كلّ حال، فإنّ أصل «الجزية» هو «الجزاء»، لأنّ ما يدفعونه من مال لا يكون مجاناً وبلا عوض، بل عوضه هو أنّ الحكومة الإسلاميّة تكون مسؤولة عن الدّفاع عن أموالهم وأنفسهم وأعراضهم وتوفير الأمن اللازم لهم.

وقد احتمل البعض أنّ «الجزيّة» مأخوذة من «الجزء» لأنّ الجزية عادة مبلغ قليل من المال يدفعه كلّ فرد منهم سنوياً.

والتّعبير ب «عن يدٍ» إشارة إلى أنّ «المعاهد» لابدّ أنّ يدفع «الجزيّة» بيده شخصيّاً، ولا يحق له توكيل شخص آخر للقيام بذلك، ولكن البعض يعتقد أنّ هذا التّعبير إشارة إلى أنّ الجزية لابدّ أن تكون نقداً، وعليه فيحق للذّمى أنْ يُوَكِّل عنه شخصاً آخر لدفع الجزيّة ولكن يجب أن تكون نقداً لا نسيئة، أو أن المراد من ذلك هو أنّ «الجزية» تؤخذ من الأغنياء فقط، وأمّا الفُقراء فيعفون عن أداء الضرائب الإسلاميّة.

وأيّاً كان المعنى من هذه الثّلاثة فلا يؤثر على أصل المسألة مع أنّه يمكن جمعها جميعاً.

وأمّا تعبير «صاغِرُونَ» والذى ذكرت له معانٍ وتفاسير غير مناسبة، فهو فى الأصل مأخوذ من مادة «صِغَر» بمعنى الاستصغار والخضوع، فيكون المراد هنا هو خضوع هؤلاء واحترامهم للإسلام والمسلمين ولمقررات الحكومة الإسلاميّة، وبعبارة اخرى علامة على العيش بسلام وقبول أنَّهُم أقليّة مسالمة ومحترمة فى قبال الأكثريّة.

وماذكره بعض المفسرين من أنّه بمعنى «التّحقير والإهانة والسّخرية بأهل الكتاب» لا يمكن استفادته لا من المفهوم اللّغوى للكلمة ولا من روح التّعاليم الإسلاميّة، ولا من أحكام التّعامل مع الأقليات الدّينيّة الواصلة إلينا، وفى الواقع فإنّ هؤلاء المفسرين يفرضون عقيدتهم الخاصة على الآية.

ومن هنا تتضح لنا حقيقة تلك (الزوبعة) التى يثيرها البعض حول هذه الكلمة من هذه الآية، وأنّها مخالفة لكرامة الإنسانية ونهج العيش المشترك المسالم، فهى ضجّةٌ وزوبعة لا أساس لها من الواقع.

والنكتة المهمّة هنا هى أنّ «الجزية» عادة مبلغ قليل من المال كان أهل الكتاب يدفعونه

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۳

فى قبال تعهد الحكومة الإسلاميّة على حفظ أموالهم وأنفسهم ونواميسهم، وطبقاً لما ورد فى بعض الرّوايات فإنّ مقدار الجزيّة كان ديناراً واحداً فى السنة!!

حتى أنّ بعض أهل الكتاب الذين كانوا يعجزون عن دفعه كانوا يعفون من الجزية (وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ البعض يرى أنّ جملة «عن يدٍ» إشارة إلى ذلك).

إختيار الأسلوب الأفضل فى النقاش:

والآية الثّالثة تتناول كيفية مجادلة المسلمين لأهل الكتاب، فهى توصيهم بانتخاب أفضل أسلوب للنّقاش والبحث وتقول: «وَلَا تُجَادِلُوا اهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ احْسَنُ».

وهذا مفهوم عام وجامع وأساسى.

و «الجدال»: فى اللغة هو إبرام الحبل وإحكامه، فإذا تباحث اثنان فى أمرٍ وأراد كلٌ منهما حرف صاحبه عن رأيه يقال «جادله» والمراد منه هنا النّقاش والبحث المنطقى.

أمّا فيما يرتبط بالمراد من جملة «بِالَّتِى هِىَ احْسَنُ»، فإن بعض المفسرين قالوا إنّ المراد منها هو التعامل معهم بلين ولطف ومحبة، ففى قبال الخشونة اللين، وفى قبال الغضب، الصّبر، وفى قبال الشرّ، حب الخير، وفى قبال التسرُّع، التأنى.

وعلى أيّة حال، فإنّ تعبير بجملة (بالتى هى أحسن) جامع جدّاً يشمل كلّ الأساليب الصّحيحة والمناسبة للبحث والنّقاش، سواءً كان ذلك بالألفاظ أو فى محتوى الكلام، أو فى لحن القول أو فى الحركات والسلوك العملى، وعليه يكون مفهوم الجملة هو أنّ الحديث معهم لابدّ أنْ يكون مؤدباً، وأنْ لحن القول لابدّ أنْ يكون حبيباً وأنْ محتوى الكلام لابدّ أن يكون منطقيّاً وبرهانيّاً، فينبغى أنْ يكون الصّوت خالياً عن العربدة والغوغاء والضجيج، وأن تكون حركات اليد والعين والحاجبين المكمّلة للبيان على هذا المنوال.

وكلّ ذلك من أجل أنّ الهدف من النّقاش والمجادلة ليس حب السّيطرة والإستعلاء، وإنّما هو إقناع الطرّف المقابل ونفوذ الحقّ إلى أعماق روحه، وأنْ يتخذ الموقف الصّحيح فى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۴

قبال الإسلام، فهؤلاء المعاهدون لابدّ أنْ يعرفوا أنّ روح الإسلام روح السّلام والصّفاء، والآية توصى المسلمين بأن يتعاملوا مع غير المسلمين معاملة سلمية.

وبطبيعة الحال، فإنّ هذه الأمور يجب أنْ لا تكون بنحو يتصور المقابل أنّ المسلمين ضعفاء عاجزين فيسىء استغلال عطفهم ولينهم.

ثُمّ تستثنى الآية مجموعة من هؤلاء وتقول: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» وهى إشارة إلى الذين رفضوا العيش بسلام إلى جنب المسلمين، وأساءوا استغلال محبّة المسلمين لهم ومداراتهم ولينهم، حيث عادوا الحق وعاندوه مع أنّهم كانوا قد قرأوا علامات نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله فى كتبهم، وكانوا يحاولون إخفائها وكتمانها، وكانت ميولهم ميول عدوانية وغير مسالمة، بعيده عن الاحترام والمحبّة، فمثل هؤلاء لا شكّ فى ضرورة استثنائهم من تلك الأحكام الرّؤوفة.

وجاء فى تتمّة الآية عدّة جمل لطيفة اخرى فى هذا المجال حيثُ يقول تعالى: «وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى انْزِلَ إِلَيْنَا وَ انْزِلَ إِلَيْكُمْ وإِلهُنَا وَ إِلهُكُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

وهذا فى الحقيقة نموذج واضح ورائع للمجادلة بالّتى هى أحسن، أى أنّ القرآن الكريم لم يكتفِ بذكر الكليّات فى هذا المجال، بل عرض مصاديق واضحة فى الأثناء.

وهذه العبارة تدل بوضوح على ضرورة الإعتماد على النّقاط المشتركة لتحكيم اسس العيش السّليم المشترك، وهى الإيمان باللّه الواحد والإيمان بكل الكتب السّماوية وأمثال ذلك.

ولكنّ التّأكيد والإصرار على الجهات المشتركة لا يعنى قبول المسلمين لبدع هؤلاء وانحرافاتهم وتراجعهم عن معتقداتهم، وقد تكون جملة «وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، إشارة لطيفة لهذا المعنى.

ونقرأ فى حديث مفصل عن الإمام الصّادق عليه السلام الذى يرشدنا فيه إلى نموذج «للمجادلة بالتى هى أحسن» ويأمرنا بالتّأمل فى آخر سورة «ليس»، وملاحظة كيفيّة مجادلة منكرى المعاد بطرق مختلفة وبمنطق لطيف وبرهانى قوى فى نفس الوقت «۱».

(١) إقتباس من تفسير نور الثّقلين، ج ۴، ص ۱۶۳، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٥

هذا وقد جاء مضمون الآية بشكل آخر فى سورة النّحل، حيث يقول تعالى «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ». (النّحل/ ١٢٥)

والملفت للنّظر هو أنّ هذه الآية هى أول الإرشادات الأخلاقيّة العشرة التى وردت فى تلك السّورة فى مورد التّعامل الصّحيح مع المخالفين.

وفى الواقع فإن الجملة الأولى أى: «أدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ» ناظرة إلى الاستدلالات العقليّة فى قبال أرباب الاستدلال والفكر.

وعبارة «والمُوعَظِةِ الحَسَنَةِ» إشارة إلى الأسلوب العاطفى فى المجادلة مع غير أرباب الإستدلال العقلى، أى أولئك الذين يدورون مدار المسائل العاطفيّة، وخصوصاً وأنّ وصف «الموعظة» بالحسنة، إشارة إلى ضرورة خلوها من الخشونة والإستعلاء وتحقير الطرف المقابل وإثارة إحاسيسه وأمثال ذلك، ولا شك فى أنّ مثل هذه الموعظة تكون مؤثرة.

و «وجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هى أَحسَنُ» إنّما هى مع أولئك الذين مُلِئَت أذهانهم بالشّبهات والشكوك، فينبغى مجادلتهم عن طريق المناظرات الصّحيحة وإخلاء أذهانهم من تلك الشّبهات تمهيداً لقبول الحق.

الدّعوة إلى أصلٍ أساسى مشترك:

والآية الرابعة تخاطب أهل الكتاب وتدعوهم إلى أصل أساسى مشترك وهو التّوحيد وفروعه، يقول عزّوجلّ:

«قُلْ يَا اهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَانُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لَايَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِانَّا مُسْلِمُونَ».

والدعوة إلى القدر المشترك خير طريق للعيش بين مذهبين مختلفين، إذ لا يمكن عادة أنْ نطلبَ من طرف واحد أن يتخلى عن معتقداته ويتبع الطّرف الآخر، وحتّى لو كان ذلك مقبولًا ومنطقيّاً فإنّه غير ممكن عملياً، فالأفضل أن نترك أتباع الأديان الاخرى على

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣١۶

معتقداتهم إذا رفضوا قبول الإسلام بعد بيان الأدلة على حقانيته، وأنّ نعمل ضمن القدر المشترك بيننا وبينهم، وخير مشترك بين كلّ الأديان السماوية هو أصل «التوحيد» فى الذات والصفات.

وحتّى أنصار التّثليث (وينبغى التّنبيه هنا إلى أنّ الإعتقاد بثالث ثلاثة لم يكن موجوداً فى عصر المسيح والقرن الأوّل بعده، كما صرح بهذا المعنى علماء المسيحيّة) فإنّهم يفسرّون التّثليث بشكل يتلائم مع التّوحيد، ويسمّونَهُ ب «الوحدة فى التثليث»، وعلى الرغم من أنّ ذلك تناقض واضح، ولكنه فى نفس الوقت دليل على أنّ هؤلاء يرغبون فى بقائهم أوفياء لأصل التّوحيد.

وهذه الدّعوة إلى الحياة السّلميّة المشتركة المستمرة من المعتقدات المشتركة يعتبر فى الحقيقة مصداقاً واضحاً «للمجادلة بالّتى هى أحسن» الذى ورد فى الآية السّابقة، ويدلّ بوضوح على أنّ الإسلام لا يرغب أبداً فى إجبار أتباع الأديان الاخرى بالقوة على اعتناق الشّريعة الإسلاميّة.

والظّريف هنا، هو أنّ النّبىّ صلى الله عليه و آله بعد صلح الحديبيّة فى السّنة السابعة للهجرة وعندما أرسل كتباً إلى زعماء وملوك الدّول العظمى فى ذلك الوقت مثل «المقوقس» ملك مصر و «هرقل» ملك الرّوم، و «كسرى» ملك إيران، دعاهم فيها إلى الإسلام، ذكر هذه الآية المباركة فى ذيل تلك الكتب ودعاهم على الأقل إلى الأصل المشترك بين كل الأديان السّماويّة، أى أصل «التّوحيد»، ثُمّ العيش بسلام جنباً إلى جنب.

وهذا بنفسه خير دليل على روح السّلام والصّلح فى الإسلام والرّغبة فى العيش السّليم مع أتباع سائر الأديان السّماوية، والذى لها جذور منذ عصر النّبىّ صلى الله عليه و آله.

وفى خامس وآخر آية من الآيات الّتى ذكرناها فى صدر البحث، إشارة إلى اختلاف مواقف أتباع الأديان الاخرى تجاه المسلمين، فتتحدث الآية عن كلٍ من هؤلاء بحسب حاله، يقول تعالى:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۷

«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ اشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ اقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى .

ثُمّ تبين الآية الكريمة دليل محبة المجموعة الثّانية للمؤمنين وتقول:

«ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْبَاناً وَ انَّهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ».

وهذا التّعبير يدلّ بوضوح على أنّ الإسلام مضافاً إلى أنّه يرفض مواجهة من لا يكنُّ للإسلام العداء والبغضاء، فإنّه يعتبر هؤلاء من أقرب الأصدقاء إلى الإسلام، ويثنى على زعماء هؤلاء ويعتبرهم من أهل العلم والمعرفة وترك الدّنيا والإستكبار وبهذا يستقبل هؤلاء بصدر رحب ويفتح لهم ذراعى المحبّة والصّداقة ويكنُّ لهم احتراماً خاصاً.

وإذا كان موقف الإسلام تجاه اليهود والنّصارى متفاوتاً، فإنّ ذلك ليس لعداوة خاصة يكنّها لليهود، بل من أجل مواقفهم العدائيّة ضدّ المسلمين واتفاقهم مع المشركين العرب السّفاكين، على العكس من النّصارى، ولذا جمع فى الذكر بين اليهود والمشركين فى هذه الآية، وأمّا المسيحيين فكانوا على صلة حسنة بالمسلمين.

والملفت للنّظر هنا هو أنّ المسيحيين كانوا أبعد من اليهود عن المسلمين لاعتقادهم بالتّثليث بينما كان اليهود يقولون بالتّوحيد صراحة، ولكن لما كان اليهود عملياً يضمرون العداء ويحيكون المؤامرات ضدّ المسلمين بخلاف المسيحيين فإنّ الإسلام يهتم بالعيش بسلام مع النّصارى أكثر من اليهود.

وللأسف، فإن وضع اليهود اليوم هو الإستمرار فى ميولهم العدوانيّة السّالفة، حيث نجد أنّ اليهود اليوم قد جنّدوا كلّ قدراتهم ضدّ الإسلام والمسلمين، فى حين أنّ بين المسيحيين أفراد أو دول تربطهم روابط حسنة مع المسلمين.

ومن مجموع ما ذكر، يتّضح تماماً أنّ سعة صدر الإسلام وعظمته تميل إلى الرّغبة فى العيش بسلام مع الأديان السّماويّة الاخرى بشرط أن يدخل هؤلاء من باب الصّلح والصّفاء والصّداقة والإحترام المتقابل- ويأمر المسلمين بالتّعامل الحسن معهم، وأن يجادلوهم بالموعظة الحسنة وإتباع المنطق والأدب والإنصاف، وبهذا الطّريق يرشدونهم إلى تعاليم

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۸

شريعة الإسلام، لا عن طريق ممارسة الخشونة والشّدّة والتّصرفات المرفوضة إسلامياً.

العيش المشترک مع أتباع الأديان الاخرى فى الرّوايات:

نلاحظ فى الروايات الإسلاميّة إرشادات كثيرة فيما يرتبط بكيفية التعامل مع أتباع الأديان الاخرى:

۱- جاء فى عهد أمير المؤمنين المعروف لمالك الأشتر:

«وأشعِرْ قلبك الرحمة للرعيّة والمحبّة لهم واللّطف بهم ولا تكوننَّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكْلَهُمْ، فإنّهُمْ صنفان، إمّا أخ لَك فِى الدين أو نظيرٌ لك فِى الخلْق» «۱».

ونحن لم نعهد تعبيراً أوضح وأبلغ من هذا التّعبير حول العيش بمحبّة وسلام مع غير المسلمين، وبملاحظة أنّ الإمام عليّاً عليه السلام يبيّن فى هذا العهد أنَّ إبداء المحبّة والمداراة والرحمّة واللطف تجاه غير المسلمين هو من وظائف رئيس الحكومة الإسلاميّة، يتضح لنا جلياً تكليف سائر أفراد المجتمع الإسلامى تجاه بعضهم البعض.

۲- وفی حدیث عن الإمام الصّادق علیه السلام أنّ علیّاً علیه السلام صاحب رجلًا ذمّیاً فقال له الذمّی:

أین ترید یا عبداللّه؟

قال علیه السلام: أُرید الکوفهٔ. فلمّا عدل الطّریق بالذمّی عَدَل معه الإمام علیّ علیه السلام، فقال له الذمّی: أ لیس زعمت ترید الکوفهٔ؟

قال الإمام علیه السلام: بلی.

فقال له الذّمّی: فقد ترکت الطّریق.

فقال الإمام علیه السلام: قد علمتُ.

فقال له الذّمی: فَلِمَ عدلت معی وقد علمت ذلک؟

فقال له الإمام علیّ علیه السلام:

---

(۱) نهج البلاغهٔ، الرسالهٔ ۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۹

«هذا من تمام حسن الصُحْبَهٔ أن یُشیِّعَ الرَجُلُ صاحِبَهُ هُنَیْئهً إذا فارقهُ، وکذلک أمَرَنا نبیّنا».

فقال له الذّمی: هکذا؟ قال: نعم.

فقال له الذّمی: لا جَرَم إنّما تبِعَهُ مَنْ تبعه لأفعاله الکریمهٔ، وأنا أُشهدک أنّی علی دینک.

فرجع الذمّی مع علیّ علیه السّلام، فلمّا عرفَه أسْلَم «۱».

۳- ونقرأ فی حدیث عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال:

«من ظَلَمَ معاهداً وکلّفَهُ فوق طاقته فأنا حَجیجَهُ یومَ القیامهٔ» «۲».

۴- وجاء فی کتاب «الخراج» لأبی یوسف أنّ «حکیم بن حزام» شاهـد «عیاض بن غنم» وقد حبس قوماً من أهل الذمّهٔ فی الشّـمس لمّا امتنعوا عن إعطاء الجزیهٔ (وکان یرید أن یضـیق علیهم لیضـطرهم لدفع الجزیهٔ) فقال له حکیم: ما هذا یا عیاض، لقد سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله یقول:

«إنَّ الذینَ یعذّبونَ النّاس فی الدنیا یُعَذَّبونَ فی الآخرهٔ» «۳».

وقد کان هذا الأمر معروفاً بین المسـلمین إلی درجهٔ أنّهم نقلوا أنّ أحد ولاهٔ عمر بن عبد العزیز واسمه «علی بن أرطأه کتب له بأنّ قوماً عندنا لا یدفعون الخراج مالم یجبروا علی ذلک بالضرب والإیذاء! فکتب له عمر بن عبد العزیز: عجیب حقاً أن تطلب منی أن أجبرک بتعذیب النّاس، أترید أن تجعلنی درعاً أمام عذاب اللّه، وتظن أن إذنی ینجیک من عذابه!؟

فإذا جاءک کتابی فمن دفع خراجه وإلّا حلّفهُ علی عجزه عن دفع الخراج، واکتفِ بذلک الحلف.

ثم یضیف: وأیم اللّه إنّه لأحب إلیّ أن ألقی اللّه یوم القیامهٔ وهؤلاء لم یدفعوا الخراج من أن ألقاه وقد عذّبْتُهُمْ «۴».

وکما تلاحظون فإنّ الوارد فی الحدیث هو «تعذیب وإیذاء الإنسان» وهذا یدلّ علی أنْ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ۵۳.

(۲) فتوح البلدان، البلاذری، ص ۱۶۷.

(۳) الخراج، ص ۱۲۴.

(۴) الخراج، ص ۱۱۹.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۰

الممتنعين عن أداء الخراج لم يكونوا من المسلمين.

ونفس هذا المضمون ورد فى حديث آخر، ولكن ورد فيه عنوان «النّاس»، حيث ورد أن «سعيد بن زيد» رأى أنّ قوماً يُعذَّبون لعدم دفعهم «الجزية» فقال: سمعت من رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «من عذَّبَ النّاس عذّبهُ اللّهُ» «۱».

۵- ورد تعبير رائع فى نهج البلاغة، خطبة الجهاد، يقول عليه السلام: «وَلَقَد بلغنِى أنّ الرّجُلَ مِنهُم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حِجْلَها وقُلْبَها وقلائدها ورُعْثَها ما تمتنعُ مِنهُ إلّابالإسترجاع والإسترحام .... فلو أنَّ امرءً مُسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندى جديراً».

(عندما أَخبروا أمير المؤمنين عليه السلام بأنّ سرايا من جيش معاوية هجموا على الأنبار وقتلوا واليهِ عليها «حسان بن حسان» ونهبوا أموال المسلمين وغير المسلمين، فدعى أمير المؤمنين النّاس إلى الجهاد وخطب خطبة الجهاد المعروفة، جاء فيها المقطع أعلاه) «۲».

فهنا نجد أنّ الإمام عليه السلام يعتبر المرأة المعاهدة والمرأة المسلمة فى رعيل واحد فى وجوب الدّفاع عنهما، وأن من مات أسفاً على سلبهما أموالهما فهو عنده جدير، ولا نجد تعبيراً أبلغ من هذا فى الدّفاع عن حيثية أهل الذّمة وأموالهم وأنفسهم وأعراضهم.

۶- روى أنّ علياً أمير المؤمنين عليه السلام رأى رجلًا مكفوفاً كبيراً يسأل، فقال أمير المؤمنين عليه السلام ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين هو نصرانى. فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه، أَنفقوا عليه من بيت المال».

تعامل المسلمين مع غير أهل الذمّة:

قد يُتصور أحياناً أنّ غيرَ المسلمين صنفان، هما «أهل الذمّة» و «المحاربون»، وعليه فكلُّ من لم يكن من «أهل الذمّة» فهو محارب وأنّ ماله ودمه مهدوران.

---

(۱) الخراج، ص ۱۲۴ و ۱۲۵.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۱

ولكن فى الحقيقة أنّ غير المسلمين أربعة أصناف، إذ يوجد مضافاً إلى الصنفين المذكورين صنف ثالث وهم «المعاهدون» (وهم الذين يرتبطون بالمسلمين بعهدٍ وميثاق وإن كانوا يعيشون خارج المحيط الإسلامى ولم يكونوا أقليّة) و «المهادنون» وهم غير الأصناف الثّلاثة، بل هم قوم يعيشون فى بلادهم ولا يزاحمون المسلمين.

وفى دنيا اليوم، يوجد لهذه الأصناف الأربعة مصاديق واضحة:

۱- الأقليات التى تعيش داخل الدّول الإسلاميّة، والتى تشملها قوانين تلك الدّول، وتكون الحكومات الإسلاميّة ملزمة بحفظ أموال ودماء ونواميس أفراد هذه الأقليات والدّفاع عن حقوقها، وهؤلاء يدفعون بعض الضّرائب للحكومة الإسلاميّة، ويمكن اعتبارها بمقام «الجزية» لأنّ «الجزيّة» كما ذكرنا مأخوذة من «الجزاء» بمعنى الشىء الذى تأخذه الحكومة الإسلاميّة كأجرٍ أو معونة للدّفاع عنهم، وهؤلاء هم «أهل الذمّة».

۲- بعض الدّول «كإسرائيل» و «أمريكا» الذين يحاربون المسلمين اليوم، ولا يتورعون عن أى عدوان ضدهم ولا يُقصرون فى إيذائهم، فهؤلاء كفرة حربيّون، لَسْنا ملزمين بأى تعهد فى قبالهم.

۳- هناك شعوب غير مسلمة تربطهم معنا علاقات صداقة، ونتبادل معهم السّفراء، ونعقد معهم أحياناً بعض المعاهدات الإقتصاديّة والتجاريّة والثّقافيّة، أو نلتزم بمقررات معينة فيما بيننا من خلال المنظمات الدّولية وكل هؤلاء مصاديق «للمعاهدين» وعلينا أنّ نتعامل

معهم بما تقضيه الإلتزامات التى تربطنا معهم بشكل مباشر أو غير مباشر (عن طريق المنظمات العالمية) وأن نرعى الإحترام المتبادل فيما بيننا.

۴- وهناك بعض الدّول التى ليست فى حالة حرب معنا، ولا معاهدة لنا، ولا يوجد بيننا سفراء، ولا تربطنا بهم مواثيق، ولكن لا يزاحموننا ولا نحن نزاحمهم، فعلينا أنْ نراعى الأصول الإنسانيّة والأخلاقيّة معهم، وهؤلاء هم (المهادنون).

وممّا ذكر أعلاه، يتضح لنا أنّ «أهل الذمّة» هم فقط ذلك الصنف من أهل الكتاب الذين يعيشون داخل الدّول الإسلاميّة، وأنّ أحكام الجزية أو عدم التّظاهر بالمعاصى والذنوب

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۲

الكبيرة وأمثالها، خاصة بهم.

وأمّا أهل الكتاب من الذين يعيشون فى دولهم، فلا يعتبرون من مصاديق أهل الذمّة، حتى لو ارتبطوا بمواثيق وعهود معنا، وإنّما هم مصداق «المعاهدين» وقد يكونون «محاربين» وقد يكونون «مهادنين» فى بعض الظروف. (إلتفتوا جيداً).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۳

الحكومة الإسلامية والأجهزة الأمنية

تمهيد:

لا شك فى أنّ التجسس على أحوال النّاس الخاصة والبحث عن أسرارهم عملٌ مذموم وقبيح، فإنّ اللّه «ستّار العيوب»، وينبغى على عباده أن يكونوا كذلك أيضاً، إلّابالنسبة للذين يهتكون السّتر ويتركون الحياء جانباً ويتظاهرون بارتكاب الذّنوب، فإنّه لا حرمة لهم، لإنّهم هم الذين هتكوا حرمهم.

والقرآن الكريم يحذِّر بصراحة من التّجسس، كما ورد فى سورة الحجرات، حيث يقول تعالى:

«يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَّعْضُكُمْ بَعْضًا». (الحجرات/ ۱۲)

فهنا إشارة إلى ثلاثة ذنوب كبيرة «سوء الظن»، «التجسس» و «الغيبة» وكل واحدٍ من هذه الثّلاثة فى الواقع مقدّمة للآخر، فإنّ إساءة الظّن بالأشخاص مقدّمة للتّجسس عليهم، والتجسس سبب فى الإطلاع على العيوب والأخطاء، فتكون الغيبة، التى تعتبر من أكبر الذّنوب، وأساس العداوات والاختلاف وفقدان الثقة.

و «كرامة الإنسان» فى الحقيقة، أهم شىء فى كيانه من وجهة نظر الإسلام، حتّى أنّها أهم من حاله وحياته أيضاً، وقد ورد فى حديث عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله:

«إنّ الدِّرْهَمَ يُصيبُهُ الرَّجُل من الرِّبا أعْظَمُ فِى الخطيئة من سِتٍّ وثلاثين زَنيَةً يزنيها الرَجُلُ، وأربى الرّبا عِرضُ الرّجل المُسْلِم» «۱».

---

(۱) المحجّة البيضاء، ج ۵، ص ۲۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۴

والواقع هو أنّ رأسمال الإنسان فى المجتمع هو كرامته، وكل المسائل الاخرى تابعة لها، ولا شك فى أنّ سوء الظنّ والتّجسس والغِيبة تعرِّض رأسماله الغالى إلى الخطر، أو تفنيه.

ولكن ومع ذلك، فإنّ هناك بعض الموارد إذا واجهناها بحسن الظن، ولم يُتَجسَّسْ عليها وتفضح أسرارها، فإنّها ستشكل خطراً على المجتمع الإسلامى، سواءً كان هذا الخطر مؤامرة من قبل المنافقين فى الدّاخل، أو مخططات مشئومة من قبل الأعداء من الخارج تنفذ

على أيدى عملائهم فى الداخل.

فمثل هذه الموارد لابدّ من مواجهتها بريبة واستفهام، والتّجسس لحفظ الأهداف الأهم، وهذه هى فلسفة تشكيل الأجهزة الأمنيّة والأمن المضاد، وهى فلسفة معقولة ومنطقيّة وموافقة للعقل والشّرع، وإن كان طلّاب الدّنيا والحكومات المستبدة والإستكبارية تسيء استغلال ذلك، ولكن هذا لا يمنع من بقاء أصل هذا الأمر منطقياً ومعقولًا، فلا يقال ما هى الضرورة لمثل هذه الأعمال؟ فأى قانون مقدس لم يُستغل استغلالًا سلبياً من قبل ضعاف النّفوس؟!

وخلاصة الكلام، هى أنّ عدم التّجسس على أوضاع الآخرين وحياتهم الخاصة «أصلٌ» لابدّ أن يحفظ، ولكن التّجسس فى موارد معينة «استثناء» ولابدّ أن يُحفظ هو الآخر فى حدود وشرائط خاصة باعتباره وظيفة شرعية واجتماعية.

وفى الواقع إنّ هذا الاستثناء يخضع لقانون الأهم والمهم ويخضع للعناوين الثّانوية، فحفظ كرامة الأفراد مهمٌ جدّاً، ولكن حفظ وجود المجتمع الإسلامى ونظام الحكم والأمن والإستقرار أهم من ذلك وأوجب، ولذا ففى مثل هذه الموارد يقدم الثانى على الأول.

وممّا تقدم يتضح أن التّجسس واستقصاء أسرار الآخرين يحتاج إلى مجوّز ودليل كافٍ، وأمّا التّصرف الشّخصى فغير مجاز.

هذا ما يرتبط بالتّجسس فى داخل المجتمع الإسلامى.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۵

وأمّا فى خارج المجتمع الإسلامى، فالمسألة أوضح، فإنّ على المسلمين دائماً أنْ يتعرفوا على ما يجرى فى ظاهر وباطن المجتمعات الأجنبية والذى قد يرتبط بمصير المجتمع الإسلامى، فعليهم أنّ يحبطوا المؤامرات فى مهدها ويخنقوها وهى فى مراحلها الاولى وبغير ذلك فإنّهم سيطلعون عليها بعد فوات الأوان، ويكون القضاء عليها صعباً حينئذٍ، أو يكلف ثمناً باهضاً جدّاً!

وهناك نوع آخر من التّجسس فى الحكومة الإسلاميّة (وكل حكومات العالم) وهو التّجسس على أحوال موظفى وكوادر الحكومة الإسلاميّة ومسؤوليها، ليحصل الإطمئنان بأنّهم يؤدّون وظائفهم بشكل صحيح، وأنّهم لا يجحفون ولا يتعدّون على حقوق المسلمين، وأنّهم لا يسيئون استغلال مناصبهم.

وعلى أيّة حال، فالمستفاد من آيات القرآن هو أنّ مسألة التّجسس كانت موجودة فى تلك الأعصار، وأنّ النّبىّ صلى الله عليه و آله كان له أجهزة للأمن المضاد لمواجهة عمليات التّجسس لصالح أعداء الإسلام، وبهذا الطريق كان يحبط مؤامراتهم وتحركاتهم.

وقد حذّر اللَّه عزّ وجلّ، المسلمين وأمرهم بمراقبة تحركات جواسيس المنافقين، وقال:

«لَو خَرَجُوا فِيكُم مازَادُوكُم إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ» «۱». (التوبة/ ۴۷)

وقد يكون لفظ «سمّاع» بمعنى «الجاسوس»، أو من يتميز بقوة السمع والإستقبال، والاحتمال الأوّل أنسب لمورد الآية.

هذا فى حين أنّ اللَّه تعالى قبل عدّة آيات يأمر النّبىّ صلى الله عليه و آله ببذل الجهد للتعرف على المنافقين، ويقول: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعلَم الْكَاذِبِينَ». (التوبة/ ۴۳)

---

(۱) و «أوضعوا» من مادة «إيضاع» بمعنى السّرعة فى الحركة، فالمراد هنا هو أنّ المنافقين يوجدون الفتنة فى قلوب البسطاء من المسلمين والفرقة والنّفاق بسرعة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۶

توضيحات

۱- قصة تجسس حاطب وسارة

يظهر أنّ النبيّ الأـكرم صلى الله عليه و آله كان له جهاز أمنى قوى من خلال قصة «حاطب بن أبى بلتعة» التى وقعت قبيل فتح مكة المكرّمة.

وتوضيح ذلك: كان النّبيّ الأـكرم صلى الله عليه و آله يستعد لفتح مكة وكان حريصاً على عدم انتشار أخبار ذلك وإنتقالها إلى أسماع المشركين وكان هناك رجل من المسلمين يقال له «حاطب بن أبى بلتعة» اشترك فى غزوة «بدر» و «بيعة الرّضوان»، وكان يخاف على أهله فى مكة من كيد المشركين فوسوس له الشيطان، فأراد أن يقدم خدمة لهم ليأمن كيدهم على عياله، فاتفق مع امرأة تدعى «سارة» كانت قد جاءت من مكة إلى المدينة، وعندما أرادت العودة إلى مكة كتب حاطب كتاباً معها لتوصله إلى أهل مكة يخبرهم بنية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأعطاها عشرة دنانير، وقيل عشرة دراهم، وكان قد كتب فى الكتاب: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة أنّ رسول اللَّه يريدكُم فخذوا حذركم، فخرجت سارة، ونزل جبرئيل فأخبر النّبيّ صلى الله عليه و آله بما فعل حاطب، فبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عليّاً وعماراً وعمر والزّبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم: إنطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتى أدركوها فى ذلك المكان الذى ذكره رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت باللَّه ما معها من كتاب، فنحّوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع فقال على عليه السلام: واللَّه ما كذبنا ولا كُذِبنا وسَلَّ سيفه وقال لها: أَخرجى الكتاب وإلّا واللَّه لأَضربنَّ عنقك، فلما رأت الجدَّ أخرجته من ذوائبها فقد أخبأته فى شعرها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول اللَّه، واللَّه ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتُك منذ نصحتك ولا أحببتهُم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحدٌ من المهاجرين إلّاوله بمكة من يمنع عشيرته وكنت عزيزاً فيهم- أى غريباً، وكان أهلى بين ظهرانيهم فخشيتُ على أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يداً وقد علمت أنّ اللَّه ينزل بهم بأسه وأنّ كتابى لا يغنى عنهم شيئاً، فصدقه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعذره،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۷

فقام عمر بن الخطاب وقال دعنى يا رسول اللَّه أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: وما يدريك يا عمر لعلَّ اللَّه إطَّلع على أهل بدر فغفر لهم، فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

فنزلت الآيات الأولى من سورة «الممتحنة» وحذَّرت بشدّة المسلمين من تكرار مثل هذه التّصرفات، لأنّها تذهب بدنياهم وآخرتهم «۱».

ففى هذه القصة، نجد أنّ هناك تجسساً لصالح الأعداء، ولكن جهاز الأمن المضاد عند النّبيّ صلى الله عليه و آله- سواءً كان عن طريق اطلاع جبرئيل الأمين أو أى طريق آخر- أحبط مؤامرة العدو، بنحو لم يصل أى خبر عن تحرك النّبيّ صلى الله عليه و آله ومخططه لفتح مكة إلى أسماع قريش وفوجىء مشركو قريش بدخول جيش الإسلام إلى مكّة، وكان ذلك سبباً فى تحرير أقوى قلاع الشرك بلا إراقة دماء ولا حرب، ولو كانت الجاسوسة قد أوصلت ذلك الكتاب إلى مكّة، كان يُحتمل أن تراق دماء كثيرة فى هذا الطّريق، وهذا يدل على أهميّة دور الأجهزة الاستخبارية أو الأمن المضاد فى تحديد مصير مجتمع وأمّة بكاملها.

۲- قصة استخبار حُذيفة

نموذج آخر من النشاطات الأمنية فى عصر النّبيّ صلى الله عليه و آله، هو قصّة «حذيفة» فى حرب الأحزاب.

فقد روى فى التواريخ؛ ذات ليلة من ليالى حرب الأحزاب، وبعد اختلاف الأحزاب فيما بينهم، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: مَن رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع- يشرط له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الرجعة- أسأل اللَّه تعالى أن يكون رفيقى فى الجنّة؟ قال حذيفة: فما قام رجل من القوم من شدّة الخوف وشدّة الجوع وشدّة البرد، فلما لم يقم أحد دعانى رسول اللَّه صلى الله عليه

و آله فلم يكن لى بدّ من القيام حين دعانى، فقال: «يا حذيفة إذهب فأوغل فى القوم فانظر ماذا

---

(۱) ذكر أكثر المفسرين هذا المعنى فى شأن نزول الآيات الأولى من سورة الممتحنة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۸

يصنعون ولا تُحدثَنَّ شيئاً حتى تأتينا».

قال فتهيأت فدخلت فى القوم والرّيح وجنود اللَّه تفعل بهم ما تفعل لا تقرُّ لهم قِدراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ مَنْ جليسه؟ قال حذيفة:

فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت: من أنت قال: فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان:

يا معشر قريش إنّكم واللَّه ما أقمتم بدار فقام، لقد هلك الكُراع والخفّ وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نَكره ولقينا من شدة الرّيح ما ترون ما يطمئن لنا قِدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا تحلوا فإنى مرتحل، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثبَ به على ثلاث فواللَّه ما أطلق عقاله إلّاوهو قائم، ولولا عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلىّ «أن لا تحدث شيئاً حتى تأتينى» ولو شئت لقتلته بسهم.

والمستفاد من آيات القرآن، أن وجود الأجهزة الأمنيّة والتّجسسية كان أمراً رائجاً حتّى فى زمن الأنبياء الذين سبقوا نبيّنا محمّداً صلى الله عليه و آله، حتّى استفيد من الطيّور فى هذا المجال كما فى قصّة سليمان عليه السلام والهدهد، الذى كان يأتى بأخبار البلدان البعيدة إلى سليمان، ثُمّ يحمل رسالة سليمان- التى كانت تبين علاقته بالدّول الاخرى إلى تلك الدّول «۱».

۳- المنظمات الأمنية فى الروايات الإسلاميّة

لهذه المسألة فى الروايات الإسلاميّة وكتب التاريخ صدىً واسعٌ، فمن خلال الاطلاع عليها يمكن الوقوف على هذه الحقيقة وهى أنّ الحكومة الإسلاميّة ينبغى أن لا تغفل عن هذه المسألة المهمّة، وأنّ عليها أن تمارس نشاطاً موسعاً فى اتجاهين: أن تطّلع على تحركات العدو العسكريّة والسّياسية والاقتصاديّة التى لها تأثير على مستقبل ومصير المسلمين، وأن تواجه الفعاليات الجاسوسية، للعدو الذى يحاول النفوذ واختراق المسلمين للتعرف على أسرارهم وسرقتها.

وسنتعرض هنا إلى بيان نموذج من هذه الرّوايات والوقائع التّاريخية:

---

(۱) الآية ۲۰ إلى ۲۶ من سورة النّمل (وللتّفصيل راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۹

۱- ورد فى حديث عن الإمام علىّ بن موسى الرّضا عليه السلام: «كان رسولُ اللَّه صلى الله عليه و آله إذا بعثَ جَيشاً فاتَّهمَ أميراً بَعَثَ مَعَهُ من ثقاتِه مَنْ يتجسس خَبَرَهُ» «۱».

فقد يكون ذلك الأمير معتمداً من بعض الجهات، ولكن خطورة مسؤوليته توجب وجود ناظرٍ ومفتش عليه، تحسُّباً من انحرافه- لا سمح اللَّه- وارتكابه ما لا يمكن جبرانه من قبل المسلمين.

وهذا الحديث موافق لما ورد فى متن الوسائل وقرب الإسناد، الطّبعة الجديدة (مؤسسة آل البيت)، ولكن ورد فى بعض الكتب كلمة «فأمَّهُمْ» أى، عيّن لهم أميراً، بدلًا من «فاتَّهَمَ»، ولكن تعيين المفتش والجاسوس أنسب بلفظ «فاتَّهَمَ»، وانتخاب مثل هذا الأمير يكون لتميزه ببعض الميزات المفقودة فى غيره، (التفتوا جيداً).

۲- ورد فی حدیث آخر حول سَرِیّة «عبد اللَّه بن جحش» (والسّریة، الحرب التی لم یحضر الرسول بنفسه فیها)، أنّ النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله بعث عبداللَّه بن جحش بن رئاب الأسدی ومعه ثمانیة رهط من المهاجرین لیس فیهم من الأنصار أحد، وکتب له کتاباً وأمره أن لا ینظر فیه حتی یسیر یومین ثم ینظر فیه فیمضی لما أمره به. فلما سار عبداللَّه یومین فتح الکتاب فنظر فیه فإذا فیه: إذا نظرت فی کتابی هذا فامضی حتی تنزل نخلة بین مکة والطائف فترصد بها قریشاً وتعلم من أخبارهم (والقصة طویلة وقد جاء فی ذیلها أنّه اشتبک معهم وأسر منهم جماعة وغنم غنائم ... «۲».

۳- بعد غزوة بدر «۳»، لما انصرف أبو سفیان ومن معه نادی: إنّ موعدکم بدر للعام القابل.

فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لرجل من أصحابه قل: نعم، هو بیننا وبینکم موعد.

ثم بعث رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی بن أبی طالب علیه السلام وقال له: أخرج فی آثار القوم، فأنظر ماذا

---

(۱) وسائل الشّیعة، ج ۱۱، ص ۴۴.

(۲) سیرة ابن هشام، ج ۲، ص ۲۵۲؛ والکامل، لابن الأثیر ج ۲، ص ۱۱۳.

(۳) سیرة ابن هشام، ج ۳، ص ۱۰۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۰

یصنعون وما یریدون، فإن کانوا قد جنبوا الخیل وامتطوا الإبل فإنّهم یریدون مکة وإن رکبوا الخیل وساقوا الإبل فإنّهم یریدون المدینة، والذی نفسی بیده لئن أرادوها لأسیرن إلیهم فیها ثم لأُناجزنّهم!

قال علیّ: فخرجت فی آثارهم أنظر ماذا یصنعون، فجنبوا الخیل وامتطوا الأبل وتوجّهوا إلی مکّة.

وکان هذا النّشاط التّجسسی للنّبی علی ید أمیر المؤمنین علیه السلام، عملٌ مهمٌ جدّاً ومؤثر فی تحدید مصیر المسلمین، وکان ینقذهم من أن یُفاجأوا.

۴- ونقرأ «۱» فی قصة حرب أُحُد أنّ النّبیّ صلی الله علیه و آله أرسل رجلین یتجسسان علی أحوال جیش قریش قبل أن یردوا أُحُد لیتعرفوا علی عدد قوات العدو وعدتهم، کما أنّه أرسل «الحباب بن المنذر» سراً لیستطلع أوضاع قریش بعد أن نزلوا أحداً، وطلب منه أن یأتیه بالخبر سرّاً إذا کان عددهم کبیراً، وإذا کان قلیلًا فلا مانع من أنْ یخبره علناً.

ولمّا کان عدد المشرکین کبیراً، جاء الحباب وأخبر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بعددهم سرّاً.

۵- وکتب نهج البلاغة، تبیّن لنا بوضوح أنّ الجهاز الأمنی للإمام علی علیه السلام کان مطّلعاً علی الأمور فی کلّ بقاع الدولة الإسلامیّة.

ومن جملة ذلک «عهده لمالک الأشتر» فی تعیین المفتشین السّریّین للنّظر فی کیفیّة قیام العمّال- الولاة بوظائفهم، یقول علیه السلام: «وابعثِ العیونَ من أهل الصّدق والوفاء علیهم فإنَّ تعاهُدَکَ فی السّرِّ لأمورهم حَدْوَةٌ لَهُمْ علی استعمال الأمانة والرفق بالرعیّة».

وبطبیعة الحال، فإنّ هذا النّشاط واحد من نشاطات العیون التّجسسیة، وهو أن یتجسسوا علی کیفیة قیام مأموری وموظفی الدولة الإسلامیّة بوظائفهم.

۶- وفی کتاب آخر له علیه السلام إلی والیه علی مکة «القُثم بن عباس» وهو أخو عبد اللَّه بن عباس، یقول فیه: «أمّا بعد، فإنَّ عَینی بالمغرب «۲» کتب إلیّ یُعلِمُنی أنَّه وُجِّهَ إلی الموسم

---

(۱) المغازی للواقدی، ج ۲، ص ۲۰۶ و ص ۲۰۷.

(۲) الشام، وعاصمتها دمشق، التی تقع إلی الغرب (أو الشّمال الغربی) من الکوفة مرکز خلافة الإمام علیّ علیه السلام.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۱

اناس من أهل الشّام العُمى القلوب الصُمِّ الأسماع الكُمهِ الأبصار الذين يَلبسُونَ الحقَّ بالباطل ويطيعون المخلوق فى معصيهٔ الخالق .... فَاقِمْ على ما فى يَدَيك قيامَ الحازم الصَّليب» «۱» ويبدو أنّ معاويهٔ كان قد أعدَّ مخططاً لخداع «القثم بن عباس» ودعوته لخيانهٔ على عليه السلام، وإيجاد الفوضى فى موسم الحج، فأخبر عيون الإمام عليه السلام المخترقين جهاز حكم معاويهٔ، الإمام عليّاً عليه السلام بهذا الخبر بسرعهٔ فأسرع الإمام عليه السلام فى إحباط تلك المؤامرهٔ.

والكلام هنا فى المأمورين السّريّين الذين يخترقون قلب أجهزهٔ العدو وينفذون فيها لنقل المعلومات السريهٔ.

۷- ونقرأ كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى «عثمان بن حنيف»، حيث يقول عليه السلام: «أمّا بَعدُ يا ابن حنيف فقد بلغنى أنّ رجلًا من فتيهٔ أهل البصرهٔ دعَاكَ إلى مأدُبَهٔ فأسْرَعْتَ إليْها تُستطابُ لك الألوانُ وتُنقَلُ إليكَ الجفانُ» «۲».

فمن هذا الكتاب يتضح لنا بأنّ عيون الإمام عليه السلام السريّهٔ لم تكن تنقل له المسائل السّياسيهٔ والعسكريهٔ فقط، بل وكذلك المسائل الأخلاقيّهٔ التى لم تكن مناسبهٔ لمقام الولاهٔ وموظفى الحكومهٔ الإسلاميّهٔ وغير المنسجمهٔ مع أُصول التّعاليم الإسلاميّهٔ وخاصّهٔ فيما يرتبط بالزّهد، وأنّ جزئيات حركاتهم غير خافيهٔ على عيون الإمام التّجسسيهٔ الفطنهٔ.

وشبيه هذا المعنى نراه فى كتابه عليه السلام إلى «المنذر بن جارود» واليه على «اصطخر» حيث ورد فى هذا الكتاب:

«أمّا بعدُ فإنَّ صلاحَ أبيك غرَّنى مِنك، وظَننتُ إنّك تَتَّبعُ هَدْيَهُ، وتَسلُكُ سَبيلَهُ فإذا أنت فيما رُقّىَ إلىَّ عَنْكَ لا تَدَعُ لِهَواكَ انْقياداً ولا تبقى لآخرتكَ عِتاداً تعْمُرُ دُنياكَ بِخَرابِ آخرتِكَ وتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعهِٔ دِينِكَ» «۳».

والمستفاد من الرّوايات أنّ خيانهٔ إبن الجارود هى أنّه اختلس أربعمائه الف درهم من

---

(۱) نهج البلاغهٔ، الرسالهٔ ۳۳.

(۲) المصدر السابق، الرسالهٔ ۴۵.

(۳) المصدر السابق، الرسالهٔ ۷۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۲

بيت المال، له ولأقربائه، فعزله الإمام عليه السلام من ولايته وحبسه مدهٔ من الزمن «۱».

ونرى هنا أنّ عيون الإمام عليه السلام قد نقلوا خيانهٔ هذا الوالى الخفيّهٔ بعد أن كشفوها، وأنّ الإمام عليه السلام أبدى موقفاً شديداً تجاهه.

۸- جاء فى تاريخ حياهٔ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لمّا بلغ معاويهٔ بن أبى سفيان وفاهٔ أمير المؤمنين عليه السلام وبيعهٔ النّاس ابنه الحسن عليه السلام دسَّ رجلًا من حِمْيَر إلى الكوفهٔ، ورجلًا من بنى القين إلى البصرهٔ ليكتبا إليه بالأخبار، ويفسدا على الحسن الأمور، فعرف ذلك الحسن عليه السلام فأمر باستخراج الحميرى من عند لجّام بالكوفهٔ، فأُخرج وأمر بضرب عنقِه، وكتب إلى البصرهٔ باستخراج القينىّ من بنى سليم فأُخرج وضُربت عُنُقه» «۲» وكتب الحسن عليه السلام إلى معاويهٔ: أمّا بعد فإنّك دسست الرّجال للإحتيال والإغتيال وارصدت العيون كأنك تحب اللقاء وما أشكُّ فى ذلك فتوقعه إن شاء اللّه.

۹- بعد حرب صفين أعلن جماعهٔ من «بنى ناجيهٔ» يتزعمهم «الحريث بن راشد» مخالفتهم للإمام ونقضهم البيعهٔ، فأرسل الإمام علىّ عليه السلام إلى الحريث وطلب منه المثول عنده ليبيّن له السُنَن وأموراً من الحق، فلم يحضر الحريث وفرَّ برجاله، وفى الطريق قتلوا رجلًا مسلماً من أتباع الإمام عليه السلام، وتركوا يهودياً واعتبروه من أهل الذمّهٔ، فكتب الإمام عليه السلام كتاباً إلى عمّاله فى تلك المناطق، مضمونه: أنّ قوماً مذنبين هربوا، ونظن أنّهم قصدوا البصرهٔ، وكان ممّا جاء فى ذلك الكتاب: «واجْعَل عليهم العيون فى كل ناحيهٔ من أرضك ثم اكتب إلىّ بما ينتهى اليك عَنْهُمْ» «۳».

(۱) سفينة البحار، مادة (نذر).

(۲) بحار الأنوار، ج ۴۴، ص ۴۵، ح ۵.

(۳) شرح نهج البلاغة، لابن ابى الحديد، ج ۳، ص ۱۳۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۳

من مجموع الروايات الآنفة الذكر، والرّوايات والتّواريخ الاخرى التى يطول المقام بذكرها، يتضح جيداً أنّ أجهزة التجسس والتفتيش كانت تعمل دائبة فى عصر النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام سواءً فى مجال كشف مؤامرات الأعداء، أو فى إبطال خطط الأجهزة الجاسوسية للمخالفين، أو فى التحقيق فى سلوك موظفى الدّولة الإسلاميّة، وكذلك كشف مؤامرات المنافقين فى داخل الدّولة الإسلاميّة.

وبطبيعة الحال، فإنّ أساليب «التّجسس» و «ضد التّجسس» فى زماننا تغيرت كثيراً كغيرها من المسائل عمّا كانت عليه فى ذلك الوقت واتسعت وتعقدت كثيراً واستفيد فيها من التّكنولوجيا الحديثة المتطورة بشكل واسع.

ولا شك، أنّ الحكومة الإسلاميّة فى هذا العصر لا يمكنها الإكتفاء بالأساليب القديمة والبدائيّة للوصول إلى أهدافها الأمنية بواسطة الأمن المضاد، بل لابدّ أن تتجهّزَ بكلّ الوسائل المتطورة، لكى تكشف كل مؤامرات الأعداء ومخططاتهم الرامية إلى تضعيف الدولة الإسلامية وقهرها، كما أنّ عليها أنْ تراقب بدقة تصرفات المسؤولين فى الدوّلة الإسلاميّة، ونشاطات الأحزاب والتجمعات السياسيّة المتواجدة، لإقرار الأمن والحدِّ من المفاسد والتخريب.

وعلى الحكومة الإسلاميّة أن تستعين بالتّكنولوجيا الحديثة وكلّ أساليب التّجسس ولا تكتفى بالأساليب القديمة.

وعلى الرّغم من أنّ هذا يكلِّفُ الدّولة أموالًا طائلة، إلّاأنّه قد يكون صرف أموال قليلة فى هذا المجال سبباً للحدِّ من ضياع أموالٍ طائلة فى المجالات العسكريّة والسياسيّة والإقتصاديّة، أو تكون سبباً فى الوقاية من خسائر كثيرة لا يمكن تعويضها.

فمثلًا لو أنّ أجهزة التّجسس فى الدّولة الإسلاميّة، كشفت عملية تفجير تستهدف زعزعة أمنها، فإنّها ستمنع من حدوث خسائر فادحة فى القوى البشريّة والاقتصاديّة، والأهم من ذلك أنّها ستكشف مؤامرة الأعداء العسكريّة الخطيرة وتمنع من مضاعفات مثل هذا العمل.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۴

۴- إستراق السّمع

لا شك فى أنّ مراقبة المكالمات الهاتفية الشّخصية والتّجسس على محتواها للإطلاع على أسرار النّاس، مصداق من مصاديق الآية الشّريفة فى سورة الحجرات الدّالة على حرمة «التّجسس»، كما أنّ الرّوايات الإسلامية تؤكد هذا المعنى.

فقد ورد فى حديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «لا تتّبعوا عَثَرات المسلمين فإنه من تَتَبع عثراتِ المسلمين تَتَّبَعَ اللّهُ عَثْرَتهُ، ومن تَتَّبَعَ اللّهُ عَثرتَه يَفْضَحُهُ».

والملفت للنظر هو أنّه ذكر المخاطبين فى هذا الحديث بقوله: «يا معشرَ من أسْلَمَ بلسانهِ ولم يُسلمْ بِقَلْبِه» «۱».

وفى أصول الكافى، فى باب من طلب عثرات المسلمين وعوراتهم ذكرت أحاديث كثيرة أخرى- غير الحديث أعلاه-.

وحرمة هذا الأمر كانت مسلّمَةً بين المسلمين إلى درجة أنّ عمر بن الخطّاب كان ذاتَ ليلة يتجول فى أزقة المدينة، فسمع رجلًا يُغنّى فى داره، فتسلق عمر حائط الدّار وصاح بالرّجل يا عدوّ اللّه أتعصى اللّه هنا وتظن أنّ اللّه لن يفضحك؟!

فقال الرجل: مهلًا أيّها الخليفة، فإن كنتُ قد ارتكبتُ ذنباً واحداً فإنّك قد ارتكبت ثلاثة ذنوب، فإن اللّه عزّوجلّ يقول «وَلَا تَجَسَّسُوا»

وأنت تتجسس، وإن اللّه عزّوجلّ يقول «وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِهَا» (البقرة/ ۱۸۹) وأنت سطوت من على الجدران، وإنّ اللّه عزّوجلّ يقول:

«لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» (النور/ ۲۷) ولم تفعل أنت ذلك!

فاستحى عمر وقال: لو عفوتُ عنك فهل تترك اقتراف هذا الذنب؟

قال الرجل: نعم، فعفى عنه عمر وخرج «۲».

وعلى أيّة حال، فلا شبهة فى أنّ استراق السّمع، بمعنى مراقبة مكالمات النّاس، العادية منها أو الهاتفية، وحتّى التّجسس على الرّسائل والمكاتبات الخاصّة، كل ذلك من مصاديق التّجسس الواضحة الحرمة.

---

(۱) أصول الكافى، ج ۲، ص ۳۵۵، ح ۴.

(۲) كنز العمّال، ج ۳، ص ۸۰۸، ح ۸۸۲۷.

ولكن، قد تقتضى الضرورات أحياناً، أن ترتكب الحكومة الإسلاميّة مثل هذا الفعل فى بعض الموارد، وهو مورد احتمال وجود مؤامرة ضد الإسلام والمسلمين، واحتمال وجود خطر على الأنفس والأموال المحترمة، ففى مثل هذه الموارد لا مفرَّ من استراق السمع والتفتيش فى الأعمال، بالضّبط كما يتمّ ذلك فى التّفتيش عن المواد المخدرّة وأمثال ذلك فى الطرق العامة ووسائل النّقل أو تفتيش الأشخاص فى مداخل المدن!

والواقع أنّ هذه المسألة فرع من فروع مسألة تزاحم الواجبات أو تزاحم الواجب والحرام، ولابدّ من مراعاة «المرجحات» ومسألة «الأهم والمهم».

وبتعبير أوضح، التّجسس على أفعال المسلمين حرام ولكن حفظ نفوس أفراد المجتمع، ونظام الدّولة الإسلاميّة، وإحباط مؤامرات الأعداء، أهم من ذلك، وعليه ففى كلّ مورد يخاف فيه من تعرّض مثل هذه الأمور للخطر، يجوز استراق السّمع للحدِّ من وقوع تلك المخاطر.

۵- التعذيب الجسدى لأخذ الإعترافات!

اشارة

لاشكَّ فى أنّ إيذاء أى إنسان بلا مبرر غير جائز، وقلنا فى الأبحاث السابقة أيضاً: إنّه لا يجوز تعذيب أحدٍ لأخذ الإعترافات منه، وأنّ كل إقرار مأخوذ بهذا الأسلوب غير معتبر شرعاً وليس له أيّة قيمة قانونية.

ففى حديث عن أمير المؤمنين الإمام علىّ عليه السلام قال: «مَنْ أقرَّ عِنْدَ تجريدٍ أو تخويف أو حَبسٍ أو تهديد فلا حدَّ عَلَيْه» «۱».

ولكن إذا كان المتهم قد ارتكب جرماً بيّناً غير ذلك الجرم الذى لم يثبت عليه، جاز تعزيره لأجله، كما لو ألقى القبض على سارق فى أثناء اقتحامه منزل أحد الناس ولم تثبت سرقته، فلو عزّر لاقتحامه المنزل واعترف أثناء التّعزير بالسّرقة ظناً منه أنّ هذا التّعزير

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۱۸، ح ۲، الباب السابع من أبواب حدِّ السرقة.

تعذيب لأخذ الإقرار، وثبت بالقرائن صدق اعترافه هذا (كما لو دلَّ على مواضع إخفاء تلك المسروقات وتبين صحة ذلك)، أمكن

الأخذ بهذا الإقرار واعتباره شرعيّاً، وذلك لأنّ القرائن القطعيّة هى التى تثبت صحة هذا الإقرار.

كما يمكن اتباع هذا الأسلوب فى خصوص الجواسيس الأجانب حتى لو لم يرتكبوا مخالفة قطعيّة، وكان الحاكم الشرعى يعتقد يقيناً أو ظناً قوياً بأنّ هذا الجاسوس يحمل معلومات سريّة خطيرة تهدد مصير الدّولة الإسلاميّة والمسلمين بالخطر، فإنه فى مثل هذه الحالة يمكن تعذيب هذا الجاسوس والتّضييق عليه بشرط مراعاة التّعامل الإنسانى.

وقد مرَّ بنا فى قصة «حاطب بن أبى بلتعة»، عندما امتنعت «سارة» تلك الجاسوسة، عن الإعتراف وتسليم الكتاب الذى كتبه حاطب لأهل مكة، سلّ على عليه السلام سيفه وهدّدها بالقتل، فخافت «سارة» فأخرجت الكتاب من شعرها وسلمته للإمام عليه السلام. فهذا الإقرار كان مقروناً بالتّعذيب الرّوحى ومع ذلك حكم بصحته.

فمن الواضح أنّ مثل هذه الضّغوط فى مثل هذه الموارد، ليست أمراً مخالفاً للعقل ولا للشّرع لأنّ أهميّة المسألة تكون إلى درجة يجوز معها مثل هذا التّعذيب، ففى تلك الحادثة، لو أن خبر عزم الرّسول صلى الله عليه و آله على فتح مكة، كان قد وصل إلى أسماع قريش، لأريقت دماء كثيرة فى ذلك البلد الآمن مع أنّ نتيجة الحرب كانت واحدة.

وفى قصة قضاء أمير المؤمنين عليه السلام نجد موارد كثيرة مارس الإمام عليه السلام فيها التّعذيب النفسى ضد المجرمين وخاصّة فى القضايا المهمّة التى كانوا يرفضون الإعتراف والإقرار فيها، فكان الإمام يمارس مثل ما مرَّ ذكره من الأساليب للحصول على إقرارهم، فمثلًا جاء فى قضيته: أنّ رجلين تداعيا عنده، وكان كل منهما يدعى أنّه السيّد وأنّ الآخر غلامه، فقال الإمام عليه السلام لقنبر: يا قنبر على بسيف رسول اللّه صلى الله عليه و آله لأجل أن أضرب رقبة العبد (بعد أن أدخل رأسيهما فى ثقبين أعدّهما خصّيصاً لهذا الأمر)، قال: فأخرج الغلام رأسه مبادراً، فقال علىّ عليه السلام للغلام: ألست تزعم أنّك لست بعبد، ومكث الآخر فى الثقب، قال: بلى إنّه ضربنى وتعدّى على «۱».

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، أبواب كيفية الحكم، باب ۲۱، ح ۴، ص ۲۰۸.

فلا شك فى أنّ هذا التهديد كان مؤذياً للغلام الواقعى ولكن هذا المقدار جائز للكشف عن واقع حقٍّ مهم ففى موارد التجسس يكون الأمر كذلك، بل هو أعلى وأولى.

وبتعبير آخر، فإنّ قانون «الأهم والمهم» و «تزاحم الواجبات والمحرمات» يُجيز مثل هذا التعذيب فى مثل هذه الموارد.

ولكن، ينبغى أن لا يُستغل هذا القانون بهذه الذّريعة ويُعذَّب المتهمّون تعذيباً شديداً لا يطاق أو يطبق هذا القانون والإستثناء لأدنى سوءِ ظنٍ بالأشخاص.

وينبغى أن لا ننسى أنّ هذا مجرد استثناء، ولا يجوز الاستفادة من مثل هذه الأساليب إلّا فى موارد الضّرورة مع رعاية الحقوق الإنسانيّة كمّاً وكيفاً.

ومن هنا تتضح لنا مسألة أخرى وهى أنّ بعض المأمورين لجمع المعلومات والأسرار يضطرون- ولكسب الأخبار الحسّاسة والمصيرية- أن يتزيّوا بزى الأعداء ويتقمصوا شخصيات أفراد العدو فى الملبس والمأكل كى يتمكنوا من اختراق العدو، وفى مثل هذه الحالات قد يضطرون إلى ارتكاب بعض الذّنوب كأكل الحرام أو الحديث ضدّ الإسلام والمقدّسات الإسلاميّة لتحقيق أغراضهم، فالحكم هنا مشمول لقاعدة «تزاحم الواجب والحرام» و «الأهم والمهم»، فمتى ما كان الهدف أعلى وأهم من الذّنب، كان ارتكاب ذلك الذّنب جائزاً، لتحقيق الهدف.

سؤال: هل الغاية تبرر الوسيلة؟

قد يقال، إنّ ما ذكرنا من استثناءات أليس تعبيراً آخر عن ما هو معروف عند بعض زعماء المدارس الإلحادية المادية من أنّ: «الغايات تبرر الوسائل»؟

و الجواب:

وفى الإجابة عن هذا السّؤال، لابدّ من الإلتفات إلى نكتة واحدة وهى أن هؤلاء الذين يقولون بهذه المقالة لم يحددوا قيداً ولا شرطاً لها، أى إنّهم يقولون: للوصول إلى الأهداف

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۸

(بلا استثناء) يمكن التّوسل بأيّة وسيلة (بلا استثناء)، ولذا فإنّهم يوجهون الحروب المدمِّرة الدامية من أجل الحفاظ على مصالحهم الإقتصاديّة، فيذهب آلآف النّاس ضحيّة من أجل عدم تضرر مصالحهم بأقل ضرر.

أمّا أتباع الأديان السّماويّة، فهم ينكرون هذه العمومية فى الشّقين معاً، أى أنّه لا يكفى كل هدفٍ لتبرير وتجويز الوسيلة، كما أنّه ليست كل وسيلة مجازة وإن كان الهدف سامياً، فالحاكم هنا هو قانون «الأهم والمهم»، تلك الأهميّة المقررة عقلًا وشرعاً، لا كلّ أهميّة وإن كانت مصلحة شخصيّة، وهوى وهوَساً شيطانيّاً.

فقانون الأهم والمهم ليس أمراً يمكن إنكاره- فمثلًا يجوز ضرب وجه من استعمل الترياق ويريد النّوم- ذلك النّوم الذى يؤدّى بحياته- بعدة صفعات على خدّه ليفيق من نومه من أجل إنقاذه من الموت، وأكبر من ذلك يمكن أخذ الضّرائب المالية من النّاس من أجل إعداد القوة المناسبة لحفظهم من أخطار الأعداء وغزوهم، أو حبس كلّ أفراد المجتمع فى منازلهم لعدة أيّام، لتلقيحهم بلقاح ينقذهم من وباءٍ خطير يهدد حياتهم جميعاً.

هذا ما يقوله أتباع مدرسة الأنبياء عليهم السلام، بينما نجد أنّ أتباع المدارس الماديّة الإلحادية لا يشترطون أى شرط لتطبيق قاعدتهم، فيجيزون كل وسيلة للوصول إلى أى هدف من أهدافهم.

وبهذا ينتهى الجزء العاشر من نفحات القرآن والذى تناول البحث حول الحكومة والولاية، وبهذا تنتهى الدورة الكاملة فى المعارف والعقائد الإسلاميّة من وجهة نظر القرآن الكريم وعلى أساس التّفسير الموضوعى فى عشرة أجزاء. نشكر اللّه ونحمده على هذا التّوفيق الذى شملنا لأداء هذا الأمر المهم.

إلهنا: تقبل منا جميعاً هذا المجهود المتواضع واجعله ذخراً لنا فى يوم الجزاء، ووفق كلّ من يود الإطلاع على المعارف والعقائد الإسلاميّة من وجهة نظر القرآن الكريم، للإطّلاع عليه.

تمّ فى آخر شهر صفر يوم ذكرى استشهاد

الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام

سنة ۱۴۱۶ ه ق

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه

المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹